

المركز القومى للترجمة

مكتبة الإسكندرية

فك طلاسم اللغز

تأليف: بابلو دى جيفنوا

ترجمة: على إبراهيم منوفى

2254

من المعروف للجميع أن تاريخ مكتبة الإسكندرية الكبرى قد وصل إلينا في هذا الزمان وكله حيوية تبعث على الفخار، ويعتبر مثالاً للألمعية الثقافية التى لا تجد لها مثيلاً فى العالم القديم؛ كان إشعاعها عظيماً، غير أن زوالها المفاجئ والكامل من الوجود حوّل كل ما يتعلق بها إلى دائرة الأسطورة، التي تدعمت أركانها بما فيها من ألغاز تتعلق بدرامية الحدث ومصيرها المجهول، وكذا ما يتعلق بالمكتبة الفرعية لها "راقودس Rhokotes، وهنا نجد الكثير من الروايات الأسطورية الغامضة التي نسجت حول هاتين المكتبتين.

يحاول هذا الكتاب، الذي هو رحلة عبر الزمن، وهذا البحث وسط التابوهات الغامضة، رسم مشهد مختلف تماما حول النهاية المأساوية التي عاشها الحلم العظيم للبطالمة، أي منارة المعرفة التي أضاءت أزمان العالم القديم. ورغم أن الأسطورة المتعلقة بنهاية "مكتبة الإسكندرية الكبرى" نجدها في مراحل متتابعة، فإنها تقدم لنا الإجابة نفسها ... وهي أن الرواية التي تقول بأن العرب هم الذين أحرقوها، ليست إلا "أكذوبة تاريخية" فلم يحرق العرب هذه المكتبة الأسطورية للإسكندرية ولم يكن العرب هم الذين اخترعوا هذه الأسطورة!.

تصميم الغلاف: نسرين كشك

مكتبة الإسكندرية

فك طلاسم اللغز

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

- العدد: 2254
- مكتبة الإسكندرية: فك طلاسم اللغز
- بابلو دى جيفنوا
- على إبراهيم منوفى
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة كتاب:

BIBLIOTECA DE ALEJANDRÍA: El Enigma Desvelado

By: Pablo de Jevenois

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

مكتبة الإسكندرية

فك طلاسم اللغز

تأليف: بابلو دى جيفنوا

ترجمة: على إبراهيم منوفى



2014

جيفنوا، بابلودى.
مكتبة الإسكندرية: فك طلاسم اللغز/ تأليف:
بابلودى جيفنوا؛ ترجمة: على إبراهيم منوفى. -
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٣.
٤٢٤ص: ٢٤سم. - (المركز القومى للترجمة)
تدمك ٥ ٥٦١ ٧١٨ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - مكتبة الإسكندرية القديمة.
أ - منوفى، على إبراهيم (مترجم)
ج - العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٧٤٢/ ٢٠١٣
I. S. B. N 978 - 977 -718 - 561 - 5
ديوى ٠٢٧,٤٦٢١١

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

إسدال الستار

رفض المقولة المختلقة

إلى تيرنسي مويس ـ وداعًا

القنصل بابلو دي جيفنوا ـ
الإسكندرية: ١٨ / ١٢ / ٢٠٠٥
(يوم نثر رماد رفاته في ميناء الإسكندرية الكبير)

رمـاد

الرماد يطير على سطح مياه البحر
تاركًا أثرًا أبيض اللون
في المياه الغامضة للإسكندرية
ندفن أيدينا في هذه
المادة الجافة المصحوبة بالدهن،
في صندوق أسطواني
كانت إينيس تحتفظ به بحنان عذب.
وفي أمسية، في حيّ الأنفوشي، أمام
الفنار الأسطوري، روح تيرنسي
الذي تحول إلى رماد نجوم أبيض،
أخذ يهبط إلى قاع الميناء القديم
بحثًا عن الأعمدة المكسّرة وتماثيل «أبو الهول»

لهذه المدينة المتخيلة.

وذاب إلى الأبد

وهو يجد في قارب رع، في رحلة ليلية

تذهب به إلى الخلود،

وراء حلم ماضيه الذي يحلم به

نادى المؤذن لصلاة الظهر

وأفعم الهواء بآهات حزينة،

طارت فوقنا وكأنها تقول

مع السلامة أيها الأصدقاء، سوف أكون في انتظاركم دومًا،

هنا، في مصر، أسبح إلى الأبد

بين "اللون الأخضر العظيم" والنيل الأسطوري.

تابوه غامض

في ليلة من الليالي السحرية في القاهرة، في كافتيريا تطل على النيل، بمناسبة إحدى الاحتفاليات الرتيبة التي يعرف فيها الجميع بعضهم بشكل يزيد عن الحد، ظهرت شخصية لا تظهر إلا في مصر، ولو أن ذلك بين الحين والآخر؛ كانت الشخصية طبيبًا من إشبيلية من المهتمين بالطب البديل؛ منذ صغره كان مولعًا بالإله السكندري سرابيس لدرجة أنه سمى عيادته بهذا الاسم؛ لكنه لم يقنع بهذا. قص عليّ كيف أنه ذات يوم ترك كل شيء وباع عيادته ورحل برفقة زوجته إلى القاهرة مسحورًا بالإله سرابيس الذي يطارده منذ طفولته؛ وهناك ظل بالقرب من الإله المفضل عنده. في تلك الليلة، أخذ يتأمل النهر في صمت، ولفتنا جميعًا هذه الهالة الأبدية التي تبدو وكأنها تعشش في أحشاء تلك الأرض.

ظللنا على صلة ببعض وقد أصبح كلاً في شبكة الولع بهذه الأرض التي تربطنا ببلد النيل. وذات يوم أعطاني مقالاً موجزًا كان قد كتبه حول الدمار الذي حاق بالإسكندرية خلال القرن الرابع الميلادي وبالتحديد ما حدث لمعبد سرابيس "السرابيوم" إضافةً إلى ما تبقى من "مكتبة الإسكندرية الكبرى"، أي "المكتبة الملحقة به" وأعرب في مقاله عن عميق استيائه من هذه الرواية الكاذبة التي ما زالت تنسب دمار مكتبة الإسكندرية الكبرى للعرب.

هنا، بدأ كل شيء، فبعد سنوات، وفي حي العباسية، حي من الأحياء الشعبية بالقاهرة، عثرت في إحدى الحواري الخاوية على عروشها على بائع كتب قديمة.

يدخل المرء إلى مخزن الكتب عنده وهو يكاد يدوس على أكوام الكتب الملقاة على الأرض، والتي ما زالت مرصوصة فوق بعضها بعضًا وموزعة على ثلاث مجموعات، كما إن أرفف المكتبة ترزح وتئن تحت وطأة الكتب. أخذت كتابًا إصفرّت أوراقه ومن دون دفتين كنت على وشك وضع قدمي عليه. كان الكتاب يتناول موضوع الحفائر التي تمت في السرابيوم تحت إشراف الآثاري الشهير «د. جيوزيب بوتي Giuseppe Botti»، ويوضح من خلال صفحاته الدمار الكامل الذي تعرض له المعبد الوثني خلال القرن الرابع على يد المسيحيين، أي قبل قرون من وصول العرب إلى المكان. ومن هذا الكتاب العظيم وغير المعروف استقى الدكتور الإشبيلي مقاله؛ ومرة أخرى، بعد ذلك بوقت طويل، وجدت الكتاب نفسه في المكتبة القاهرية L. orientale. لكن النسخة التي وجدتها كانت جيدة الحفظ فلم يفتح صفحاتها أحد. والأمر الغريب هنا أن لا أحد في مصر أشار إلى الكتاب أو بدا أنه يريد قراءته.

اكتشفت عندئذٍ أن هناك تابوهًا غامضًا يخيم على كل ما يتعلق بتدمير مكتبة الإسكندرية في الزمن القديم، فكل شيء تغلفه البلبلة والصمت والروايات الكاذبة، ومُضمّخًا بتنف من الأصولية الدينية والمخاوف والأحكام الاجتماعية المسبقة؛ وإذا ما استثنينا عددًا قليلاً من الباحثين لا نجد أحدًا كان يتحدث عن الموضوع في مصر ولا في أوروبا، وكأن هناك رسالة خفية تقول بعدم كشف المستور.

خلال تلك الفترة كنت قد نشرت مقالاً بعنوان "امتداد العالم القديم واستمراريته في الفن والثقافة القبطيين" ضمن كتاب لي بعنوان "مصر، بين الشمس والهلال"، وصفت فيه نهاية حقبة البطالمة، والإسكندرية الإمبراطورية والبيزنطية والمواجهات التي وقعت بين الوثنيين واليهود والمسيحيين، ومطاردة المسحيين والوثنيين والصراع الدموي بين جماعات مسيحية وميلاد المسيحية القبطية في مصر الذي جاء بعد مشادات لاهوتية عنيفة. واكتشفت بذلك السياق العنيف الذي دام خلال القرون الخمسة الميلادية في الإسكندرية الرومانية، وهي

فترة سابقة بزمن طويل لحظة وصول العرب، أي عندما احترقت كل من مكتبة الإسكندرية الكبرى والمكتبة التابعة لها "الملحق" أو المكتبة الصغرى. أدى هذا اليقين إلى أن أرى أن التابوه عبارة عن قناع لخدعة كبرى.

بعد ذلك نشرت في مدريد أول مقال لي حول هذا الموضوع الشيق، بعنوان "تدمير مكتبة الإسكندرية الكبرى على يد العرب: الأسطورة المستحيلة" وهو مقال يدحض النظرية الشائعة. ولم يلق هذا النشر إلا صدى الصمت والنفي والنقد. هنا اكتشفت أن هذا التابوه الغامض ـ مثل الفيروس ـ كان قد وصل أيضًا إلى العقول الغربية؛ فقد كانت هناك رغبة عامة في تجاوز هذه الحادثة الكارثية، وترك الأشياء على ما كانت عليه، وتكرر بلا هوادة ذلك الاتهام للعرب حتى القرن الحادي والعشرين. إذن نجد أن تلك الحادثة القديمة مازالت حتى الآن تثير بقوة بعض الحساسيات، وبذلك كان من الضروري غمط الحقيقة إلى الأبد.

بدا التابوه الغامض تحديًا واضحًا نظرًا لهذا الكم من العناصر غير المتسقة، إذ يكمن هنا السر الحقيقي، فكيف أمكن لحادثة وقعت منذ ألفي عام أن تظل ـ مهما كانت درجة قوتها ـ ذات تأثير قوي بما يجعل مجتمعات مثقفة ومتطورة، مثل المجتمع الغربي، الذي يفترض أنه مجتمع محايد وعلماني في مجال البحث العلمي، يواصل خطابه حول هذه المسألة الذي يتسم بالالتواء واللاحيادية؟ كان من الصعب الولوج إلى أعماق وتفاصيل هذه القصة وكأننا ندلف إلى أعماق روح مجتمعاتنا الحديثة. ويدخل في إطار هذه الصعوبات تلك الشخصيات البارزة التي يمكن أن تتمسك بأفكار لاعقلانية وخاطئة وأن تقدم للجمهور صورة مشوهة عنها، من خلال تزييف أصول ثقافتها هي.

عندما قمت بدراسة المصادر والعناصر التاريخية اكتشفت أن ذلك التابوه الغامض يخفي وراءه خيطًا معقدًا لأريادنا Ariadna. إنها لغة خيط ذات ألف بداية، كانت كأنها دهليز مجهول حيث تبدو الدسائس جزءًا أساسيًا من دراما، إنه حوار أوبرالي مفعم بالدسائس والأسرار؛ هناك أكاذيب لا تُحصى وعقبات وصمت

مُطبق، كل ذلك كان يعكس صورًا، غير جيدة التصوير وغير واضحة، لماضٍ مثير للقلق.

ألقيت محاضرة حول الموضوع في South African Egyptian Society وفي مراكز أخرى في مدينة رأس الرجاء الصالح، حيث كنت أعيش، وتسببت محاضرتي في إثارة استغراب بعض العقليات الإنجيلية والتابعة لمذهب كلفينوس. وبدا أنهم لا يعجبهم أن نزيح الستار عن الأحداث التاريخية الحقيقية.

بعد ذلك طلبت إلقاء محاضرة في مكتبة الإسكندرية التي افتتحت حديثًا، فواجهت بعض التمنّع الأكاديمي في مصر، لأنني أعلنت على الملأ استغرابي لموقف المؤرخين العرب إزاء هذه الأسطورة الكاذبة، وبدا أنهم استسلموا للموقف، لدرجة أن البعض منهم قبل بأن العرب هم الذين بثوا هذا. وفي نهاية المطاف سعدت لقبول إلقائي المحاضرة، ففي الخامس من يوليو لعام ٢٠٠٥م تم ذلك تحت مظلة معهد ثريانتس بالقاهرة وتمكنت من إلقاء محاضرتي في قاعة المحاضرات Auditorium في مكتبة الإسكندرية، التي تهب عليها نسمات الميناء ونسمات الصيف؛ كان عنوان المحاضرة "أكذوبة تدمير مكتبة الإسكندرية على يد العرب: تزييف التاريخ".

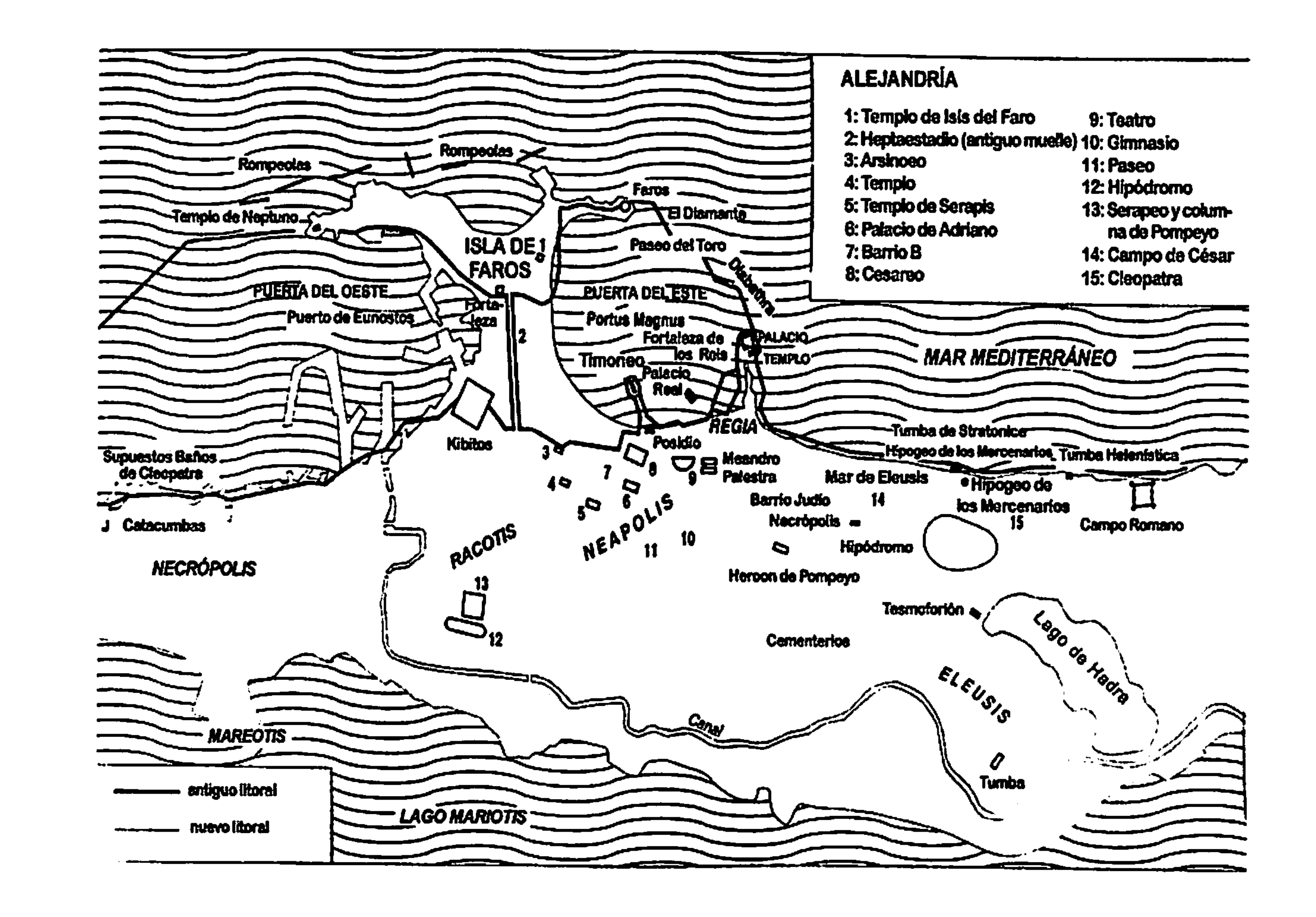
أكد من قدّم للمحاضرة السفير/ خليفة، الرجل الرقيق، والفقيد، أن محتوى هذه المحاضرة هو أفضل ما سمعه منذ أن بدأ العمل في مكتبة الإسكندرية. وطبقًا لتعليقه كانت محاضرتي قد أتت في الوقت المناسب لأن الجهات المصرية قد تلقت منذ أيام قليلة مذكرة رسمية من سلطات بلد أوروبي، فرنسا، تشكو فيها من أن المرشدين المصريين في مكتبة الإسكندرية الجديدة لا يشيرون في شروحهم إلى أن "المكتبة الكبرى" التي أسسها البطالمة قد أحرقها العرب!.

كانت ساعات مليئة بالتوتر أمام جمهور منصت بدا أنه مهتم للغاية بمعرفة المزيد حول موضوع له تأثير عليهم كسكندريين؛ ومع هذا فإن تحطيم الأسطورة يعني تحرير الإسكندرية من القيد الذي عانت منه طوال قرون كثيرة، وهذا القيد

هو القول بأن العرب هم الذين ارتكبوا أبشع عمل في تاريخ الثقافة ودافعهم في هذا هو التعصب الديني.

يحاول هذا الكتاب، الذي هو رحلة عبر الزمن، وهذا البحث وسط التابوهات الغامضة، رسم مشهد مختلف تمامًا حول النهاية المأساوية التي عاشها الحلم العظيم للبطالمة، أي منارة المعرفة التي أضاءت أزمان العالم القديم. ورغم أن الأسطورة المتعلقة بنهاية "مكتبة الإسكندرية الكبرى" نجدها في مراحل متتابعة، فإنها تقدم لنا الإجابة نفسها... وهي أن الرواية التي تقول بأن العرب هم الذين أحرقوها، ليست إلا "أكذوبة تاريخية" فلم يحرق العرب هذه المكتبة الأسطورية للإسكندرية ولم يكن العرب هم الذين اخترعوا هذه الأسطورة!.

بابلو دي جيفنوا (مدريد ٢٥/ ٣ / ٢٠٠٩)


ALEJANDRÍA
1: Templo de Isis del Faro
2: Heptaestadio (antiguo muelle)
3: Arsinoeo
4: Templo
5: Templo de Serapis
6: Palacio de Adriano
7: Barrio B
8: Cesareo
9: Teatro
10: Gimnasio
11: Paseo
12: Hipódromo
13: Serapeo y columna de Pompeyo
14: Campo de César
15: Cleopatra
Rompeolas
Rompeolas
Templo de Neptuno
Faros
El Diamante
ISLA DE FAROS
Paseo del Toro
PUERTA DEL OESTE
Puerto de Eunostos
Fortaleza
PUERTA DEL ESTE
Portus Magnus
Fortaleza de los Reis
PALACIO
TEMPLO
Timoneo
Palacio Real
MAR MEDITERRÁNEO
REGIA
Kibitos
Posidio
Tumba de Stratonice
Hipogeo de los Mercenarios
Tumba Helenística
Supuestos Baños de Cleopatra
Meandro
Palestra
Mar de Eleusis
Hipogeo de los Mercenarios
Barrio Judío
Necrópolis
Catacumbas
Hipódromo
Campo Romano
NECRÓPOLIS
RACOTIS
NEAPOLIS
Heroon de Pompeyo
Tesmoforión
Lago de Hadra
Cementerios
ELEUSIS
Canal
MAREOTIS
Tumba
antiguo litoral
nuevo litoral
LAGO MARIOTIS

مقدمة

من المعروف للجميع أن تاريخ مكتبة الإسكندرية الكبرى قد وصل إلينا في هذا الزمان وكله حيوية تبعث على الفخار، ويعتبر مثالاً للألمعية الثقافية التي لا تجد لها مثيلاً في العالم القديم؛ كان إشعاعها عظيمًا، غير أن زوالها المفاجئ والكامل من الوجود حوّل كل ما يتعلق بها إلى دائرة الأسطورة، التي تدعمت أركانها بما هناك من ألغاز تتعلق بدرامية الحدث ومصيرها المجهول، وكذا ما يتعلق بالمكتبة الفرعية لها "راقودس Rhokotes"، وهنا نجد الكثير من الروايات الأسطورية الغامضة التي نسجت حول هاتين المكتبتين.

من المعروف أن مكتبة الإسكندرية الكبرى هُدمت أثناء ما يسمى بالحروب السكندرية، والسبب في ذلك مناورة حربية مؤسفة قام بها يوليوس قيصر، في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. وأدى فقدانها إلى فتح الباب أمام الكثير من التكهنات والموضوعات التي أصبحت تابوهًا لفّ وقائع تلك الكارثة بالغموض. ومن جهة أخرى، نجد أن الجزء الأخير من هذه المكتبة، ونقصد به المكتبة الصغرى، قد زالت مع السرابيوم خلال القرن الرابع الميلادي، وكان ذلك تحت التسلط الهدّام الذي قام به الأسقف "تيوفيلو Teofilo" والرهبان التابعين له. وأدى اختفاء المكتبة المذكورة إلى صمت مخيم قمعي يتعلق بهذه الواقعة الثانية، كما تداخلت خيوط الحادثتين الأمر الذي جعل الأسطورة أمرًا شديد الإلغاز.

عندما نتحدث عن العرب نجد أنهم قدموا إلى الإسكندرية في القرن السابع الميلادي، وبالتالي لم يظهروا على صفحات التاريخ مرتبطين بهدم المكتبة الكبرى أو

المكتبة الصغرى الملحقة؛ إذ حدث هذا قبل وصولهم بقرون؛ ومع هذا يسكن المخيلة العامة لنا اعتقاد بأن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية، وهذا محض اختراع أدبي ما زال يُنظر إليه على أنه تاريخ رغم وجود البراهين الدامغة التي تدحض هذه التهمة.

نجد إذن أن من بين الأساطير المتعلقة بهدم مكتبة الإسكندرية الكبرى، من تلك التي ظلت قائمة حتى أيامنا هذه، تلك التي تشير إلى أن عمرو بن العاص، قائد الجيش العربي، هو المسئول عن حريق كتب المكتبة الكبرى وهدمها بناءً على تعليمات صدرت له من الخليفة عمر بن الخطاب، عندما قام العرب بغزو الإسكندرية. وهنا نقول إن مثل هذه الرؤية ما هي إلا اختراع واختلاق متأخر، أي "زيف تاريخ" قام بنسجه أسقف مسيحي مشرقي يُدعى "أبو الفرجيوس Abulforagius" (أبو الفرج) خلال القرن الثالث عشر الميلادي، أي بعد ستمائة عام على غزو العرب لمصر، وانتشرت هذه الرواية في أوروبا خلال القرن السابع عشر الميلادي على يد الكاهن والمستشرق الإنجيلي "بوكوك Pococke"، وهذه رواية لا معقولة وبعيدة كل البعد عن الموروث التاريخي وعن مبادئ البحث العلمي الحديث.

تفصح الدراسة الفاحصة والمتأنية لهذه الرواية الزائفة عن شبكة معقدة مفعمة بالصمت والاتهامات المغرضة والتابوهات التي ما زالت قائمة حتى الآن، حيث نرى عدة أطراف تنحى باللائمة، على مدار التاريخ، على هدم مكتبة الإسكندرية الكبرى، وأخذت هذه الاتهامات تتبلور وتخص بالذكر العرب ومسئوليتهم عن هذه الكارثة الثقافية والإنسانية، في الوقت الذي نجد فيه البراهين التاريخية واضحة لدحض ذلك وهي أن العرب قد دخلوا الإسكندرية بعد قرون من تلك الأحداث.

هناك أبطال أربعة في هذه القصة المتعلقة بمكتبة الإسكندرية: اللغز الذي تم حله: هو أن يوليوس قيصر هو الذي هدم المكتبة الأولى، أما تيوفيلو فهدم الثانية، ثم جاء أبو الفرج واتهم العرب ونسج أكذوبة متأخرة في هذا السياق، ويأتي بوكوك

Pococke لينشر هذه الأكذوبة. هؤلاء الأربعة هم شركاء في هذه التابوهات والأكاذيب التي استمرت على مدار ألف وسبعمائة عام، وهي الفترة الممتدة من يوليوس قيصر حتى بوكوك. العرب غائبون عن هذه المسرحية، لكنهم يظهرون في هذه الأسطورة مذنبين، وهذا يخالف كافة التوقعات. فكيف ذلك؟

وحتى نتمكن من إيضاح الموقف علينا أن نسير في طريق مليء بالصعاب والتعرجات، للبرهنة على ما نقول من خلال كتابنا الذي قسّمناه إلى بابين مكونين من خمسة فصول إضافةً إلى النهاية.

الباب الأول

من أحرق المكتبة؟

الفصل الأول

مصير مكتبة الإسكندرية الكبرى

تأسيس المكتبة الكبرى وازدهارها:

نحن في الإسكندرية، في الركن الشرقي للميناء؛ نتأمل مياهه ونحن في مرتفع به أعمدة وعقود؛ نتأمل أيضًا شكله البيضاوي والزرقة القوية التي تكسو السماء والبحر في آن. الميناء ساكن، بلا حراك، يبدو وكأنه بحيرة، أو مستنقع ضخم يحيط به الكورنيش(١)؛ ويبلغ قوس الميناء خمسة كيلو مترات وتحفه جزيرة "فاروس Farus" إضافةً إلى شريط ضيق من حاجز صخري للأمواج؛ ومن وراء ذلك هناك البحر الهائج بعض الشيء، ومراكب الصيادين تتأرجح دون توقف. الهواء مائل للحرارة، دافئ يحمل عبق الشرق، والنسمات محملة بالأملاح تداعب الوجوه. في المساء، في الواجهة احمرّ قرص الشمس، يطل بشكل نصفي من خلف بنية جزيرة فاروس المعتمة، أما السطح المتموج فهو صامت بين الزرقة واللون الذهبي. هنا، على شاطئ الميناء الكبير، وإلى جوار المياه الرقراقة حيث نجد البلاجات الداخلية ومراسي المراكب، كانت ترتفع مباني الملوك البطالمة ذات يوم، ومعها المتحف والمكتبة الكبرى، وفي حدائقها يتنزه كبار العلماء في ذلك الزمان.

لنواصل على إيقاع أحلام الإسكندر الأكبر، المؤسس المُبَجّل للإسكندرية، لنجد أن من خلفه، وهو البطلمي الأول سوتير(٢)، الذي قام، بمساعدة كل من ديمتريو دي

---

(١) الكورنيش: يبلغ طوله في الإسكندرية عشرين كيلو مترًا، ابتداءً من الميناء.

(٢) بطليموس الأول، سوتير (٣٠٥-٢٨٢ ق.م.).

فاليرو، وإيو دوكسيو دي كنيدو وأرسطو ذاته، بتأسيس كل من عاصمته الجديدة في مصر ومكتبتها ـ مكتبة الإسكندرية ومدينة الإسكندرية ـ وقد أطلق أيضًا على المكتبة مسمى "المكتبة الملكية" أو "المكتبة الكبرى" Megale Bibliotheke، وكذلك المتحف؛ كان ذلك عام ٢٩٥ ق.م. وطبقًا لرواية قسّ كنيسة سان إيرينو في مؤلفه "ضد الهراطقة"[٣] نجده يؤكد أن "الملك كان يطمح لإثراء مكتبة الإسكندرية بالمؤلفات التي ترد من كافة الأمم وبخاصة تلك الكتب المهمة".

هذا هو المقاس العبقري لرؤية كونية، كان يطلق عليها بيتوربيو، بإعجاب، في مؤلفه "حول العمارة"[٤]، الذي كتبه عام ٢٥ ق.م.."ذاكرة الإنسانية"، وهي التي حافظ عليها الملوك المقدونيون كما أنها تضم علوم الأقدمين من الأجيال السابقة من كافة البلاد والأزمنة، وبالتالي جعلت من الإسكندرية أبرز مركز للثقافة الهلنستية. يقول بيتوربيو في مقدمة هذا المؤلف "بدلاً من خنق الأشياء تحت ضغط صمت مسيطر، استطاع العلماء أن يعملوا من أجل المستقبل وسجلوا كافة الأفكار..."؛ فقبل هذه المكتبة لم تكن هناك مكتبات بمعنى الكلمة. إذن كانت مكتبة الإسكندرية الكبرى، مركز الإبداع الخلاب، والأصل لكافة المكتبات.

كانت "المكتبة الكبرى" جوهرة العاصمة المصرية الأروع، التي خلّت المدينة إلى الأبد وأصبح ما يسمى Mansion de las Musas "مُقام الإلهام" "المتحف" ملحقًا بها. كان يحيط بالمكتبة غابة صغيرة وأعمدة؛ أقيمت بالقرب من الأسوار، على الشاطئ الشرقي للميناء الكبير، في الحي الملكي أو ما يسمى "Basilea"، ويطلق عليه أيضًا Bruchion أي الحي الراقي، أو Regia، وهو حيّ به الكثير من الحدائق والتماثيل والقصور. وأمام المعبد المسمى Poseidon، أي المكان الأكثر هدوءًا وبُعدًا عن الضجيج.

---

(٣) القديس إيرينو (١٣٠-٢٠٨ ميلادي) Adversus Hacereses III ص ٢١، ٢. هناك نقاش يدور حول ما إذا كانت المكتبة الكبرى قد تأسست في عصر بطليموس الأول أو الثاني، ومع هذا فإن علاقة ديمتريو ببطليموس الأولى ترجع كفة الميزان لصالح هذا الأخير.

(٤) بيتوربيو "حول العمارة"، ٧، المقدمة ٦، ٨.

كان "تيتو ليبيو Tito Livio" يعتبر مبنى المكتبة "أجمل الآثار قاطبة"، وهذا ما جاء في كتاب "تاريخ روما"[٥] حيث يتضمن العديد من الصالات المليئة بالأرفف لحفظ الكتب، إضافةً إلى غرف أخرى مخصصة حصريًا لعدد كبير من الذين كان يطلق عليهم antiquarii، أو الكتبة الذين كانوا يمارسون أعمالهم في هدوء ويؤجرون على ما يقومون به بالسطر. كان هناك عدد كبير من الأفراد في خدمة "المكتبة الكبرى"؛ كما أشار الجغرافي "إسباركو دي رودس A. de Rodas"، الذي أورد استرابون ذكره[٦]، إلى مساحاتها الضخمة، لأول مرة، وإلى الأعداد الهائلة من الكتب.

نجد أيضًا أن "فانياس"، عالم القواعد اليوناني، الذي عاش خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد في اليونان Magna Grecia، يشير إلى "المكتبة الكبرى" في أحد كتبه[٧] في معرض حديثه عن الكاتب أسكونداس الذي ترك أدوات الكتابة وأخذ يعمل في وظيفة جابي الضرائب: "ترك أسكونداس... أدوات الكتابة في بيت الإبداع وهي الموسي والإسفنجة التي كان يؤجرها عادةً ليقوم بتنظيف ريشاته، والمسطرة التي كان يحدد بها الهوامش والأداة التي كان يضعها على الورق ليحدد المكان والمحبرة التي على شكل قرن والفرجار الذي كان يستخدمه في رسم الدوائر والحجر الخفيف Pomez المخصص للتنعيم، وقطع الزجاج المكبرة ذات اللون الأخضر، المائلة للزرقة والتي كانت تضفي ضوءًا ملائمًا".

كان مدخل المكتبة الكبرى من الشرق بغية أن يكسو ضوء الصباح كل ما فيها من صالاتها ذات العماد وصالاتها المفتوحة وحدائقها وتماثيلها المنحوتة من الرخام الأبيض الذي يشع وميضًا، فكانت أفضل مكان للقراءة، في زمن كانت الإضاءة فيه هي الشموع ولمبات الزيت؛ ولا شك أنها كانت مكانًا خاصًا حيث يمكن للروح أن

---

(٥) تيتو ليبيو .ab urbe condita CXII

(٦) إسترابون "جغرافيا"، المجلد الثاني، ١، ٥.

(٧) فانياس Epigramas (المختارات الملكية، الجزء السادس، ص ٢٩٥).

تطفو، وللعقل أن يتوغل في أسرار الكون؛ وفي آن نرى أولئك العلماء في "المتحف" جالسين على مقاعد حجرية تحت البوائك وورق البردي مفرود وموضوع على الفخذين، يشعرون بنسمات البحر الهائج المنعشة ويراقبون، عن بعد، فنار الإسكندرية السامق.

عاش هذان المكانان، المكتبة الكبرى والمتحف، عصرهما الذهبي أثناء عصر الملوك البطالمة من الأول وحتى الثالث، فقد كان لهؤلاء الثلاثة ولع بالكتب وفضول شديد بما يدور في العالم الخارجي؛ ورغم أن هيرودس Herodas، خلال منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، قد أشار فقط إلى المتحف في وصفه الموجز لما في الإسكندرية من متع وأعاجيب، فقد كان كلا المبنيان مستقلين كل منهما عن الآخر رغم تكاملهما، وربما كان أحدهما إلى جوار الآخر. كان هناك أحد كهنة الإلهات Las Musas ومعه مدير أو عميد لرئاسة المتحف حيث كان العلماء يعيشون ويبحثون، ويتناولون الطعام سويًا ويجلسون في مجلسهم exedras للراحة، وفي الصالات للحوار والبحث؛ هذا كله طبقًا لما يقصه علينا أتنيو Ateneo.

كان للمكتبة رئيس، هو أحد العلماء؛ وقد ورد في بردية "كرون[٨] Kron" ذكر أعضاء في المكتبة. كانت مهمة المكتبة، أي المكتبة الرئيسية، تتركز في الأساس لتحوي الكتب الأصول الخاصة بالثقافة اليونانية، والعمل على دراستها لغويًا وترجمتها وطباعتها وبيعها، لكن بطليموس الأول أرسل إلى المصري مانيتون، إلكاتيو دي أبديرا وعدد آخر من العلماء للحصول على مئات من البرديات من كافة المعابد المصرية، حسب رواية ديودور الصقلي[٩]. الأمر الذي يعكس الرغبة في المعرفة بلا حدود وهي الهدف الذي كان يكمن وراء إنشاء كل من المتحف والمكتبة الكبرى.

كانت كافة المخطوطات اليونانية وتلك الأخرى القادمة من الكثير من البلدان تصل دائمًا إلى أرفف المكتبة الخشبية الممتدة، وإلى الدواليب المنحوتة في

(٨) بردية "P. Kron, 4".

(٩) ديودور الصقلي "المكتبة التاريخية" الجزء الأول: ٦٤. ٨، ٧٨. ١-٥، ٤.

الحوائط، حيث تتراص آلاف من لفائف البردي، أو "المجلدات"، المكتوبة بالحبر ذي اللون الأصفر المذاب في المُرّ، أو بالفحم والصمغ العربي. كان يتم الحصول على المخطوطات في أثينا أو رودس أو سوريا أو في بلاد بعيدة، ثم تنقل في السفن التجارية حيث يجري بعد ذلك جمعها وتصنيفها على يد الموظفين، أو ما يسمون "hyperetae" ثم يتولى دراستها أفضل علماء زمانهم.

الشيء المثير للدهشة هو أنه مع إنشاء المكتبة الكبرى صاحبتها الرقابة السياسية للبطالمة والتدخل في النصوص، وهنا يقصّ علينا خ.خ. ويانيو الونسو "... أن أعضاء المتحف كانوا يتدخلون في النصوص الأدبية بغية إرضاء مطالب ملكية... أي مواءمة النصوص للموقف السياسي الجديد لزمانهم، حيث يشغل الملك منصب الشخصية الرئيسية... وكانت مكتبة Lagidos عبارة عن "معمل طباعي"، لكن المصالح السياسية طالتها، وتحولت هي أيضًا إلى أداة فعالة لإدخال تغييرات على النصوص الأدبية... أي تحولت إلى "ماكينة دعاية"..."[١٠].

بعد ذلك، شهد زمن بطليموس الثاني فيلا دلفوس[١١] التطور الحاسم الذي طرأ على المتحف والمكتبة الكبرى، وتمثل ذلك في قدوم المزيد من العلماء وكثرة ما قام به العاهل من شراء المخطوطات، فخلال عهده ربما وصل عدد لفائف البردي التي تم إدراجها إلى مائتي ألف، وهذا ما يطلعنا عليه المؤلف اليهودي أريستيو[١٢] في رسالته "رسالة أريستيو إلى أخيه فيلوكراتس"، وقد ورد ذكر المكتبة لأول مرة بأن أشار إليها بأنها "جمع الكتب الملكية". وورد في رسالته أن مدير المكتبة وعد

(١٠) ريانير الونسو "شعراء وفلاسفة ونُحاة وأمناء مكتبات: أصول المكتبة القديمة في الإسكندرية وطبيعتها"، ٢٠٠٥.

(١١) بطليموس الثاني، فيلادلفوس (٢٨٥-٢٤٦ ق.م.).

(١٢) ارستيو (١٨٠-١٤٥ ق.م.) رسالة إلى فيلوكراتم، الجزء الثاني، ٩-١٢، وينسب الكتاب إلى الأدب اليهودي المشكوك في صحته، لأنه يفترض أن من كتبه هو Pseudo Aristeo خلال الفترة من ١٢٧-١١٨ ق.م. باليونانية وفي الإسكندرية. كما إنه اول نص يذكر أمر الترجمة التي قام بها خوسيفا "الآثار اليهودية القديمة" XII، ٢؛ وفيلون "حياة موسى" الجزء الخامس.

العاهل، أن لفائف البردي سوف يصل عددها في المكتبة إلى نصف مليون وحدة عما قريب، وسوف تتضمن كل ما يتعلق بالعلوم في العالم.

لكننا لا ندري فيما إذا كان هذا الوعد الذي قطعه مدير المكتبة على نفسه قد تحقق أم لا، غير أن الإشارة إليه قد تولد عنها الاعتقاد بأن مكتبة الإسكندرية الكبرى ربما ضمت بين جنباتها عددًا ضخمًا من المخطوطات. وهنا نجد أن بعض الباحثين المحدثين يشكون في ضخامة هذا العدد من لفائف البردي، غير أن الكثير من الكتاب الأقدمين أكدوا على ذلك بعد قرون. ولما كان أريستيو لم يكتب خلال القرن الثاني قبل الميلاد لخداعنا، بل كان هدفه جمع البيانات والطرائف التي حدثت على زمانه، وبالتالي فتلك الأرقام التي كانت تذكر ومكتبة الإسكندرية قائمة وتعمل، يمكن لمعاصريها أن يقبلوا بها، إذ كانوا يعرفون جيدًا مساحتها. أضف إلى ذلك أن "فلابيو خوسيفو F. Josefo" قد أكد رقم اللفائف المائتي ألف[١٣].

وتشير التقديرات إلى أن هذه اللفائف تعادل اليوم ما يتراوح بين ١٥ ألف إلى ٤٠ ألف كتاب، وهذا عدد مهم إذا ما أخذنا في الحسبان أننا أمام فترة بداية العصر الهلنستي، الذي أصّل، مع مرور القرون وانطلاقًا من الإسكندرية، لكل المعارف القائمة على الكلمة المكتوبة والأدب. وبذلك نجد أن هذه الكتب تضم الأدب القديم والكلاسيكي لليونان الذي أمكن جمعه حتى ذلك الزمان، ذلك أن المكتبة الكبرى كانت متخصصة، بشكل حصري، في العالم اليوناني حيث قام بجمع مخطوطات متعددة للأعمال نفسها.

كان للمكتبة فهرسها، وكان فهرسًا ضخمًا لكافة الكتب على زمن بطليموس الثاني، قام بإعداده الشاعر اليوناني، وأمين المكتبة، كاليماكو دي سيرني[١٤]؛ كان الفهرست يتكون من مائة وعشرين لفافة من ورق البردي، وكان مصنفًا حسب

(١٣) خوسيفا "الآثار اليهودية القديمة" الثاني عشر، ١٣، ١ـ ٤.

(١٤) كاليماكو (٣١٠-٢٤٠ ق.م.) Pinakes، وطبقًا لـ Suida فإن العنوان الكامل هو "قائمة بكل الذين برزوا في مختلف مجالات المعرفة وما كتبوه في ١٢٠ لفافة".

العلوم من بلاغة وقانون وملاحم وتراجيديا وكوميديا وشعر غنائي وتاريخ وطب ورياضيات وعلوم طبيعية وعلم الفلك... إلخ. وتؤكد المصادر أن بطليموس الثاني قام أيضًا بشراء مكتبة كل من أرسطو وتيوفاستو من الورثة؛ فقد ورد في نص شهير لعالم الفيلولوجيا البيزنطي "جوهانس J. Tzetzes"، عنوانه "حول الكوميديا"(١٥) أنه جرى فى أثناء حكم ذلك العاهل جمع أربعمائة ألف كتاب متعددة، أو ما يسمى Syminigeis وتسعون ألف كتاب بسيط أو ما يسمى "amigeis"، إضافة إلى ٤٢٨٠٠ كتاب في المخازن الخارجية وبذلك يصل عدد اللفائف إلى ٥٣٢٨٠٠، وبذلك تتأكد رواية أريستيو.

تكتسب الإشارة إلى مخازن خارجية أهمية خاصة، إذ تعني كما نرى أنه قد تم جمع عدد كبير من الكتب بسرعة، الأمر الذي أدى إلى حدوث مشكلة خطيرة في تخزينها واستخدامها؛ أي إن المكتبة ضاقت بالكتب وأصبحت توسعتها من الحاجات الملحة؛ غير أننا لا يجب بأي حال من الأحوال أن نخلط بين هذه المخازن وبين مكتبة السرابيوم، فهذه الأخيرة لم يكن قد تم إنشاؤها بعد في الإسكندرية، وبالتالي فهذه المخازن هي صدى لوجود كتب خارج مقر المكتبة.

وما سبق أن ذكرناه يمكن أن يفسر السبب الذي جعل "جورج سنسيلو G. Syncello"، المؤرخ والمدافع البيزنطي عن الديانة المسيحية، يشير في كتابه "نبذة تاريخية"(١٦)، إلى أن عام ٢٥٢ ق.م. هو عام تأسس المكتبة البطلمية، ولكننا نعرف أن هذا ليس صحيحًا ذلك أنها تأسست قبل ذلك التاريخ بأربعين عامًا؛ غير أن هذا التاريخ يمكن أن يتوافق مع ما قام به بطليموس الثاني من إنشاء ملحق للمكتبة الكبرى، أي "مخزن آخر للكتب" وهو مصطلح مرادف لمصطلح "مكتبة"

(١٥) Teztezere (١١١٠ - ١١٨٠م) "De Comaedia" o Comicorum Graecorum fragmenta تعليقات وردت في حواشي بلاوتو Scholia in Aritophanem وترجمته إلى اللاتينية على يد كاتب خلال القرن الخامس عشر الميلادي.

(١٦) سنسلو (توفى ٨١٠ ق.م.) - Ekloge Chronographias ص ٢١٧.

على زمن سنسلو، وبذلك يتوافق مع الإشارة إلى المخازن الخارجية التي أشار إليها Tzetzere، على زمن بطليموس الثاني.

ربما كانوا يضعون في تلك المخازن النصوص الخاصة بالثقافات الأخرى لأننا نعرف أن بطليموس الأول كان قد كلف بعض العلماء بإعادة جمع كافة لفائف البردي من المعابد المصرية. وفعل الشيء نفسه من خلفوه على منصب الحكم؛ وينسب إلى بطليموس الثاني ومن أتى بعده ما يسمى "بالرسالة" التي نوّه إليها أسقف إيبفانيو دي سلامينا[١٧] الذي كتب إلى "كافة ملوك وحكام العالم" يطلب منهم ألا يترددوا في أن يرسلوا إليه أعمال كافة الكتاب بما في ذلك إبداعات "الشعراء والناثرين والبلاغيين والمتصوفة والدكاترة والعرّافين والمؤرخين والجميع كافة". وعلى هذا يتأكد لنا ما سبق ذكره، حيث نجد أن Plinio[١٨] يروي لنا أن المكتبة الملكية كانت تضم نسخة من أعمال Zoroastro، كما أن الأسقف سان خوان كريسستمو[١٩] قال لسكان أنطاكية إن بطليموس الأول وضع في المكتبة الكبرى كافة نسخ "العهد القديم".

مدينة المكتبتين الملكيتين:

حدت الأسباب السابقة ببطليموس الثالث إيفرجتس[٢٠] إلى تأسس المكتبة الملكية الثانية المسماة "المكتبة الابنة لراكودس، وكان ذلك خلال النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد فيما عرف في البداية باسم Serapion ثم بعد ذلك بالسرابيوم، أي معبد سرابيس على مرتفع راقودس[٢١]؛ وكانت هذه المكتبة واحدة

(١٧) Epifanio "حول المقاييس والموازين" - ص ٢٥٦.

(١٨) Plinio "التاريخ الطبيعي" ٣٠، ٢، ٤.

(١٩) كريسستومو "العظة الأولى ضد اليهود" ٦، ١.

(٢٠) بطليموس الثالث Evergetes (٢٤٦ - ٢٢٢ ق.م).

(٢١) هي المنطقة الأكثر ارتفاعًا في الإسكندرية، وهي اليوم الحي السكندري المسمى كرموز.

من المعالم البارزة في المدينة كما أنها الاستمرار الطبيعي الذي لا ينفصل عن المكتبة الأولى.

وانتهز الملك السكندري هذه التوسعة للسرابيون بأن ضم جناحًا كاملاً من الصحن المربع الكبير المحاط بالبوائك، وكان هذا الجناح يقسم المعبد، وجعله مكتبة جديدة. كان الموقع رائعًا حيث يطل المكان على كلا الميناءين والبحر والمدينة. تخصصت المكتبة الصغرى في أن تودع بها نسخة من كافة الأصول اليونانية؛ وكذلك الآلاف من لفائف البردي والأوراق والألواح التي تتضمن كافة أسرار الحضارة المصرية وحضارة ما وراء النهرين وبلاد فارس والهند أو إثيوبيا إضافةً إلى المعارف الفينيقية والعربية والعبرية؛ ومن هذا المنطلق أصبحت المكتبة عالمية. وإلى جوار هذه المكتبة الثانية نشأ حي الكتب السكندري البطلمي وكان يضم المتخصصين في العاديات والخطاطين والعطارين[٢٢] بمكتباتهم المتخصصة ووكلائهم وطبعاتهم الفاخرة.

دفع الشغف بالكتب ببطليموس الثالث إلى الذهاب بعيدًا بأن صادر كتبا لصالح مكتبته[٢٣]، وبالفعل نجد أنه أثناء حكمه كان يدخل إلى المكتبة تلك الكتب التي يتم العثور عليها في السفن أو "كتب السفن"، وهذه هي التسمية التي كان يطلقها الطبيب ث. جالينو[٢٤] ـ الرجل الذي عاش في الإسكندرية ودرس فيها-، وهذه عبارة عن أصول كانت تصل إلى الإسكندرية على متن سفن أو ضمن أمتعة رحالة وعلماء، حيث كانوا يُجبرون على تركها فيما يسمى "apothekae" أو مخازن المكتبة الكبرى، مقابل مبلغ من المال إضافةً إلى نسخة طبق الأصل منها. كما كان يدفع أثمانًا باهظة مقابل مخطوطات مهمة للكلاسيكيين اليونانيين، وأدى الشغف

---

(٢٢) Attarin هو حيّ العاديات في الإسكندرية.

(٢٣) بلوتارك "حياة الخطباء العشر" ٨٤١.

(٢٤) جالينو (٢٠٧-١٢٩ ق.م.) االأعمال الكاملة، السابع عشر، ١، تعليقات على "الأوبئة التي أثارها حربوقراط"، الثالث، PIV، ٢٢٩ ـ ٤٠، ٦٠٦، ٦٠٨، الرابع، ١١.

بالكتب بالبطالمة إلى أن استطاعوا خلال فترة زمنية قصيرة جمع كافة النصوص اليونانية وهي نصوص "كانت تتجاوز قدرة شخص واحد على قراءتها كلها" على حد قول سنيكا الشاب Joven[٢٥].

وابتداءً من ذلك العصر ضمت المدينة مكتبتين ملكيتين كبيرتين، أي معينًا مشتركًا للمعرفة، وثروة أدبية لا يمكن لأي مدينة أخرى أن تفاخر بمثلها؛ ومن الواضح أن أيًا من الكتاب الذين ينسبون إلى "العصر القديم المتأخر" لم يشر إلى هذا العمل الفذ، حتى جاء الكاتب المسيحي واللاتيني ترتوليانو Tertuliano وأورد في كتابه Apologetico (دفاعًا عن الديانة المسيحية) خلال بداية القرن الثالث الميلادي شيئًا عن وجود مكتبة ثانية قائلاً: "إن مكتبات البطالمة توجد اليوم في السرابيوم..."[٢٦] وانقضى بعد ذلك قرن من الزمان حتى جاء أميانو مارثيلينو، في نهاية القرن الرابع الميلادي وأشار إلى أنه في قديم الزمان كانت الإسكندرية تضم عدة مكتبات، وقال في كتابه "التاريخ الروماني" إنه "كانت توجد بالمدينة مكتبات ذوات قيمة لا تُقدّر بمال"[٢٧] مشيرا بذلك، بداهة، إلي المكتبتين الملكيتين.

نجد أيضًا إبيبفانيو دي لاسامينا، خلال الفترة الزمنية نفسها، يحدثنا في كتابه "عن المقاييس والموازين"[٢٨] عن تأسيس المكتبة الكبرى والكتب التي بها الواردة من كافة البلاد المعروفة، كما يحدثنا عن الإسكندرية وأن بها "مكتبة أولى ومكتبة أخرى صغرى جرى بناؤها في السرابيوم كانوا يطلقون عليها آنذاك ابنة المكتبة الأولى". ومن جانبه أيضًا يؤكد لنا البيزنطي Tzetzes في كتابه Prolegomena Aristophanou[٢٩] أن الإسكندرية كانت تضم مكتبتين، إحداهما

---

(٢٥) سنيكا الشاب "حول راحة النفس"، التاسع، ٥.

(٢٦) ترتوليانو (٢٢٢-١٦٠) Apologeticum، ١٣، ١٨، ٨.

(٢٧) أميانو مارثلينو Rerum Gestarum، الثاني والعشرون، ١١، ١٦، ١٧.

(٢٨) إبيفانيو (٤٠٢-٣١٥ ق.م.) Liber de mensuris et Ponderibus التاسع، ١٢؛ الثاني عشر، ١١.

(29) Prolegomena Aristophanou: Tzetzeses

في الحيّ الملكي والأخرى خارجه. هنا نجد أن الجميع يؤكد على الفرق بين المكتبتين السكندريتين، سواء من حيث الاسم أو الموقع. كما نجد أنهما لا تتوافقان من حيث التنظيم أو الأنشطة التي تشهدانها، وبالتالي فنحن أمام هيئتين متكاملتين لكنهما لا تختلطان أبدًا، فقد كانت المكتبة الكبرى هي مكتبة الحي الراقي Bruchion على الدوام.

يؤكد ج. ليروكس أن كل واحدة من المكتبتين كانت لها وظيفتها المختلفة عن الأخرى، فقد كانت المكتبة "السكندرية" مكتبة لحفظ الكتب في المقام الأول... حيث يتم فيها حفظ النسخ القديمة والنماذج الأصلية... حيث يقوم أمناء المكتبة بمهام الجمع والتصنيف..."، كما أن المكتبة تولت نسخ هذه النصوص واستكمال المجموعات الجديدة... ذلك أن المدارس كانت في حاجة إلى نَسْخ جديدة للطلاب..."[٣٠] وهذه مهمة يبدو أنها وقعت على عاتق المكتبة الخارجية، أي مكتبة السرابيوم، المخصصة للدارسين.

إحراق المكتبة الكبرى على يد يوليوس قيصر:

أخذت المكتبة الكبرى في التوسع وزيادة ثروتها الأدبية طوال القرون التي عاشتها، وهما قرنان ونصف من الزمان؛ وبالنسبة للمتحف فقد تعرض للتدهور خلال حكم "بطليموس السابع[٣١] Evergetes II Physcon" الذي قام بمطاردة المثقفين، وأدت تصرفاته إلى هجرات جماعية للعلماء والكُتّاب والعلميين في مختلف أنحاء البحر المتوسط هربًا من طغيانه[٣٢]، غير أنه لما كان الملك ذا كبرياء

(30) Leroux, "Damascius and the Collectio Philosophica", - "Damascio y la Collectrio What Happened to the Ancient Library!, Pg. 184, en El-Abbadi y otros, -Philosophica" of Alexandria?", "Que le ocurrio a la Antigua Biblioteca de Alejandria?, Brill, Leiden-Boston, 2008.

(31)Prolomco VII Evergetes II Plhyscon (145-116 a. C).

(32) Polibio, "HGistoria de Roma", OOOIV, 14, 6.

أدبي فقد ظلت المكتبة سليمة وكلها طوع أمره، غير أن حقيقة الأمر أيضًا تتمثل في أن هذه المكتبة التي تدهورت مؤقتًا باستثناء لحظات من التجلي لم تعد كما كانت في الأصل، وكان أونا ساندرو(٣٣) آخر مدير لها في ظل حكم بطليموس الثامن "سوتير الثاني"(٣٤).

وعلى أية حال فقد كان عدد الكتب السكندرية يتسم بالضخامة والتفرّد في العالم، حيث وصل العدد إلى ما قبل النهاية الدرامية للمكتبة إلى ما يتراوح بين أربعمائة ألف وسبعمائة ألف لفافة من لفائف البردي، الأمر الذي يساوي ما بين ثلاثين وخمسين ألف كتاب من الكتب الحديثة، وهذه كمية ضخمة بالنسبة لذلك العصر. زالت كل هذه الكتب إلى الأبد ذات صيف في منتصف القرن الأول قبل الميلاد عندما احترقت المكتبة الكبرى إثر حادث أثناء العمليات الحربية.

في ذلك الصيف، وفي اليوم السابق مباشرةً على المأساة، كانت الإسكندرية تطل على البحر بكامل بهائها وثقتها، تتلألأ صورتها في المياه الزرقاء للميناء الكبير، ففي مدخله نجد البرج الرخامي الضخم والمرتفع الذي أنشئ في جزيرة فاروس، وهي الفنارة، التي ترشد بضوء نارها المتقدة أعلاها الملاحين ليدرؤا مخاطر الطريق، حيث كان البحارة مُجبرون على العبور من خلال قناة بحرية بها مناطق ضحلة، تمر بالقرب من منطقة صخرية خطيرة "Diamante" استكنت في أعماقها الكثير من السفن. ولتحية السفن القادمة فقد كان اللسان الصخري الممتد في مياه البحر، أمام جزيرة فاروس، مزينًا بتماثيل على شكل "أبو الهول"، وهي تماثيل فرعونية وتماثيل ضخمة ترجع إلى السنوات الأولى للعصر البطلمي؛ أما على الجانب الآخر، وفوق لسان مصطنع أمام جزيرة فارس تبرز فوقه تماثيل للعلماء.

وعندما ندخل إلى الميناء نجد أن البحّارة كان بوسعهم أن يروا الشكل العام لهذه المدينة الرائعة، فهناك الفلل وسط الحدائق التي تمتلئ بشجر السنط الأحمر

---

(33) Onasandro (c. 88 a. C).

(34) Protomco VIII Soter II (116-107 y 88-80 a. C).

القرمزي والنخيل بتمره الذي يطل من خلال التدرجات الخفيفة التي نراها في الهضاب الخمس التي كانت تستقر عليها مباني الإسكندرية، المدينة ذات الشوارع الفسيحة والشوارع الضيقة التي تغص بالبشر. كانت المدينة تتلألأ بما فيها من رخام وألباستر يداعبها هواء رقراق تتخلله أحيانًا بعض الرمال الصفراء القادمة من الصحراء، وبمبعد عن الكتلة السكنية في المدينة المقامة على الهضاب هناك المسرح الكبير ومدرجاته المفتوحة، كالمروحة، على الميناء، وهناك الجمنازيوم الرائع، كما يطل "عمود سرابيس" برأسه، والذي كان دليل البحارة، الموجود في السرابيوم، فقد كان أول شيء يظهر من بعيد لهؤلاء الذين يقتربون من الإسكندرية.

إلى يمين الميناء الكبير كان هناك ما يُطلق عليه "Heptatasdion" وهو عبارة عن جسر يقوم على عقود تحملها أعمدة تربط بين جزيرة فاروس واليابسة، مع وجود جزء متحرك للوصول إلى ما يسمى بـ "Eunostos"، أي الميناء التجاري الغربي. وأمامهما تمتد شطآن داخلية كبيرة تشهد نشاط الصيادين ومراكبهم التي تعد بالمئات الراسية على الأرصفة، والجمارك وترسانات بناء السفن والمخازن، حيث تعج المنطقة بأعداد غفيرة من مختلف الفئات، غدوا ورواحًا. هناك أسوار سميكة تمتد لتحمي المدينة تمتد إلى جوارها المباني الإدارية؛ أما في وسط الميناء، وبالقرب من بعض الجزر، وعلى مرتفع من الأرض، نجد معبد "Poseidon" إله البحّارة، الذي يتجلى وسط المياه ويسيطر على المشهد المحيط.

إلى اليسار من الميناء يمكن أن نلاحظ الركن الشرقي للميناء وهو المنطقة الأكثر بُعدًا عن المدخل، كما أنها المنطقة الأكثر هدوءًا وجمالاً فقد كان المساء والغروب أمامها، من وراء جزيرة فاروس، كان ذلك المكان هو "Basibeia"، أي الحي الملكي الراقي، والقصور الداخلية وكأنه "المدينة التي لا يدخلها أحد"؛ كان الحيّ مُحاطًا باللون الأخضر حيث نجد القصور المنيفة تتخلل أشجاره وطرقه الواسعة ونوافيره، بمعدل قصر لكل عاهل، جرى بناؤها ببذخ معهود عند البطالمة؛ وكان أهم هذه القصور يمتد، وكأنه مركب من رخام أبيض، فوق جزيرة "لوتشياس Lochias".

إلى جوار القصر نجد الميناء الملكي الذي يمتد موازيًا للحي الملكي ترسو عليه عشرات من المراكب الفاخرة وتبرز في أنحاء متفرقة من السور مراقب كأنها أعمدة ملساء، وسرايات للمتعة وتماثيل رائعة ذات زخارف خلابة وستائر متعددة الألوان تتأرجح في الهواء. كان هناك مبنى جميل للغاية يتبدى بين الحدائق، غير بعيد عن الشاطئ وقريب من السور الداخلي الذي يفصل بين الحي الملكي وباقي المدينة؛ تحيط بهذه المباني أعمدة جميلة؛ إنها المكتبة الكبرى حيث تقطنها الآلاف من المخطوطات، إضافةً إلى مباني المتحف في مكان غير بعيد.

نجد إذن أن هذه المدينة العريقة التي استطاعت أن تحافظ على كل شيء فيها حتى ذلك التاريخ الذي نتحدث عنه، سوف تتعرض لعاديات مهلكة على يد زائر غير متوقع قام بتدميرها من الداخل؛ فطبقًا للروايات التاريخية الأكثر قبولاً عند المؤرخين حول الحريق المدمر الذي تعرضت له المكتبة الكبرى، والقائمة على روايات العديد من الكُتّاب اليونان والرومانيين، فإن حريق هذه المكتبة الأسطورية - ومعها جزء من المدينة - كان على يد يوليوس قيصر[٣٥].

بعد أن وصل قيصر إلى المدينة المصرية مدعوًا، وجد نفسه ضالعًا على الفور في صراعات الأخوة من أفراد العائلة الملكية؛ حاول مساعدة كليوباترا السابعة، فيلوباتر[٣٦] في صراعها مع أخيها وزوجها بطليموس الثالث عشر[٣٧]، وهنا بدأت "أول الحروب السكندرية" التي تفجرت مع نهاية شهر أغسطس عام ٤٨ ق.م (طبقًا للتقويم الجريجوري). وجد يوليوس قيصر نفسه ومعه قواته المرابطة في مركز المدينة، محاصرًا وفي عدد قليل من الأفراد، فأعطى مجموعة من الأوامر الحربية أدت إلى الحريق الذي شب في الأسطول المصري، وامتدت النيران في كافة أنحاء الحي الملكي الذي اشتعلت فيه النيران بالكامل، واحترقت المكتبة الكبرى في هذه الحادثة وبسبب تلك الحرب.

---

(35) Julio Cesar (100-44 a. C).

(36) Clcoparra VII Phiulopator (51-30 a. C).

(37) Ptolomco XIII)(51-47 a. C).

كان قيصر يتصرف في خِضَمّ هذه الأحداث السابقة على حريق المقر الملكي والمكتبة الكبرى على أساس أن ما يقوم به هو عمليات حربية وأكد بوضوح من خلال "تعليقاته حول الحروب الأهلية" بأنه عندما شعر بوطأة الحصار في الحي الملكي المفروض عليه من قِبَل الجنود المصريين التابعين للملك البطلمي تحت قيادة القائد "أرشياس Archillas" اتخذ قرار المبادأة: "وهو إحراق كافة المراكب الراسية في الميناء وكل ما هو موجود في ترسانة بناء السفن.. وطالب بسرعة إنزال قواته في جزيرة فاروس"[٣٨]. هنا يبدو أن رواية قيصر قد انتهت بشأن الأحداث وبذلك لم تكتمل بشأن وصف المعركة، فما حدث بعد ذلك يبدو أنه لم يعره أي اهتمام.

الشيء المثير للغرابة هو أن قيصر لم يواصل شرح النتائج التي تمخضت عن إضرام النار في العديد من المراكب الراسية في الحي الملكي، الذي أتى على ما يقرب من عشرة ومائة مركب طبقًا لـ "Pseudo-Hirtio"، أو أكثر من سبعين، طبقًا لرواية لوكانو، عند المدينة نفسها، وهذه هي النهاية الدرامية لمعركة الإسكندرية حيث توقف السرد وانتهى الكتاب بطريقة مفاجئة وذلك قبل ثوان من سرد ما حدث من التهام الحريق للإسكندرية والمكتبة الكبرى الناجم عن اللهب الذي انتشر بين كافة السفن، فقد كان كأنه جهنم تغذيها الرياح في صيف الإسكندرية. وهنا نفترض أن قيصر قد تأثر كثيرًا بهذه المأساة، وهي أول ضربة كبرى تلقتها الإسكندرية منذ أن أنشئت، وكان ذلك في لحظات غروب شمس شخص آخر أفراد الأسرة البطلمية، حيث يمثل هذا الحريق أكبر كارثة ثقافية في العالم القديم.

على أية حال، فإننا عندما نتأمل رواية يوليوس قيصر وهو المؤرخ الحصيف والمولع بكتابة كافة التفاصيل نجد أنه لم يشر قط إلى نهاية المكتبة الكبرى؛ وعلى ذلك فمنذ البداية نجد أن قيصر أمام هذه الكارثة الكبرى، وأمام النتائج السياسية التي ترتبت على هذه الكارثة، اتخذ موقفًا فيه صمت وإخفاء، وقرر ألا يروي أو ينقل للأجيال اللاحقة حقيقة الكارثة التي انتزعت دفعة واحدة من الإسكندرية

---

(38) Julio Cesar, "De Bello Civili", III, 111.

أغلى كنوزها والتهمت المخطوطات الرئيسية للثقافة اليونانية، وإلى رماد تحولت آلاف الكتب التي كدسها البطالمة على مدار مائتين وخمسين عامًا والتي كانت تعتبر كنزًا للإنسانية لا يمكن تعويضه.

ذكر "سويتونيو Suetonio" رأي "ث. أسينيو بوليون C. Asinio Polion"[٣٩] مؤسس المكتبة العامة الأولى الرومانية، تحت قيادة Augusto، في "تعليقات" يوليوس قيصر قائلاً بأنها - أي هذه التعليقات أو المذكرات - كتبت بطريقة فيها تراخ وعدم مراعاة دقيقة للحقيقة، إذ كان قيصر في أغلب الحالات... يغير من الرواية والسرد طبقًا لأهوائه ومصالحه وكان ذلك إما عن وعي بما يفعل أو أن الذاكرة كانت تخونه، وهنا كان يفكر - مع هذا - في العودة إلى كتابتها أو تصحيحها"[٤٠]. نحن إذن شهود على هذه الرغبة المكتوبة التي جاءت من يوليوس قيصر في غمط حقيقة الأحداث التي وقعت خلال اللحظات الأولى، وأدى ذلك إلى إحداث نوع من الرقابة الأدبية وتحريف للذاكرة التاريخية التي لم يتم تصحيحها بعد بالكامل.

يزداد التأثير الدرامي لصمته عندما نعرف أنه في اللحظة التي عاد فيها إلى روما أراد أن يفتح المكتبات الخاصة للجمهور[٤١]، وذلك بأن قام خلال عامي ٤٧-٤٦ ق.م. بتكليف "ماركو بارّون M. Varron"، السياسي والكاتب والمتخصص في المكتبات بالإشراف على مشروع إمبراطوري يتمثل في إنشاء مكتبة عامة تشبه مكتبة الإسكندرية، التي انتهى للتو من إحراقها، وكلفه أيضًا بشراء كتب يونانية ورومانية وتصنيفها، وهنا نجد أن بارّون نفسه يهدي لقيصر كتابه المهم

(39) Según el "Suidas\ Polión (76 -a. C.-4 d. C., activo 39 a. C.) escribió en latín, en 17 libros, una historia de las guerras cíviles, incluída la campana egípcia de César, de las que fue contemporáneo y testigo. Tanto Estrabón, Plutarco, Aplano y otros utilízaron sus textos como fuentes.

(40) Suetonío, "De Vitae Caesarum, Caesar", I, LVI, 1-3.

(41) Suetonio, "Júlio César", XLIV.

بعنوان "عن المكتبات"[٤٢]. كل هذا يؤكد أن قيصر لم ينس قط كنز الكتب الذي ضاع؛ والأكثر من هذا أنه عمل على التعويض عن ذلك في روما نفسها، حيث تولى الجنرال "لوكولو Luculo"[٤٣] ـ بما بقي لديه من حرب "بونتو Ponto" ـ بإقامة مكتبة خاصة ضخمة، وساعده في هذا تيرانيون رجل المكتبات الشهير وعالم الفيلولوجيا السكندري.

ورغم الاتفاق المفترض في العصر الحديث على أن يوليوس قيصر قد أخذ كتب المكتبة الكبرى إلى روما، فإن ذلك لم يؤكده أي من الكُتّاب القُدامى. وهناك فرق بين أن يُكلف ماركو بارّون بإقامة مشروع ما، وبين أن يقوم هو نفسه ـ يوليوس قيصر ـ بسرقة الكتب من عشيقته، وهي الكتب التي لم تأت عليها النيران، خلال السنوات نفسها التي أقامت فيها كليوباترا هي وابنها، من قيصر، قيصرون، في روما، من ٤٦ إلى ٤٤ ق.م.، وجدد اتفاقية قديمة للصداقة بين البلدين. هناك محاولة أخرى، حديثة هذه المرة[٤٤] للدفاع عن قيصر وعدم نسبة المأساة له. لكن يوليوس قيصر قد أغتيل قبل أن ترى عيناه المشروع الذي أمر ببنائه، وبالتالي لم يتمكن من تفريغ شحنة الكتب القادمة من الإسكندرية، التي لم تكن، على أية حال، جزءاً من ثروة المكتبة الكبرى التي دمرها.

من الناحية الظاهرية لم يتغير شيء عند اغتيال يوليوس قيصر عام ٤٤ ق.م وهروب كليوباترا مع ابنها قيصرون عائدة إلى الإسكندرية، وكان ذلك بفضل ما عليه الملكة من جمال، وهنا نجد أنه عندما أقام "أسينيو بوليون A. Polion" مكتبة عامة في روما في "Atrium Libertatis" عام ٣٩ ق.م لم يتمكن قط من وضع يده على بقايا المكتبة السكندرية، فقد أصبحنا نعيش زمن "Segundo Triunvirato"[٤٥]

(42) Varrón (116-27 a. C.), "De Bibliotheds".

(43)Lúculo (110-57 a. C.).

(44) Parsons, 1952; Dziatzko, 1958; Canfora, 1989; Riano, 2005.

(45) Segando Triunvirato Romano (43-33 a. c.).

الذي تأهل على يد كل من أوكتابيانو، وليبيدو ومارك أنطونيو[٤٦] ونعيش زمن حب كليوباترا ومارك أنطونيو، حيث تعرفا على بعضهما عام ٤٣ ق.م.، إذ كان مارك أنطونيو الحامي والعاشق للملكة الإسكندرية. لم يأخذ القادة الرومان من الإسكندرية غنائم حرب قط بل حدث العكس، حيث لم يحملوا إلا متعة علاقة الحب مع الملكة الأسطورية وأم أبنائهم.

أولى مراحل الصمت والتابوهات حول حريق المكتبة الكبرى:

لتكملة الرواية، نشير إلى مساعد غير معروف لقيصر؛ ربما كان "أوبيو Oppio" - طبقًا لرأي سيوتونيو[٤٧] - أو الجنرال أو ليوهيتريو - طبقًا لآخرين - والذي كان يدعى أيضًا Pseudo Hitrio حيث، التزم الصمت إزاء واحدة من أبرز المآسي الثقافية والدرامية ذات التأثير الواسع والعميق في عصره، والتي سرعان ما انتشرت في أنحاء الإمبراطورية، وكان هذا الصمت لمصلحة قيصر. يقص علينا في مقدمة بعنوان "الحروب السكندرية"[٤٨] أنه لما كانت الإسكندرية قد شيدت باستخدام الرخام، بما في ذلك أسقفها وكمراتها، لم تمتد ألسنة اللهب بعيدًا عن الميناء القديم؛ وهذا تزييف تاريخي وكذب يزيد من التأكيد على الشعور بالذنب الذي كان يشعر قيصر إزاء فعلته الدرامية الحربية.

هذا المؤلف المجهول للمقدمة، الذي لم يكن معروفًا مع بداية القرن الثاني الميلادي، يؤكد بشكل ضمني على وجود حريق، امتدت آثاره إلى المدينة، وهذا ما لم يجرؤ قيصر على النطق به، كما أنه ينزع القناع عن نفسه ويؤكد أيضًا في المقدمة، "الحروب السكندرية"[٤٩]، أن شعب الإسكندرية بعد أن فقد عشرة ومائة مركب في الحريق، لم يكن أمامه إلا جمع الأخشاب لإعادة بناء جزء مما ضاع من

(46) Marco Antonio (83-30 a. C.).

(47) Suetonio, "De Vitae Caesarum, Caesar", I, LVI, 1.

(48) Hirtio, Pseudo, "Bellum Alexandrinum", I, 3.

(49) Hirtio, Pseudo, "Bell. Alex" 12,13.

الأسطول الملكي، وإعداد اثنين وعشرين مركبًا من ذوات المجاديف الأربعة إضافةً إلى خمس من ذوات المجاديف الخمسة، واستعانوا في هذا بنزع الكمرات الخشبية من أبرز الأماكن الأثرية في الإسكندرية التي ظلت صامدة ونجت من الحريق، وهذا هو نفس ما يقصه يوليوس قيصر في "تعليقات حول الحروب الأهلية"، حيث تحدث عن هزيمة المصريين في موقعة بحرية، وقال إنهم انتزعوا الأعمدة وكذا الأسقف الخاصة بالجمنازيوم والمباني العامة بغية الحصول على الأخشاب...(٥٠).

كان "ب. هيتريو P. Hitrio"، مؤلف تلك المقدمة، واحدًا من أبرز الشهود على العصر وعلى معركة الإسكندرية، لكنه كان، للأسف، مؤلفًا غير محايد ولا يتورع عن شيء، مما جعله يقوم لأول مرة بقلب الحقائق التاريخية بحثًا عن المصالح السياسية، فأثار زوابع الشك حول ما حدث بالفعل في الإسكندرية؛ وكان هذا - إضافةً إلى الصمت ذي الدلالة الذي كان عليه قيصر في هذا المقام - السبب، والبداية، في ظهور ستار من الغموض والرقابة؛ فهناك مرحلة أولى من التابوهات التي نُسِجَت على مدار السنين حول تدمير المكتبة الكبرى خلال القرن الأول قبل الميلاد، وزوالها تاريخيًا اعتبارًا من ذلك الحين. إنها، بالفعل، الحادثة غير المشرفة التي ارتكبها يوليوس قيصر على مدار تاريخه العسكري، والتي تطال أيضًا سمعة روما، ألا وهي إحراق كافة الكتب الخاصة بالثقافة اليونانية التي تثير الإعجاب.

يؤكد سويتونيو أن هيتريو ألف أيضًا الكتاب الثامن، "تعليقات حول الحروب الغالية"، وهو كتاب ليوليوس قيصر، حيث تشير الروايات إلى أنه لم يكمل تأليفه، وهذا أمر شديد الغرابة، ذلك أننا أمام مؤرخ ورجل دولة يترك كتبه دون أن يكملها في لحظات حاسمة، وفي هذه "التعليقات"، حول الغاليين، نجد يوليوس قيصر وقد ترك قلمه في المحبرة وصمت عن النهاية التي تحدثنا عن سبب ثورة هؤلاء ضد الجمهورية الرومانية.

---

(50)Julio César, "De Bell. Cm", IV.

يرى البعض أن يوليوس قيصر لم يكن هو الذي كف عن الكتابة، رغم أنه يسرد الأحداث لصالحه، بل كان أوكتافيوس، خليفته، وهو الرجل الذي فرض، منذ توليه السلطة، رقابة صارمة من أجل رسم صورة أسطورية ليوليوس قيصر، وحال دون وصول المؤرخين للكثير من كتابات يوليوس قيصر في شبابه(٥١)، ولم يتوقف عن هذا بل أخذ يقطع الروايات ويمحو ويضيف إلى النصوص التي كتبها يوليوس؛ وامتدت آثار هذه الرقابة طوال عهد الإمبراطورية الرومانية وأسفرت عن اختفاء النصوص التي كتبها كل هؤلاء الذين ينادون بالعودة إلى الجمهورية، وتحريضها، وهذا يفسر ظهور شخصيات مثل هيتريو الرجل الذي كان على استعداد لتنفيذ أوامر أوكتابيو وترك كتب يوليوس قيصر "سليمة من الناحية السياسية" لمن أتى بعده من الأجيال.

بعد احتراق المكتبة الكبرى، لم يعد أحد يتناولها بالحديث بتاتًا وأسدل ستار الصمت الذي وارى جانبًا الحقيقة، وكان الأمر سائدًا على هذا النحو على زمن يوليوس قيصر حيث كان الخوف هو البطل الذي يشعر به الجميع، ومن الأمثلة الدالة على هذا هو ما نراه عند الفيلسوف الروماني والأديب ورجل الدولة والخطيب البارع في زمانه ماركو توليو شيشرون(٥٢)، الرجل الذي دافع عن الجمهورية والذي عاصر وقوع تلك الكارثة في مرحلة النضج من عمره، حيث لم يجرؤ قط علي الحديث عن الواقعة، مع أنه الرجل الذي عاش في نهاية حياته الأحداث الدرامية لحرب الإسكندرية، وعاصر أيضًا عشق يوليوس قيصر لكليوباترا وهو في أوج سلطانه، ومات بعد عام واحد على اغتيال قيصر.

ورغم أن شيشرون ربما قد عاش تحت ضغط نفسي شديد يهزّه من الداخل، بسبب اختفاء المكتبة التي كان يتم الاحتفاظ فيها بأصول كتب كافة الفلاسفة والشعراء والأدباء اليونانيين، فقد لزم صمتًا مقلقًا ومطبقًا، وكأن شيئًا لم يحدث.

(51)Suetonio, "De Vitae Caesarum, Caesar", LVI.

(52) Cicerón (106-43 a. C.).

وإذا لم يكن الخوف هو الذي عليه فإنه ربما كان الحذر، فلم يكن هو ـ وهو ذلك المواطن الروماني الشهير، المعني دومًا بكل ما يتعلق بالسلطة ـ الذي سوف يتهم ذلك الجنرال ذي المزاجية المتقلبة، أثناء حياته، كما أنه متفقٌ معه عام ٥٢ ق.م، رغم أنه لم يكن راضيًا عن السلوك الشخصي لهذا الزعيم السياسي. كما يكن قادرًا على ذلك فيما بعد، عندما كان ابنه المتنبي، أوكتافيو، يشكل جزءًا من "Segundo Triunvirato" الذي تولى السلطة.

ما جرؤ عليه شيشرون، ولكن بطريقة مستترة، هو نقد تضمنته رسالته "رسالة إلى بروتو"، حيث يقول بأن يوليوس قيصر "كتب مذكرات جديرة بالإعجاب الكبير بها، فهي مذكرات لا لبس فيها وواضحة ومباشرة لكنها لها مذاقها العذب مع هذا، كما أنها تخلو من أية محسنّات لغوية ومن زخرف القول، ومع هذا فرغم أن الغاية هي تقديم مادة للآخرين الذي يريدون الاستعانة بها لكتابة التاريخ، فإنها مع كل هذا تسر البلهاء الذين سوف يعملون على إثقال إيقاع ما يروونه، لكنها جعلت كل إنسان، على درجة من الحساسية، غير راغب في الكتابة حول الموضوع نفسه"(٥٣). وها نحن نرى أن شيشرون في موقف ضعيف، كما انتهى به الأمر إلى الإذعان، وفقد عطف أوكتابيانو الرجل الذي أمر بقتله لأنه عدو الدولة.

من الناحية الفعلية، لم يجرؤ أحد على كسر حاجز الصمت، واستمر الأمر على هذا النحو حتى نهاية حكم "أسرة يوليوس / كلاوديا"(٥٤) ـ أي من عصر أوجست حتى عصر نيرون ـ والسبب في ذلك هو الخوف من أن ينزل به العقاب من لدن هؤلاء الأباطرة الذين خلفوا يوليوس قيصر، بدءًا بمن جاء بعده مباشرة وهو أوكتابيو أوجست(٥٥). هنا نجد الملامح الواضحة لرقابة سياسية واضحة على الرواية التاريخية، ولم يجرؤ على المجازفة وكسر القاعدة إلا طبقة

(53) Cicerón, "Epistola- ad Brutum", 262, citada por Suetonio, Caesar", I, LVT, 2.

(54) Dinastia Julio-Oaudia (27 a. C.-68 d. C).

(55) Octavio Augusto (30 a. C.-14 d. C.).

السناتورات الذين يعارضون النظام الإمبراطوري الذي قضى على الجمهورية الرومانية، أي هؤلاء الذين كانوا يعتبرون يوليوس قيصر خائنًا.

تمكن هؤلاء الأباطرة الذين أشرنا إليهم من الحفاظ على صورة يوليوس قيصر طوال مدة حكمهم، بحيث لم يعد أحد يذكر قط اسم "المكتبة الكبرى للإسكندرية" أو حتى الإشارة إلى نهايتها المأساوية، وظل الأمر على هذا النحو لمدة مائة عام وكأن الأمر قد ذهب أدراج الرياح. نرى إذن أن الرقابة كان لها دور فاعل وأن هذه هي المرحلة الأولى لها في هذا الموضوع الذي تحول إلى أحد التابوهات التي يخشى المرء الخوض فيها.

وإذا ما كان الجو العام على هذا النحو، فإننا نجد الجغرافي اليوناني إسترابون - هو أحد من عاصروا تلك الأحداث، وكان قد زار مصر بعد الواقعة بزمن قصير - إذ اتخذ موقف الصمت الذي كان عليه شيشرون رغم أنه ينسب إلى عصر غير عصر أوجست. كما نعرف أيضًا أن إسترابون زار الإسكندرية خلال الفترة من ٢٥ إلى ٢٠ ق.م. وأورد لنا في كتابه المعنون "الجغرافيا"[٥٦]، وهو كتاب يكاد يكون قد وصل إلينا كاملاً، وصفًا أدبيًا ودقيقًا للإسكندرية على زمانه بخاصة تلك الآثار التي كانت تحيط بالميناء الكبير، وهي منطقة لا شك أنها كانت حتى ذلك الحين تحمل بصمات المأساة التي تعرضت لها هذه المكتبة، كما أنها أيضًا كانت موضوع الحوار الدائم بين العديد من شهود العيان الذين كانوا لايزالون يعيشون في الإسكندرية خلال الفترة التي زارها فيها، أي بعد الكارثة بسبع وعشرين عامًا.

أليس من الغريب ألا يذكر إسترابون في وصفه للميناء الكبير اسم المكتبة الكبرى أو المكان الذي كانت به هذه المنشأة التي كانت تعتبر مفخرة الإسكندرية والأكثر شهرة بين مكتبات العالم القديم؟ أليس من الغريب أنه عندما يشير على استحياء إلى ضخامة تلك المؤسسة، على زمن "إيراتوستنس Eratostenes"[٥٧]، في

(56) Estrabón (64 a. C.-19 d. C.), "Geographica , XVII, 1, 6, 8, 9, 16, 17.

(57) Eratóstenes, director de la Gran Biblioteca entre 245 o 230-201 o 195 a. C.

فقرة سابقة في كتابه، يقول فيها: "إيراتوستنس... كان قد قرأ العديد من الوثائق... وكانت تحت يده مكتبة يشهد بثرائها إيباركو نفسه Hiparco"(٥٨)، معطيًا الانطباع، إضافة إلى ذلك، أن المكتبة الكبرى كانت قد زالت من الوجود على زمن إسترابون؟ كيف يمكن لإسترابون، الرجل الذي تناول كافة الآثار القائمة على شاطئ الميناء بالوصف الدقيق أن يغفل المكتبة الكبرى بالكامل ويشير فقط إلى المتحف الذي كان بجوارها؟ هناك فراغ واضح في المعلومات! فصمته برهان على عدم قدرته أن يقص علينا الحقيقة، وهو صمت يصرخ قائلاً: لا أستطيع الكلام!.

وعلى أية حال يمكننا أن نفهم موقف إسترابون، ففي الإسكندرية كان الشعور بالهزيمة هو المسيطر على أهلها في الفترة التي كان بها، فقد فَقَدَت الإمبراطورية المصرية استقلالها على يد الرومان عام ٣٠ ق.م. وتحولت مصر إلى مقاطعة شخصية تابعة لأوجست؛ ولم يكن الصمت الغريب والجبان الذي ظل عليه إسترابون إلا انعكاسًا للخوف الذي يملأ قلوب السكندريين بشأن الحريق الذي أهلك المكتبة الكبرى؛ إنه الخوف من حرية الكلام وسرد ما حدث دون وجل ومهما كانت المخاطر.

الشواهد الأولى المستترة على المأساة:

رغم كل ما سبق نرى أن كافة الكُتّاب لم يكونوا جميعًا على درجة الحيطة نفسها أو الجبن (على شاكلة شيشرون أو إسترابون) أو الخوف من السلطة السياسية الرومانية؛ وبفضل هؤلاء الكُتّاب الكلاسيكيين توفرت لنا بعض الشواهد التي خضعت للتحريف والتزييف للوقائع حيث يقوم كل واحد ينقل ما كتبه سابقه. وهنا نجد أن أقدم شاهد أدبي على الكارثة قد أتى إلينا من لدن أحد من عاصروا الكارثة وعرفوا أبطالها، الا وهو المؤرخ اللاتيني تيتو ليفيو T. Livio، المعروف بمبادئه الجمهورية وإعجابه بشخص "بومبي Pompeyo"، ومُثُل..

(58) Estrabón, "Geogr.", II. 1. 5.

حزب السناتورات، وبالتالي كان من المعارضين للنظام السياسي الجديد الذي أقره أوجست.

ومع أن هذا المؤرخ كان يعرف أوجست شخصيًا؛ فإنه لم يكن على استعداد لتجاهل تلك الفصول المأساوية التي وقعت أثناء "الحروب السكندرية" التي رواها في كتابه "تاريخ روما[٥٩]" الذي جاء في ١٤٢ مجلدًا، لم يتبق منها إلا ٣٥ مجلدًا، ومن المجلدات التي فقدت كان رقم CXII الذي تعرض فيه للفترة التي قضاها يوليوس قيصر في مصر؛ وبالنسبة لأغلب السنوات التي فقدت المجلدات الخاصة بها (٩-١٦٧ ق.م.) لم يتبق لدينا إلا نتفًا هي ملخصات مبتسرة لم تضم شهادة المؤلف - ليفيو - على الحريق، وهذا ما أطلق عليه "فقرة مفقودة". ولحسن الحظ نجد سنيكا الشاب هو الذي تعرض للموضوع مباشرة رغم أن التناول كان بشكل موجز.

ربما كان ما عليه ليفيو من ثبات على مبادئه وأنه مواطن روماني من ذوي الحيثية الكبيرة، وليس يونانيًا مثل إسترابون، هو الذي هيأ له القوة الضرورية ليحاول كسر حاجز الصمت المفروض على تلك الأحداث الرهيبة ويذكر الآثار الناجمة رغم أن ذلك كان بشكل موجز، وهنا نجد أن النيران أتت على أربعين أو أربعمائة ألف كتاب كانت محفوظة في المكتبة السكندرية.

كان ليفيو شجاعًا بما فيه الكفاية ليحدثنا عن شيء وقع على زمانه، عندما كان عمره اثنا عشر عامًا أي إنه كان طفلاً تركت الكارثة أثرها في وجدانه، وأخذ هذا الأثر يتنامى مع كل ما سمعه عنها أثناء سنوات يفاعته. وصف ليفيو المكتبة الكبرى وصفًا يعبر عن إعجابه الشديد بها، وبذلك نراه لم يفعل شيئًا إلا الحفاظ على شعلة ذكرى هذه المكتبة لتصمد بذلك في وجه الصمت الذي ساد بما في ذلك صمت شيشرون وإسترابون. ورغم أن إشارته للكارثة موجزة فإنه قد ابتعد بشكل جذري عن رواية قيصر - الصمت المطبق - وعن رواية "بسيدو هيرتيو P. Hirtio" -

(59) Tito Livio (59 a. C-17 d. C), "Ab urbe condita", CXII, 43; "Perwcba", CXII.

أي لم يكن ليحدث - وبذلك كشف وفضح موقف الكاتبين المذكورين. نعم، كان هناك حريق التهم مخطوطات ذات قيمة كبيرة.

ولما لم يتوفر لدينا إلا مختصرات وليست النصوص الكاملة عن ليفيو، وبذلك لا نستطيع أن نعرف ما الذي كتبه بشأن الواقعة ككل، فما نعرفه فقط هو أن هذه الرواية المبكرة للوقائع استطاعت أن تكسر بعض الشيء التابوه الذي يخيم على موضوع شائك كهذا، وبذلك نرى الكُتّاب الذين جاءوا من بعده ينقلون عنه حرفيًا، ولمدة قرن من الزمان، في عهد "أسرة يوليوس/ كلاوديا"، وبذلك نراهم قد جرؤا على الحديث عن "الحرب السكندرية الأولى"، وكان هؤلاء الكُتّاب جميعهم من أنصار الأفكار السياسية التي عليها ليفيو.

من بين هؤلاء نجد الفيلسوف الأبيقوري اللاتيني ل. أنيو سنيكا الشاب، من أسرة إسبانية رومانية، أي من آل سنيكا القرطبيين وواحد من أهم الكُتّاب على زمانه، كما أنه هو الذي وصلنا منه أقدم شاهد أدبي كامل على الكارثة، حيث أورد في كتابه "حول سكينة النفس"[٦٠] الذي ألفه بعد مرور بعض الوقت على الكارثة - ٤٨ ق.م. - إشارة إلى احتراق أربعين ألف كتاب[٦١]، رغم أن بعض المخطوطات تشير إلى أن الرقم هو أربعمائة ألف كتاب منوهة إلى أن مصدرها في ذلك هو ليفيو.

يقول سنيكا في كلمته - وهي من الروايات الأولى التي وصلت إلينا وورد فيها ذكر حريق الكتب في الإسكندرية - أن "٤٠ ألف كتاب قد احترق في الإسكندرية؛ وعلينا هنا أن نتيح الفرصة لآخرين ليتحدثوا عن مفاخر هذه المكتبة وأنها كانت من أجمل الآثار التي خلفها الملوك وما فعله تيتو ليفيو هو أنه قال بأنها الأثر الأكثر أهمية الذي هو ثمرة كرم الملوك ومطلبهم"[٦٢].

---

(60) Séneca el joven (4 a. C.-65 d. C.), "De Animi Tranquilitate"o "De Tranquillitate Animi", IX, 5.

(61) Cifra que aparece en el "Manuscrita A", de Monte Casino, el mejor de los conservados.

(62) Séneca, "De An. Tranq," IX, 5.

كان سنيكا الشاب مثل ليفيو في الإعجاب بالجمهورية القديمة والحريات التي كانت عليها، ومكث أكثر من فترة في الإسكندرية قبل عام ٤٠م، حيث كان عمه "Perfecto" (الحاكم)، كما أنه جمع الكثير من المعلومات حول مصر والنيل من أجل كتاباته، واهتم اهتمامًا عميقًا "بمدرسة الإسكندرية".

ويلاحظ أن رواية سنيكا الشاب لا تشير إلى المكان أو الزمان أو إلى يوليوس قيصر، لكن من البدهي أنه إذا ما كان هناك حريق للكتب بتواتر ذكره عبر القرون فإن ذلك كان الذي فعله يوليوس قيصر في الإسكندرية. لم يكن تيتو ليفيو قادرًا على الإشارة إلى حدث جَلَل ودرامي بهذه الدرجة اللهم إلا إذا كان ذلك الحريق الذي عرفه في حياته؛ كما أن الإسهامات الأخرى التي استندت إلى ما كتبه تشير أنه حريق "الحروب السكندرية" هو الوحيد الذي أشار إليه ليفيو.

أضف إلى ما سبق أن ابن أخيه، وهو الشاعر الأبيقوري اللاتيني م. أنيو لوكانو- من أصول قرطبية أيضًا من آل سنيكا ـ الذي تشبع بالفلسفة الأبيقورية، هو الذي كرّس الكتب العشرة الأولى لقصيدته الملحمية التاريخية "الحروب الأهلية" أو ما يسمى "Farsalia"(٦٣) للحديث عن الصراع بين بومبي ويوليوس قيصر حيث انتهى بها المطاف حتى حصار الإسكندرية. وقد رسم الشاعر يوليوس قيصر في هذه الكتب على أنه عاميّ. وبالتالي فليس من باب الصدفة أن يكون لوكانو هو الذي يسهب في روايته عن كارثة الإسكندرية وسلط الضوء على ضخامة الحريق الذي شب في ذلك اليوم المشئوم والذي أتى على معظم مباني العاصمة المصرية، وأشار إلى الأمر المخجل في الموضوع هو تجاهله أو الصمت عنه، أو لوي ذراع الحقائق والأفعال التي صدرت عن يوليوس قيصر وبسيدو ـ هيتريو، والرقابة التي فرضها أوجست.

هنا نجد أن لوكانو يحدثنا في كتابه العاشر الذي لم ينته عن معظم ملامح مسرح الأحداث ويؤكد على أن الجنرال الروماني، الذي حاصره الجنرال

---

(63) Lucano (39-65 d. C.), "Bsllum Civile> o "Pharsalia".

"Achillas" في القصر الملكي "Lochias"، أمر بإضرام النار في كافة قطع الأسطول الملكي المصري التي كانت راسية هناك وهي أكثر من ستين قطعة في الميناء الشرقي الكبير؛ وانتشرت النيران سريعًا في المراكب التي أخذت تغوص في أعماق البحر بعد أن أهلكتها النيران التي انتقلت بقوة إلى الشاطئ "وقضت بالصدفة على المخازن التي كانت تضم أربعين ألف كتاب، وأتت كذلك على حواجز الأرصفة وانتقلت إلى المدينة الملكية"(٦٤).

نلاحظ في هذا المقام أن لوكانو يبدو وكأنه يشير إلى كتب في مخازن في منطقة الميناء، ربما كانت ما يسمى د. "apothekae" حيث يتم تجميع الكتب باعتباره خطوة سابقة على تسجيلها. وفي هذا السياق يبدو أن لوكانو أمسك عن الكلام، لكن الإشارة إلى احتراق أربعين ألف كتاب لا يعني أن النيران لم تمتد إلى المكتبة الكبرى، فما حدث هو أن كارثة أخرى وقعت بعد الكارثة السابقة، ويبدو أن لوكانو لم يتمكن من سرد القصة الحقيقية بتفاصيلها خوفًا من الاصطدام بغضب السلطات، لكن ترك لنا ـ مع هذا ـ الأدلة الكافية لإعادة تصور الأحداث الخاصة بالمأساة.

لم يسلط لوكانو الضوء فقط على أن ألسنة النيران "قد امتدت" من الميناء إلى المدينة وبالتحديد في القطاع الذي كانت به المكتبة الكبرى، بل أضاف الرواية الوحيدة التي وصلتنا بشأن الكارثة التي تسببت فيها ألسنة النيران وانتشارها في أرجاء المدينة وقام بوصف المشهد وكأنه أحد شهود العيان "... فالمنازل القريبة من الميناء اشتعلت بها النيران، وأسهمت الرياح في الكارثة، إذ كانت ألسنة اللهب تطير في الهواء غاضبة، وكأنها شُهُب نزلت من السماء، على أسطح المنازل؛ ولم يكن أمام الجنود المصريين إلا ترك مواقعهم في حصار يوليوس قيصر في محاولة لإنقاذ الإسكندرية من النيران"(٦٥).

(64) Lucano, "Phars", X, 486-505.

(65) Lucano, "Phars", X, 486-505.

يبدو بدهيًا أن لوكانو لم يكن قادرًا على التعبير بشكل أكثر إفصاحًا عن هذا؛ فقد امتدت النيران إلى الإسكندرية انطلاقًا من الميناء الكبير ووصلت إلى هضابها المتموّجة وبالتحديد إلى الحيّ الملكي، ووصلت حدة النيران إلى الدرجة التي أجبرت الجنود المصريين في معركة فاصلة كهذه على مغادرة مواقعهم والذين كان يبلغ عددهم عشرين ألف جندي إجمالاً بما في ذلك الذين كانوا بالقرب من النيران، حيث تحولت المهمة إلى مد يد العون إلى السكندريين الذين هالهم الفزع من النيران، وإنقاذ المدينة من النيران التي أججتها الرياح. كان الخطر عظيمًا الأمر الذي يبرر هذا الاستدعاء لعدد ضخم من الجنود.

كانت النيران منتشرة وألسنتها عالية بسبب ما عليه مدينة الإسكندرية من تصميم معماري، فالمدينة كانت مفتوحة على البحر، فخلال الربيع والصيف تهب عليها رياح تسمى "Etesios" من البحر، وكانت تتنسم هذه الرياح التي تنعشها وتلطف من حرارة الجو بها إذ كانت تجوب المدينة من خلال شوارع متوازية ومتقاطعة على الميناء الكبير. كانت هذه الرياح تهب ابتداءً من أغسطس وحتى بدايات شهر أكتوبر، أي أنها تستمر ما يقرب من ٤٥ يومًا إلى ٦٠ يومًا، من الشمال الغربي متجهةً صوب الجنوب الشرقي، وكانت تحول دون إبحار المراكب من الإسكندرية صوب روما؛ وهنا نجد أن يوليوس قيصر[٦٦] يشير إلى أنه عندما وصل إلى الإسكندرية خلال الصيف كانت هذه الرياح تهب على المدينة.

كانت هناك كتلة من النيران في ذلك اليوم بالتحديد في الميناء الملكي، حيث التهمت النيران عشرات من المراكب الراسية ثم ابتلعها البحر، إضافةً إلى البضائع المخزنة في الميناء وأخذت الشونات تتفجر بفعل النيران وتتطاير محتوياتها في الهواء وتصدعت الأسوار وتهاوت بفعل الحرارة الشديدة، وانتقلت النيران إلى القصور لتلتهم الروافد الخشبية والستائر والأثاث ولم تقتصر على هذا بل امتدت أيضًا إلى باقي المنازل الأخرى ودور العبادة القريبة من البحر، وأتت على آلاف

(66) Julio Cesar, "De Bell. Civ", III, 107, 1.

المخطوطات في المكتبة الملكية وكذا المجموعات الخاصة بالمتحف. في إطار هذا المشهد نجد أن لوكانو أغفل أمرًا مهمًا وهو أن النيران في امتدادها قد أتت على المكتبة الكبرى، فلم يشر إلى ذلك قط لكنه لم ينفه، أي أنه سرد لنا التاريخ بالطريقة الوحيدة التي تمكن منها، فكيف يتصور المرء أن المكتبة الكبرى قد نجت من ألسنة النيران التي كانت تحركها الرياح وتحملها إلى كل مكان؟

هذه الرواية التي قدمها لنا لوكانو مليئة بالحيوية لدرجة تبدو أنها جاءت على لسان أحد الذين شهدوا المأساة، أي أنها رواية شاهد كان يعيش عام ٤٧ ق.م.، وليس كاتبًا سرد القصة بعد قرن من حدوثها؛ هنا يمكننا أن نخمن مصادره ونحاول الإطلاع على وصف لمؤرخ أتى بعده وهو خليفته المؤرخ والشاعر اللاتيني فلورو، الذي هو أيضًا من سلالة سنيكا، فهو مؤرخ كتب تاريخًا موجزًا لروما يستند فيه بشكل رئيسي على ليفيو ألا وهو "مختصر ملاحم الرومان"، ففي هذا الكتاب يتحدث عن كارثة الإسكندرية ويكاد يستخدم العبارات نفسها التي استخدمها لوكانو، وقصّ علينا أن الجنرال الروماني قد أضرم النيران وأنها "... قد امتدت إلى المباني القريبة من الميناء وأجبر ذلك الجنود على العمل على إنقاذ الناس في الحال"[٦٧]. ولما كان من المعروف أن فلورو قد استند في روايته على ليفيو وأن كلماته شديدة الشبه بتلك التي استخدمها لوكانو، فإنه يمكن القول بأن هذين المؤرخين اللذين ينتسبان إلى العائلة نفسها - عائلة سنيكا - قد استندا على نص مشترك الذي لم يكن إلا النص أو الرواية المفقودة التي رواها ليفيو.

يؤكد "W.J. Cherf"[٦٨] أنه "حتى هذا التاريخ لم يلتفت أي من الباحثين إلى إحدى التفاصيل ألا وهي أن الشواهد والروايات القديمة تتوافق على وجود

(67) Floro (activo principios s. II d. C.), "Epitome de Gestis Romanorum" o "Epitome de Titus Livius", II, 13, 59-60.

(68) Cherf, "Earth, Wind and Fire: The Alexandrian Fire-Storm of 48 B. C.", -"Tierra, Viento y Fuego: La Tormenta de Fuego de Alefandría en el 48 a. C.."-, pgs. 56-57, en El-Abbadi y otr., "Qué le pasó Bibl. Alej.", Brill, Leiden-Boston, 2008.

الحريق، كما أن النظرية الحالية تؤكد هذا، وهنا نتساءل: إذا ما توفرت الشروط الضرورية هل يمكن للحريق المتعمد في الإسكندرية عام ٤٨ ق.م. أن يصل لدرجة يصبح معها كأنه زوبعة من النيران؟... وإذا ما قبلنا بوجود تلك الزوبعة النيرانية فإلى أي درجة تمكنت المكتبة الكبرى من الإفلات من لهيب تلك الزوبعة؟".

يؤكد الباحث المذكور أن الموقف اليائس الذي كان عليه يوليوس قيصر قد اجتمعت فيه كافة الظروف التي دفعت إلى هذه الزوبعة النيرانية على الإسكندرية، بإضرام النار في مائة وعشرة مراكب وانتشارها إلى مخازن الغلال وباقي مخازن الميناء الشرقي، وساعدت التيارات الهوائية الشديدة على اتساع رقعة النيران لتشمل جبهة نيران تصل إلى ثلاث كيلومترات في الموانئ الملكية. إنها ستارة من نار؛ عناق قاتل. وما ترتب على هذا الحريق الضخم، الذي وصلت درجة حرارته إلى ألفي درجة، هو أن تولّد تيار هواء قوي من أسفل إلى أعلى حمل معه كتل من اللهب إلى أعلى وأخذ يزحف نحو المقرّ الملكي وأمطره بالتفجيرات واللهب. هذه الكلمات التي سطرها "م. فولي M. Foley" يمكن لنا أن نطبقها على الإسكندرية "مطر من النيران... فسرعان ما اشتعلت الأشجار... وتصدعت المنازل، وعاشت المدينة تحت أمطار من الرماد وأصبح" الأفق معتمًا".[٦٩]

وفي كلمات فيها الكثير من الحذر والحيطة يواصل المؤلف المذكور قائلاً "عندما نتأمل عبارات لوكانو... علينا القبول بأن حريق الإسكندرية قد حدث وأنه امتد بالفعل إلى المدينة... كما أن الحديث عما إذا كانت المكتبة الكبرى قد نجت من هذه العاصفة الرهيبة من النيران هو أمر في حاجة إلى دليل. ومع هذا، فطبقًا لبيانات الأرصاد في العصر الحديث وبناءً على التشابه التاريخي المقارن... هناك احتمال بوقوع عاصفة نارية طبيعية غير متعمدة خلال تلك الفترة. لكن لا يعرف على وجه الدقة فيما إذا كانت المكتبة الكبرى ومقتنياتها الأدبية قد تأثرت بذلك بشكل ما.

(69) Foley, Dechraciones de testigos atemorizados en los recientes incendios ocurridos en Kinglake (Australia) en 2009, "El Pais", pgs. 1-2, Madrid, 9 de febrero dei 2009.

ولما كان من المفترض ما عليه هذه النيران من قوة فإن ذلك المؤلف لا يتعجب من أن هذه الكتب أصبحت معرضة للخطر أو حتى أصابها الأذى"(٧٠).

الرواية الأولى للمأساة الحقيقية:

لم تظهر الرواية الحقيقية لمأساة الإسكندرية إلا بعد رحيل أسرة "يوليوس/ كلاوديا، وانتحار نيرون عام ٦٨م؛ وأعلن عنها لأول مرة بعد مرور أكثر من قرن ونصف على وقوعها؛ وفي هذا العصر الجديد الذي تبدأ فيه الإمبراطورية، من خلال أسرة فلابيا(٧١)، نشهد عصر سلام واستقرار تعيشه الإسكندرية، كما زالت الرقابة الصارمة التي كانت مفروضة، وهنا نجد أن بلوتارك دي كيرونيا، كاتب السيد وكاتب المقالات اليوناني وكاهن معبد "Apolo Pythio" في دلفوس والفيلسوف الأفلاطوني، كان أول من جرؤ على أن يقول لنا الحقيقة بكاملها، أي بعد نصف قرن، وجاء ذلك في لهجة دقيقة وموجزة، حيث ورد في مؤلفه "حيوات مقارنة، يوليوس"(٧٢) أن قيصر قد أُجبِرَ على درء الخطر بإضرام النار (والحريق) التي امتدت من مخازن الأرصفة ودمرت المكتبة الكبرى"(٧٣).

كان بلو تارك المؤلف الوحيد الذي أشار بوضوح إلى المكتبة الكبرى وأنها كانت ضحية النيران، وهذا نوع من التفسير المنطقي لرواية كل من ليفيو وسنيكا الشاب وفلورو، ولوكانو في المقام الأول؛ كان ذلك المؤلف أيضًا أول كاتب يذكر اسم قيصر بدون مواربة ويربطه مباشرة بالدمار الشامل الذي حاق بالمكتبة الكبرى؛ كما أنه كان الأول أيضًا ـ كما أشار "Cherf"(٧٤) ـ في ربط حريق المراكب وامتدادها إلى داخل الإسكندرية بالحريق الذي تعرضت له المكتبة الكبرى؛ وبذلك نجد أن تسلسل

---

(70) Cherf, "Tierra, Viento,..", pgs. 70-73.

(71) Dinastia Flavia (69-96 d. C.).

(72) Plutarco (46-120 d. C.), "Vitae, Caesar", XLV, XLVIII, XLDí.

(73) Plutarco, "Vit. Caesar", XLIX, 3, 2-3.

(74) Cherf, "Tierra, Viento,...", pg. 71, nota 67.

الأحداث يكتمل عند بلوتارك، وفوق هذا يؤكد - ولأول مرة - أن الحريق لم يأت فقط على مخازن الميناء وإنما شمل الأمر المكتبة الكبرى، واستكمل بذلك النص الذي ورد عند لوكانو، وأعطى معنى ودلالة نهائية لكافة النصوص السابقة؛ وصل بلوتارك إلى أقصى قدر من الدقة والوضوح، فقدم لنا بيانات موجزة وكاملة وحيوية.

لكن كان على بلوتارك أن ينتظر سنوات طوال حتى يتخذ قراره ويقضي على التابوه الجاثم على حريق المكتبة الكبرى، إذ نعرف أن فلورو لم يكن قد بدأ بعد في كشف المستور في بداية القرن الثاني الميلادي، وأن بلوتارك انتظر لحظة مواتية، في نهاية حياته، بين عام ١١٧ و ١٢٠م، ورحيله إلى "كيرونيا Queronea"، بعيداً عن روما ليكتب ما كتب. وفي تلك الفترة كانت "أسرة أنطونينا"(٧٥)، ذات الأصول الإسبانية، قد تولت زمام السلطة، كان ذلك زمان هادريان(٧٦) الإمبراطور المثقف والعاشق لكل من اليونان ومصر، بمعنى أنه يقبل بمعرفة النهاية الحقيقية للمكتبة الأسطورية.

يمكن أن تكون مصادر بلوتارك متمثلة في "بوليو Pollio" أو في ليفيو نفسه مرة أخرى، الذي تحدث عن الموضوع في كتاب "حياة قيصر"(٧٧)، الأمر الذي يعني تقديم برهان جديد على أن هناك احتمالا كبيرا في أن ليفيو، قد أشار بشكل مباشر، في النص المفقود الخاص به، إلى النهاية المحزنة للمكتبة الملكية، وربما كان ما تعرض له النص بعد ذلك هو التحريف والحذف على يد الكتبة. وعلى أية حال نقول بأن بلوتارك كان يعرف جيداً ما يتحدث عنه، إذ إطلع على كثير من المصادر الأخرى، ذلك أنه عاش في الإسكندرية سنوات طوال حيث كانت أطلال المكتبة لا تزال جاثمة هناك ومن السهل رؤيتها عند الذين يقتربون من المكان. وهو بذلك قد

(75) Dinastia Antonina (96-192 d. C.).

(76) Adriano (117-138 d. C).

(77) Plutarco, "Vit. Caesar", XLVII, 63.

أوتي، مقارنةً بالآخرين الذين تحدثوا عن المأساة، كل الوسائل المتاحة لدراسة الأحداث التي وقعت في المدينة قبل مائة عام على العصر الذي كان يعيش فيه، كما أنه مما لا شك فيه أن هذه الأحداث كانت لا تزال ماثلة في أذهان السكندريين.

هناك البعض من الذين يحاولون أن ينفوا أو يقللوا من شأن ما رواه بلوتارك، فمنهم من يشير إلى أنه كان عكر المزاج يوم أن كتب هذا النص؛ بينما يرى آخرون أن دوافعه كانت سياسية، واستندوا في ذلك إلى قذف للأيديولوجية الجمهورية والسناتورية. يرى فريق آخر أن ما ورد كان نتيجةً خطأ بعض الكتبة من الرهبان خلال العصور الوسطى؛ ويؤكد هذا الفريق الأخير أن ما جاء كان تزييفًا متعمدًا جرى به قلم بلوتارك وأنه مجرد "دعاية سكندرية" وبالتالي تمت فبركة أسطورة مكتبة الإسكندرية. يا لها من رؤية مثيرة للسخرية! واتهام مغرض، رغم أن بلوتارك هو الكاتب الوحيد الذي لم يشر من قريب أو بعيد إلى عدد الكتب التي أحرقت. وهنا نقول أيضًا أن أيًا من هذه القراءات والتأكيدات تستند على برهان مقنع، غير أنها تؤكد حالة الحنق والغيظ من أن بلوتارك كان قادرًا، منذ ألفي عام، على تحطيم التابوه بكلماته، وهو التابوه الذي لم تكن القرون، أو الكتبة، قد حطمته بعد، وعلى ذلك فإن شهادته تظل مهمة وفوق العادة.

من المؤكد أيضًا أن بلوتارك عندما يقدم لنا شهادته هو في كيرونيا، لا يعني أن هذه الشهادة قد انتشرت فورًا؛ فها نحن نجد كتابات معاصره "كايو سويتونيو C. Suetonio" كاتب السِّيَر والمؤرخ وأحد كبار الموظفين والراهب الروماني، الذي لا نعرف عنه إلا القليل اللهم إلا من خلال رسائل صديقه بلينيو الشاب(٧٨)؛ كانت كتاباته خلال حكم كل من تراجان(٧٩) وهادريان، حيث كان السكرتير الخاص لهذا الأخير، لكن ذلك الإمبراطور غضب عليه، ١٢٢م، عندئذٍ انسحب من الحياة العامة

---

(78) Cartas de Plínio eljoven, citadas en "Suidas", "Lexicon".

(79)Trajano (98-117 d. C).

وكرّس جهده لكتابة أعماله الأدبية التي نبرز منها "حول حياة القياصرة"[(٨٠)] حيث يقدم لنا في هذا الكتاب سيرة يوليوس قيصر، والأباطرة الآخرين ابتداءً من أوجست وحتى "دوميثيانو Domiciano". كانت مصادره هي الوثائق وطرائف العصر، وإطلاعه على الأراشيف الإمبراطورية ومجلس الشيوخ على زمن هادريان. لكنه لم يتمكن من العثور على الكثير من خلال هذه الوثائق فيما يتعلق بالحريق، الموضوع الذي أصبح من المحرمات عند الإمبراطورية.

واستنادا إلى ذلك نجد أن كتابه الذي ألفه عن يوليوس قيصر/ لم يشر إلى واقعة الحريق الأمر الذي أسهم في استمرار الصمت والتابوه حول الموضوع وكان الصمت مطبقًا على شاكلة ما رأيناه عند كل من شيشرون أو إسترابون ولكن دون أن يدري أحد أن هناك من يعيش بعيًا جدا ـ لوتارك ـ قد تمكن من كسر حاجز الصمت. وعلى أية حال، فالشيء الوحيد الذي فعله كايوسويتونيو هو إثارة نقمة الإمبراطور، وتحدث عن أمر كان من المحرمات على عصره، ومن الأفضل تناسيه. ها نحن نجد حالات العشق والمجون والدسائس والاغتيالات تجد مكانًا لها عند سويتونيو ما عدا الحريق الذي تعرضت له الكتب السكندرية على يد قيصر، إذ عاد الموضوع مرة أخرى إلى غياهب الصمت، وكان ذلك إما بمحض إرادته أو بسبب الرقابة الإمبراطورية التي لا ترحم، كما يرى البعض، والتي تسببت في تحريف جزء كبير من كتاباته؛ لكن قد تم كسر حاجز الصمت.

إذا ما أردنا أن نضيف إلى الكُتّاب السابقين كُتّابًا آخرين نجد أنهم أيضًا تحدثوا عن الحريق واستندوا في كتاباتهم إلى هؤلاء السابقين، ويمكن أن نبرز واحدًا منهم وهو "أوتو خيليو Auto Gelio"، النحويّ الذي ألف بعد زمن طويل على زمن بلوتارك، أي عندما تم إفشاء السرّ، وأضاف بعض التفاصيل الشديدة الأهمية إلى تلك الأخرى التي كان الجميع يعرفونها ابتداءً من منتصف القرن الثاني الميلادي، ومنها أن المكتبة الكبرى قد احترقت في عصر يوليوس قيصر. كان أوتو

(80) Suetonio (c. 71-c. 130 d. c), "De Vitae Caesarum, Caesar", XXXV, 1; LVI, 1-3.

خيليو شديد الدقة في مؤلفه "ليلة الأتيك Noche del Atica" حيث حدثنا عن أنه خلال الحرب السكندرية الأولى احترقت مجموعة الكتب التي جمعها الملوك البطالمة والتي كان يبلغ عددها سبعمائة ألف لفافة بردي وكان "الحريق غير متعمد أو بناءً على أمر أحد بل كان حدثًا عرضًا..."(٨١).

إنها شهادة مهمة ذلك أن خيليو كان معروفًا بالدقة والأمانة فيما يقوم به من إيراد مصادر أو نصوص يعتمد عليها، وبالتالي فإن تأكيداته تبدو كأنها تؤكد أن كافة محتويات المكتبة الكبرى قد احترقت ذلك اليوم، وبذلك نجد شهادة أخرى تنضم إلى شهادة بلوتارك، حيث يقوم بالتأكيد على تأكيدات سابقة وأضاف زيادة ملحوظة ـ لأول مرة ـ في عدد الكتب التي احترقت، كما يبدو أنه استند في هذا على مصدر مختلف عن المصدر الذي اعتمد عليه ليفيو؛ وبذلك أضاف إلى الشهادة الحاسمة والقاطعة التي قدمها لنا بلوتارك، بذكره هذه الكمية الضخمة من لفائف البردي التي احترقت وهي كمية لم يقدر أحد قبله على ذكرها وتقديرها بشكل قاطع وحاسم.

هناك مؤرخ وسياسي روماني هو "ديون كاسيو Dion Cassio"، لم يشر في كتابه "التاريخ الروماني" الذي يبلغ عشرين جزءًا ونعرف عنه من خلال المؤرخ "ثوناراس Zonaras"، إلى المكتبة الكبرى بشكل صريح بل تحدث عن النيران المشتعلة التي أضرمها قيصر في الأرصفة وقضت على مخازن الغلال ـ سائرًا في هذا على من ساروا على درب سنيكا الشاب – وقال: "... احتراق العديد من الكتب الرائعة وهي في المخازن "القريبة من البحر"، وهي كتب كانت بمحض الصدفة في المكان الذي مرت به ألسنة اللهب"(٨٢) وذكر رقمًا وهو أن عددها كان أربعمائة ألف أو أربعين ألف لفافة بردي، والأمر في هذا يرتبط بما ذكرته المخطوطات المتعددة. ربما كانت هذه المخازن جزءًا مكملاً للمكتبة الكبرى طبقًا لما يفهم من ذلك في إطار العصر،

---

(81) Gelio (123-169 d. c.), "Noctes Atticae", VII, 17, 3.

(82) Dion Cassio (155-235 d. C.), "Historia Romanorum", XLII, 32. 8, 38. 2-5.

ذلك أن لفظة مخازن، باليونانية، كانت مرادفًا لكلمة "مكتبة" أو "مخازن للكتب"(٨٣).

غير أن "كاسيو Cassio" لا يعتبر من المؤرخين البارزين أو من النقاد من ذي القامات المهمة، إذ بالإضافة إلى عدم الشفافية في روايته كان حاكمًا لإحدى المحافظات وكان من ذوي الاتجاهات المحافظة في تعليقاته. وإذا ما استندنا على هذه الشهادة الغامضة والمتأخرة نجد أن العلماء المحدثين قد محّصوا الفكرة بقولهم بأن الشيء الوحيد الذي احترق كان مجموعة من الكتب في انتظار تصديرها، وكانت موجودة في مخازن الميناء؛ وهذه نظرية لا تستند إلى أساس نصّي، كما أنها تتجاهل، وبوضوح، شهادة كل من بلوتارك وخيليو.

هناك أيضًا المؤرخ الروماني أميانو مارثلينو Amiano Marcelino ذي الأصول السورية، الذي أشار إلى الكارثة في كتابه "التاريخ الروماني"، مستندًا إلى كل من بلوتارك وخيليو، وأشار إلى سبعمائة ألف كتاب، كان الملوك البطالمة قد جمعوها، احترقت جميعها أثناء "حريق الإسكندرية بناءً على أمر قيصر"، وهذا الاعتقاد هو محل إجماع الكُتّاب القدامى"(٨٤). ويرى بعض المؤلفين أن أميانو عندما أشار إلى "مكتبات لا تُعد ولا تُحصى" كانت موجودة في الإسكندرية، فإن عدد الكتب يشملها جميعًا ولا يقتصر ذلك على المكتبة الكبرى فقط. لكن من البدهي أن مؤرخًا مثل أميانو قادر على التمييز بين العديد من المكتبات الخاصة التي كانت تملأ الإسكندرية وبين المكتبة الملكية الأسطورية التي أحرقها قيصر.

نجد أيضًا "باولو أوروسيو Paolo Orosio"، رجل اللاهوت خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، يشير هو الآخر، في كتابه "تاريخ" إلى رواية كل من سنيكا ولوكانو وبلوتارك وكاسيو وفلورو وقال إنه "عندما انتشرت ألسنة اللهب إلى جزء من الإسكندرية! أحرقت أربعمائة ألف كتاب كانت مُخزنّة في مباني قريبة - من

(83) Biblioteca, "biblíotheke", Depósitos de libros, "apothekai ton hiblion".

(84)Amiano Marcelino (330-395 d. C.). "Rerum Gestarum", XXII, 16, 12-15, 17; XXXI.

البحر - وبهذا ضاع هذا الجزء الثمين من آداب أجدادنا الذين استطاعوا جمع هذه المجموعة الرائعة من الأعمال القمة"[٨٥]؛ نجد أيضًا أن أوروسيو يربط الحريق بقيصر ويشير إلى امتداده من الأرصفة ثم تحترق معه المكتبة الكبرى.

شهدنا أنه خلال القرن الثاني عشر الميلادي يؤكد عالم الفيلولوجيا البيزنطي "Tzetzes" أن المكتبة الكبرى كان بها ٥٣٢٨٠٠ لفافة بردي على زمن ثاني ملوك البطالمة، وبالتالي فإن تقديرات فيليو بذكر سبعمائة ألف لفافة بردي قد احترقت، مع نهاية عصر البطالمة، لها منطقها ولو كان ذلك بالنسبة للبيزنطيين خلال العصور الوسطى.

في نهاية المطاف الخاص بذكر الروايات نشير إلى رواية "جوهانس سوناراس Johannes Zonaras" وهو المؤرخ وعالم اللاهوت والفقيه البيزنطي، فقد تحدث في كتابه "قطوف من التاريخ"[٨٦]، الذي يبدأ من بداية الخليقة حتى عام ١١١٨م، عن نص مشهور خلال العصور الوسطى، وهو نص يستند إلى "جوزيفو وكاسيو Josefo y Cassio"، يؤكد أيضًا على أن الحريق الذي أضرمه قيصر كان السبب في تدمير المخازن السكندرية وكذا المكتبة الكبرى، والشيء المثير للانتباه، فيما يتعلق بنهاية المكتبة الكبرى، هو أن "سوناراس Zonaras" فضّل إعادة استخدام النص الذي أورده بلوتارك، وحذا حذوه، بعدم ذكر أية معلومات حول الكتب التي احترقت، إلا أنه ظل على ربطه ربطًا مباشرًا بين الحريق الذي أضرمه قيصر وبين دمار المكتبة الكبرى.

نرى بالفعل، أنه بعد تأكيدات بلوتارك لم يسر على نهجه جميع المؤرخين حيث اختار كل واحد منهم حسب ميوله أو مخاوفه أو مصادره الرواية الكاملة أو المنقوصة للأحداث؛ وعلى أية حال هناك الكثير من المؤلفين الذين لم يشيروا من قريب أو بعيد إلى النيران التي أحرقت آلاف المخطوطات أثناء الحرب السكندرية

(85) Orosio, "Historiarum Adversum Paganos Libri Septem", VI, 15. 31-34. 16.

(86) Zonaras (fines s. XI-m. mediados s. XII, fl. s. XII), "Epitome Historiarum", X, 10. 3.

الأولى، ومن بينهم قيصر، وبسيود وهيتريو، وشيشرون وإسترابون وسويتونيو والمؤرخ السكندري أبيانو[٨٧] الذي حصل على حق المواطنة الرومانية، وهو مؤرخ معروف بأخطائه وما يغمطه من أحداث؛ هنا نجد أن بعض الباحثين يرى أن أبيانو كان يداري مشاعره الموالية للمصريين ولا يرغب أن تتهم الإسكندرية، مسقط رأسه، بهذا الحدث الجلل.

أضف إلى تلك اللعبة المكونة من التنويهات والصمت بشأن الواقعة هناك لعبة في القمة بين السلطة السياسية ومجتمع الصفوة المصغّر في ذلك العصر، تشير إلى أن ضياع المكتبة الكبرى كان ضربة رهيبة تعرضت لها الإسكندرية، تلك المدينة التي كان يبلغ تعداد سكانها نصف مليون نسمة. ومن الناحية الفعلية نجد أن الذاكرة الجمعية لكل هؤلاء، بنقل الأخبار أبا عن جد، هي التي أبقت على ذكرى هذه الكارثة حية تطفو بلا كلل أو ملل عبر الزمان رغم ما قاله ورواه كتاب وسياسيون أو سكتوا عنه؛ يظهر قيصر في هذه الذاكرة الشعبية مرتبطًا بشكل دائم بتدمير مكتبة الإسكندرية الكبرى؛ وهنا نجد أن كلاً من أميانو وأوروسيو قد أكدا هذا من خلال شهادتهما، وهي الرواية التي قاومت عبر الزمن وحظيت بالقبول نهائيا.

زوال المكتبة الكبرى بالكامل:

بعد الحرب والحريق نجد أن الدمار الكلي والجزئي للمكتبة الكبرى، عام ٤٨ ق.م.، قد قضى على تلك الهيئة السكندرية، وزوالها من صفحات التاريخ، رغم أن المتحف ظل موجودًا لبعض الوقت. وقد أشار القلائل من الذين ذكروها إلى أنها قد زالت من الوجود بسبب حريق؛ وابتداءً من ذلك لم يعد أحد يذكر المكتبة الكبرى من جديد على أنها مؤسسة قائمة ومستقلة. هنا يؤكد "Cherf" أن "فريز Fraser"

---

(87)Apiano (s. II d. C).

تأكد من أن جُلّ الإشارات إلى مكتبة الإسكندرية خلال العصر الإمبراطوري من تلك النصوص ذات الطبيعة التاريخية، تتحدث دائمًا عن مكتبة السرابيوم. وكانت هذه الملاحظة هي التي دفعت فريزر ليؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أنه إذا ما أخذنا في الاعتبار كل ما نعرفه فإن الصواب لا يجانبنا عندما نفترض أن جل محتوى المكتبة الملكية، اللهم إلا إذا كان بالكامل، قد احترق أو تعرض لدمار شديد من جرّاء الحريق الذي يرجع لعام ٤٨ ق.م.[٨٨].

رأينا إذن أن المؤرخين لم يذكروها، أي هذه الكارثة، بما في ذلك إسترابون في معرض وصفه للآثار التي ظلت باقية في الإسكندرية مع نهاية القرن الأول، ولم يذكر إلا المتحف فقط الذي ظل جزءًا من القصور الملكية، وكان أوكتابيو أوجست هو الذي عين مديره. وهنا نرى أن إسترابون يشير إشارة غير مباشرة إلى أن المكتبة كوحدة مستقلة لم تعد قائمة، وبالتالي فإن وظيفة عميد المكتبة زالت هي الأخرى.

ورغم أن المكتبة الكبرى قد زالت بالفعل باعتبارها هيئة مستقلة، بعد الحريق الذي تسبب فيه قيصر، يمكننا أن نلملم أشلاءها التي ظلت قائمة حتى القرن الثالث الميلادي وذلك من خلال اتخاذ يوليوس قيصر للميقات المسمى اليولياني المكون من ٣٦٥ يومًا والمنقول عن الميقات المصري، وكذلك من خلال المساعدة التي قدمها أوجست أوكتابيو عام ١٢ ق.م. في محاولة لتوسعة المكتبات السكندرية رغم أنها يمكن أن تكون فقط مكتبة قيصرون أو بعض المكتبات الأخرى.

يحدث الشيء نفسه بالنسبة للمتحف وتواجد العلماء فيه مثل إسترابون الذي درس فيه واطلع على ملفاته المتعلقة بفيضانات النيل، وكذلك ما قام به "ديديمو Didymo"[٨٩]، العالم السكندري للمتحف، خلال القرن الأول الميلادي، بما أوردته

(88) Fraser, "Ptalemaic Alexandria", -"Alejandría Ptolemaica"-, 1:335, 1972, en Cherra, Viento...", pgs. 71-72.

.(89) Fraser, "Alej. Ptolem"

في "التعليقات" بشأن كتب المكتبة القديمة على زمن إسترابون، وبالتالي كان ذلك بعد الحريق، وكان متوافقًا مع ما أكده سنيكا، الأمر الذي يعني أن بعض الكتب قد نجا من الحريق الذي طال المبنى بالكامل، وأمكن إعادة جمعها في مقر المتحف.

نعرف بعض الشيء أيضًا عن المكتبة من خلال تواجد عالم النحو تريفون أو حبرون المعاصر لـ"ديديمو Didymo"، على زمن "تيبريو Tiberio"(٩٠)، وكذا المعلق الأدبي "تيون Theon". هناك "أرسطونيك Aristonico" الذي ألف كتابًا بشأن المتحف، وهناك أبيون وهركوليدس؛ وهناك الدراسات الطبية لهركوليدس دي ثارنتو، والطبيب "ثلسو Celso"، وجالينو الكاتب الذي درس أيضًا في المتحف. وهناك الزيارات التي قام بها الأباطرة Vespasiano و Domiciano للمتحف البطلمي مع نهاية القرن الأول الميلادي؛ وكذلك هادريان ومارك أوريليو خلال القرن الثاني للمشاركة في جلسات النقاش التي عقدها العلماء السكندريون.

على أية حال فإن مصير المتحف، وكذلك المكتبة الكبرى، قد أثرت فيه عمليات التدمير المتوالية التي تعرضت لها الإسكندرية ابتداءً من القرن الأول وحتى القرن الثالث الميلادي، وذلك عندما أصبحت هذه المدينة المزدهرة التي كانت تنافس روما، من حيث اتساع الرقعة العمرانية وجمالها، مسرحًا للعديد من الصراعات التي شارك فيها الأبطال الجدد للفكر السياسي والديني. وهنا نجد أن "إيوزبيو دي ثيساريا Eusebio de Cesarea"(٩١) يقول بأن عملية التدمير الأول التي لحقت بالحي الراقي Bruchion تعود إلى كلاوديو الأول(٩٢) في منتصف القرن الأول الميلادي.

كانت الإسكندرية حتى ذلك الحين المركز الثقافي الأول بلا منازع، حيث يلتقي فيها أُناس من ثقافات مختلفة، لكنها أيضًا كانت المدينة التي تشهد حركة وطنية

---

(90)Tiberio (H -37 d. C.).

(91) Eusebio, "Historia Eclesiástica"

(92) Claudio I (d 1-54 d. C.).

قادمة من داخل مصر وتساندها شكل جزئي تلك العقائد القديمة التي أخذت في الزوال، إضافةً إلى معتقدات جديدة هي اليهودية والمسيحية التي أخذت تفتح لنفسها طريقًا على الساحة بعنف غير عادي، وكان ذلك مجرد ديناميت خالص في مدينة مثل الإسكندرية حيث كان ينظر إلى سكانها على أنهم غايةً في العنف، ولم يكن ذلك لمجرد أسباب اجتماعية أو سياسية فقط وإنما هناك البحر والرياح، وكان المصريون أنفسهم ينظرون إلى السكندريين على أنهم أكثر الناس ميلاً إلى العربدة في مصر، وهذا - طبقًا لهم - يرجع إلى عنف الموجات وهبوب الرياح.

ثار اليهود عام ١١٦م تحت حكم الإمبراطور تراجان[٩٣] وحطموا جزءًا من الحي الراقي Bruchion[٩٤]، وفي هذه الثورة تعرض المعبد اليهودي Diapleuston للدمار وهو المركز الثقافي لهم. لكن عندما زار هادريان الإسكندرية عام ١٣٠م أمر بإعادة بناء المدينة وأسس فيها مكتبة جديدة في Caserion[٩٥]، وكذا في الـ Hadriamon، الذي هو أرشيف للوثائق الرسمية، وأقام حلقات نقاش حول الفلسفة في المتحف البطلمي وكان بذلك المحرك الأساسي لميلاد جديد لتلك المؤسسة لم يعش طويلاً.

وخلال الفترة من ١٧٢ إلى ١٧٥م امتدت إلى الإسكندرية ما يسمى "بتمرد بقوليا" التي بدأت في الدلتا، حيث تزعم الراهب المصري إيسيدورو تمردًا عنيفًا قام به الفلاحون واستولى على المدينة؛ وفور القضاء على هذا التمرد بدأ تمرد آخر على يد المغتصب "أفيديو كاسيو A.Casio" عام ١٧٥م ونصّب نفسه إمبراطور الشرق وساندته الإسكندرية. هنا نجد أن جنود الإمبراطور ماركو أوريليو[٩٦] تصدوا له وهزموه، وأصدر الإمبراطور عفوًا عن المدينة. عانى السكندريون أيضًا تحت حكم خليفته، الإمبراطور كومود[٩٧] من النقمة الإمبراطورية وعمليات تدمير جديدة.

---

(93) Trajano (98-117 d. C.).

(94) Dion Çassio, "Hist. Rom.", LXVIII, 32.

(95) Filón, "Embaja. da de los Judios a Gaio", XXII.

(96) Marco Aurelio (161-180 d. C.).

(97) Cómodo (180-192 d. C.).

اتسم أتينيو دي نوكراتس، الخطيب والنحوي اليوناني الذي ولد في مصر، بنشاطه خلال نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلادي، فطبقًا للموسوعة البيزنطية المسماة Suidas(٩٨) أنه كتب في روما في فجر القرن الثالث الميلادي كتابًا بعنوان "وليمة العلماء"(٩٩) وهو كتاب يتألف من خمسة عشر مجلدًا، هو عمل من الأعمال الأدبية والأثرية، حيث تضمن ذكر ثمانمائة وألفي مؤلف وذكر خمسمائة كتاب ترجع العصر اليوناني الكلاسيكي والهلنستي؛ يشير في هذا الكتاب الضخم إلى المكتبة الكبرى في الإسكندرية مستندًا في هذا إلى النصوص التي كتبها المؤلفون المعاصرون للعصر البلطمي، أي عندما كانت المكتبة في أوج ازدهارها.

من الواضح إذن أن أتينيو لم يكن يشير إلى المكتبة الأولى التي تحدث عنها المؤلفون اليونانيون خلال العصر الهلنستي، رغم أنه، على زمانه، كانت "أكاديمية أرسطو"، المسماة "مدرسة الإسكندرية" والكائنة على مقربة من معبد السرابيوم الذي تصاحبه "المكتبة الابنة" أو "الصغرى"، تعيش عصر ازدهارها. ونظرًا لقدراته الأدبية الرائعة يحدثنا عن المكتبة الكبرى في ظل بطليموس الثاني؛ غير أن هذا الوصف هو وصف يتيم.

يعتقد البعض أن ما كتبه أتينيو يبرهن على أن المكتبة الكبرى كانت لا تزال موجودة حتى بداية القرن الثالث الميلادي، وهذا ما يتناقض مع الصمت الذي خيم لعدة قرون، ومع تأكيدات كل من بلوتارك وخيليو، اللذين قالا بها قبل ذلك بقرن أي أن المكتبة قد هدمت. هنا نجد أن أتينيو يتحدث عن المكتبة الكبرى في لحظة من أزهى عصور ازدهارها في ظل أوائل الحكام البطالمة المثقفين قبل ذلك بخمسمائة عام.

(98)El Suidas, Suda o Souda es una enciclopédia bizantina dei s. X, de Ia que se conserva parte dei texto original, y un "Epitomé" completo de época medieval. Trata dei mundo mediterráneo, con 30.000 entradas, basado en Constantino VII, para Ia historia antigua, y en Hamartolo, o Giorgos Monachos, para Ia era bizantina.

(99) Ateneo (activo c. 192-200 d. C.), "Deipnosophistai",

وصف لنا إذن النموذج الذي كانت عليه المكتبة القديمة، بأسلوب أدبي وتاريخي يصور فيه مفخرة الإسكندرية، وتؤكد كلماته ذلك عندما يقول: "وعندما نتحدث عن عدد الكتب والأرفف ومجموعات القطع الأثرية التي كانت في "صالون الإلهام" لسنا بحاجة إلى أن نقول شيئًا فكل هذا قد أصبح لصيق ذاكرة كل إنسان"(١٠٠)؛ واعتبر أن المكتبة قد زالت من الوجود وهو يكتب لنا السطور السابقة، فكلماته تنوه بذلك وتذكرنا بالكتب والأرفف الخاصة بالمكتبة ومقتنيات المتحف، وبخاصةً القطع الهاشة التي لم تصمد أمام النيران التي أشعلها قيصر. نجد إذن أن هذه الصور تسكن الذاكرة الجمعية.

تدمير المتحف البطلمي:

كان القرن الثالث الميلادي شاهدًا على العنف الذي تعرضت له العاصمة المصرية حيث تعرضت للنهب والسرقة ولم تعد تحظى بحماية حماتها الملكيين؛ وكانت أعمال التدمير هذه ساحقة فيما يتعلق بالمقارّ الملكية، التي هجرها سكانها، وفي كافة المناطق الوطيئة في المدينة القريبة من شاطئ البحر؛ خلال القرن الثالث الميلادي اختفى من الساحة بشكل نهائي كل من المتحف البطلمي والمكتبة الصغيرة الملحقة به وكذا إجمالي حي الصفوة أو الحي الراقي Bruchion، وهنا يمكننا أن نتذكر هدم الإسكندرية خلال ذلك القرن، حيث جاء ذلك على أيدي الأباطرة الرومان الذين تعاقبوا بدءًا بأسرة الإمبراطور سيفيرو(١٠١).

كان كاراكالا واحدًا من الذين دمّروا المدينة(١٠٢) في هجوم عنيف عام ٢١٥ وعام ٢١٦م، فألغى ما يسمى "Syssitia" أو "الدهليز المشترك"(١٠٣) الخاص بالعلماء، وقطع كافة المساعدات الإمبراطورية وحال دون وجود الأجانب في المكان، وبالتالي

(100)Alcneo, "Deipnosophistai", I. 10. 22 d; IV; V. 203 e.

(101)Dinastia de los Severos (193-235 d. C.).

(102)Dion Cassio, "Hist. Rom.", LXXVIII, 22.

(103)Butler, "The Amb Conquest...", pg. 41).

أصدر مرسومًا بإلغاء المتحف، وقضى بذلك على أية ملحقات للمكتبة القديمة، رغم أنه يبدو أن المتحف ظل يعمل ولكن في حالة شديدة التدهور[١٠٤].

وفي عام ٢٤٠م، أثناء حكم الإمبراطور جورديانو الثالث، وكذلك في عام ٢٥٠م في عصر ديثيو[١٠٥]، انطلقت أوليات المطاردات للمسيحيين، وأثرت بالتالي على المدينة. كما نجد أن الإمبراطور فاليديانو[١٠٦] قام بتدميرها، وكان هو الآخر ممن طاردوا المسيحيين؛ وفعل ذلك أيضًا جاليانو[١٠٧] الذي قام عام ٢٦٥م. بمحاربة قائده إميليانو في الإسكندرية، وقام بتدمير الحي الراقي Bruchion حيث قد احتمى به الأول، طبقًا لرواية ديونيسيو، أسقف الإسكندرية دون أدنى إشارة إلى المتحف. كما لا يجب ألا ننسى غزو المدينة المدمّر على يد الملكة زنوبيا ملكة Palmira عام ٢٦٩م، حيث شعرت بالفرحة لإستيلائها على "مصر، هذه الدرّة الفريدة في هذه الدنيا وقمة الثقافة".

نشير أيضًا الدمار الشديد على يد الإمبراطور أوريليانو[١٠٨] لطرد زنوبيا، عام ٢٧٣م في الحي الملكي، الذي جرى نهبه وتدميره، وهذا ما قصه علينا أميانو بقوله "في ظل حكم أوريليانو تهدمت الأسوار وفقدت المدينة أغلب أجزاء حي الأغنياء Bruchion الذي ظل لفترة طويلة حي الصفوة"[١٠٩]. لم يتبق إلا مشهد من الأطلال التي لا تكاد تنبئ عن شيء مما كان عليه المتحف أو المكتبة الملحقة به؛ وهنا يذكر المؤرخون أن القليل من العلماء الذين شهدوا هذه العمليات الأخيرة شعروا بالفزع الشديد وبحثوا عن ملاذ لهم في الجزء المرتفع الذي كانت به المكتبة الصغرى، ذلك

(104) Gordiano III (238-244 d. C.).
(105) Decio (249-251 d. C).
(106) Valeriano (252-260 d. C).
(107)Galieno (253-268 d. C).
(108)Aureliano (270-275 d. C.).
(109)Amiano, "Rer. Gest.", XXII, 16, 15.

أن السرابيوم[١١٠] كان يحظى بحماية أفضل، إضافةً إلى هجرة بعضهم إلى بيزنطة.

كان أوريليانو هو الذي وضع القواعد الخاصة بـ Soma حيث هناك رفات الإسكندر الأكبر وكذا كافة الأراشيف المصرية المقدسة ـ وهو الذي اتخذ إجراءات إدارية جديدة تتعلق بالمكتبات، ولا شك أنها إجراءات تستهدف المكتبة الصغرى المترعة بالكتب؛ كما نجد أن الكثير من المؤرخين يشيرون إلى أعمال التدمير التي قام بها أوريليانو مثل تلك التي أدت إلى نهب المتحف والمكتبة وتدميرهما، بغية أن يكون ذلك هو النهاية الحقيقية للمكتبة الكبرى. والغاية هي تبرئة ذمة قيصر، غير أن كلاً من بلوتارك وخيليو قالا الحقيقة قبل ذلك بوقت طويل، وكانت قد مضت ثلاثمائة سنة على زوالها.

هناك بعض العلماء الذين يدافعون عن هذه النظرية المتعلقة بأوريليانو ومنهم "ج. واي. إمبرور J.Y. Empereur"[١١١]، فقد جاء هذا المؤرخ بما قاله أميانو ـ وهذا شيء غريب ـ للتدليل على صحة نظريته بشأن المكتبة الكبرى وأنها دمرت في عصر أوريليانو، أي في نهاية القرن الثالث الميلادي وليس في عصر قيصر. وهنا نعود للقول بأن ذلك المؤرخ، أميانو، يقولها بوضوح وهو أن الحريق الذي تسبب فيه قيصر، هو الذي أدى إلى تدمير المحتوى الضخم الذي كان في المكتبة البطلمية[١١٢]، وهذا ما جاء في كتابه "الحروب السكندرية".

نعرف أيضًا أن دقلديانوس[١١٣]، قام بعد حصار للمدينة امتد لثمانية أشهر بتدميرها[١١٤] عام ٢٩٧م، وكان ذلك لإخماد تمرد تزعمه المغتصب "ل. دوميثيو

---

(110) Butler, "The Amb Conquest...", pg. 411.

(111) Empereur, "The destruction of the Library of Alexandria. An archaeological viewpoinf, "La destrucción de la Biblioteca de Alejandria. Unfunto de vista arqueológico"_. pgs. 75-88, en El-Abbadi y otr., " Qué le sucedia a la Bibl, Ale? " Brill, Leiden-Boston, 2008.

(112) Amiano, XXII, 15, 16.

(113) Diocleciano (284-305 d. C.).

(114) Orosio, "Historia", VII, 25.8; Eutropio, "Breviarum ab urbe condita", _"Compendio de Historia Romana"-, IX, 23.

دوميثيانو L.D. Domiciano" وتركها نهبًا لألسنة النيران(١١٥) طبقًا لما رواه "خوان نيكيو J.Nikiu"، وفعل الشيء نفسه وهو يقوم بمطاردة لا هوادة فيها للمسيحيين إذ أمر بتدمير كافة كنائسهم وإحراق كتبهم المقدسة عام ٣٠٢م ونهب المدينة من جديد، وامتد ذلك إلى المتحف والمكتبة الملحقة به، رغم ما كانا عليه من دمار وخراب.

لم يكن الأمر ليكون غير هذا، ذلك أن ث. أوريليو سرابيو، أهدى في تلك الآونة تمثالاً للإمبراطور دقلديانوس، واستولى، في إطار هذا، على قاعدة تمثال بطلمي كان في المتحف ليضع تمثال الملك فوقها، وحطم بهذا تمثال "أيليو ديمتريو Aelio D."(١١٦) الذي كان موجودًا آنذاك على تلك القاعدة؛ وهذا المسلك يشير، إذا ما أردنا المزيد من الأمثلة، إلى أن مقر هذه المؤسسة الشهيرة كان مهجورًا بالكامل مع نهاية القرن الثالث الميلادي، وإلا لما أمكن تنفيذ هذا الاعتداء على المكان.

هنا نجد أن دقلديانوس الرجل الذي عُنِيَ بتوحيد المبالغ التي يجب سدادها إلى الكتبة في كافة أنحاء الإمبراطورية، يصدر قرارًا بإجراء غريب وهو إحراق كافة الكتب في المتحف من تلك المتعلقة بصناعة الحديد وكيمياء الذهب والفضة(١١٧) والعلوم السرّية (علم الكيمياء الخرافية)، وربما كان ذلك للحيلولة دون استخدام أعدائه لها، فقد كان شديد القلق إزاء المعارف السرّية التي عليها المصريون؛ إذن نجد أن المتحف الروماني للسرابيوم، في أوج ازدهاره كأكاديمية، وكذا مكتبته، بضمان تلك الكتب التي كان يبحث عنها دقلديانوس؛ غير أن المتحف البطلمي ومكتبته القديمة لم يكونا موجودين خلال ما بعد القرن الثالث الميلادي.

هنا نشير إلى أن أميانو قد أكد أنه في عام ٢٧٣م جرى هدم "أغلب حيّ الصفوة Bruchion..."(١١٨)، فلم يعد ذلك القطاع السكني الملكي، الذي شغل ثلث

---

(115) Juan de Níkiu, "Crónica".

(116) Botti, "Pontues 1896", pg. 97.

(117)Juan de Antioquía, en "Suida".

(118)Amiano, "Hist. Roma", XXII, 16, 15.

مساحة الإسكندرية وهو المكان الذي شهد إقامة المتحف والمكتبة السكندرية، جزءًا من المدينة وتحوّل إلى منطقة تغطيها الرمال والأعشاب والأطلال وتزمجر فيه أصوات البحر الهائج، ثم أسهمت زيادة المدّ والزلازل في تدمير تلك الأجزاء القريبة من البحر وأخذت تلتهم حيّ الصفوة Bruchion بلا هوادة.

في الوقت ذاته، نجد أسقف "سلامينا" القبرصية، في Coustanza وأب الكنيسة، ويدعى إيبيفانيو دي سلامينا، يؤكد ذلك مؤخرًا، خلال القرن الرابع الميلادي في كتابه "حول المقاييس والموازين" وهو "أن ذلك المكان من الإسكندرية الذي شهد إقامة المكتبة أصبح مكانًا مقفرًا..."(119)، وجاء ذلك بأسلوب فيه حنين واشتياق، كما أن إيبيفانيو كان يؤكد أيضًا على أن المكتبة الكبرى التي زالت من الوجود كانت تضم ٥٤٨٠٠ لفافة بردي فقط(120) على زمن بطليموس الثاني، وهو بذلك قد حَجَّم المشكلة على هذا النحو مع مرور زمن طويل وما طواه النسيان، بحيث صوّرها بنسبة ١٠٪ من حجمها الحقيقي وبذلك يبدو من المستحيل معه تقدير كميات الكتب التي كانت في المكتبة خلال القرن الثالث قبل الميلاد، مهما كانت، أو ربما كان يقلل من حجم وهول الكارثة القديمة.

هذه الأرقام أخذ بها العرب بعد ذلك وهم الذين لم يعرفوا قط المكتبة البطلمية الشهيرة. ومع هذا فإن القديس إيسيدورو الإشبيلي ذكر عام ٦٠٠م، في كتابه Etimalogias أن عدد الكتب التي كانت لدى بطليموس الثاني في المكتبة بلغ سبعون ألفًا(121)؛ لكن Tzetzes يعود، خلال عام ١١٠٠ م إلى الإشارة إلى ما أورده "أريسطيو Aristeo"، عندما قال بأن عدد لفائف البردي التي كان يحوزها بطليموس الثاني قد بلغ ٥٣٢٨٠٠(122).

---

(119)Epifanio, "Sobre med. y pes", IX, 25, 52 b. "Patrologia Graeca", 43, col. 249 C.

(120)Epifanio, "Patroi. Graeca", col. 269-270.

(121)Isidoro, "Etimologias", 6:3:3.

(122)Tzétzés, "De Comaedia".

نجد حتي هذه اللحظة أن دقة الرقم الذي ذكره إيبيفانيو قد إنتقل إلى (٥٤٨٠٠ لفافة). هذا لا يشبه أي رقم آخر ساقه الكُتّاب والمؤرخون؛ كما إن قرب هذا التقدير من الذي جاء به Tzetzes، وهو ٣٢٨٠٠ لفافة من البردي، يحدو بنا للتفكير بأن كلا الكاتبين كانا على إطلاع على الكتب القديمة لكل من أرستيو وكاليماكو وآخرين من المؤرخين الذين لا نعرف عنهم شيئًا. وبينما نجد أن Tzetzes كان دقيقًا في ذكره للأرقام التي تم استقاؤها من المصادر القديمة، يبدو جليا أن إيبيفانيو قد خالف الأصول المرعية، بمعنى القيام بتعديل الأرقام وتزييفها، فلم يكلف نفسه عناء تعديل الرقم الأول أو حتى الرقم الأخير، فقد انتقل من ٥٣٢٨٠٠ لفافة إلى ٥٤٨٠٠، ويمكن لهذا التزييف المفترض أن يبين لنا أنه حتى القرن الرابع الميلادي كان من الشائع في الإسكندرية قبول رقم نصف مليون مخطوطة بردي محتوًى للمكتبة الكبرى؛ وظل هذا الرقم يحظى بالقبول في بيزنطة خلال القرن الثاني عشر الميلادي، وهذا طبقًا لشهادة Tzetzes على الأقل.

وإذا ما كان هناك حتى الآن شك في دمار المكتبة الكبرى وزوالها يمكن الإشارة إلى أن "راعي الكنيسة" اللاتيني سان جيرونيمو[١٢٣]، الذي عاش في الإسكندرية خلال الفترة من ٣٨٥ حتى ٣٨٨م، قدم لنا شاهدا على ما كان عليه هي الصفوة من إهمال وتحوله إلى أطلال مع نهاية القرن الرابع الميلادي، وأكد أن هذه الأطلال قد خرجت عن الرقعة العمرانية السكندرية وأطلق عليها Kaurchon.

نرى إذن أن كلاً من المكتبة الكبرى في الإسكندرية والمتحف البطلمي كان قد زال أي أثر لهما خلال تلك الأيام وكان هناك الكثير من المؤرخين الذين سجلوا ذلك وهم من اليونانيين والرومان والبيزنطيين؛ لدرجة أنه كان من المستحيل العثور على أي شيءٍ منها خلال القرن الرابع الميلادي.

ننتهي بهذا من الفصل الأول من القصة، حيث نلاحظ أن العرب كانوا غير موجودين على الساحة بالمرة، ومن المستحيل بالتالي ربطهم بأي حال من الأحوال

(123) S. Jerónimo (342 - 420 d. C).

بالحادثة المشئومة الخاصة باشتعال النيران التي دمرت المكتبة الكبرى بالإسكندرية وأدت إلى زوالها من الوجود خلال الفترة من نهاية القرن الأول ق.م. ونهاية القرن الثالث الميلادي. ومعنى هذا أن ذلك قد تم قبل وصول العرب إليها بنحو ٦٨٨ عامًا، أو ٤٣٠ عامًا اعتبارًا من آخر الأطلال التي كانت قائمة، وإذا ما كان الأمر كذلك، أي أن المكتبة الكبرى تعرضت للدمار الكامل على يد الرومان دون أدنى مشاركة من العرب فإننا نتساءل هنا: عن ماذا نتحدث؟ ولماذا نصر على إقحامهم في الأمر، بطريقة لا عقلانية وغير عادلة، أي القول بمشاركتهم في أمر لم يكونوا مشركين فيه طبقًا لكافة الشواهد التاريخية والأدبية المتوفرة لدينا؟ علينا أن نعثر من خلال الفصل الثاني على مفاتيح أخرى تساعدنا على المزيد من فهم الموقف.

الفصل الثاني

مصير السرابيوم والمكتبة الصغرى في راقودس

توسع المكتبة الصغرى وازدهارها:

ما الذي حدث في الوقت ذاته بالنسبة للمكتبة الصغرى راقودس؟ تقع المكتبة الملكية الثانية بالإسكندرية بعيدًا عن الميناء وعن الأحياء الوطنية في المدينة، أي في السهول والشطآن التي توجد على مستوى سطح البحر، ومعنى هذا أنها بعيدةٌ عن ميادين الصراع والتدمير الذي طال المدينة، أي أنها بقيت سليمة، وهي تقع داخل مقر معبد السرابيوم وقد بنيت على الصخرة الرئيسية للمدينة، أي في مكان يقاوم الزلازل، الأمر الذي أدى إلى دعم قدرة عمودها الكبير على المقاومة والبقاء عبر الزمان.

أقيم معبد سرابيس في أكثر المناطق ارتفاعًا في الإسكندرية، على صخرة راقودس، أي في ذلك المكان الذي أطلق عليه "أكروبولس"(١٢٤) عام ٣٠٠ ق.م. في عصر بطليموس الأول، طبقًا لرواية "تاثيتو Tacito" في "الحوليات"(١٢٥)، وجرت توسعته على يد بطليموس الثالث، مؤسس المكتبة الصغيرة في داخل المعبد، وبعد ذلك أيضًا جرت توسعة المعبد على يد الأباطرة الرومان ابتداءً من كلاوديو الأول وحتى أنطونينو بيو، وأصبح المعبد ذا مساحة ضخمة، وتحول إلى أفضل وأعظم

---

(124)Polibio, "Historia", V, 39; Clemente de Alejandría, "Protreptíco", IV, 42.

(125)Tácito, "Annalef'", IV, escritos en el 117 d. C.

الآثار الرومانية، وهو السرابيوم كما أطلق عليه الرومان الذي لم يكن يتفوق عليه معبد آخر في جماله وبهائه إلا "الكابيتول" في روما، طبقًا لما ذكره أميانو[١٢٦]. كان يقيم في منشآته المقدسة رهبان مطهّرون ورجال تربوا تربية عظيمة وكانت الفرصة متاحة أمامهم ليدرسوا في هدوء ويقوموا بنسخ المخطوطات القديمة من مختلف الثقافات واللغات وهم في المكتبة الصغرى.

ولما كانت هذه المكتبة قد نجت بالكامل بعد الحروب السكندرية، فالاحتمال قائم في أنها تلقت مجموعات لفائف البردي التي تم نهبها من مكتبة Pergamo، ويبلغ عددها نحو مائتي ألف لفافة، وهي التي أهداها مارك أنطونيو إلى حبيبته كليوباترا، وبرر هذا العدوان بحبه لكليوباترا، وعوّض بذلك بشكل جزئي ما لا يعوّض من جرّاء الحريق الذي أضرمه يوليوس قيصر، وهذا ما يقصه علينا بلوتارك مشيرًا إلى شهادة القنصل دوميتيو كالفينيو، الرجل الذي لم يكن يوثق به كثيرًا[١٢٧]. وعلى أية حال فإن هذه الملكة الشهيرة والأسطورية ذات الثقافة الواسعة شعرت بألم شديد لفقدان جوهرة الإسكندرية وهي المكتبة الكبرى، وكانت شديدة الاهتمام بالمكتبة الوحيدة التي بقيت وهي المكتبة الصغرى. والشيء نفسه ينطبق على معبد السرابيوم حيث كانت تشارك في طقوس الاحتفال بالإلهة إيزيس وهي تضع أقنعة ذات إيحاءات خاصة.

كانت هذه المكتبة التي تم نهبها Pergamo هي المكتبة الهلنستية الثانية في الأهمية بعد مكتبة الإسكندرية، وقد أسسها كل من الملك Atalidas وإيرومنس الأول وإيرومنس الثاني دي ميسيا، خلال القرن الثاني قبل الميلاد سيرًا في هذا على التقليد الذي اتبعه البطالمة، وطبقًا لآخر الاكتشافات فإن هذه المكتبة كانت واحدة من ملحقات معبد "أتينيا Atenea"، وكانت عبارة عن أربع صالات تحيط بمجموعة من الأعمدة على شكل حرف u وكان حجم أكبر هذه الصالات ١٤×١٦م

(126) Arniano, "Jierum Gestarum", -" Historia de Roma"-, XXII. 16, 12.

(127) Plucarco, "Vitae, Antonius", -"Vidas, Antonio"-, 58.

وكانت مخصصة للاستقبالات والمحاضرات؛ لكن الصالات الثلاث الباقية كانت مستودعات للكتب وكان لها أرفف ودواليب، بها الكتب المائتا ألف التي أضافها مارك أنطونيو. كانت المكتبة مزدانة بتمثال كبير لأتينيا وتماثيل نصفية لهوميروس وهيرودوت وآخرين من العبقريات الأدبية.

هذا يذكرنا بما كان يقوله بلينيو العجوز في كتابه "التاريخ الطبيعي" خلال القرن الأول الميلادي: "... علينا ألا نتجاهل ابتكارًا يتسم بأنه حديث نسبيًا وهو وضع لوحات في المكتاب، وإذا لم تكن هذه اللوحات من ذهب أو فضة فهي من البرونز على الأقل، وكانت هذه اللوحات مخصصة لتلك الشخصيات الخالدة التي تحدثنا عن تلك الأماكن، وبالفعل نجد لوحات لتلك الشخصيات الخالدة ولم يتم تنميطها قط وقادنا حسّنا إلى إبداع وجوه غير مسبوقة مثل وجه هوميروس"(١٢٨).

أما المكتبة الوحيدة التي ظلت باقية ووصلت إلينا من موروثات العالم القديم فهي مكتبة "دار البردي" Villa dei Papiri(١٢٩) في هيركولانو، إيطاليا، وهي مكتبة ترجع إلى القرن الأول قبل الميلاد. كانت هذه المكتبة في دار خاصة مخصصة لشخصية رومانية بارزة لتزجية وقت فراغه، وربما كان هذا الشخص هو "بيسو Piso" حمو يوليوس قيصر. كانت المكتبة تقع في صالة وحيدة وصغيرة ولها أرضية من الفسيفساء ودواليب خشبية وأرفف مطعمة وكرانيش حيث تتراص الصناديق الأسطوانية من اللحاء والتي كانت تضم لفافات البردي بداخلها وقد وضعت عليها بطاقة تعريف. وكانت هناك مائدة من الرخام للإطلاع على هذه الكتب فوقها ساعات شمسية وساعات مائية لقياس الوقت، إضافةً إلى زخارف أخرى عبارة عن تماثيل نصفية من البرونز للفلاسفة وكذا لأبيقور. كانت النصوص اللاتينية موجودة في صالة الأرشيف الأسري الضخمة، وهي ما يُطلق عليها

---

(128) Plinio el Viejo, "Historia Natura", XXXV, 9.

(129)Sider, "The Libmry of the Villa dei Papiri at Hercuianeum", -"La Biblioteca de Ia Villa de los Papiros en Herculano"_, pgs. 2-10, 18-23, Getty Publ. Los Angeles, 2005.

"Tablimum" وكانت المكتبة بكاملها تضم ألف ومائة لفافة بردي تتعلق أساساً بالفلسفة اليونانية والأبيقورية والرواقية إضافةً إلى بعض النصوص اللاتينية الأخرى.

كانت قضية تهوية المكان من الجوانب المهمة للغاية بالنسبة للمكتبات القديمة، حيث كانت الرطوبة والعتّة من أعداء الكتب، ويلاحظ أن المكتبتين اللتين عثر عليهما في "دار البردي Villa dei Pariri" كانتا جيدتي التهوية حيث توجد فيهما فتحات وأبواب أكثر من المكتبات الأخرى وذلك لإيجاد تيار هوائي مستمر، أو أنها مكتبات لم يكن لها إلا ثلاثة جدران بحيث نجد أن المكان مفتوح بالكامل على صحن مكشوف. كان هذا هو وضع المكتبة الخاصة بهذه "الدار" حيث روعي أن يدخلها أقصى قدر من الضوء والهواء ماراً بأرففها، كما كانت أيضاً صالات البردي المتوالية في "المكتبة الصغرى" مفتوحة تدخلها نسمة الهواء والشمس من خلال الصحون المختلفة، وكانت مزدانة بالأعمدة والنوافير والتماثيل ونباتات الريحان وغيرها من النباتات العطرية. وإذا ما تحدثنا من مكتبة "ثيلسو B. de Celso"(١٣٠) في بلدة إفيسو (تركيا) لوجدنا أنها المكتبة الخاصة الأكثر بهاءً وأهمية في الإمبراطورية، كما نعرف أن مبناها الرائع تكلف ٢٥٠٠٠ دينار، وتتألف من صالة وحيدة تتسم بالضخامة ويبلغ ارتفاع سقفها ستة عشر متراً وأرضيتها من الفسيفساء الملون ونقوش بارزة على الحوائط، وأربعة تماثيل لكل من الطب والفكر والمعرفة والحكمة، وكانت سعتها اثنى عشر ألف مجلد، ومن المصادفات أنها شيدت متجهة صوب الشرق، وربما كان الهدف هو الإفادة بأكبر قدر ممكن من ضوء النهار صباحاً؛ ظلت هذه المكتبة تعمل حتى عام ٢٦٢م، ثم تعرضت بعد ذلك لحريق أضرمته فيها جيوش الغزاة، لكن أعيد بناؤها خلال القرن الرابع الميلادي. وإذا ما طبقنا كل هذه الاكتشافات على الإسكندرية نفترض أن المكتبتين الكبريين الملكيتين

---

(130) Biblioteca de Celso (114-12(1 d. C.).

للإسكندرية لم تكونا في حاجة إلا لعدد من الأرفف التي يتراوح عددها من ثلاثين إلى أربعين رفًا في كل واحدة وذلك لوضع آلاف الكنوز من الكتب.

يرى البعض أن سلب محتوى برجامو Pergamo كان مآله "مكتبة قيصرون" التي أطلق عليها بعد ذلك Sebasteum، وهو المعبد السكندري الذي أسسته كليوباترا تكريمًا لمارك أنطونيو، وهذا عمل غير جيد، ذلك أن هذا المعبد كان مجاورًا للبحر، وبالتالي لم يكن مكانًا من الأماكن الآمنة لإقامة أية مكتبة جديدة؛ أضف إلى ذلك أن هذا غير محتمل للغاية ذلك أن الفيلسوف الهلنستي اليهودي فيلون السكندري(١٣١) والذي أورده المؤرخ اليهودي "جوزيفو Josefo" وصف هذا المعبد بقوله: "... يعتبر معبد السباستيوم أثرًا لا نظير له... مكوناته اعتيادية مثل الدهاليز والمكتبات والصحون والممرات والطرقات والمناطق المكدّسة..."(١٣٢)، ولم يول أهمية خاصة لمكتباته التي لا تقارن بالمؤسسة البطلمية الكبرى وهي "المكتبة الصغرى" والتي أصبح عمرها مائتي عام.

من الواضح أن عبادة الإله سرابيس البطلمي قد انزوت وتضاءلت مع انتحار كليوباترا وزوال ملك البطالمة عام ٣٠ ق.م. وعندما تحولت مصر إلى محافظة رومانية على يد أوكتافيانو Octaviano(١٣٣)، الذي أعلن تنصيبه باسم أوكتافيو أوجست وكان أول إمبراطور روماني عام ٢٧ ق.م. أصبحت وكأنها إقطاعية خاصة، رغم أن أكثر معابدها كانت قد هجرت على زمن أوجست، طبقًا لما يرويه إسترابون(١٣٤) في معرض حديثه عن معبد السرابيوم بسقارة والماثل هناك بعيدًا في الصحراء، غير أن هذا لا يعني أن سرابيوم الإسكندرية كان على الشاكلة نفسها من حيث المصير، أو يعني أن مكتبته جرى سلبها على يد يوليوس قيصر، فلم يكن

(131) Filón (20 a. C.-50 d. C.), "Legaño ad Gaium", ""Embajada de losjudíos ante Gaio"

(132) Joscfo (37-c. 100 d. C.), "Embajada de Filón y los judios alejandrinos ante Cal/gula".

(133) Octaviano, Octavio Augusto (43 a. C.-14 d. C.).

(134) Estrabón, "Geografia", XVII, 1, 9, 10.

لديه وقت متاح لذلك، ولم يفعل ذلك أوجست فليس هناك أي شاهد يدل على ذلك. كان أوجست سياسيًا حصيفًا فلم يكن يريد أن يضيف المزيد من الظلم إلى ما حدث على يد يوليوس قيصر.

إذا ما كان أوجست في حاجة إلى كتب لمكتباته الرومانية فلم يكن أمامه إلا أن يأمر بنسخ النصوص والكتب التي تهمه، وكان هناك بالفعل كذلك الكثير من الكتب، وفي نهاية المطاف نجد "أسينيو بوليون A. Polion"(١٣٥) يؤسس أول مكتبة عامة لروما عام ٣٩ ق.م. في الـ Atrium libertatis، كما أن اختفاء المكتبة الكبرى في الإسكندرية كان ماثلاً في ذهنه. وكان بوليول هو الذي قسّم المكتبات الرومانية، كل واحدة إلى قسمين: أحدهما لاتيني والآخر يوناني، وهو أيضًا الذي زخرفها بصور جميلة من الداخل حيث استخدم الفسيفساء الملونة والميداليات الجصية وفي داخلها صور للفلاسفة والكُتّاب، إضافةً إلى تماثيل نصفية وتماثيل رائعة لمنيرفا أو الإلهات.

خلفه في الحكم أوكتابيو أوجست الذي تحول إلى أول إمبراطور روماني وقام بالعمل في المهمة نفسها حيث حوّل المكتبات العامة إلى مؤسسات حكومية، وهنا نجده يؤسس في روما، عام ٣٥ ق.م. مكتبة Porticus octaviae، ومكتبة Campo de Marte، ثم بعد ذلك أسس مكتبة فخمة هي مكتبة معبد أبولو(١٣٦) Templi Apollinis، وقد أطلق عليها أيضًا la Palatina، التي بلغ عدد الكتب فيها ستة آلاف لفافة بردي.

استمر أباطرة أسرة يوليوس/ كلاوديا في خط تأسيس المكتبات في كافة أنحاء الإمبراطورية، وكانت "مكتبة تراجان" التي تقع في Termas أكبرها جميعًا إذ كان بها عشرون ألف لفافة بردي، وكانت مشهورة بما يسمى "كتب العاج"(١٣٧) وهي كتب

(135) AsinïO Poli´On (activo 39 a. C.).

(136) Horacio, "Odas", I. 31; Plínio el Viejo, "Historia Natural", VII. 30.

(137) "Libras de marfir.

ذات طبعات فاخرة على رقائق من العاج. ويمكن أن تكون كل من مكتبة معبد السرابيوم ومكتبة "برجامو Pergamo" وأنطاكية وأكاديميات أثينا أو أسواق رودس هي التي كانت تزود المكتبات السابقة بنسخ من المخطوطات اليونانية التي ملأت القطاعات المماثلة في المكتبات الإمبراطورية الرومانية وهي أقسام لم تبلغ قط ما عليه المكتبة الكبرى في الإسكندرية والمكتبة الصغرى سواء من حيث المساحة أو الشهرة.

وبعد أوجست، قام الأباطرة الرومان برعاية معبد السرابيوم والمكتبة الصغيرة في راقودس وقاموا بتوسعتهما، وكانت كنوز هذه المكتبة الأخيرة تفوق ما كانت عليه المكتبة الأولى، وكان الجميع يعتبر أن المكتبة السكندرية الثانية هي مكتبة ممتازة وهي الأروع والأجمل بين مكتبات العالم القديم المتأخر، وكانت ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالمتحف الروماني ومدارسه السكندرية المختلفة.

أسهم الأباطرة في زيادة الكنوز الأدبية التي كدّسها البطلميون هناك، ولمّا كانت المكتبة ملكًا إمبراطوريًا فإنهم لم يتوانوا عن إرسال كتب إلى المكتبة الصغرى خلال القرون الأربعة الأولى من بعد الميلاد، وتجلت الإسكندرية كواحدة من العواصم الثقافية في الإمبراطورية، وخلال تلك الفترة حظيت المكتبة بأنظمة حديثة للتدفئة وذلك لتقليل درجة الرطوبة العالية في المدينة، الأمر الذي ساعد على تخزين أوراق البردي الأكثر هشاشة أو تلك ذات المحتوى الثمين في أماكن مغلقة.

طريق سكندري:

تغير شكل المدينة بشكل جذري، ورغم أن الانتقال السياسي لم يحدث أذًى كبيرًا في الإسكندرية، فإن مصر التي أصبحت محافظة رومانية قد فقدت استقلالها وقوة دفعها، أي فقد ملوكها، وتحولت قصور الصفوة لتكون مستقرًا للوالي وحاشيته وجهازه الإداري؛ وفي هذا الحي ظلت بعض المباني مثل المتحف الذي أصيب بأذى، وأطلال المكتبة، ومئات المصليات والمعسكرات والورش والأراشيف، ورويدًا رويدًا أخذت الحدائق الغنّاء تجف نباتاتها حيث لم تعد تحظى بحب ورعاية

الحكام، ومع مرور الزمن واستمرار التدمير نجد حيّ الصفوة يخلو شيئًا فشيئًا من سكانه، فلم يعد مقرًا للبلاط أو الملوك وتحول إلى تل تعلوه الرمال وتختلط ببقايا أسوار وأبدان أعمدة وبقايا تماثيل؛ وأخذت الإسكندرية تظهر من جديد بعيدًا عن الرطوبة والرياح وتركت الشطآن نهبًا للرمال والأطلال والمقابر.

صعدت الإسكندرية إلى قمم الهضاب، وهناك في هذا الجزء العلوي استقرت المدينة الرومانية حيث أقيمت معابد رائعة وأعمدة ومنازل للأرستقراطية الجديدة، وكان ذلك على جانبي ما يُسمى بالطريق "الكانوبي Via Canopica" الذي كان يشق المدينة من الشرق إلى الغرب حيث نشهد ما كانت عليه من بهاء خلال العصر الروماني. جرى تزيين هذا الطريق في طرفيه "ببوابة الشمس" "وبوابة القمر" تربطهما أعمدة ممتدة على جانبي الطريق الذي يصل طوله إلى خمسة كيلو مترات يطل عليه المسرح والجمنازيوم الضخم ذو الواجهات التي تمتد لمئات الأمتار، والحدائق والمحلات والقصور والمعابد، وهناك نشأت الحمامات الشهيرة Termas والأوديون. أما في القطاع الوطيء، بعيدًا عن حي الصفوة فقد كانت تسكنه عناصر مختلفة من تجار وبحّارة وراقصات وجنود وكافة العناصر السكانية التي تعمل في المواني والمحلات والقوارب والشِّباك إضافةً إلى بعض المعابد الجميلة مثل معبد قيصرون الذي كان يطل على البحر وتزين واجهته مسلتان.

أضف إلى ما سبق، أن الإسكندرية الرومانية قد امتدت داخل الأسوار وخارجها وكان ذلك صوب شرق راقودس، حيث جرى بناء مضمار الخيل الثاني في الأحياء الجديدة في "نيابولس Neapolis". ظهرت حدائق تسمى Paradisos وهي حدائق من النخيل والرياحين ذات الروائح العطرية الرقيقة وأشجار الفاكهة التي تحيط بها طابيات من الآجر، وكان كل هذا في المزارع التي نجدها صوب إقليم Eleusis، الإقليم الخصب في كانوب ونحو مصبّات النيل. كانت المنازل المنيفة والحدائق تطل على الداخل، أي نحو بحيرة مريوط التي كانت تحتضن الإسكندرية، وكأنها سراب وتفصلها عن مصر وعن الصحراء. إنه عالم فيه نسبة رطوبة أقل، هواؤه عليل ومليء بالكثير من التمور والعديد من مزارع العنب والزيتون والتين الشوكي.

أما من الناحية الغربية للإسكندرية، وفي مواجهة الميناء التجاري، نجد جزيرة فاروس وكذلك الجبّانة الضخمة حيث هضبة راقودس، المدينة المصرية القديمة التي يبلغ عمرها قرونًا والتي اعتلاها التراب، تقع وتمتد حول السرابيوم الذي يتوجها وكأنه قلعة؛ كان رمز المدينة وإليه يجب أن يتوجه كل من يريد الإطلاع في المكتبة الملكية.

استمرت المكتبة الصغرى، ابتداءً من الغزو الروماني، رمزًا لا ينفصل عن المتحف البطلمي الذي اعتراه التدهور والذي يقع في حي الصفوة، وتجاوزت حروب الإسكندرية. وكان العلماء يفدون إليها زرافات، يصعدون من هضبة راقودس الواقعة على الجانب الآخر من المدينة للبحث والإطلاع، في المكتبة الصغرى، على النسخ المودعة هناك والتي تتعلق بكافة الكنوز من الكتب اليونانية التي أكلتها النيران منذ وقت قصير في المكتبة الكبرى، ويطلعون كذلك على المخطوطات التي تعد بالآلاف التي تتعلق بثقافات متعددة.

يستغرق العلماء عدة ساعات في الوصول إلى السرابيوم قادمين من حيّ الصفوة بحثًا عن مكتبته الصغرى، كانوا يتحركون في شكل جماعات تسير على الأقدام أو تركب الحمير ويجتازون شوارع وحواري الإسكندرية ويرافقهم خدمهم والنسّاخون من العبيد؛ وبعد المرور بين القصور الجميلة والتي أصبحت طللاً بعد عين والنخيل يخرجون من الحديقة الملكية عبر بوابات سور حي الصفوة، ويتركون وراءهم المقر الضخم لمعبد قيصرون الذي يقع في مواجهة الميناء، ثم يسيرون في طريق Argueos، وهو طريق مستعرض كان يصل المدينة ببحيرة مريوط، ويمرون بمجموعات من البغال المحملة بالبالات حيث تجر العربات المثقلة بما تأتي به من الميناء، والبحّارة الذين يملأون الدنيا مرحًا وصخبًا وقد خرجوا من الحانات ودور الغانيات في الميناء الكبير، والباعة الجوالون والعبيد والموسيقيين.

كانوا يسيرون في الشوارع المستقيمة والصاعدة متجهين صوب الجزء العلوي، ويتلقون حول النواصي بين الحين والآخر، بحثًا عن محل أو ركن هادئ به نافورة،

ثم يتجهون صوب الطوابي بحثًا عن الظل تحت الرفارف الرائعة والمزدانة بالألوان وذات الأشكال المختلفة، ومن وراء مباني هذه الرفارف كانت هناك نساء جميلات الهندام ترتدين قبعات من القش وتضعن طُرَحًا ملونة، ترمقن الشارع والحركة فيه. وعلى الأبواب المفتوحة كانت هناك حركة دائبة لإعداد الزاد. وعند مدرّجات المسرح الكبير ينزل العلماء إلى الميدان الكبير الذي تزينه مئات من التماثيل حيث نرى المبنى المنيف لمصلى Soma وفيه نجد الإسكندر الأكبر في تمثال يمتطي صهوة جواد في الجزء العلوي من المكان إضافةً إلى مقابر البطالمة.

في هذا المكان، يختلطون بالناس في "الطريق الكانوبي" الذي تصطف على جانبيه واجهات هلنستية منيفة ومذابح معابد وأرضيات مبلطة بالرخام الأبيض. وبعد عبور السراي الرائع المسمى Tetrapilion بأعمدته العالية التي تبرز في الطريق وكذا تمثاله الذهبي الذي يعكس أشعة شمس منتصف النهار، والواجهة الممتدة للجمنازيوم التي تزدان بتماثيل جميلة لرياضيين وفارسات محاربات وغلمان عرايا، والحدائق العطرة لمنازل الأشراف، ويعبرون الـ Agora ذا الأعمدة الجميلة والمعابد الرائعة.

من هناك يصعدون حتى الهضبة الغناء المسماة "هضبة الخبز" حيث يتوقفون بعض الوقت ليلقوا نظرة على المدينة التي تقع على مرمى البصر منهم وكذا البحر الأزرق والفنار والقلوع البيضاء للمراكب المنتشرة في الميناءين؛ ثم يواصلون الطريق، وبعد ذلك بقليل نجد محلات العاديات وعالم المكتبات والناسخين والناشرين. ويصبح الهدف هو البحث عن المخطوطات القديمة وعن الجديد الذي أتت به السفن وكذا الكنوز الجميلة التي تضمها مخازن المحلات، وهناك ينسون مرور الزمن.

من هناك يعرجون على راقودس بالسير في الطريق الصاعد إليه، وهو الحي المصري الذي يعج بالأسواق والحانات ومحلات العطور، ومن وراء منطقة مكونة من حواري مترية ومنازل في حالة سيئة مشيدة من الطوب اللبن والخشب والقش

والتي تبلغ عدة طوابق، يظهر السرابيوم بأعمدته الألف اللامعة التي تمتد نحو السماء فوق الـ Acropolis. وعندما يصلون إلى هناك يمكن لهم أن يرتاحوا ويطلقوا العنان لأيديهم للاطلاع على لفائف البردي.

عظمة السرابيوم ومكتبته (المكتبة الصغرى):

ظل الآلاف ممن يعبدون الإله سرابيس يعيشون في الإسكندرية، وكان ما فرضه المالك الجديد وهو أوجست قيصر، ليس إلا من أجل فرض سلطان القوة أكثر منه رغبةً في إثارة عداء المدينة له بالكامل؛ واصل من يعبدون سرابيس مشاركتهم في الطقوس الدينية؛ وكان أوجست نفسه هو الذي ساعد على إقامة معبد إيزيس الكبير (الموازي لمعبد سرابيس) في جزيرة فيلة، وتمكن من إدخال تحسينات على معبد إيزيس في سرابيوم الإسكندرية، حيث يلاحظ أن إسترابون لا يشير إلى أنه قد هُجر؛ كما لا يعرف شيئا عن عمليات تدمير في المعبد الذي عاد إلى المزيد من الازدهار بعد أوجست.

ظهرت من جديد، مع الإمبراطور كاليجولا(١٣٨)، الطقوس التوفيقية، أما طقوس عبادة سرابيس وإيزيس فقد بدأت تنتشر في كافة أنحاء الإمبراطورية. وكان كاليجولا قد زار الإسكندرية طفلاً ولم ينسها قط، وهنا نجد أن فيلون السكندري يقول بأن كاليجولا " كان يشعر بحب وشغف غير مسبوق بالإسكندرية، الأمر الذي كان حافزًا قويًا له على زيارتها، وعندما وصل إليها مكث فيها مدة طويلة... فالإسكندرية مدينة عظيمة وموقعها هو أفضل موقع في العالم"(١٣٩)، وكان هذا ما يعلنه كاليجولا متذكرًا مدينته المحبوبة. كان كاليجولا متحمسًا للإسكندرية، وكان على وشك نقل عاصمة الإمبراطورية إلى هناك في شهر يناير عام ٤١م طبقًا لسويتونيو، سيرًا في هذا على درب يوليوس قيصر ومارك أنطونيو، وكذلك على رغبة عشيقته السكندرية "هيلكون Helcon" التي قال عنها فيلون

(138) Caligula (37-41 d. C.).

(139) Filón, "Legatio ad Gaium", -"Embajada, ante Gayo_, 338.

بأنها كانت تحلم باللحظة التي يمكن أن يتوج فيها بأكاليل الغار من هذه المدينة الأكبر والأشهر بين المدائن..."[١٤٠]. لكن لم يحدث ذلك فقد أغتيل كاليجولا عشية بدء رحلته إلى مصر.

جاء كلاوديو الأول[١٤١] بعد كاليجولا وقام بتوسعة السرابيوم حيث أسس هناك متحفًا رومانيًا جديدًا، ولأول مرة تظهر صورة سرابيس مطبوعة في العملات السكندرية. قامت أيضًا أسرة فلافيا[١٤٢] بحماية عبادة الإله سرابيس وبثها في الإمبراطورية، ومن هنا تحول السرابيوم إلى مركز ديني وثقافي في الإسكندرية. ثم نرى فسباسيانو[١٤٣] وقد تم تنصيبه إمبراطورًا في المدينة المصرية، وكان ذلك مثار حماس السكندريين؛ وهنا نشير إلى الزيارة الشهيرة التي قام بها الإمبراطور فسباسيانو للسرابيوم[١٤٤] حيث قام هناك ببعض المعجزات التي تمثلت في إعادة البصر لأعمى وشفاء علة معوق باسم الإله سرابيس وتم ذلك بوضع يده على المرضى. وطبقًا "للحوليات السكندرية"[١٤٥]، وهي عبارة عن مخطوطة ترجع إلى القرن الخامس الميلادي، فإن هذه الزيارة أعطت دفعة حاسمة من جانب الإمبراطورية للآلهة السكندريين وجرى إيجاد وجود شبه بين سرابيس والإله زيوس وجوبيتر.

جاء تيتو، ابن الإمبراطور[١٤٦]، الذي كان قد عاش في الإسكندرية، ليشارك في التضحيات للعجل أبيس، الصورة الرمزية للإله سرابيس؛ كما سمح "دوميثيانو[١٤٧]

(140) Winterling, A., "Caligula, pgs. 156-157, Herder Ed., Barcelona, 2006.

(141) Claudio I (41-54 d, C).

(142) Dinastia Flavia (69-96 d. C.).

(143) Vespasiano (69-79 d. C.).

(144) Suetonio, "Vespasiano", 7; Tácito, "Anales", IV, 82; Dion Cassio, "Hist. Romana", LXV, 8,1; Filostrato, "Vida de Apolonio de Tyana", V, 28.

(145) "Actas Alexandrinorum", VIII, col. III, 1, 51-53.

(146) Tito (79-81 d. C.).

(147) Domiciano (81 -96 d. C.).

"Domiciano" بالبعث الكامل لعبادة الإله سرابيس وشيد معابد لسرابيس وإيزيس ابتداءً من روما وحتى أقصى حدود الإمبراطورية. وطبقًا لرواية سويتونيو في كتابه "حياة دوميثيانو" فإن الإمبراطور أمر في نهاية القرن الأول، أي بعد حريق مكتبة Porticus octaviae في روما، عام ٨٠م، بإعادة بناء كافة المكتبات في الإمبراطورية التي تعرضت للإحراق، وبعث يرسله إلى كافة أنحاء الإمبراطورية لجمع نسخ من الكتب التي زالت من الوجود "وأرسل بها إلى الإسكندرية حتى يتم نسخها بدقة وتصحيحها هناك"(١٤٨). نجد إذن أن المكتبة الصغرى كانت تعيش حالة ازدهار كبيرة خلال القرنين الأول والثاني الميلاديين بفضل إسهام الأباطرة الرومان، وبذلك لعبت الإسكندرية دورًا حيويًا في نقل الثقافة الكلاسيكية.

نشهد على زمن أسرة أنطونينا(١٤٩)، ابتداءً من العام الثاني لحكم تراجان(١٥٠) ظهور أوليات أشكال السرابيوم في أحد وجهي العملات السكندرية، حيث نرى سرابيس واقفًا وسط معبد ذي طراز يوناني له واجهته التقليدية المعروفة والأعمدة الضخمة ذات التيجان الكورنثية. وفي العملات التي ترجع إلى العام الخامس(١٥١) عشر نجد أن هذه الواجهة للمعبد قد أضيفت إليها زخارف ذات أسلوب مصري محض حيث نرى قرص الشمس للإله رع/ هليوس في الوسط ويأتي ذلك مفردًا أو مصحوبًا باثنين من الكائنات المجنحة، الأمر الذي يمثل خليطًا معماريًا في معبد يُراد له أن يكون يونانيًا مصريًا.

ظل السرابيوم على هذا الوضع في العملات في عهد الإمبراطور هادريان(١٥٢)، لكن جرى إدخال عنصر رمزي مهم على العملات، فهنا نجد سرابيس الذي كان

(148) Sueconío, "Vitae Domicianus" , XX, I.

(149) Dinastia Antonina (96-192 d. C.).

(150) Trajano (98-117 d. C).

(151) Trajano, Afio 15 (in-l i2d. C). FG. 1299. Ih; AE; 32 mm-17, 58 g. AM C671, pi. IV, 672, en Bakhoum, pg. 177.

(152) Adriano (117-138 d. C).

واقفًا وسط واجهة المعبد اليوناني المصري يضع يده اليمنى على لوحة صغيرة على شكل معبد يوناني له واجهته، وفي الواجهة نرى ثلاثة خطوط متوازية على شكل نقط ربما تماثل حروفًا وهي عبارة عن نقش كتابي، طبقًا لما يؤكده Bakhoum. وتمثل هذه اللوحة مبنىً صغيرًا ومهمًا داخل المعبد يرتبط بأنشطة أدبية؛ ويرى الباحث المذكور "أن هذه اللوحة ربما ترمز إلى ملحق المكتبة الرئيسية للسرابيوم والذي كان مهيأ للمخطوطات(١٥٣)، أي أنه Hadrianon، أرشيف الوثائق الرسمية والذي أمر الإمبراطور هادريان بإقامته في الإسكندرية".

ومع هذا فلما كانت هذه اللوحة المطبوعة توجد في قطع العملة الصادرة في عهد الإمبراطور هادريان في العام السادس من حكمه(١٥٤)، كما أنه لم يزر الإسكندرية إلا في عام ١٣٠م.، أي في العام الرابع عشر من حكمه، للمشاركة في تأسيس الأرشيف Hadrianon، يمكن القول بأن تلك القطعة الحجرية المطبوعة على قطع العملة والتي ترجع إلى العام السادس من حكمه ترمز لا إلى الأرشيف وإنما إلى المكتبة الصغرى وهي مكتبة السرابيوم؛ يتوفر لدينا إذن شاهد غير منتظر من عالم المسكوكات يدل على وجود هذا الملحق الذي كان تابعًا للمكتبة الكبرى في معبد سرابيس. وإذا ما كان الأمر كذلك فإن الأمر لا يعد وأن يكون ما رأيناه هو الصورة الأقدم للمكتبة الصغرى كما يؤكد على الأهمية التي كانت تحظى بها.

أصبح معبد السرابيوم كبيرًا في عهد أنطونينو بيو(١٥٥)، وقد وصفه أميانو في كتابه "تاريخ روما" بهذه الكلمات: "يوجد في الإسكندرية العديد من المعابد الفخمة

---

(153) Bakhoum, "Dieux égyptiens d Alexttndrie som lês Antonins. Recherches numísmatiques et his-toríques", -Dioses egípcios en Akjandría bajo los Antoninos. , pgs. 37-38, 181, CNRS Ed., Paris, 1999.–Investigaciones numismáticas e históricas"

(154) Adriano, Ano 6 (121-122 d. C.), FG 1509. 1 h; AE; 34 mm-20, 95 g- Cologne 842, en Bakhourn, pg. 181.

(155) Antonino Pio (138-161 d. C.).

وبخاصة معبد السرابيوم، ورغم أن الكلمات لا تفيه حقه، يمكننا القول، استنادًا إلى صالاته المنيفة القائمة على أعمدة وإلى تماثيله الرائعة وزخارفه المختلفة، إلى أنها، بعد الكابيتول، مثار فخر لنا جميعًا في روما ولا يوجد مثيلا له على ظهر الأرض(١٥٦). كما وصف سوزومن Sozomen(١٥٧) ضخامة المعبد ورشاقته، وأكد تيودوريتو(١٥٨) أن السرابيوم كان مشهورًا في الدنيا بجماله.

كان السرابيوم يتلألأ كأنه هرم مشع من الرخام الأبيض في الإسكندرية بسلمه الذي يبلغ مائة درجة والذي أمر هادريان بإنشائه، وكان سلمًا يقود إلى مدخل وحيد يتسم بالضخامة، وله ثلاث شرفات متدرجة وبوائك ومئات الأعمدة، كما أن مساحته كانت تبلغ ١٨٥×٩٢م حيث تضم قدس الأقداس لسرابيس وبه تمثاله الرائع من العاج والذهب، أما حوائطه فمكسوة برقائق من النحاس والذهب والفضة طبقًا لرواية "ماكروبيو Macrobio"(١٥٩) عالم النحو وصاحب التوجهات الأفلاطونية الجديدة والذي اعتنق المسيحية، وهناك ما يسمى بـ "Anubion" و"الأيسيوم Iseum" و"المظهر Lavacrum" والمكتبة الصغرى والسراديب الكبرى والعمود المقدس لسرابيس ـ ليوس الكائن في صحن المعبد الرئيسي وما يشبه الصاري لإرشاد البحّارة القادمين عن طريق البحر وهذا ما رآه Pseudo-Calistenes خلال القرن الثالث الميلادي(١٦٠). كان المعبد يضم أيضًا ـ إضافةً إلى آلاف القطع الفنية ـ كنوزًا كثيرة تتمثل في الأكواب المستخدمة في الطقوس وتقدمات على شكل حلي وأحجار ثمينة وكميات كبيرة من الذهب والمخطوطات وأربعين ألف تمثال، أكبرها مغطى بطبقة من الذهب "وتبدو التماثيل كأنها حية"(١٦١) طبقًا لأميانو.

---

(156) Amiano, "Rerum Gestarum", XXII, 16,15.

(157) Sozomen, "Historia Eclesiástica"-, Vil, 15.

(158) Teodoreto, "Historia Eclesiástica", V. 22.

(159) Macrobio (n. 350, fl. 400), "Saturnaliorum libri VIL", "Satumalia", I.

(160) Calisrenes, Pseudo, "Bios Alexanarouu", "Vida. de Alejandro".

(161) Amiano, "Rerum Gestarum", XXII, 16, 15.

خلال القرن الثاني الميلادي وقعت تمرّدات عنيفة تحت حكم ماركو أوريليو[١٦٢] بزعامة الراهب المصري إيسيدورو، الأمر الذي أدى إلى عدة أضرار لحقت بكل من هضبة راقودس والسرابيوم من جرّاء إضرام الحرائق طبقًا لرواية "سنثيّو Syncello"[١٦٣] بشأن الحريق الذي وقع عام ١٧٢م أثناء ما يسمى "تمرد بوكوليا"، وكانت هذه أول مرة يحدث فيها هذا. ويؤكد الباحثون المحدثون أنه على زمن الإمبراطور كومودو[١٦٤] الذي خلف سابقه والذي كان يكره السكندريين جرى إحراق السرابيوم عام ١٨١م. هناك تاريخ آخر يطرح بشأن حريق المكتبة الصغرى، لكنه لا يعتمد على أي من شهود العصر. وإذا ما كان هناك شيء قد تهدم فالاحتمال في أن يكون الجزء الخارجي للمعبد ذلك أن تمثال "برياكس الشاب" لسرابيس ظل سليمًا حتى بعد ذلك بمائتي عام ولو كانت هناك نيران بالقرب منه لكان قد انصهر.

ربما كانت هذه الحرائق هي التي يشير إليها، بعد ذلك، كليمنتي السكندري في كتابه "التحريض على الوثنيين" حيث اتهمهم بالكوارث التي وقعت في معابدهم. على الفور جرى ترميمه في نهاية القرن الثاني الميلادي واستعاد بهاءه وهذا ما يبدو من تأكيد يكتنفه بعض الغموض من لدن إيبيفانيو دي سلامينا[١٦٥].

من جانبه يحدثنا ديون كاسيو في كتابه "التاريخ الروماني"[١٦٦] عن فترة التمرد هذه ويقول بأن الإمبراطور الروماني سبتمو سيفيرو[١٦٧] أمر بسحب كافة لفائف البردي المصري المتعلقة بالعلوم الدينية وعلم السحر من مكتبات المعابد وأراشيفها، وذلك للحيلولة دون قيام علماء جدد بدراسة الكتب المقدسة لمصر القديمة، وربما

---

(162) Marco Aurelio (161-180 d. C).

(163) Syncello, "Chronogmphias", 282.

(164) Cómodo (180-192 d. C).

(165) Epifanio, "Liber de mens. etpond", XI.

.(166) Dion Cassio, "Historia Roma-num"

(167) Séptirnio Severo (193-211 d. C.).

فكر في أن ذلك ربما يكمن السر في تمرد المصريين؛ وربما شملت عملية سحب هذه البرديات المكتبة الملكية في السرابيوم، وجرى إيداع كل ذلك في مقبرة الإسكندر الأكبر المسماة Soma. إنه لمن عجائب الأمور الاحترام في هذا القرار الذي أصدره الإمبراطور، فرغم أنه كان يمكنه أن يعتبرها مثيرة سياسيًا؛ فإنه لم يأمر بإحراقها. كان إذن واعيًا لقيمة النصوص المقدسة لهذه الحضارة القديمة، فأمر بالحفاظ عليها ووضعها في أهم أثر في المدينة، أي إلى جوار مؤسسها.

إلا أن هذا الأمر لم يحل دون زيادة لفائف البردي في المكتبة الصغرى، عندما أمر الإمبراطور كاركالا[١٦٨] بإغلاق المتحف البطلمي بشكل نهائي عام ٢١٦م، وهنا انتقلت بقايا المكتبة الأم أو المكتبة الكبرى إلى محتويات المكتبة الصغرى.

يبدو أن مقر المكتبة الصغرى كان مفتوحًا على الدنيا كلها، وكان يؤمها العديد من الدارسين من مختلف المعتقدات، وهناك احتمال في أن الراهب المسيحي المصري روفينو كان يتمشى بين ردهاتها. كان للمكتبة مواعيدها مثلما هو الحال في مكتبة Pantainos في Agora الأثيني، وفي مدخلها هناك لوحة من الرخام تحمل نقشًا كتابيًا يقول: "ممنوع منعًا باتًا إعارة الكتب خارج المكتبة حسب ما تم الاتفاق عليه. مواعيد المكتبة من السادسة صباحًا حتى منتصف النهار"[١٦٩].

يؤكد الهرطوقي اللاتيني ترتوليانو، الذي عاش في ذلك العصر، وقدم لنا أول إشارة تفيد بوجود مكتبة في معبد السرابيوم أن "المكتبات الخاصة بالبطالمة توجد اليوم في السرابيوم إلى جوار المخطوطات العبرية"[١٧٠] وبالفعل فقد وجد في مكتبة السرابيوم نسخة من التوراة مكتوبة بالعبرية، وأشار إلى أن اليهود كانوا من المقبولين في المعبد للاستماع إلى قراءات تتلى عليهم لكتبهم القديمة؛ يتسم ما أورده ترتوليانو بالأهمية الكبيرة إذ يبدو أنه يشير إلى المكتبة الصغرى باعتبارها

(168) Caracalla (211-217 d. C.).

(169) Agora Excavations, inv. I 2729, Arhens, en Sider, "The Library of...", pg. 43.

(170) Tertuliano (160-222 d. C.), "Apvlogeticum"", 13, 18. 8.

ملاذًا أخيرًا ووريثة لموروث الكتب التي ترجع إلى عصر البطالمة، غير أن هناك ما يشبه الخلط بين المكتبتين الملكيتين وجعلهما واحدة.

وفي عصر أوريليانو، في عام ٢٧٣م، انتقلت كمية كبيرة من المخطوطات إلى المكتبة الصغرى بعد تدمير ما يسمى بـ Sebasteum، وهي تسمية جاءت لتكريم أوجست، وأطلقت على معبد "قيصرون" الكائن إلى جوار حي الصفوة، وهنا يرى بعض الباحثين أن هذا كان بمثابة دعم قوية ومزيد من الشهرة لمكتبة الإسكندرية الثانية.

طالعنا أنتونيو الأنطاكي بوصف رائع للسرابيوم والمكتبة الصغرى في راقودس، وهو الذي أتى الإسكندرية عام ٣١٥م، وبالتالي شهدها قبل تدميرها الذي حدث أثناء حياته. ورغم أنه لم يذكر معبد سرابيس بالاسم فإن حديثه كان به نبرة حماس وهو يصف المعبد مشيرًا إلى ضخامته ووجوده في مكان مرتفع؛ وهذا لا يمكن إلا أن يكون معبد السرابيوم ومكتبته (المكتبة الصغرى).

يقصّ علينا أفتونيو في كتابه "تمارين في البلاغة" أنه في أعلى الحصن الذي أسسه الإسكندر يوجد ذلك المعبد ذي المدخل الوحيد الذي تتقدمه أربعة أعمدة ضخمة... أما الصحن الداخلي فكان مُحاطًا بالبوائك ذات الأعمدة المتماثلة... وتتصل كل بائكة بأخرى متعامدة عليها... أما سقف هذه البوائك فكان من الذهب بينما تيجان الأعمدة من النحاس المُغشى بالذهب... ويلاحظ أن الزخرفة كانت متنوعة طبقًا للمكان... وفي وسط الصحن يرتفع عمود يبلغ طولاً غير عادي... وقبل الوصول إلى منتصف الصحن الكبير نجد مبنى به الكثير من المداخل مُكرّس للآلهة القديمة".

ويحدثنا في معرض الكلام عن المكتبة الصغرى مشيرًا إلى أنه في آخر البوائك الداخلية الممتدة للمتحف المزخرف بتماثيل لمختلف العلماء، "كانت توجد صالات شيدت بين الأعمدة، بعضها تابع للمكتبة ولها دواليبها الخاصة بحفظ مجموعات لفائف البردي... والتي يمكن أن يتم الاطلاع عليها بسهولة وحرية، وكان يقوم بذلك

رجال كرّسوا حياتهم للدراسة، وكانت هذه الصالات هي العماد الرئيسي في شهرة هذه المدينة الواسعة بأنها مدينة العلم"(١٧١).

يمكننا أن نضيف إلى هذا الوصف شواهد ترجع إلى القرن الرابع الميلادي من لدن أميانو مارثلينو، وهو المؤرخ الثاني الذي يؤكد وجود مكتبتين ملكيتين في الإسكندرية، كما نطلع على شهادة الأسقف أبيفانيو دي سلامينا، الذي عاصر هو أيضًا عملية تدمير المكتبة الصغرى والذي جعل اسمها مخلدًا في ذاكرة التاريخ مؤكدًا ولأول مرة وجود مكتبة ثانية "... أقيمت داخل السرابيوم ويطلق عليها المكتبة الابنة"(١٧٢).

لا ننسى أيضًا وصف عالم اللاهوت المسيحي "روفينو دي أكيليا تيرانيو R.A. Tyranio" في كتابه "التاريخ الكنسي" وهو الرجل الذي عاش سنوات طويلة في الإسكندرية التي وصل إليها عام ٣٧٢م؛ فرغم أنه لم يذكر المكتبة بشكل صريح؛ فإنه عبر عن إعجابه بالسرابيوم الذي كان يرتاده ويشهد أيضًا على شهرته في كافة أرجاء الإمبراطورية، وأكد لنا في كتابه الذي ألفه عام ٤٠٢م "أن الدنيا كلها قد سمعت بشهرة السرابيوم"(١٧٣). ويقص علينا روفينو أن مبانيه تتسم بالفخامة وحوائطه مُطَعَمَّة بالمعادن الثمينة وهناك تمثال رائع وضخم لسرابيس، وهو العمل الإبداعي الفذّ الذي جاء من بين يدي "بريكاسس Bryaxis" فقد وصل في الارتفاع والضخامة أن لامس السقف وحوائط المعبد، وقد كان من العاج والذهب والفضة(١٧٤)، وتحدث عن الأهمية الكبيرة للمتحف، في مقر السرابيوم، بصالاته المخصصة للمحاضرات ولعشرين مدرسة موزعة بين بوائكه.

هنا نسلط الضوء على نقطة أساسية وهي أن وجود هذا المتحف الوثني ومكتبته الصغرى وعلاقة كل ذلك بالفلاسفة ورجال الدين المسيحيين، ابتداءً من القرن

---

(171) Aftonio, "Progymnasmata", 40.

(172) Epifanio, "De Pond. De Mens", XII, 11.

(173) Rufino (345 - 411 d. C). , "Historia Edesiástica" XI, 22-30.

(174) Rufino, XI, 23, 10-15.

الثاني الميلادي حتى نهاية القرن الرابع، هو الذي يقدم لنا مفتاح فهم الحركات والتيارات الدينية والنقاش الدوجماطي والصراع المفتوح والذي كان مسرحه هو الإسكندرية خلال هذين القرنين الطويلين، وهذا ما أسفر عن الكارثة التي تعرض لها السرابيوم ومكتبته؛ ومن خلال التجوال والإطلاع على صفحات تاريخ الإسكندرية هذه سوف نتمكن من فهم حلقات هذه الدراما.

مدرسة الإسكندرية أو بائكة أرسطو:

لا يقتصر الأمر على أن الإسكندرية أصبحت لها مكتبة ثانية، بل لأن الأباطرة الرومان أسسوا متحفًا جديدًا كان مصدر إشعاع للفلاسفة السكندريين الجدد؛ وطبقًا لما أورده سوتونيو في كتابه "حياة كلاوديو"(١٧٥) فإن الإمبراطور كلاوديو(١٧٦) الأول أسس متحفًا جديدًا في معبد السرابيوم عام ٥٤م وذلك ليضارع المتحف البطلمي الذي تعرض للخراب، حيث هناك كان يُدرس تاريخ روما و"إتروريا Etruria" وقرطاج. وتتوافق هذه الرواية مع ما ورد عند يوسيبيو الذي نسب هدم حيّ الصفوة، لأول مرة، إلى كلاوديو الأول والذي أفاد من الانحطاط الذي لا رجعة فيه الذي عاشه المتحف البطلمي وأنشأ متحفًا جديدًا.

كان هذا المتحف مؤسسة رومانية أطلق عليها في بداية الأمر Claudium، وبعد ذلك، وعلى التوالي، تراجانوم، ثم منتدى الإسكندرية؛ وهو مسمى يجمع تحت لوائه كلاً من المتحف والمدارس والمكتبة الصغرى. ويؤكد سويتونيو أن كلاوديو الأول أسس "إلى جوار المتحف" مؤسسته الجديدة؛ ولما كنا نعرف أن المؤسسة الأكاديمية الجديدة قد أقيمت في السرابيوم، أي في أعلى جزء من المدينة، وأن المتحف القديم كان لا يزال مفتوحًا، وهو الواقع على الطرف الآخر من المدينة، أي الجزء الوطئ منها، في حي الصفوة بأطلاله، فمن البدهي أن لفظة "إلى جوار" لا تعني

---

(175) Sueronio, "Vitac Claudiuf",

(176) Claudio I (41-54 d. C).

مكانية، وبالتالي فهي كلمة، في هذا السياق تعني "ملحقًا" بمعنى الجزء المكمل أو التكميلي.

نعرف أيضًا أن العالم الروماني، حتى تأسيس متحف في روما عام ٧٥م في عصر الإمبراطور فسباسيانو، وهو عبارة عن مبنى ضخم ملحق بمعبد "السلام"، كانت الدراسات العليا في القواعد والبلاغة والفلسفة تتم في المشرق، سواء كان ذلك في أثينا أو أنطاكية أو الإسكندرية أو رودس. ظهرت أيضًا المتاحف الرومانية إلى جوار المكتبات الكبرى التي كانت مقسمة، على الدوام، إلى قسمين منفصلين، أحدهما يوناني والآخر روماني، ويمكن أن يكون لكل قسم مبناه الخاص به.

عندما نتحدث إذن عن المتحف الروماني في السرابيوم، فإن وجود المكتبة الصغرى في ذلك المقر المقدس كان أمرًا جوهريًا، وهنا فإن السبب الذي من أجله قرر كلاوديو الأول تأسيس متحفه إلى جوار المكتبة الصغرى، دون الحاجة إلى أن يضيف شيئًا آخر إلا القسم الروماني في المكتبة، هو لكي يعمل بصفته مؤسسة متكاملة في منتصف القرن الأول الميلادي. وابتداءً من عصر كلاوديو الأول جرى تطوير مدارس شهيرة تحت إشراف المتحف، وقد وصل إجماليها إلى عشرين مدرسة تحت بوائك المتحف الروماني وهي المدرسة المسماة "مدرسة الإسكندرية". وأدت هذه الألمعية في التوفر على المعارف والفلسفة إلى ظهور اسم جديد لها هو "بائكة أرسطو" التي تعتبر استمرارًا فريدًا للمؤسسة الأثينية الشهيرة وهو الاسم الذي أطلق عليها الكُتّاب خلال العصور الوسطى.

يقدم لنا "بوتي Botti" قائمة من أعضاء "الكلاوديوم Cladium"، ومن بينهم "يبرز بالبيّو Balbillo"[١٧٧]، هذه الشخصية ترتبط بأول إشارة نعرفها عن المتحف الروماني المجاور للمكتبة السكندرية، التي كان، على ما يبدو، يطلق عليها كما يطلق على "المكتبة الابنة" في ذلك العصر الإمبراطوري. يظهر في لوحة تذكارية رومانية

(177) Botti, "Fouillcs 1896", pg. 131.

لتيبريو كلاوديو بالبيّو(١٧٨) وهو عالم فلك يوناني، عاش على زمن الإمبراطور كلاوديو الأول الذي عاش فترات طويلة في الإسكندرية رغم أنها كانت متقطعة، وكان ذلك بصفته الكاهن الأعظم لمعبد هرمس، وعميد المتحف وحاكم مصر وظل ذلك حتى عام ٥٩م، ثم عاد إلى روما. في هذه اللوحة التذكارية التي ترجع إلى عام ٥٦م، تشير إلى فترة من الفترات التي قضاها في الإسكندرية، وإلى بالبيّو ينسب إليه أنه كان يشغل منصبًا إضافيًا هو "مدير المتحف والمكتبة السكندرية الملحقة"(١٧٩).

لن تكون هذه المكتبة الأخيرة بالمكتبة الكبرى، بل هي المكتبة الصغرى في السرابيوم، حيث كانت ملحقة بالمتحف وكأنها أصبحت جزءًا لا يتجزأ منه مُشكّلة هيئة أكاديمية واحدة(١٨٠) لها مدير واحد، وهو مدير لم يكن واحدًا من العلماء بل كاهنًا. كان بالبيّو أول مدير لها، الأمر الذي يجعل اللوحة المشار إليها منطقية؛ نجد أيضًا تخليدًا لذكرى شخص يُدعى فاليريو ديودورو، الذي كان عام ١٧٢م "النائب السابق لمدير المكتبة وعضو المتحف"(١٨١).

شهدت نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الميلاديين الهجران الكامل للمتحف البطلمي في حي الصفوة وتحوله إلى أطلال، وبزوغ شمس المتحف الروماني في السرابيوم، الذي هو مركز مدرسة الإسكندرية ذات الموروث اليوناني. إنها مجموعة من المدارس الفلسفية والعلمية حيث يقصدها ويجتمع فيها علماء من كافة أرجاء المعمورة للدرس في مناخ من التسامح والوئام، فهناك الفلسفة الفيثاغورثية والأفلاطونية التي وطدت دعائمها في الإسكندرية، وهناك علم الفلك والفيزياء والرياضيات والعلوم الطبيعية... إلخ؛ هناك أيضًا تداخلت كافة

(178) Tiberio Claudio Balbillo (c. 3-c. 79 d. C).

(179) "supra museum et ab alexandrina bibliotheka".

(180) Lcyh, G-, ed. "Handbuch der Bibliothekswissemchaft", -"-Manual de Biblioteconomia"-, Occo Harrassowítz, Leipzig, 1955.

(181) Fraser, "Alej. Ptolem",

المعتقدات، وتولّد عن ذلك ما يشبه محركا يدفع بكل الأفكار؛ ووصل الأمر إلى أن الكثير من اليهود كانوا يجدون توازيًا بين الفلسفة الهلنستية والنصوص الصوفية العبرية(١٨٢)، كانت المدارس تتبع من الناحية الاقتصادية بلدية المدينة وإسهامات الطلاب.

في هذا المكان جرت يد التطور على الأدب اليوناني كافة خلال القرن الثالث الميلادي، فيما أطلق عليه "مدرسة الفلسفة السكندرية" بدءًا بـ"اليخاندرينو أومونيو ساكاس A.A. Saccas"(١٨٣) وهو فيلسوف عصامي، أسس الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية، التي كانت آخر المذاهب الفلسفية الكبرى في العالم القديم، حيث جرت محاولة الجمع والمواءمة بين فكر كل من أفلاطون وأرسطو، في مذهب فلسفي جديد هو "المذهب التوفيقي Sincretismo". كانت هذه الشخصية العظيمة التي لا نعرف عنها إلا القليل من خلال بوفيريو(١٨٤)، تتسم بتواضع المنبت، إذ كان حمّالاً في ميناء الإسكندرية؛ وتحول من المسيحية إلى الوثنية ودرس الفلسفة اليونانية. استلهم من خلال رؤاه الليلية وأحلامه خلاصة التوجهات الفلسفية والمعتقدات، وجاء ذلك في إطار نظرية كونية، ومن هنا أطلق عليه لقب يعبر عن الإعجاب به وهو "المُلْهَم من الله".

أطلق على المدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية، التي أسسها أمونيو ساكاس، عام ١٩٣، وقام بالتدريس فيها على مدى خمسين عامًا، اسم "مدرسة الجمع بين الأشتات ,E. Eclectica"، والسبب في ذلك طبقًا لما يؤكده "هرقل السكندري .Hiercoles de A"، الفيلسوف في الأفلاطونية الجديدة، أن مذهب أمونيو ساكاس، كان جمعًا بين فلسفة أفلاطون وفلسفة أرسطو، وكذا المذهب

---

(182) Polastron, "Books o n Pire: The Destruction ofLibraries throughoui History", -" Libros Ardíendo: la Destrucdón de Bibliotecas a Io largo de Ia Historia, VT: Inner Traditions, Rochester, 2007.

(183) Ammonio Saccas (c. 175-242 d. C.)

(184) Porfirio,"VidadePtotmo" XX.

الفلسفي لأورفيو، وبعض الجذور الفلسفية الهندية والتوجهات اليهودية وعقائد المصريين والفرس والبوذيين والهندوس. كانت هذه المدرسة تقدم دروسًا في الأديان المقارنة والسحر أو الرُّقى وذلك باستخدام الطاقات الروحية والعقلية للكائن الإنساني. وكان هذا المذهب هو جوهر ذلك التوجه المثالي في المواءمة التي كانت السمة المميزة للإسكندرية. لم يترك لنا أمونيو ساكاس أية كتابات، طبقًا لرواية لونجينو[١٨٥] سيرًا في هذا على نهج سقراط وعلى الطريق السري للفيثاغورثيين، وبذلك أسهم في إنشاء مدرسة للمبتدئين. جمع أفلوطين التلميذ الأشهر له دروسه في مذكرات، ونقشها في ألواح الكتابة[١٨٦] على الشمع من تلك التي كان يحملها ويستخدمها الطلاب القُدامى.

درس الكثير من الفلاسفة والوثنيين والمسيحيين على يد أمونيو ساكاس، ومن بينهم كل من إيرينيو وأورخنيس الوثني، الذي كان يتبع المذهب الأفوطوني الجديد والذي عاش في الإسكندرية في بداية القرن الثالث الميلادي، وكان قد أسهم في بث الدروس السرية لأستاذه ضد رغبته. كان الجميع معاصرين وتلاميذ أفلوطين ولونخينو وأورخنيس المسيحي. كان كاسيو لونخينو[١٨٧] بلاغيًا وناقدًا فلسفيًا، من أصول سورية، وكان مستشارًا غير حكيم بالمرة للملكة زنوبيا، فقد أسهم في فقدانها العرش؛ درس طوال فترة طويلة من الزمن في الإسكندرية ومعه أمونيو ساكاس وأورخنيس الوثني، وهناك تعرّف على أميليو وأفلوطين. كانت نظرياته تدخل في صدام واضح مع نظريات هذا الأخير؛ وكان ذلك هو التوجه المعرفي للونخينس، الذي أطلق عليه إيونابيو دي ساردس[١٨٨] لقب "المكتبة الحية" أو "المتحف المتنقل".

---

(185) Longino, en Porfirio, "Vida de Platino", XX.

(186) Séneca, "Epístolas morales a, La. cilio" 108,6.

(187) Longino (213-273 d. C.)

(188) Eunapio de Sardes, ""Vida de los Sofistas".

نجد أيضًا أن الأساتذة المسيحيين مثل كليمنتي السكندري، وأورخنيس المسيحي كانوا يحضرون دروس أمونيو ساكاس في السرابيوم، حيث نجد هناك خليطًا من الطلاب الوثنيين والمسيحيين وأسفر الارتباط بين أفكار هؤلاء وأولئك عن ميلاد الأفلاطونية الجديدة وجعلها من أكثر المذاهب حيوية في مستقبل العقيدة المسيحية، حيث أثرت بشكل حاسم في إنشاء ما يسمى بـ "المسيحية السكندرية". والشيء الغريب هو أنه بمناسبة هجمات الإمبراطور كاركالا على الإسكندرية والإغلاق الدرامي للمتحف البطلمي بما في ذلك الكلاوديوم، أن متحف السرابيوم، حيث كان أمونيو ساكاس يقوم بإعطاء دروسه، قد اختفى من النقوش الكتابية بعد عام ٢١٦م[189].

خلف أمونيو ساكاس تلميذه أفلوطين الفيلسوف المصري العصامي، الذي عاش في الإسكندرية بين عامي ٢٣٢م و٢٤٢م، وكان أشهر فلاسفة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية، ووصل الأمر إلى درجة أن الأفلاطونية الجديدة أطلق عليها، أحيانًا، "الأفلاطونية Plotonismo" وهي فلسفة تجمع بين فكر أفلاطون وأرسطو، في كتابه Eneodas[190] أي حول حياة أفلاطون وترتيب كتبه الذي وصل كاملاً وقام بطبعه صديقه وتلميذه بورفيريو. وعندما أراد الفتى أفلوطين دراسة الفلسفة أرسلوا به من المحافظات إلى الإسكندرية، حيث هناك أكثر المعلمين شهرة خلال القرن الثالث الميلادي. هناك، جاءته خيبة الأمل مما شهده من الجميع، حتى التقى بالعجوز أمونيو "الرجل الذي كان يبحث عنه"، ولازمه أحد عشر عامًا.

كان أفلوطين آخر الفلاسفة العظام من الوثنيين خلال العصر القديم، وهو فيلسوف نضجت أفكاره كلها في الإسكندرية التي كانت لا تزال حقلاً خصبًا لغذاء الروح. لا بد من أنه كان شخصية تثير الإعجاب ومطلعة على كافة أسرار الطبيعة،

---

(189) Botti, "Fouilles a la colonne Theodosienne, 1896", pg. 131.

(190) Plotino (205-270 d. C.), "Eneadas" o "Acerca de la Vida de Platino y dei Orden de sus Libro".

فهو يصف في كتابه "Eneades" واحدة من أفكاره المتعلقة بعالم الفلك إذ يقول لنا: "كثيرًا ما أشعر بالسهاد وأهرب إلى جسدي"...[١٩١] وبعد رحلة، باءت بالفشل، إلى بلاد فارس والهند لتعلم الفلسفة، سيرًا على نهج أستاذه، أقام أفلوطين في روما عام ٢٤٤م، وأسس مدرسة أخرى هي "المدرسة الأفلاطونية الجديدة". واستغرق عشرين عامًا في وضع أفكار أستاذه على الورق، ذلك أنه كان شديد الأمانة لطابعه "المبتدئ". هناك تلاميذ آخرون لأفلوطين، ومنهم "أميليو Amelio"[١٩٢] الذي أخذ مائة كتاب من الملاحظات أثناء الدراسة وبخاصة عن بورفيريو[١٩٣] ناشره وصديقه في روما والذي درس معه خلال الفترة من ٢٦٣ حتى ٢٦٨م في تلك الأزمة. كان أليخاندرو دي ليكوبولس واحدًا من الذين درسوا في الإسكندرية خلال ذلك الزمان.

وكان الفيلسوف "خامبالكو Jambalico"[١٩٤]، تلميذ بورفيرو آخر الكبار الذين كانوا يحملون راية مدرسة الفلسفة السكندرية. هذا الفيلسوف كان من أشد المعارضين للعقيدة المسيحية، وكان ينادي بالفلسفات الفيثاغورثية والثقافة المصرية القديمة الأسطورية، في كتابه "حول الأسرار المصرية"[١٩٥]، وخلف لنا بنية أفلاطونية جديدة مليئة بالصوفية الشرقية و"الرقّي Teurgia" وهو موروث من هذه الأرض القديمة والعتيقة، والذي ظل فاعلاً على مدى القرنين والنصف التاليين، وهذا أمر شديد الاختلاف عمّا كان يتم تعليمه في أثينا أي الأرسطية.

هناك أيضًا من استفاد بهذه الثروة التي كانت تضمها المكتبة الصغرى وكذا المحفوظات، وكان آخرهم الشاعر المصري نونّو دي بانوبولس، الذي عاش في

---

(191) Plotino, "Enead", IV. 8.

(192) Amelío (220-272 d. C.).

(193) Porfirio (234-305 d. C.).

(194) Alejandro de Lycopolis (fl. 300).

(195) Jámblico (250-330 d. c.), "De Mysteriis Aegyptiorum", título inventado por neo-platónicos renacentistas.

الإسكندرية في نهاية القرن الرابع الميلادي، ومن المؤكد أنه استخدم ما تقدمه له المكتبة الصغرى في مدينته حتى يتمكن من استكمال تأليف كتابه "حول ديونوسياكو"[١٩٦]، وظل يفيد منها حتى تعرضت للهلاك؛ وبعد هذه الكارثة العنيفة تحول إلى العقيدة المسيحية، إما عن خوف أو عن اقتناع، وترك لنا تلك المخطوطة المتعلقة بالأساطير القديمة الوثنية دون إتمام.

كانت مكتبة الإسكندرية هي المتحف نفسه والمكتبة الصغرى والمدارس التي أطلق عليها كل من الأقباط[١٩٧]، والعرب "مدرسة أرسطو، أو بائكة أرسطو" خلال العصور الوسطى. وهي المدرسة نفسها التي ذكرها خلال القرن الثاني عشر كل من الأدريسي (عام ١١٥٣م) ووصف أطلال أثر كبير يحيط بصحن مربع تحيط به مئات الأعمدة، وكذا العالم اليهودي بنيامين دي تطيله عام ١١٦٠م حيث نقل نصوص أفتونيو وروفينو.

يحكي روفينو أنه " كان يوجد خارج المدينة مدرسة أرسطو، معلم الإسكندر، وهي عبارة عن مبنى كبير وجميل تزينه أعمدة من الرخام تفصل بين كل مدرسة. كان هناك ما يقرب من عشرين مدرسة من تلك، كان يؤمها الناس الذين أتوا من كل أنحاء الدنيا وذلك للاستماع إلى دروس أرسطو"[١٩٨]. وكانت المدرسة نفسها التي شهدها في راقودس ابن جبير البلنسي عام ١١٨٣م بعد أن وصل على متن مركب من جنوة منطلقًا من سبتة متجهًا صوب الإسكندرية واستغرق ذلك واحدًا وثلاثين يومًا وكان المركب مدفوعًا بالتيارات البحرية القادمة من أفريقيا الشمالية. وصف لنا ابن جبير تلك الأعمدة الرائعة التي كانت لا تزال قائمة والتي كانت تشكل في الزمن القديم جزءًا من "المباني المخصصة للفلاسفة"[١٩٩].

.(196) Nonno, "Dionysiaca"

(197) M S Copto de Paris, 129, 92, basado en Eusebio.

(198) Rufino, citado por Butler, "TheArab Conquest...", pg. 415 - nota 1; Mckenzie, "The Placewhere...", pg. 80.

.(199) Tbn Goubair, "A travei de Oriente"

نشير أيضًا إلى ما ذكره المؤرخ العراقي عبد اللطيف في كتابه، "عن مصر"، خلال القرن الثالث عشر الميلادي عندما يقول: "أعتقد أن هذا هو مكان البائكة التي قام فيها أرسطو ومن جاءوا بعده بدورهم باعتبارهم معلمين للفلسفة، وكان ذلك مدرسة للتعليم وكان بها مكتبة...". ومن جانبهما نرى كلاً من المقرّي والسيوطي[٢٠٠] يحدثاننا عن معبد صغير جميل أو ما يمكن أن يُطلق عليه الكشك، المستدير الشكل والذي يرتفع على أعمدة وله قبة مذهبة وسقف عبارة عن قطعة واحدة من الرخام الأخضر أو الأبيض، وهو سقف يبرز على كل أسقف السقف يجتمع تحته العلماء.

المدرسة الخاصة بطلبة العمّاد أو الـ Didascalium:

في لمحة تكريم لمدينة تتسم بثقافتها الواسعة مثل الإسكندرية، في نهاية حكم الإمبراطور كومود[٢٠١] الإمبراطور المتسامح مع المسيحيين، نجد أن عالم اللاهوت س. بانتينو[٢٠٢]، الأبيقوري الذي اعتنق المسيحية، يسافر من أثينا إلى مصر في رفقة أستاذه في الفلسفة Atenagoras[٢٠٣]، حيث أسس في الإسكندرية، مع نهاية العقد الكائن بين عام ١٨٠، ١٩٠م مدرسة لطلبة العمّاد المسيحي والشهيرة بهذا المسمى: "مدرسة الإسكندرية .Catecumena B"، أو "Didaskllion" أو "Didascaleion"، أو "Didaxalium"[٢٠٤].

ويرى ج. فرناندث أن هناك أسبابًا جعلته يستقر في الإسكندرية من بينها "استمرار النشاط الثقافي لليهود وانفتاح السكندريين على كافة الأنماط الدينية،

(200) Suyuti, "Hiísn ai Mfihadamh", pg. 55, en Butler, "TheArab Conquest...", pgs. 386-387 - nota 1.

(201) Cómodo (180-192 d. C.).

(202) Panteno (m. c. 200 d. C).

(203) Atenágoras (fl. 175-185 d. C.).

(204) Didascateion, "lugar de estúdio", en griego. Así se llamaban las secciones de enseñanza superior que tenían ias Escuelas griegas.

والموروث الفيلولوجي والعلمي في المدينة، الذي تركز في مكتبة السرابيوم والمتحف، إضافةً إلى ضرورة الحفاظ على الأرثوذكسية أمام نمو الأنظمة الغنوصية (Gnostico)"[٢٠٥] كان بانتينو أول مدير لهذه المدرسة المسيحية، التي أحيانًا ما أطلق عليها "مدرسة الإسكندرية" وبذلك نرى نوعًا من الخلط مع تلك "المدرسة الوثنية.

لا ندري موقع تلك المدرسة في المدينة، ومع هذا يمكننا أن نفترض أنها كانت في القطاع العلوي وموزعة بين عدة منازل وقصور خاصة، ولم تكن بعيدة كثيرًا عن "مدرسة الإسكندرية والمدرسة الصغرى التابعة للسرابيوم"، وهما هيئتان ثقافيتان وثنيتان كانت لهما صلة قوية بالمدرسة محل الذكر. بدأت المدرسة مركزًا لتعليم أصول الدين، ثم تحولت إلى أهم مركز للدراسات الذي يؤمه الكهنة وعلماء اللاهوت من مختلف أنحاء العالم المسيحي، وكانت في الوقت ذاته مفتوحة أمام الطلاب الوثنيين. في هذا المكان تشكلت ملامح المسيحية السكندرية ذات الطابع أو المذهب التوفيقي والكوني.

يحدثنا التراث القبطي عن إنشاء مدرسة صغيرة للعماد مكرسة لليهود الذين تمسّحوا، على يد القديس مرقص في الإسكندرية، رغم أنه لم يكن هناك، حتى القرن الثالث الميلادي، أي دليل على وجود طوائف مسيحية. وعلى أية حال فقد كانت هذه المدرسة مشروعًا ظهر وله أهداف جديدة، فلم تكن الغاية تعليم اللاهوت بل العلوم والرياضيات والعلوم الإنسانية، وكانت الغاية هي أن تكون على القامة التي عليها العلماء الكبار من الوثنيين في "مدرسة الإسكندرية". وكانت غايتها أيضًا المواءمة بين دراسة الفلسفة اليونانية الأفلاطونية والقوانين اليهودية، وبين المسيحية، ووضعت أسس علم لاهوت مسيحي ذي طابع يميل إلى التأويل الرمزي للنصوص التوراتية، ذلك أن المسيحيين السكندريين كانوا يعتبرون أن التأويل الحرفي للنصوص أمر لا يليق بعظمة الله.

---

(205) Fernández, G., "El Didascaleiony ia Mártir Catalína de Akjandría", Arbil, 110, 2008.

في هذا السياق، يدخل التيار الذي فتح بابه الفيلسوف اليهودي فيلون السكندري، خلال القرن الأول الميلادي، فيما يتعلق بالنصوص العبرية والنصوص الغنوصية. وعلى أية حال نجد أن الدفعة التي تلقتها الدراسات اللاهوتية على يد بانتينو لم تحظَ برضا الجميع، ذلك أنه في عام ١٩١م قد أُرسِلَ به ليقوم بالتبشير في الهند[٢٠٦] وبعد بانتينو، أخذنا نشهد ظهور شخصيات عملاقة في هذه المدرسة وهم تلاميذه مثل كليمنت، ثم تلميذ هذا وهو أورخينس، وهما من أهم علماء اللاهوت المسيحي في بداياته، فقاما بالإشراف على إدارة المدرسة بعد بانتينو وواصلا عمله في إطار المذهب التوفيقي المسمى بالأفلاطونية الجديدة الخاصة بالكنيسة في بداية عهدها.

خضعت هذه المدرسة أيضًا خلال الفترة من عام ٢٠٠ إلى ٢٠٣م لإدارة الأثيني كليمنت السكندري الذي درس كلاً من أفلاطون وهوميروس، وكان متأثرًا "بالأفلاطونية الوسطية" التي كان عليها بلوتارك، واستطاع في تلك الفترة تطوير ما يسمى "بالأفلاطونية المسيحية"، ووجه المدرسة المسيحية لتكون مدرسة كونية مفتوحة على العالم، وانتهى به الأمر ليكون فيلسوفًا أطلق على نفسه فيلسوف التوفيقية، فالفلسفة الحقيقية عنده هي عبارة عن انتقاء "لكل ما هو طيب في كل واحدة من المدارس التي تُعلّمنا شيئًا عن العدل والرحمة"[٢٠٧]. كان كليمنت يحضر دروس بانتينو وكذا دروس أمونيو ساكاس في مدرسة الأفلاطونية الجديدة في السرابيوم، واستطاع بذلك إنشاء حلقة تبادل ووصل بين تلك المدرستين، المسيحية والوثنية، اللتين ولدتا متزامنتين.

كان على كليمنت أن يترك مكانه سريعًا عام ٢٠٣م وأن يهرب من الإسكندرية من جرّاء الاضطهاد الذي مارسه الإمبراطور سبتمو سيفيروس[٢٠٨] الذي زار مصر

---

(206) Eusebio de Cesárea, "Historia Eclesiástica", V. 10.

(207) Clemente (150-215 d. c.), "Srromata", - "Tapices" -, I, 37.

(208) Séprimio Severo (193-211 d. C).

وأمر بأن ينشأ في الإسكندرية مجلس للشيوخ، وأمر بمنع تيار التبشير المسيحي الأمر الذي أثر سلبًا على "مدرسة العمِاد" وعلى توجهاتها، وبذلك حيل بين الرومان وبين الطائفة المسيحية التي كان يعتبرها مضادة للمجتمع وخطرًا على الدولة؛ حدثت مطاردات وسقط ضحايا وأغلقت المدرسة مؤقتًا وكان كليمنت مديرها حينئذٍ فهرب عام ٢٠٢م ولم يعد إليها مرة أخرى. انتقل إلى Capadocia حيث ظهرت بعد ذلك مدرسة أفلاطونية جديدة مسيحية.

خلف كليمنت تلميذه أوريخنيس أو "أدمانتيتوس O. Adamantitus"(٢٠٩) المتصوف وعالم النحو السكندري وأب الكنيسة، حيث شغل بذلك المنصب من لدن الأسقف ديمتريو، وأشرف على إدارة المدرسة المسيحية خلال السنوات التالية (أي من ٢٠٣ حتى ٢٣١م)؛ وكان واحدًا من الفلاسفة واللاهوتيين الأكثر تأثيرًا في المسيحية في أوائل عهدها؛ كتب ما يربو على ستة آلاف نص(٢١٠)، فقد معظمها أو جرى تدميره، ومن بين هذه النصوص رؤية جديدة مقارنة لكل النصوص التوراتية وهو بعنوان Hexapla (من ٦٥٠٠ صفحة).

كان أورخنيس تلميذا متحمسًا للفيلسوف الوثني أمونيو ساكاس، وكان يحضر إلى مجلسه في مدرسة الإسكندرية بالسرابيوم، وأطلق عليه في إحدى رسائله "أستاذي في الفلسفة"؛ كما التقى في قاعات دروسه بالشاب هراقلاس، أي منافسه في المستقبل على منصب إدارة المدرسة، وكذا مع أورخينس الوثني، وبالتالي أطلق عليه لقب "أورخينس المسيحي" للحيلولة دون أي خلط بين الاسمين. كان الرجل من هواة جمع النصوص اليونانية، وتحول إلى أفلاطوني جديد عن اقتناع وحدد ملامح "أفلاطونية جديدة مسيحية" في كتابه "حول المبادئ الأولى"(٢١١) الذي ألفه خلال الفترة من ٢١٢ حتى ٢١٥م. وحدت هذه الأفكار والمبادئ التي سار عليها إلى

---

(209) Origenes (185-254 d. C.).

(210) Epifanio, "Contra Haereses", I XIV. 63.

(211) Origenes, "De Principiis".

محاولة التأصيل للاهوت مسيحي قابل للتوافق مع الفلسفة الوثنية وبعيد عن الغنوصية السائدة، وهو التوجه اللاهوتي المسيحي الوحيد في عصره، والذي تداخلت فيه عناصر السحر والتبشير الشعبي.

اشتهر كشخص ومعه كتاباته شهرة واسعة في الإسكندرية على أساس أعماله الطيبة وأصبح له مريدون كثيرون، ووصل الأمر بأورخينس إلى أن باع مكتبه بثمن بخس يدر عليه فائدة تبلغ أربعة "أوبالات Obalo" يوميًا، وهو مبلغ لا يكاد يفي بحاجاته الأساسية ولم يهمه هذا. استطاع أيضًا أن يحصل من صديقه، الذي كان راعيًا له، والذي تحول إلى المسيحية على يديه، وهو أمبروسيو السكندري، المسمى بالدياكونو[٢١٢]، على وعد بطباعة كتبه. وفي مقابل ذلك كانت هذه الكتب إهداء له، ووفى أمبروسيو بوعده وقام بتمويل ورشة كبيرة من الكتبة، حيث كان بها سبعة من السكرتارية وذلك لكتابة ما يمليه عليهم، ولكلٍ دوره، إضافةً إلى عدد آخر من الكتبة الذين اضطلعوا بمهمة إعداد النسخ المكتوبة والجديدة لتوزيعها. ورغم هذا، أكد القديس جيرونيم أن الكثيرين أدانوا أمبروسيو، لأنه وهو الغني لم يذكر في وصيته صديقه القديم المحتاج أوريخينس[٢١٣].

في عام ٢١٥م لم يقم كاركالا فقط بتدمير المدينة بل قاطع المتحف وتجاهل الكلاوديوم، وأغلق المدرسة Didascalium، إضافةً إلى أن أمبروسيو وأوريخينس هربا من الإسكندرية لبعض الوقت. كان المسيحيون يشكلون خلال القرن الثالث الميلادي، خلال عصر أوريخينس، ما يسمى بـ Megale Ecalessia، أي "المجلس الكبير" للأسقف ديمتريو[٢١٤] من المسيحيين الناطقين باليونانية، ورغم أنهم لم يشكلوا عددًا كبيرًا في كافة أنحاء البلاد كان أغلب المؤمنين منهم ينسبون إلى الطبقات الاجتماعية الرفيعة وإلى الأوساط الثقافية البارزة في الإسكندرية، وكانوا

---

(212) Ambrosio de Alejandría (m. c. 250 d. C.).

(213) S. Jerónimo, "Vidas de Hombres Ilustres", 56.

(214) Demetrio (189-231 A. C.).

في منافسة متكافئة مع الفلاسفة اليونانيين، والمدارس اليهودية، والغنوصية، ذات التأثير الكبير في الإسكندرية. وابتداءً من ذلك الحين تشبعت الدرجات الكنسية السكندرية بالثقافة الهلنسية.

ومع هذا، هناك أسباب شخصية حدث، في عام ٢٣١م، بالأسقف ديمتريو طرد أوريخينس من المدرسة ومن مدينته مسقط رأسه، الإسكندرية، واتهمه بالهرطوقي، لكن الدروس "التوفيقية" لأوريخينس تركت بصماتها بعد ثلاثين عامًا من الدرس، وأسفر ذلك عن ظهور حركة في مصر أطلق عليها "الأوريخينية" استمرت من القرن الثالث إلى القرن الرابع التي انخرط فيها الأفلاطونيون الجدد من المسيحيين والتي امتدت إلى كافة أنحاء الإمبراطورية. قام أوريخينس، وهو في المنفى، بإلقاء الدروس طوال عشرين عامًا في "مدرسة Cesaria" التي أسسها وأسس بها مكتبة ذات تأثير كبير في الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، حيث تعلم جريجوريو Thaumaturgus، إيوسيبيو دي Cesarea وكذا الفلاسفة الثلاثة من "كابادوثيا Capadocia"[٢١٥].

وابتداءًا من ذلك الحين، تتابع عدد من المدراء على المدرسة المذكورة (مدرسة طلبة العماد) Didascalium، حيث انتهى المطاف بأغلبهم إلى تحولهم إلى بطاركة الإسكندرية خلال القرن الثالث الميلادي مثل حالة "الأنبا Abba" هيراقلس[٢١٦] الصديق القديم لأوريخينس في حلقات الدرس التي كان يعقدها أمونيو ساكاس، الذي عينه ديمتريو مديرًا للمدرسة التي أُجبِرَ على تركها، وفي عصره بدأت أوليات المطاردات للمسيحيين عام ٢٤٠م في عهد جورديانو الثالث.

نجد أيضًا "الأنبا Abba" ديونسيو السكندري، الكبير، الذي ظل بطرياركًا لمدة أربعة عشر عامًا[٢١٧] إذ كان واحدًا من أبرز تلاميذ أوريخنيس، وعلى زمانه كانت

---

(215) Abbat obispo en copto.

(216) Heraclas (232-249 d. C.).

(217) Dionisío de Alejandría (249-270 d. C).

عمليات "مطاردة Decio"، وبعدها، مات أوريخنيس شهيدًا في ظل حكم فاليرناتو، الإمبراطور الذي نفى البطريارك ديونسيو لفترة مؤقتة؛ ثم أعقبه في الإدارة الفيلسوف ذو الاتجاهات التي عليها أوريخينس وهو تيوجنوسنو(٢١٨). أضف إلى ذلك كان هناك عدد من الفلاسفة الذين ألقوا دروسهم مثل الأسقف "إس. جريجوريو Thaumaturgos"(٢١٩) تلميذ أوريخينس، الذي أكد أن هذه المدرسة كانت تضم طلابًا هم كافة الشعراء والفلاسفة الوثنيين ماعدا الأبيقوريين والملاحدة.

كان البطريارك ثيوناس السكندري(٢٢٠) هو الذي قام، عام ٢٩٠م، بكتابة رسالة إلى أمين المكتبة الملكي في روما ويُدعى لوثيانو، يؤكد له فيها "أن المكتبة هي أهم شيء، ولا يجب لأي مسيحي أن يقلل من شأن الثقافة الوثنية، وعلى أمين المكتبة أن يعرف كل شيء عن الكتب، إذ ينبغي أن يقوم بترتيبها متخذًا في هذا طريقة منهجية وأن يقوم بتصنيفها: على أن يراقب ويتأكد بأن كل النُسَخ هي نسخ أمينة للأصل، وعليه أن يتولى عملية ترميم المخطوطات أو اللوحات عندما تتعرض للتآكل؛ وفي نهاية المطاف ليس من الجوهري أو الضروري أن تكون كل الكتب مكتوبة بماء الذهب وعلى الجلد الأقحواني، اللهم إلا إذا طلب ذلك الإمبراطور(٢٢١)"؛ هنا يضيف بتلر أن "هذه الرسالة إنما تبين أن أسقف الإسكندرية كان في ألفة مع الأعمال والمهام المرتبطة بمكتبة زاهرة وعامرة".

جاءت بعد ذلك فترة توقف في أداء المكتبة Didascalium وكان ذلك في فترة المطاردات التي وقعت في عصر دقلديانوس(٢٢٢) ضد الموحدين، الذين أجبروا المدير الجديد على الفرار إلى روما وهو فيلسوف الأفلاطونية الجديدة "بيريو

---

(218) Teognosto (270-282 i C).

(219) Gregorío Tbaumaturgm (213-275 d. C.).

(220) Theonas (282-300 d. C).

(221) Bucler, "TheAmb Conquest...", pgs. 104-105.

(222) Diocleciano (284-305 d. C.).

Pierio[٢٢٣]، الشهير بأورينخنس الشاب، الذي كان معلم بانفيليو[٢٢٤]، الذي استمر في "المدرسة والمكتبة القيصرية" التي تأسست على يد أوريخنيس. اتسمت المطاردات التي قام بها دقلديانوس بالقسوة، لدرجة أن الأقباط اتخذوا بعدها وضع ميقات زماني جديد يُعرف باسم "ميقات عصر الشهداء" الذي بدأ عام ٢٨٤م أي العام الأول لحكم دقلديانوس؛ وكان من نتائج هذه المطاردات أيضًا تدمير كافة النصوص المسيحية[٢٢٥].

خلال حكمه، جرى تدمير الحي الراقي، حي الصفوة، بأكمله بما فيه من فيلات بها الكثير من الفسيفساء في الإسكندرية، وهو الحي الواقع جنوب "الطريق الكانوبي" في كوم الدكة، وهنا هُجِرَ هذا الحي تمامًا وأصبح خواء وسط القطاع المرتفع في المدينة. كما نعرف أيضًا ما قام به حاكم المدينة عام ٢٩٨م بتكريس عمود تذكاري تكريمًا لدقلديانوس في مقر السرابيوم حيث يلاحظ أن الكثير من الباحثين يطلقون عليه خطأ "عمود بومبي".

استمر في إدارة المكتبة بعد ذلك الأنبا بدرو الأول السكندري، Ivavo، البطريارك المناهض لأوريخنيس[٢٢٦] والذي استشهد في عصر ماكسيمينو، الرجل الذي قام بتشييد كنيسة ثيوناس غرب الإسكندرية، وكان هذا بمثابة انعكاس لتوجه متزايد ببناء كنائس في مختلف أنحاء المدينة، وكان الأنبا أرشيوس أو أشياس Achillas، Ivavo، البطريارك[٢٢٧] هو الذي وافق على تكريس أريوس، كاهنًا، واتهم لهذا. كما إن الشيء الملفت للنظر في هذا السياق هو أن كبار رجال الكهنوت من القائلين بالطبيعة الواحدة بقوا في بطرياركية المدرسة المذكورة، في الوقت الذي تحولت فيه خلال القرن الثالث الميلادي إلى ما يسمى "المدرسة المسيحية

(223) Pierio (fines s. III d. C).

(224) Panfilio (309-310 d. C).

(225) Lactando, "Sobre Victimas de Persecuciones", 12; Eusebio, "Historia Eclesiástica", 8, 2, 4.

(226) Pedro I de Alejandría (300-311 d. C).

(227) Archeus (311-312 d. C).

الأفلاطونية الجديدة". بعد أن مرّ بها أوريخنيس، وكانت مدرسة على صلة قوية "بمدرسة الفلسفة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية والمكتبة الصغرى التابعة للسرابيوم" التي كانوا يقبلون على الإطلاع على كنوزها بشكل دائم؛ وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء البطريارك أتانسيو، بعد ذلك بنصف قرن من الزمان.

وإذا ما كان هناك مكان ما من الأماكن التي يمكن أن تنشأ فيها ديانة توفيقية مسيحية تحترم الموروث الثقافي الضخم ولا يعني ذلك قطيعة درامية معه فإن هذا المكان لن يكون إلا الإسكندرية، التي كانت تضم في المكتبة الصغرى الأرشيف العالمي الوحيد الخاص بالنصوص الدينية والفلسفية والعلمية التي ترجع إلى العالم القديم. هنا نجد أن أميانو يقول: "...كانت الإسكندرية هي المكان الأول في العالم الذي جرى فيه اكتشاف أصول الأديان، وما زالت هذه الأصول ثابتة بشكل دقيق في ذاكرة الأزمنة الأولى لممارسة العقائد الدينية، حيث جرى جمعها في نصوص سرية"(٢٢٨) وشرب من هذا المعين الأفلاطونيون الجدد من المسيحيين التوفيقيين.

كانت المدرسة السكندرية Dedascalium مترعة بهذه المصادر؛ ولا شك أن الكثير من رهبان الأديرة المصرية والأنباوات التوحيديين والأساتذة والطلاب الذين مرّوا بالمكتبة ظلوا على اتجاههم الأفلاطوني الجديد، وكانوا غاية في الهمة والنشاط في الحفاظ على المعتقدات والكتب القديمة. كان "التوحيد المصري Monofisimo" (القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح)، وهو العقيدة المسيحية التي انتشرت في وادي النيل، في حاجة إلى نوع من التوفيقية، دون إبطاء، بين رموزها والرموز الفرعونية والهلنستية، في محاولة لاجتذاب الجماهير التي خاب أملها في أفول شمس آلهتها القديمة. وانتقلت الأناشيد والمعتقدات والأساطير والطقوس والصور ودور العبادة والاحتفاليات إلى المسيحية، ذات المذهب المؤمن بالطبيعة

---

(228) Amiano, "Hist. Roma", XXII, 16, 20.

الواحدة، ولم يكد يحصل عليها تغيير[229]، ومنها إلى مختلف أنحاء العالم المسيحي؛ وكان الفن القبطي في عصوره المبكرة متسمًا بالتوفيقية حيث يعكس التيارات الغنوصية والأفلاطونية الجديدة، فلم ينتقل رمز العنخ الفرعوني وما به من نقوش، وكذا أفروديت، بل شمل الآلهة Leda حيث ظهرت مرافقة للبجعة.

بدأت في هذه الفترة مرحلة انحطاط اليونانية في مصر، وأخذ انتشار الديموطيقية يزداد، وهي اللغة الشعبية، وكذا اللغة القبطية الجديدة، المشتقة عن اللهجات الديموطيقية، حيث كتبت بالحروف اليونانية، وكانت قد أخذت تنتشر بين الطوائف المسيحية الصغيرة في مصر العليا. وخلال القرن الثالث الميلادي أخذت تظهر النسخ القبطية الأولى للإنجيل، ووضح تعارضها الشامل مع الهلنستية، وأخذت تتباعد عن المفاهيم السكندرية. أخذت تتسع الهوة بين المواطنين الذين تأغرقوا وبين جموع الشعب المصري؛ وأخذت الإسكندرية تتبدى برجًا عاجيًا، يحتكر المعرفة والبذخ والثروة، وارتبط بقوى الاحتلال التي جرى تطويقها بحقل ضخم من الفلاحين والبرجوازية الريفية والمطحونين حيث أخذ علم الوطنية ينتشر بلا توقف.

نهاية عصر التسامح الديني:

كانت الأمور تتغير بسرعة في تلك الأيام، فالمواجهات الاجتماعية كانت مستمرة، إذ نشهد معتقدات جديدة تنتشر بشكل متوازٍ مع التيارات السياسية الجديدة، وفي الوقت ذاته نجد أن الأنماط القديمة للحضارات التليدة، مثل الفرعونية، أخذت تتهاوى. وأخذ يزول ذلك المجتمع المفتوح والمتعدد الثقافات الذي كان شاهدًا على العصر الذهبي للإسكندرية، وأفسح المجال لمجتمع غير متسامح وأحادي الثقافة.

(229) Jevenois. de. "La continuidad dei mundo antiguo en el artc y la cultura de los Coptos", pgs. 39-96, cn "Egvptc. Entre el Sol y la Media Luna", Ambic. Barcelona. 1999.

شهد القرن الرابع الميلادي في مصر تلك الحركات التي كان وراءها المدافعون عن الأرثوذكسية المسيحية وهؤلاء الذين كانوا يهاجمون الممارسات الوثنية وعلومها وازدادت هذه الموجة شدة مع ظهور الكاهن أريوس[٢٣٠] الذي قام اعتبارًا من عام ٣١٨م ببث الأريوسية في الإسكندرية وحاز في ذلك نجاحًا باهرًا. كانت تلك هرطقة يتمثل خطؤها الكبير في التأكيد، بمنطق واضح، أن النبي يسوع، أي عيسى المسيح، هو إنسان من لحم ودم ومن الفانين، ولد مثله مثل آخرين،رغم أنه تلقى الرسالة من الله. هنا حدثت معركة جدلية ضخمة كان لها ضحايا من القتلى من كلا الجانبين المسيحيين المتصارعين.

كان على قسطنطين[٢٣١] الأول أن يرسل عام ٣٢٤م بأسقف قرطبة، أوسيو، "مصري من إسبانيا"، طبقًا لرواية المؤرخ Zosimo السكندري[٢٣٢]، وذلك ليرأس المجمع الكهنوتي السكندري، الذي كان يستهدف تهدئة النفوس والبحث في تلك الشكاوى التي قدمها بطريارك الإسكندرية[٢٣٣] ضد الأريوسيين، وطبقًا ليوسيبيو دي Cesarea[٢٣٤] فإن الإمبراطور طلب منهم في رسالته أن يتصالحوا باعتبارهم مسيحيين وأن يتخذوا في هذا نبراسًا لهم ألا وهو الفلاسفة فهم يتناقشون ويختلفون لكنهم يعيشون في سلام.

ورغم أن قسطنطين الأول كان يعبد الإله هليوس، إله الشمس، أصدر قرارًا يتضمن التسامح مع كافة الأديان، كما أنه حابى بشكل خاص الانتشار الواضح للطوائف المسيحية وحاول أن يضع حدًا لصراعاتها، وفي هذا المقام دعا لانعقاد مجمع مسكوني هو "نيس Nicea" عام ٣٢٥م؛ وقد جرى في هذا الاجتماع إقرار

---

(230) Arrio (256-336 d. C.)

(231) Consrantino I (323-337 d. C.).

(232) Zosimo, "Nueva Historia", IV.

(233) Alejandro de Alejandría (312-326 d. C.).

.(234) Eusebio, "Vita Constantini", "Vida, de Constantino"

الكتب اللاهوتية ونشأت الأرثوذكسية المسيحية؛ واتخذ هذا الاجتماع أيضًا قرارًا بشأن قيام الإسكندرية بتحديد عيد الفصح المسيحي، ذلك أن السرابيوم كان المركز الفلكي الأكثر أهمية في الإمبراطورية، وربما لهذا السبب رفض قسطنطين الأول - طبقًا للحوليات - الاحتفاليات التي كانت تقام احتفاءً بالإله سرابيس، وأمر بإغلاق المعبد مؤقتًا عام ٣٢٥م، لكنه لم يقم بتدنيسه. وبعد ذلك بقليل، أي عام ٣٣٠م، لم تعد روما العاصمة الإمبراطورية، فقد أخذت دورها مدينة أخرى هي القسطنطينية، التي أصبحت عاصمة الأباطرة المسيحيين، الأمر الذي تحول إلى خطر على أهمية الإسكندرية في المشرق.

أصدر قسطنطين الأول، عام ٣٣٣م، مرسومًا يقضي بإحراق كافة الكتب المعادية للمسيحية التي أصدرها فيلسوف الأفلاطونية الجديدة بورفيريو، الرجل ذو الجذور السكندرية ومؤلف كتاب "ضد المسيحيين"[٢٣٥] وكذا كتب أريوس، وهنا ازدادت حدة هذا الاتجاه المتمثل في إحراق الكتب الممنوعة على الملأ، وهي عادة أو سياسة رومانية قديمة. كانت هذه الكتب تُجمع في أكوام وتضرم فيها النيران وسط الميادين في الآلاف من المدن والقرى، وكانت بمثابة "شاهد على الإيمان" بالمسيحية البيزنطية؛ كان المرسوم المذكور يقضي بأنه "إذا ما اتضح أن أحدًا يخفي كتابا لأريوس ولم يسلمه على الفور ويحرقه سوف يُحكم عليه بالإعدام"[٢٣٦]. كما تضمن المرسوم تمزيق كافة الكتب المقدسة للغنوصيين ومن يدعون بـ"الجبليين Montanistas"[٢٣٧].

وبعد هذا الإمبراطور سار باقي الأباطرة على الدرب نفسه حتى عصر الإمبراطور جوستنيان، حيث أصدروا المراسيم الخاصة بإحراق الكتب الممنوعة والحض على ذلك؛ وقد أدى هذا إلى أن يعم الخوف بين كافة من يملكون كتبًا!

---

(235) Porfirio, "Adversus Christianas". Socrates, "Historia Eclesiástica", I, 9. 30-31.

(236) Socrates de Constantinopla, "Historia Eclesiástica", I. 9. 30-31.

(237) Eusebio, "Vita Constantini", 3, 63-66.

ممنوعة، وبخاصة من عندهم كتب للسحر، وكذا كتب القوانين والأدب، ويدفعهم إلى إحراق ما لديهم، وشمل الأمر إحراق مكتبات بأكملها طبقًا لما يقوله أميانو(٢٣٨)، وبذلك أخذ نجم التفوق الثقافي للغرب في الأفول والزوال بشكل متسارع.

يرى "د.ث. سارفيلد D.C. Sarefield" أن إحراق الكتب "كان شكلاً واضحًا من أشكال العنف الديني خلال العصر الروماني المتأخر، وكان إحراق هذه الكتب نوعًا من إضفاء القدسية على المكان وإيذانًا بسطوع شمس المسيحية وانتصارها.."(٢٣٩). وفي هذه المهمة انضم الأساقفة وطوائف من الرهبان الأرثوذكسيين إلى المسئولين الحكوميين في مهمة البحث عن الكتب الممنوعة وإحراقها. غير أن الموروث الثقيل الذي ورثته الإمبراطورية الرومانية في هذا السياق تمثل في اعتناق قسطنطين الأول المسيحية واتخاذها ديانة رسمية للدولة وهو على فراش الموت حيث جرى تعميده طبقًا للتوجه الأريوسي، عام ٣٣٧م. وهنا نجد أن هذه الديانة الجديدة التي فرضت من علُ والتي انتشرت فقط بين خُمس سكان الإمبراطورية أحدثت تأثيرها الرهيب في النسيج الاجتماعي ذلك أنها تمثلت في رفض ما اعتنقه الآخرون وبالتالي تحوّل المسيحيون إلى قوم غير متسامحين مع الديانات الأخرى، التي أقرتها الإمبراطورية، وأخذوا يحاربونها بكل ما أوتوا من وسائل.

يرى "ب. فيين P. Veyene" أن المدارس الفلسفية الوثنية "كانت تختلف عن الكنائس والطوائف المسيحية في أمر جوهري وهو أنه لم يخطر على بال هذه المدارس أبدًا ضرورة أو إمكانية فرض نفسها على الإنسانية، وهنا نجدهم وقد كانوا يفخرون بأن حفنة من الناس يمكن أن تقبل بما يقولون، هم لا يبحثون عن

---

(238) Aroiano, "Historia de Roma", XXIX. 2. 4.

(239) Sarefleld, "Bookburning in the Christían Roman Empire. Tmnsforming a Pagan Rite of Pu-rification", "La Quénia de Libws en el Império Romano Cristiano. Transformando un Rito Pa-gano de Purificaciórf"-, 2004, pg. 295, en H. A. Drake, "Violence in Late Antiquity: Percep-tíons and Practices", -"Violência en la Antigüedad Tardia: Percepciones y Practicas", pgs. 287--295, Ashgate, U. Califórnia, Sta. Barbara, 2006.

خلاص الإنسانية رغم أنفها، بل كانوا يتوجهون إلى أي إنسان وكانوا على يقين مسبق بأن من سيسمعون لهم هم قلة وبالتالي فإن الكونية بالنسبة لهم أي الانتشار لا يعني الإمبريالية"[٢٤٠]. كانت هذه النقطة الجوهرية تعني ببساطة أن حرية الفكر وسيطرة إمبراطورية العقل والبحث والعلمي والانفتاح على العوالم الروحية الرحبة تمثل تقدمًا غير عادي بلغة هؤلاء الفلاسفة الوثنيون الذين هم قاعدة الحداثة. وانهار كل شيء أمام الزحف العدواني للطوائف الجديدة.

كانت هناك عناصر مهمة مثل روح التبشير والقضاء على الهرطقات وما يسمى بالاحتكار الدينية والقضاء على المراكز القديمة للوثنية وهذه العناصر هي التي رفع رايتها المسيحيون الكاثوليك خلال القرن الرابع الميلادي؛ كما كانت هناك حروب بلا هوادة بين بطاركة الإسكندرية وبطاركة القسطنطينية، العاصمة الجديدة للإمبراطورية، وكان السبب هو أولوية سبق مسيحيي الشرق. في بداية الأمر نجد أن بابا روما أيد الإسكندرية في هذا الصراع.

وإذا ما تتبعنا الإيقاع الذي رسمه "الزهد" المسيحي، الذي يعتنق عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح في مصر، على يد القديس بابلو، هذا الرجل ابن طيبة وأول الزُهّاد[٢٤١]، والقديس أنطونيو[٢٤٢] خلال القرن الثالث الميلادي، نرى أنه قد ظهر في عام ٣١٨م اتجاه يسمى "بالرهبنة" و"الديرية" الذي عليه القديس "باخوم Pacomio"[٢٤٣] وانتشر في مصر وفلسطين وسورية، وبمقتضى ذلك جرى تأسيس العديد من الأديرة والكنائس في الخلاء وعلى أطراف الصحراء. سكن هذه المباني مئات من الرهبان والراهبات، وهم أُناس بسطاء ومتشددون قَدِموا من الريف من الزيلوت (الطوائف المقاومة للاحتلال الروماني) والخارجين على القانون.

---

(240) Veyne, "ElImperio Romano", en Ariés, P. y Duby, G., "Historia de Ia vida. privada, Delímpe-rio romano al año mil", pg. 220, Madrid, 1987.

(241) Pablo Primer Ermitano (228-343 d. C).

(242) Anconio (251-356 d. C).

(243) Pacomio (292-348 d. C.).

كانوا يكرهون المدن، مثل الإسكندرية التي كانت ترفل في ازدهارها وثرائها، وأحدثوا في المناطق الحضرية الكثير من التدمير وقاموا بغارات مستمرة. وفي بداية القرن الرابع الميلادي نجد المسيحيين وقد انتشروا بين البحّارة والصيادين في ميناء الإسكندرية، وسيطروا على الأسطول وعلى إرساليات القمح إلى القسطنطينية. في هذا الجو المفعم بالتشدد الديني لم تتمكن السلطات الدينية من السيطرة على الرهبان ومساعديهم إلا بعد مرور عدة سنوات من بداية القرن الخامس الميلادي، غير أن هؤلاء المتشددين صالوا وجالوا خلال الفترة السابقة.

وعلى أية حال فإن الأباطرة الرومان أمروا بإغلاق دور العبادة، ولم يأمروا بهدمها قط؛ وكان فكرهم السياسي يقوم على عملية التحول التدريجي في الاستخدام الاجتماعي لهذه المباني وجرى تحويلها إلى كنائس أو إلى مقار مدنية؛ كما صدرت في بعض المواقف أوامر لإنقاذ دور العبادة من يد الهدم التي قام بها المسيحيون. كان السرابيوم محتفظًا ببهائه وبرز باعتباره مفخرة للعالم الهلنستي في عقر دار العقيدة المسيحية.

نجد مع كل هذا أن القديس أغسطين(٢٤٤) كان من أنصار منهج الإجبار من أجل المزيد من الأنصار للديانة، وصاحبه سان أمبروسيو(٢٤٥) في هذا حيث كانا يطالبان الأباطرة صراحة بتدمير كل ما يتعلق بالعقائد القديمة، وهنا نجد أن هؤلاء الأباطرة، كانوا، طوعًا أو كرهًا، الأداة في يد عصر أعمى اتسم بالمطاردة الدينية في كافة أرجاء الإمبراطورية، ووقعت سرقات ومصادرات وجرت أعمال عنف لا حدود لها بما في ذلك الاغتيالات، الأمر الذي أثار الرعب في كافة أرجاء العالم المعروف، وكان ذلك بالفعل أول مثال في عمليات المطاردة التي تقوم بها الدولة بشكل موسع ضد مواطنيها بناءً على إيعاز من طائفة دينية ذات أصول خارجية.

---

(244) Agustín (354-430 d. C.).

(245) Ambrosio (c. 339-397 d. G).

بدأت عمليات تدمير الموروث الوثني المصري في عصر قسطنطين الثاني، الإمبراطور الذي خلف قسطنطين الأول، والحاكم الجديد للمشرق ومصر، كما أنه الإمبراطور الذي كان يؤيد الأريوسية باعتبارها ديانة للبلاط البيزنطي. نجد إذن أنه قد بدأت مع المسيحية عملية التدمير المبرمجة للآثار السكندرية، التي ظلت شبه كاملة على مدار القرون. أصدر قسطنطين الثاني[٢٤٦] مرسومًا في عام ٢٤١م هو "المواثيق" وبمقتضاه يمنع منعًا باتًا أي تضحيات وثنية، وفي العام نفسه أرسل بجيش إلى الإسكندرية، بقيادة إيولوخيو، القائد الذي قام "بإحراق الوثنيين أحياء، وهدم المعابد واستولى على كافة ما بها"[٢٤٧]. غير أن هذه التأكيدات مُبالغ فيها ذلك أن السرابيوم ظل قائمًا وبه كنوزه، إضافةً إلى معابد كبرى أخرى مثل معبد "قيصرون" الذي أعيد بناؤه، وهنا جرى مصادرة هذا المعبد لصالح المسيحيين واستولى عليه أتباع الطبيعة الواحدة الذين يقودهم أناستاسيو، ثم حوّلوه إلى كاتدرائية عام ٣٥٠-٣٥١م[٢٤٨] وكرّسوها باسم سان ميجل، ثم أصبحت بعد ذلك مقار للبطرياركية.

ومع هذا نجد أن هذه الوثائق والنصوص تتحدث عن الجو العام المناهض للوثنية والذي كان ملحوظًا في الإسكندرية خلال القرن الرابع الميلادي، ثم تشير إلى حالة الرضا التي كان عليها أنصار المسيحية من جرّاء موت هؤلاء الوثنيين بما في ذلك الحالات التي كانت أشد فزعًا وقسوة، وكل ذلك باسم نور المسيحية. عاشت الإسكندرية أيضًا عصرًا أنشئت فيه العديد من مدارس الكتبة[٢٤٩]، وكانت مدارس مكرّسة لإنشاء اتجاه هو أدبيات الشهداء وتضحياتهم، وكانت عبارة عن

---

(246) Constando II (337-361 d. C.).

(247) H. Hyvcrnat, "Actes dei Martyrs de 1"Egypte", -"Actas de tos Martires de Egipto"-, 1886, en Butler, "The Arabic conquest of Egypt", Prefacio, XXXI, Oxford, 1902.

(248) Atanasio, "Defensa contra Constando", 14-18.

(249) De Lacy, O'Leary, "The Saints of Egypt", -"Los Santos de Egipto"-, 1937; Kessinger Publ..2005

سلسلة تم وضعها لترتل في الكنائس، وكانت هي التي غذت الخيال القبطي بالقديسين والمعجزات والرؤى والتعاويذ. وفي الوقت ذاته نجد أحد فلاسفة الأفلاطونية الجديدة وهو "تيمستيو Temistio" يكتب عام ٣٥٧م في مؤلف له بعنوان "خطاب الإمبراطور" عبارات فيها تقريظ للمكتبات وضرورة تأسيسها وذلك للحفاظ على مؤلفات ونظريات كل من أفلاطون وأرسطو[٢٥٠].

بدأت موجة من العنف مع مجيء السكندري القديس أناستاسيو[٢٥١] أسقف الإسكندرية[٢٥٢]، وكان عنفًا غير معهود في الخصومات الدينية حيث جرى قتال شرس مع الاتجاه الأريوسي، الاتجاه الديني الذي يتسم أيضًا بالتوفيقي. وتولى أناستاسيو إدارة المكتبة Didascalium وأجبر على أن يتخلى الآخرون عن التأويل الصوفي الرمزي للنصوص التوراتية، وكان هذا الصنف من التأويل يُطلق عليه "التأويل السكندري" الذي يحمل تأثيرات الأفلاطونية الجديدة؛ وكان كل هذا لصالح انتشار التأويل الحرفي للنصوص، أي التمسك بظاهر النص، وهذا ما يتوافق مع رؤية المعتقد المسيحي الذي عليه رهبان الصحراء. قام هذا القديس بإدارة المكتبة سنوات عدة، وهي الفترة التي زارها فيها آباء الكنيسة المُسمّاة "مدرسة كابادوثيا" مثل باسيليو وجريجوريو دي ناثيانو الذين تزعموا الحركة المسيحية "السكندرية الجديدة" التي كانت تدافع عن استخدام العقل في دراسة النصوص الدينية.

يؤكد "إ. واتز E. Wats" أن "برنامج أناستاسيو كان موجهًا لدحض مفاهيم رجال الدين المسيحي القريبي الصلة بالتوجهات والمذاهب الفلسفية (مثل أريوس)، وكذا لمناهضة الفلسفة نفسها والتي عليها أقاموا نظرياتهم... وربط بين التعاليم المسيحية والممارسات الصوفية". وهنا يمكن أن نبرز وسط كل هذا كتابًا له بعنوان

---

(250) Temistio, "Orationes quae supersunt".

(251) S. Atanasio (295-373 d. C.).

(252) S. Atanasio, obispo de Alejandría (326-373 d. C.).

"حياة أنطونيو"... حيث يعرض فيه أن التصوف هو نوع جديد من المعرفة والحكمة المسيحية... معلنًا تفوقها على التعاليم والمفاهيم التقليدية... ورغم أن فقهاء الديانة المسيحية قد تأثروا بالفلسفة ومذاهبها، مثلما نجده في حالة "إيفراخيو بونتيكوس .Evragio P" فقد ظلوا يعملون في الأطر التي رسموها لأنفسهم، ووجدوا أنفسهم أقرب صلة بالأديرة وليس بالمدارس الفلسفية الوثنية كما كان في الماضي. وعلى أية حال فإن هذا لم يقلل من عدد التلامذة المسيحيين الذين يلتحقون بالمدارس الوثنية"(٢٥٣).

كان من البدهي أن يكون هناك خلال القرن الرابع الميلادي نظامان من الأنظمة الفكرية في إطار الحركات المسيحية القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح في كل من سوريا ومصر؛ أحدها شديد القرب من المذهب التوفيقي والأفلاطونية الجديدة مثلما نجده عند كل من كليمنت وأوريخنيس في الإسكندرية وأساقفة كابادوثيا؛ أما الآخر فهو الذي يميل إلى الالتزام بظاهر النصوص، والأرثوذكسية وهو ما عليه أناستاسيو في مصر، وكان هذا هو الذي يعضد من العمل على إيجاد ميتولوجيا جديدة، وهي "أنسنة الشعور الديني antropoizacion"، ومع هذا كان هناك تأثير عميق للأفلاطونية الجديدة في إطار مذهب الطبيعة الواحدة الأرثوذكسي، وهنا يؤكد "ر. R. Reizenstein"(٢٥٤) أن كتاب "حياة أنطونيو، الذي كتبه أنطونيو(٢٥٥) يقوم أساسًا على حياة فيثاغورث وعلى فكر الفلاسفة الوثنيين.

رغم أن الجميع كانوا مسيحيين كاثوليك وأن الإسكندرية - في تلك الفترة - كانت تحظى بمساندة روما في صراعها ضد القسطنطينية التي كانت تريد أن

(253) Watts, "City andScboolïn Late Antique Athens and Alexandria", -"Ciudad y Escuela en la An-tigüedctd Tardia de Atenas y Alejandría"-, pg. 170, U. Califórnia Press, 2006.

(254) Reizenstein, R., "Des Athanasius Werk, üher das Lehen des Antonius, -"La obra de Atanasio sobre la vida de Antonio"-, 104, Heilderberg, 1914, en J. Aisina Clota, "El neoplatonismo. Síntesis dei espiritualismo antiguo", Ed. Anthropos. Barcelona. 1989.

(255)Atanasio, "Vita Antonii".

تنتزع منها زعامة الكنيسة الشرقية، كانت الحركات الداخلية تنادي بفصل عميق بين الكاثوليك في مصر، أي بين السكان المحليين والسكان الوافدين، وكان ذلك من خلال خط قومي، فأبناء الوطن يعلنون سيرهم على المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، وبذلك يتباعدون عن اليونانيين الرومانيين والبيزنطيين؛ وإليهم كان ينتسب أناستاسيو الذي شهدت أيامه التخلي عن روح التصالح والتوفيقية التي كانت عليها المدرسة Didascalium المسيحية، واستولى البطاركة السكندريون على حق التنظير بالنسبة للاهوت المسيحي الجديد، وبذلك أخذ يظهر ما يسمى "علم اللاهوت المسيحي السكندري .Cristologia A الأرثوذكسي" ذو الطابع القائل بالطبيعة الواحدة.

في عام ٣٥٥م هرب أناستاسيو من الإسكندرية للمرة الثانية، حيث كان الإمبراطور قسطنطين الثاني يقوم بمطاردته، وبغيابه استطاعت أنطاكية أن تعين خورخي دي كابادثويا، الرجل الأريوسي المذهب، "أسقفًا على المدينة[٢٥٦] في عام ٣٥٦م.، وتحول إلى الأسقف الأريوسي، "أسقف الإسكندرية"، وهو الرجل الذي أطلق عليه تيودوريتو لقب "الذئب"، نظرًا لقسوته على القطيع[٢٥٧]. وفي عام ٣٦٠م استطاع خورخي، بمساعدة الحاكم، مطاردة أصحاب المذهب القائل بالطبيعة الواحدة والوثنيين مطاردة لا هوادة فيها واغتال الكثير من الشهداء الأقباط وهدم عدة دور للعبادة في الإسكندرية، وربما كان من بين هذه الدور معبد "قيصرون" القديم، الذي كان يعتبر المعبد الأهم في الإسكندرية القائلة بمذهب الطبيعة الواحدة، وربما، أيضًا، طالت عمليات الهدم التعدي على السرابيوم، طبقًا لما نفهمه من رواية خوليانو[٢٥٨]. وفي هذه الفترة تمكن الأريوسيون من السيطرة على كافة الكنائس التابعة للقائلين بمذهب الطبيعة الواحدة.

(256) Sócrates de Constantinopla, "Historia Eclesiástica", III, 3.

(257) Teodoreto, "Historia Eclesiástica", XI, 3.

.(258) Juliano, "Cartas, A los Alejandrinos"

كان لدى خورخي السكندري هذا مساحة من الوقت ليقوم في آن معًا بإعداد سلسلة من المخطوطات في الإسكندرية في غضون فترة قصيرة جدا من الزمن، وكان ذلك خلال الفترة من ٣٥٦م و٣٦١م، أي خلال الفترة التي أعدم فيها بشكل غير قانوني. كانت هذه المجموعة من الكتب مجموعة خاصة مهمة طبقًا لما كان يؤكده الإمبراطور جوليان الذي أراد الاستيلاء عليها، وقد جاء ذلك في "رسالة إلى بورفيريو" يقول فيها أن مجموعة الكتب التي ألفها خورخي "تتسم بالضخامة وأنها كاملة، كما أنها تضم الفلاسفة من كل المذاهب وكذا العديد من المؤرخين"(٢٥٩)، وهذا يدل بوضوح على أن الإسكندرية كانت لا تزال العاصمة العالمية للكتب والمكتبات.

نجد في خضم هذه الصراعات المسيحية، أن "ج. هنّام J. Hannam"(٢٦٠) يشير إلى أن خورخي الأريوسي ربما هو الذي قام بالاستيلاء على محتويات "المكتبة الصغرى" وذلك لتكوين وإنشاء مكتبته الخاصة(٢٦١). ويرى هذا الباحث أيضًا أن تلك الفترة ربما هي التي شهدت تشتت أو زوال المكتبة من خلال الهجوم على السرابيوم؛ وهذا أمر لا يوجد له حتى الآن سند يؤكده تمامًا، لكنه ربما لم يؤثر أيضًا على المعبد الرئيسي للسرابيوم،حيث ظل تمثال الإله المصنوع من العاج والفضة والذهب في مكانه، ولم تطأ أقدام المسيحيين المكان إلا بعد ذلك، طبقًا لرواية سقراط القسطنطيني. ويأتي هذا الرأي في سياق البرهنة على أن هدم أو تفكيك المكتبة الصغرى كان أمرًا سابقًا على مأساة زوال السرابيوم، وجاء ذلك بعد وقت قصير حيث وقعت على رأس المسيحيين مسئولية ارتكاب هذه الكارثة.

---

(259) Juliano, "Cartas, A Porfirio", IX, 36.

(260)Hannam, "The Foundation and Loss of the Royal Libraries of Alexandria", -"La. Fundacíón y Perdida de la Bibliotecas Reales de Alejandria"-, Bedes Library, Internet, 2003-09.

(261) Butler, "The Arab Conquest,..", pg. 419.

وعلى أية حال فرغم أن خورخى قد سلب ونهب خلال سنوات العنف فإن كل المصادر الموجودة لم تشر إلى أنه قد نهب محتويات مكتبة السرابيوم؛ وعموما فهذه الكتب لم تكن إلا نسخًا من الأصول التي ضاعت مع ضياع المكتبة الكبرى؛ ويستوي الشيء نفسه في القيام بنهب أرفف مكتبة السرابيوم أو مكتبة Didascalium أو أيًا من مئات المكتبات الخاصة وغيرها من مكتبات المعابد التي كانت قائمة في الإسكندرية. غير أنه يبدو أنه كان مهتمًا بكتابات الفلاسفة والمؤرخين اليونانيين مثل غيره من هواة جمع الكتب خلال العصر الروماني.

إذا ما عرفنا أن "مكتبة ثيلسو B. Celso"[٢٦٢]، وهي أشهر المكتبات الخاصة في الإمبراطورية، كانت تضم في مبناها الرائع في Efeso اثني عشرة ألف لفافة بردي، وأن لدى مكتبة الشاعر "برسيو Persio" سبعمائة[٢٦٣] وأن مكتبة كو. سيرينو "سمّونيكو Q.S. Sammonico"، الدكتور الذي عاش خلال القرن الثالث الميلادي، قد بلغ محتواها ٦٢٠٠٠ لفافة، يمكننا أن نقول في نهاية المطاف إن مكتبة خورخي دي كابا دوثيا كان بها عدد مشابه ولم يصل قط إلى مئات الآلاف من اللفائف مثل تلك التي كانت تضمها مخازن المكتبة الصغرى.

ومهما أوتي خورخي من قوة وعنف فإنه لم يكن ليستطيع أن ينهب محتويات المكتبة الملكية في السرابيوم كاملة وإلا لثار السكندريون عليه، فهو رجل دين أجنبي يستولي على كنوزهم. ويزداد الأمر صعوبة عندما نتخيل ذلك مرتبطًا بأحد الأفراد الأقل شأنًا حتى ولو كان أسقفًا، بقيامه بالاستيلاء على مجموعة الكتب الإمبراطورية لتكون جزءا من مكتبته الخاصة، ولو كان قد حدث ذلك لكان بحاجة إلى الاستعانة بمئات من العبيد والبغال والصناديق في شكل طابور ضخم يستمر طوال أيام متجهًا صوب الميناء، كما أنه كان بحاجة إلى موافقة الإمبراطور. وهنا

(262) Biblioteca, de Celso (114-120 d. C.).

(263) Lanciani, R "Ancient Rome in the light of Recent Discoveries"-"La Antigua Roma a la luz de los recientes descubrimieníos"-, Houghton, Boston-New York, 1888.

نقول إنه لا يوجد حتى الآن دليل على حدوث مثل ذلك الموقف؛ فقد ظل معبد السرابيوم ومكتبته يرفرفان على الإسكندرية رغم "عمليات النهب التي قام بها خورخي "الكابادوثي" وهذا اللقب هو الذي كان معروفًا به بين السكندريين.

قامت مجموعة من السكندريين بإعدام خورخي السكندري يوم عيد الميلاد المجيد، من عام ٣٦١م(٢٦٤) وكان ذلك متوافقًا مع وفاة الإمبراطور قسطنطين الثاني وتولى خوليان(٢٦٥) الملقب بالمارق؛ لأنه حاول العودة إلى عبادة آلهة أجداده وأحاط نفسه بفلاسفة الأفلاطونية الجديدة. وكانت عملية الإعدام هذه بعد نهب مكتبة أحد معابد للإله "مترا Mitra"(٢٦٦) الذي هُجِر(٢٦٧)، أو بعد محاولة هدم المعبد الجميل المسمى "معبد الأرواح" الخاصة للمدينة(٢٦٨). وقد قام الإمبراطور خوليان من القسطنطينية على الفور بالمطالبة والإلحاح في استرداد كتب ذلك المعبد، وربما كان ذلك من أجل مكتبته الخوليانية، القائمة في معبد تراجان في أنطاكية.

منع خوليان التعليم على المسيحيين وبالتالي فإن مكتبة Didascalium قد أغلقت طوال فترة حكمه القصيرة، وكان على الطلاب المسيحيين الحضور إلى "المدارس الفلسفية الوثنية" في الإسكندرية، وهذا ما كان يفعله الكثيرون، ومع هذا سمح للأساقفة من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، من الأوفياء لأناستاسيو استعادة كنائسهم التي كانت في يد الأريوسيين. في هذه الفترة، ربما حظيت الإسكندرية بوجود الحمامات الإمبراطورية والأوديون والطرق ذات البوائك التي تؤدي إلى

(264) Juliano (361-303 d. C.).

(265)"Historia Accpbala", - "Historia. Acéfala"- . 6. 8., en L. Kaplow, "Retigious and Intercommunal Violence in Alexandria in the 4th and 5th Centuries CE" - "Violência Religiosa e Intercomuni-tariaen Ia. Alejandria de Ios sighs IVy V d. C."-, Hirundo. Vol. IV, pgs. 2-26, 2005-2006.

(266) Santuario dei dios Mitra..

(267) Socrates, "Historia Eclesiástica", III. 2.

(268) Amiano, "Historia de Roma, XXII. 11, 3-11.

ميدان ضخم مربع في كوم الدكة؛ وربما تحول ذلك إلى المركز الجديد للإسكندرية طبقًا لما يقول به Majcherek، وذلك لمزيد من دعم توسع مدينة الإسكندرية الرومانية صوب الجنوب أي صوب ذلك الجزء العلوي من المدينة ذلك أن الجمنازيوم كان قد تهدم وأصابه الخراب.

التسونامي الذي دمر الإسكندرية:

جاء "خوبيانو Jubiano"[٢٦٩] خلفًا للإمبراطور السابق وسارع بإحراق "المكتبة الخوليانية" القائمة في أنطاكية، بكل ما فيها من كنوز، عام ٣٦٤م، وأعاد أناستاسيو إلى مقره في الإسكندرية. وفي ذلك العام بالتحديد نجد عالم الفلك الشهير "زيون Theon"، العضو الشهير في متحف السرابيوم، يتوقع عام ٣٦٤م حدوث كسوف للشمس وخسوف للقمر، حيث يمكن مشاهدة هاتين الظاهرتين في الإسكندرية، ربما كان هذا الشعور بالقلق إزاء ظاهرة الكسوف الكلي للشمس في منتصف النهار، وأن يخيم الظلام والشعور بالبرد، إيذانًا بحدوث شيء رهيب سوف يأتي عما قريب.

هذا ما حدث بالفعل، ففي صيف العام التالي حدث ارتفاع في أمواج البحر نتيجة زلزال حدده المحدثون بأنه كان غرب جزيرة كريت؛ ويرى "إ. باباندمتريو E.Papandimitriou" أن الزلزال كان بقوة وصلت إلى M ٨,٣ وضرب الجنوب الغربي "للعقد الهلنستي" بالقرب من جزيرة كريت، عام ٣٦٥م، محدثًا تسونامي وصل تأثيره إلى معظم أنحاء المنطقة الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط[٢٧٠]. وكان ذلك في الحادي والعشرين من شهر يوليو.

---

(269) Joviano (363-364 d. C); "Suidas", "Joviano", I, 401.

(270) Papadimitriou y otr., ""Rupture model of the Great A. D. 365 Crete earthquake in the sotith-western part of the Hellenic Are", "Modelo de ruptura dei gran terremoto dei 365 d. C. en Ia parte sudoeste dei Arco Helénico"-, Acta Geophysica, Versita, Vol. 56, 2, 2008.

أسفر الزلزال عن تسونامي، وطبقًا لأميانو فإن ذلك عبارة عن موجة عاتية اصطدمت بالعاصمة المصرية وهدمت مباني وقتلت الكثيرين، وفي هذه الظروف الدرامية "ألقت الأمواج بالكثير من المراكب الكبيرة إلى الشاطئ حتى صعدت فوق أسطح المنازل مثلما حدث في الإسكندرية"(٢٧١) ويلاحظ أن الإشارة إلى وجود مراكب فوق أسطح المنازل قد تكرر أيضًا عند "سوزومن Sozomen"(٢٧٢)، أطلق السكندريون على هذا اليوم، "يوم الرعب"(٢٧٣)، وأخذوا يحيون ذكراه لمائتي عام بعد ذلك طبقًا لما ورد في مخطوطة قبطية ترجع لنهاية القرن السادس الميلادي.

وبالنسبة لهذا الحدث الدرامي، يبدو غريبًا أن كافة من رجعوا إلى كتب أميانو خرجوا بخلاصة تقول بأنه قد وصف بكل دقة تفاصيل تسونامي ضخم أتى على الأخضر واليابس في الإسكندرية عام ٣٦٥م، كما أنه تم التأكد من هذه الواقعة من خلال آخرين من الكُتّاب في العصور القديمة، ووصل الأمر ببعض هؤلاء الباحثين إلى التنويه بأن المكتبة السكندرية ومعها المدينة قد تعرضت للدمار في تلك الفترة؛ ومع هذا يبدو أن كل شيء ما هو إلا تأويل مفتعل للنصوص ولا يتوافق مع ما ورد بها من بيانات. وربما كان ذلك نوعًا من الاستنتاج الخاطئ، وبالتالي فإن القول بتدمير الإسكندرية من جرّاء تسونامي ضخم، عام ٣٦٥م، ما هو إلا نوع من الروايات الأسطورية الحديثة التي لا تتفق مع الواقع.

---

(271) Amiano, "Historia de Roma", XXVI, 10. 15-19. Modernos investigadores aseguran que dicho evento se corresponderia con el terremoto de Creta de julio dei 365 d. C.

(272) Sozomen, "Hist. Ecles", VI, 2.

(273) S. C. Stiros, "The AD 365 Crete earthquake andpossible seismic clustering during the fourth to sixth centuries AD in the Eastern Mediterranean: a review of historícal and archaeological data", 1996, -"El terremoto de Creta dei 365 d. C., y sus posibies comecuemias sísmicas entre los siglos cuarto ai sexto d. C. en el Mediterrâneo oriental: una revisión de los datos históricos y arqueológicos"-, Journal of Structural Geology, Vol. 23, 2, pgs. 545-562, Elsevier, 2001.

لقد تحدث أميانو بالفعل عن تسونامي ووصفه بدقة كاملة، والظاهر أن مركزه هو غرب جزيرة كريت، وأن تأثيره كان واحدًا على كافة شواطئ كريت وبحر إيجه والأدرياتيك والشمال الأفريقي وليس الإسكندرية فقط. وهنا نجده بالفعل يذكر فقط مكانين باعتبارهما نموذجين لما حدث في أماكن أخرى تأثرت بالتسونامي، كما أنها في أماكن تقع في الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط؛ أحد هذه الأماكن هي الإسكندرية، حيث ذهبت الأمواج ببعض المراكب إلى أسطح المنازل؛ أما الثاني فهو "ميثون Methone" في اليونان، وربما كانت هي المدينة التي تقع في الجنوب الغربي "لبيلوبونيسو Peloponeso"، حيث تمكنت موجات التسونامي من الإلقاء بالمراكب هناك إلى مسافة فرسخين على اليابسة. أضف إلى ذلك أن أميانو كان يتحدث عن "جبال ضخمة ووديان عميقة" ظهرت ملامحها مع انحسار مياه التسونامي، وهو مشهد يتوافق تمامًا مع الطبوغرافيا التي نجدها في كريت أو جزر بحر إيجه أو اليونان وليس في مصر حيث لم تخلف المياه بعد انحسارها إلا وديانًا ضخمة من الرمال التي تتخللها الهضاب والصخور.

في هذا السياق أيضًا نجد أحد الأساقفة المصريين، من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، وهو "خوان دي نيكيو J. de Nikiu"[(٢٧٤)]، يتحدث عن التسونامي، لكنه ينفي تمامًا تدمير مدينة الإسكندرية مشيرًا إلى "أن تلك الموجة القادمة من المحيط قد ارتفعت أمام الإسكندرية ووصل ارتفاعها إلى تهديد وجود المدينة وإغراقها"؛ ثم يشير إلى "أنه عندما ارتفع مستوى مياه البحر أمام مدينة الإسكندرية ووضح التهديد بإغراقها حيث وصل إلى مكان يُطلق عليه Heptastadion"، وهنا تدخل البطريارك أتاناسيو الذي وضع يديه على صفحة الماء وصاح على طريقة موسى، وبذلك أنقذ المدينة إذ انحسرت مياه البحر "وعادت إلى سابق عهدها".

---

(274) Juan de Nildu, "Crónica", índice, LXXXI (LXXXII), 21, 22, 23.

هنا نجد أن خوان دي نيكيو يشير بوضوح إلى أن الموجة الضخمة قد غطت المكان Heptastadion، أي الطريق الذي كان يربط بين جزيرة فاروس واليابسة، ويفترض أن أتاناسيو قد أوقف الموج. هذا النوع من الرواية الأسطورية يمكن أن تكون نواته حقيقية، وأن الموجة الكبيرة لم تصل إلى المدينة، مثلما حدث في موانئ أخرى في البحر الأدرياتيكي، وتم إنقاذ الميناء على يد أسقف مسيحي آخر. من البدهي أن التسونامي قد مر علي جزيرة فارو التي كانت كثيفة السكان وكان تقع في مواجهة البحر مباشرة، وفوق منازلها ألقت الأمواج بالمراكب، وكذلك الأمر فوق الأرصفة التي تحمي الإسكندرية، إضافةً إلى الطريق الذي يربط الجزيرة بالمدينة وهذه كلها عناصر أسهمت في كسر حدة المياه الغاضبة التي ضعفت قوتها بوصولها إلى المدينة، إذ اصطدمت أسوارها العتيدة وأغرقت الأجزاء السفلى ودمرت الأحياء الشعبية التي كان يقطنها الصيادون، أما الجزء العلوي فقد نجا بالكامل من التسونامي.

يتوافق ما أشرنا إليه سابقًا مع المعلومات التكتونية (تركيبات الصخور) التي تحدث عنها كل من خ. د. ستانلي، وت. خورستاد[٢٧٥] حيث أكد الباحثان "أن طبقات الرواسب في ميناءي الإسكندرية اللذين يفصلهما الطريق الذي يربط المدينة بالجزيرة (هي طبقات سبع، طبقًا لتقنية الكربون المشع، في الميناء الشرقي، إضافةً إلى ٦٥ طبقة متوالية في الميناء الغربي) تعتبر بمثابة أدلة estratigraficas وبترولوجية وبيوفاثيا biofacies لتحديد عام ٣٦٥م والأحداث التي وقعت آنذاك. وبدلاً من العثور على مخلفات التسونامي، فإن هذه الدراسة الجيو آثارية توثق

(275) Stanley y Jorstad. "The 365A.D. Tsunami destruction of Alexandria, Egypt: Erosion. deforma-tion of strata and introduction of allochthonous material!", -"La destrucdón de Alejandria, Egipto, por el Tsunami dei365 d. C.: Erosión, deformación de estratos e tntroducción de mate-0"-, E- 205 NMNH, Paleo, Smithsonian Institution, Washington, GSA, 2005.

أهمية النحر الذي يوجد في أعماق الموانئ الناجم عن الموجات العاتية التي ترتبط بمثل هذا الصنف من الأحداث".

وعلى ذلك يمكن القول بأن كلاً من الباحثين - ستانلي وخورستد - لم يكتشفا ضربات قوية للتسونامي في الشاطئ بل اكتشفا دفعة قوية لموجات مرتفعة أحدثت تأثيرها على عمق الميناءين السكندريين وأحدثت بهما نحرًا يشبه فعل المبرد لكنهما يؤكدان في دراستهما اختلافًا جوهريًا بين الميناءين؛ وربما كان الميناء الغربي المسمى Eunostos هو الذي تلقى كبريات الضربات، ذلك أن التسونامي كان قادمًا من الناحية الشمالية الشرقية، أما الميناء الكبير ومعه المدينة فقد كانت عرضتهما أقل بكثير لتأثير التسونامي. كان من الممكن لأتاناسيو أن ينقذها ببساطة، إذ تمكنت جزيرة فاروس التي تقع في الخط الأول من الصمود أمام الموجة.

كان أميانو وخوان دي نيكيو هما الكاتبان الوحيدان اللذان ربطا الإسكندرية بالتسونامي، ولم يفعل ذلك أحد آخر، بما في ذلك المصريان الآخران أتانسيو وخوان كاسيو. كتب الأولان عن الموضوع، وصمتا صمتًا تامًا عن أية إشارة إلى تدمير مدينة الإسكندرية خلال تلك الفترة، ووصل الأمر بهما أنهما حتى لم يذكرا الإسكندرية. وبذلك نجد أنه عندما نقرأ "رسالة" للبطريارك أتاناسيو نجد أنها تشير إلى تدمير أكثر من مائة مدينة من جرّاء التسونامي[٢٧٦] لكن ذلك كان في كريت، دون إشارة إلى الإسكندرية، التي يفترض أنه أنقذها، كما أن الرسالة لم تنوه بضرورة إنقاذ المدينة.

الشيء نفسه نجده عند الأسقف المصري خوان كاسيو[٢٧٧] عندما تحدث عن زيارته للدلتا، خلال القرن الخامس الميلادي، حيث وصف تلك الأراضي التي كانت لا تزال غارقة من جرّاء التسونامي، حيث كبر حجم البحيرات الموازية للشواطئ المصرية، لكنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى تدمير مدينة الإسكندرية خلال تلك

(276) "Vida de S. Atanaséo", PG 25, CCX, en S. C. Stiros, AD 365 Crete eanhq,", 1996.

(277) JuanCassio (419-426 d. C), Comentários , XI, 3.

الفترة. وبناء على كل ما سبق يمكن القول، استنادًا إلى النصوص، أن تدمير مدينة الإسكندرية، عام ٣٦٥م، من جرّاء تسونامي، ربما لم يحدث على الإطلاق، وعلينا أن نقبل من جانب آخر، بإمكانية تدمير جزيرة فارو عام ٢٦٥-٢٦٦م، حيث غرقت أيضًا الأحياء الواقعة خارج الأسوار في الإسكندرية، وهي الأحياء الأكثر فقدًا والتي يقطن بها الكثير من المسيحيين، إضافةً إلى الأراضي الوطيئة التي يعيش فيها الفلاحون.

محرقة الكتب:

خلال ذلك العام المذكور، في عهد الإمبراطور بالنتي[٢٧٨] الأريوسي المذهب، - ٣٦٦م - قام الأريوسيون والوثنيون بالهجوم على المعبد Caesarion لانتزاعه من أتباع مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة، وهدموه من جديد بعد أن كان قد أعيد بناؤه، وبعد ذلك بعام، كتب أثاناسيو في نهاية حياته المليئة بالتقلبات، أول قائمة معروفة في العالم المسيحي لعدد من الكتب هي ٢٧ كتابًا "للعهد الجديد" واستبعد باقي الكتب على اعتبار أنها كتب هرطقة، وعلى ذلك أدان الانشقاقيين والملاحدة وأعلن أن كافة الكتب وعددها بالمئات هي كتب غير معتمدة ويجب حرقها، سيرًا على ما فعل قسطنطين الأول، وبذلك انتشرت موجة من محاكم التفتيش في كافة أنحاء مصر تستهدف تدمير وإحراق كافة كتب الأدب المسيحي. وفي أحد الأديرة من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة نجد تيودور يترجم الرسالة الرعوية إلى القبطية حتى تكون دليلاً ومرشدًا.

آل أمر الكتب الأخرى الأصيلة والقديمة والتي كانت شاهدًا على الخطوات الأولى في حياة المسيحية إلى أتون النيران، وأخذنا نشهد، من جديد، عمليات موسعة لإحراق الكتب في الأسواق وميادين المدن والبلدات والقرى، فالتوجه الأرثوذكسي لم يكن صديقًا للتاريخ. نجا من هذا الأتون القليل من الكتب التي كان

(278) Valente (364-378 d. C.).

بعضها مدونًا بالعبرية وكذا الكتب الوثنية. وبذلك تمكن رهبان الدير الغنوصي في نجع حمادي من أخفاء ستة وأربعين نصًا مقدسًا من يد موجة التعصب هذه ووضعوها في جرّة دفنوها في الصحراء، وهذه النصوص هي التي أطلق عليها "الأناجيل الغنوصية". وكان هذا مؤشرًا على ما سيحدث في الإسكندرية خلال ذلك القرن.

حظى البطريارك أثاناسيو، أثناء صراعه مع أريوس على مساندة خليفته "ديدمو الأعمى"[٢٧٩] الذي قام بإدارة المكتبة Didascalium[٢٨٠] على مدار خمسين عامًا وعاش حياة شديدة الزهد حتى مرحلة تدمير السرابيوم، وكان آخر مدير لمدرسة Catecumena قبل إغلاقها على يد تيوفيلو. كان هذا الرجل فيلسوفًا شهيرًا من فلاسفة الأفلاطونية الجديدة رغم أنه مكفوف؛ ابتكر طريقة يتمكن بها المكفوفون من القراءة باستخدام الألواح الخشبية؛ كما كان مناهضًا بالكامل للأريوسية وللكنيسة اليونانية وأعلن نفسه تابعًا متحمسًا لأوريخنيس داعيًا إلى مسيحية كونية؛ ويمكن القول بأن الأفلاطونية الجديدة المسيحية عادت للظهور معه من جديد، وكان ذلك فور غياب الأرثوذكسي أتاناسيو عن إدارة المكتبة رغم أن البطريارك ظل على قيد الحياة فترة أخرى من الزمن.

هذه الفترة من الزمن التي كان فيها أتاناسيو على رأس المكتبة Didascalium لم تحل دون استمرار المفاهيم الفلسفية التي كانت عليها تلك الهيئة حيث كان يقف وراءها الأفلاطونيون الجدد من المسيحيين؛ ففي عصر ديديمو أخذت تعود العلاقات الوثيقة بين مكتبة الإسكندرية وبين المكتبة الصغرى في السرابيوم، حيث استؤنفت الزيارات والدروس وتبادل الأفكار في المدرسة السكندرية للأفلاطونية الجديدة، لكن هذا الموقف كان على وشك أن يتغير بطريقة درامية.

---

(279) Didvmo el Cipgo (c. 309-399 d. C).

(280) Rufino. "Historia Edesidstica". XI. 7.

إذا ما أردنا أن نشير إلى التلاميذ المسيحيين، الأكثر شهرة، لديدمو لذكرنا منهم الراهب روفينو[٢٨١] والقديس جيرونيم[٢٨٢]، فلقد استطاع ديديمو أن يجعل من روفينو، الذي كان أيضًا تلميذًا للبطريارك تيوفيلو الذي جاء بعد ذلك، إلى واحد من أشد أنصار فكر أوريخنيس، خلال الفترة من ٣٧٢ حتى ٣٨٨م أو من ٣٧٣م حتى ٣٨٠م، حيث عاش في مصر ودرس بصحبته. والشيء المثير هو أنه من بين النصوص والكتابات التي تخص روفينو حول التعاليم الدينية نجد أول نسخة كاملة باللاتينية لما يسمى "بالعقيدة Credo" الرسولية، الأمر الذي يبرهن على أن مناهج تعليم طلاب العماد في الإسكندرية، كان بها شيء من الأفلاطونية الجديدة أي المسيحية التي اتخذها أوريخنيس. أما بالنسبة للقديس جيرونيم، الرجل الذي درس مع ديديمو من ٣٨٥م حتى ٣٨٨م فقد تخلى على الفور عن أفكاره التوفيقية وانخرط بالكامل في التوجه الأرثوذكسي.

يلاحظ أن ديديمو الأعمى قد تعرضت أعماله، وهو رجل الدين الشهير على مدى قرون مثل أستاذه أوريخنيس، للتدمير بعد الإدانة التي صدرت بحقه خلال المجمعين الأسقفيين الثاني والثالث اللذين عقدا في القسطنطينية، وأدين بالنسيان وبالتالي لم يتم جمع أعماله من جديد خلال العصور الوسطى وفقد الكثير منها.

هدم السرابيوم والمكتبة الصغرى على يد تيوفيلو:

زاد العنف بين الطوائف المختلفة السياسية والدينية وهي الطوائف التي كانت تقوم بإعادة تشكيل عميق لملامح الإمبراطورية، وهنا نجد أن السرابيوم ومكتبته ومعهما المتحف ومدرسة فلسفة الأفلاطونية الجديدة، التي كانت كلها تمثل آخر المعاقل للأسس المعرفية القديمة للديانة المصرية، لا يمكن أن تكون بمعزل عما يحدث، ولا يمكن أن تصمد أمام مثل هذه الزوبعة، وهنا نجد أن الأصوات الداعية

(281) Rufino(345-41Od.C.).

(282) S. Jerónimo (c. 347-420 d. C.), "Epistola", 22, 3.

للهدم كانت واضحة وقوية خلال القرن الرابع أشار إليها كاتب السير اللاتيني، من أصل يوناني، "إيونابيو دي ساردس E. de Sardes" في كتابه "حياة المتصوفة"[٢٨٣]، بالقول بأن أنطونينو[٢٨٤] أحد تلاميذ الفلسفة الأفلاطونية الجديدة والاتحاد الصوفي المسمى Sosipatra لأفيسو[٢٨٥] والكاهن العراف في معبد سرابيس وايزيس دي كانوب "تنبأ... بأنه بعد وفاته سوف يختفي المعبد من الوجود وأن معابد سرابيس الضخمة والزاهرة سوف يطويها النسيان وسوف تتحول... وسوف يعم الحزن ويسود على كل ما هو جميل على هذه الأرض".

كان هذا العرّاف على حق فيما قال فبعد "المواثيق الصادرة عن قسطنطين الثاني، أصدر الإمبراطور فالنتي قرارًا بمنع عبادة الأصنام ودخول المعابد، عام ٣٦٥م، وحتى عام ٣٧١م، وأمر بإحراق الكتب والمكتبات في أنطاكية، طبقًا لما أورده أميانو[٢٨٦]، وأدان بالإعدام كل من يثبت بحوزته كتب للسحر. قضي الأمر، فقد أصبحت حياة الطقوس الدينية الفرعونية واليونانية الرومانية مهددة بخطر وشيك الحدوث، حيث كانت المعابد مفتوحة في وادي النيل الأرض المقدسة للقدماء. كما إن هذه المراسيم الصادرة كانت تمثل هي الأخرى خطرًا مباشرًا يتهدد حياة الثقافات الكلاسيكية والوثنية في مدرسة الإسكندرية والتي كانت تتخذ من السرابيوم في الإسكندرية أحد مراكز الإشعاع المهمة عندها؛ وساعدت الطبيعة على هذا الإحساس بأفول شمس عصر من خلال الزلزال الذي وقع عام ٣٧٢م وتسبب في هدم جزء من المباني الجميلة التي كانت في مركز المدينة الجديد في كوم الدكة.

نشهد في هذه الفترة المحددة، أي نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس الميلاديين، أكبر مرحلة من مراحل تدمير الآثار الوثنية التي ترجع إلى العصر

(283) Eunapio de Sardes (346-415 d. C.), "Vitae Sophistarum", VI.9-17.

(284) Antonino (n. c. 320 d. C.).

(285) Sosipatra (primera mitad s. IV d. C.).

(286) Polastron, L. X., "Books on Fire", 2007.

القديم المتأخر(٢٨٧) سيرًا في هذا على الخطوات الرهيبة الأولى التي اتخذت في كل من سوريا وفلسطين ومصر؛ وازدادت هذه الموجة قوة تحت فورة القوانين المناهضة للوثنية التي صدرت عن الإمبراطور ذي الأصول الإسبانية، تيودوسيو الأول(٢٨٨) الذي حوّل المسيحية عام ٣٨٠م إلى الديانة الوحيدة الرسمية للدولة تحت قانون "الإيمان الكاثوليكي"(٢٨٩) وقد اتخذ العقيدة المسماة niceno وقضي بذلك على مساندة الأريوسية.

أكد الكاتب الوثني ليبانيو الأنطاكي، الذي كان باستطاعته توجيه اللوم للإمبراطور على تدمير الآثار المقدسة، في كتابه "من أجل دور العبادة"(٢٩٠) أن ما فعله الإمبراطور هو بسبب ما تعرض له من ضغط الإمبراطورة التي كانت تنتصح بما يقوله الرهبان المتشددون. ويقول "خ. أرث J. Arce" عن هذه الفترة بأنه "بقيت حقيقة واقعة أخرى، وهي أن الكثير من المعابد قد دمّر على يد المتعصبين المتشددين من المسيحيين ومن الأساقفة الغيورين على مهامهم، والرهبان الذين كانوا لا يكلون من معارضة الوثنية؛ وهنا نقول إن هذه الحالات موثقة في المشرق، وربما يرجع ذلك إلى شيوع وتطور رهبانية أكثر تعصبًا"(٢٩١).

أرسل تيودوسيو الأول، إلى واليه البريتوري على الشرق، الذي يدعي Cinegio(٢٩٢) أمرًا بإغلاق كافة المعابد ومنع التقدمات للآلهة الوثنية في كافة

(287) Saradi-Mendeiovici, H., "Chistian Attitudes toward Pagan Monuments in Late Antiquity and tbeir Legacy in Later Byzantine Centuries", -"Actitud cristiana hacia los monumentos paganos en Ia Anügüedad Tardia y su legado en los siglas bizantinos posteriores>", en "The Cambridge History of Christianity, Vol. 2: Constantine to c. 600", pgs. 227-255, Ed. A. Casiday, Cam-bridge U. Press, 2007.

(288) Teodosio I (379-395 i C.).

(289) Teodosio I, "De Fida Catholíca".

(290) Libanio (314-393 d. C.), "Pró Temp lis", XXX.

(291) Arce, "Fana, Tempia, Delubra, Destrui, Praccipimus: El Final de los Templos de Ia Hispania Romana", AEA, Vol. 79, pgs. 115-124, 2006.

(292) Zósimo, "Nueva Historia,", IV. 37.

أنحاء سوريا ومصر. كان الرهبان والأساقفة هم الذين يقومون بعمليات الهدم، ولم يتبق من هذه المعابد إلا تلك المخصصة لإيزيس وسرابيس حيث إن أنصارها كانوا من طبقة مجالس الشيوخ الرومانية. وفي عام ٣٨١م عقد المجمع الأسقفي الثاني في القسطنطينية وصدرت عنه قرارات تشير إلى أن المقر القائم في القسطنطينية هو المقر الثاني من حيث الأهمية بعد روما، وبذلك نجد أن الإسكندرية أصبحت في ذيل القائمة.

أضف إلى ذلك أنه بعد المرسوم أو القرار الصادر عن تيودوسيو الأول، عام ٣٩١م، والذي يقضي بإغلاق المعابد الوثنية، وقعت عملية الهدم والإحراق لسرابيوم الإسكندرية، كما شهدت هذه الفترة زوال وضياع المكتبة الصغرى في راقودس للأبد.

وطبقًا "للحوليات السكندرية" فقد كان من اقترف تلك الفعلة هو البابا الثالث والعشرون للإسكندرية وبطريارك مقر كنيسة سان ماركوس، وهو تيوفيلو(٢٩٣). ويرى بالاديو دي هيلينوبوليس في كتابه "حوار حول حياة خوان كريسستومو"(٢٩٤) أن تيوفيلو كان بين معاصريه أحد أبرز علماء اللاهوت، كما أنه أكثر الرجال إشاعة للرهبة والرعب في عصره، وبلغ من سطوته وسلطانه على الدوائر المدنية واللاهوتية أن لُقِّب "بالفرعون المسيحي"؛ كما كان معروفًا بحبه للمال ولا يعنيه في هذا الحصول عليه من الأغنياء أو الفقراء.

اتسمت سياسة الأباطرة الرومان، بعد قسطنطين الأول، بالسماح بإغلاق دور العبادة الوثنية نظرًا لقلة أتباعها، وبذلك تمكنت هذه القوانين الحكيمة من الإبقاء على المعابد المصرية التي لم تصب ثرواتها الرائعة بأذى كبير، كما رى جردها على

---

(293) Teófilo (385-412 d. c.).

(294) Paladio de Helenópolis (364-430 d C., fl. 399-400 d. C), "Dialogus de vita Ioannh Chrysostomi", 21.

يد الحكام. وبذلك نجد أن هذه الثروات هي التي أسالت لعاب ونهم تيوفيلو. ويرى الكاتب اليوناني Zosimo السكندري، نهاية القرن الخامس الميلادي، من خلال كتابه "التاريخ الجديد"، أن تيوفيلو كان أول من ضرب بقوانين التسامح مع الممارسات الوثنية التقليدية عرض الحائط"(٢٩٥). أضف إلى ما سبق أن الطريقة التي قاد بها حربه الخاصة ذات الطابع الديني تؤكد أن التعصب لم يكن الدافع الأساسي أو الوحيد.

كان دائمًا يختار المعابد الشهيرة بما لها من ثروات، وهذا ما يقصه علينا إيونابيو دي ساردس(٢٩٦)؛ ومن هنا هجومه على السرابيوم الذي كان يتمتع بثروات ضخمة؛ وطبقًا لروايات الكُتّاب والمؤرخين المعاصرين قام تيوفيلو بصهر عدد كبير من التماثيل الذهبية في الطابق السفلي للقصر الأسقفي، وهذا نوع من النهب الذي يتوارى خلف ستارة الحماس الديني. كان تيوفيلو يستخدم هذه الثروات، بشكل جزئي، ليعيش حياة البذخ، كما كان يستخدمها في بناء كنائس بديعة. وهنا نجد أن بالاديو كان يتهمّه بأنه "ملبوس" بجنون فرعوني. ويؤكد أحد المعاصرين أن تيوفيلو لم يكن يتورع، من أجل بلوغ غاياته، عن إسالة الدماء والاغتيال، ويؤكد آخر أنه "لم يحب ولم يناصر إلا الملاعين وكانت المطاردة من نصيب العادلين"(٢٩٧).

كان تيوفيلو مشهورًا بميله الشديد لتدمير دور العبادة الوثنية، وكان معروفًا بتعطشه للذهب الذي كانت تكتنزه هذه المعابد لدرجة أن أحد الزُهّاد من "نتريا Nitria"، والمعروف بورعه، ويدعى "إيسيدورو دي بيلوسيو J. de Pelusio"، وهو من معاصري تيوفيلو، وجه إليه في أحد رسائله اللوم قائلاً له: "عادت مصر إلى قلقها الذي كان في البداية... وهذا ما حدث تحت إمرة رجل يدعى تيوفيلو "عاشق

(295) Zósimo, "Nova Historia", V. 23.

(296) Eunapio de Sardes, "Vitae Soph.", IV, 59-64.

(297) Thierry, A., "Saintjean Chrysostome et l'Emperatrice Eudoxie", -'Sanjuan Crisóstomo y Ia Em-peratriz Eudoxià'-, pg. 111, Didier Ed., Paris, 1874.

الأحجار الثمينة كما أنه عابد للذهب"[٢٩٨]؛ ولهذا السبب - طبقًا لبالاديو -[٢٩٩] هاجم تيوفيلو ذلك الزاهد من نتريا، المكان الذي كان مليئًا بكثير من الرُهبان الطاعنين في السن؛ وكان يرافقه جنود قُساة غِلاظ قاموا بهدم الكنائس وإحراقها ومعها الكتب والأمتعة واتهمهم بالهرطقة.

كان يعيش في تلك الفترة - في الصحراء المحيطة بنتريا وكذا كيليا - مرافقًا للقديس مكاريو، أحد أتباع مذهب أوريخينس؛ هذا الرجل هو Evagrio Ponticus أو الملقب "بالوحيد"[٣٠٠]، وقد اتسم بأن له تأثير بالغ على الرهبان حيث كان يقوم بتعليمهم؛ غير أن أعماله وكتبه لاقت المصير نفسه الذي لاقته أعمال كل من ديدمو وأوريجنيس، أي أنها أدينت وجرى إحراقها ومع ذلك نجت بعض كتبه ونسبت لكُتّاب مسيحيين آخرين من الثقاة مثل القديس نيلو أو "من هم من كابا دوثيا".

اتسمت أنشطة تيوفيلو بأنها رهيبة، وكان المسئول عن إحراق السرابيوم وعن كل ما كان يضمه بما في ذلك ما كان يوجد في باقي المباني الملحقة به مثل المتحف والمدارس والمكتبة الصغرى. إذن نجد أن تيوفيلو، تمكن بفضل ذلك المرسوم أو القانون الصادر عن تيودوسيو الأول في ٢٤ / ٢ / ٣٩١م، قد اتخذ قرارًا بالهجوم على دور العبادة الخاصة بالطقوس الخفية، وهي الدور المناوئة للعقيدة المسيحية الجديدة، وبدأ في ذلك بكل من معبد ديونيس ومترا[٣٠١].

ساعدته القوات الإمبراطورية، في عصر الحاكم Evagino وComes Aegypti، أي الجنرال الروماني. وبناءً على طلب من الحاكم توجه برسالة عاجلة إلى تيودوسيو الأول الذي نشر مرسومًا آخر[٣٠٢] بتاريخ ١٦ / ٦ / ٣٩١م[٣٠٣]

---

(298) Isidoro de Pelusio, "Epistoles", I, 151.

(299) Paládio, "Diálog?, 21, 22, 23 y ss.

(300) Evagrio Ponticus (345-399 d. C.).

(301) Eunapio de Sardes, "Vitae Soph.", VI, 2.

(302) Socrates de Constantinopla, "Historia Eclesiástica", VI, 16.

(303) M. Haag, "Tbe Timeline History ofEgypt",-"El Hilo delTiempo en lã Historia de Egipto", 167, New York, 2005.

خاصا بمصر يقضي بمساندة هدم المعابد في الإسكندرية؛ بعد ذلك جرى هدم السرابيوم، وأصبح طللاً بعد عين، عام ٢٨٩م طبقًا لرواية أميانو أو عام ٢٩١م، كما يؤكد بروسبيرو، أي أنه جعل تاريخ هدم المعبد متوافقًا مع المرسوم الصادر؛ وكما أتت النيران على المعبد أتت أيضًا على آخر مكتبة رائعة ترجع إلى العالم القديم، وبالتالي تقاسمت مع المكتبة الأولى المصير نفسه المشئوم.

الباعث إذن على ما حدث هو مرحلة أو حلقة من حلقات المواجهة الاجتماعية التي أدت إلى مجزرة، وفي هذا المقام يمكن القول، طبقًا لتتابع الأحداث، إن هذا الاستعراض للقوة من جانب تيوفيلو، بالهجوم على معبد Mitreo، قد أسفر عن استياء الكثيرين من جمهور الوثنيين، وسرعان ما عمت الصراعات في كافة أنحاء الإسكندرية. هاجم المسيحيون أيضًا منازل العلماء السكندريين، حيث كان الكثير منهم من أنصار أحد فلاسفة الأفلاطونية الجديدة أوليمبيو، وبعد ذلك هربوا صوب السرابيوم وبرفقتهم مئات من الوثنيين الذين خشوا على حياتهم.

كان أوليمبيو، المعروف بورعه ومواهبه التنجيمية، قد قال لطلابه سابقًا بأن نهاية السرابيوم وشيكة، وأصبح زعيمًا للمجموعة الموجودة ومعه علماء النحو من الوثنيين من المدرسة، ومنهم إيلاديو السكندري، وأمونيو وهما من رهبان Thoth-Hermes هرمس وأمون زيوس على التوالي، ثم نجد أيضًا المؤمنين بالإله سرابيس الذين لجأوا إلى هذا المعبد واحتموا بأسواره ورفضوا الإنصات لأي موقف تصالحي، لأن ذلك كان يعني عندهم إلغاء عبادة آلهتهم المبجلين والديانة التي كان عليها آباؤهم، وبالتالي لم يتنازلوا قط عن موقفهم.

قام الرهبان والمسيحيون الذين كانوا شديدي التحمس للأسقف، حيث كان يساعده ما يسمى Parabolani، وهي غوريلاّت لخدمته، بحصار مقر معبد سرابيس الذي لجأ إليه هؤلاء المئات من أنصار العقائد الوثنية؛ وتولى أنصاره تدمير المعبد الكبير ودمروا تمثال سرابيس، وأحرقوا كل ما كان يصادفهم من تماثيل وكتب وهذا كل ما كان يمثل الفكر القديم والوثني. جرى أيضًا جمع التماثيل

الذهبية وصهرها في المقرّ نفسه، أما التماثيل الحجرية فقد حطموها، بينما نجد رأس سرابيس قد انتزعت بضربات فأس عن تمثالها الجميل الموجود في قلب المعبد، وجرى سحبها وسط الشوارع في الإسكندرية حتى منطقة الميناء، حيث ألقى بها أخيرًا في البحر أمام أعين السكندريين المشدوهة، وأمام فاغري الأفواه من جرّاء ما حدث من تدنيس وتدمير لمكان ورمز عبادتهم.

امتدت الصراعات والمعارك في كافة أرجاء المكان المقدس أو قدس الأقداس لسرابيس، الذي أضاءته ألسنة اللهب وسقط بعض المسيحيين طبقًا للرواية التي سينقلها لنا لاحقًا "إيلاديو دي ثيساريا Cesarea". إلا إن المسيحيين قد نقلوا حمّام الدم إلى كل ركن وألقوا بالأعمدة وهدموا الحوائط وقتلوا كافة الوثنيين الذين كانوا يجدونهم في طريقهم. ووسط الدخان والصرخات والعويل والدم تمكن البعض من الفرار من المذبحة مثل إيلاديو وأمونيو، حيث هربا من الإسكندرية واتجها صوب دمشق والقسطنطينية طبقًا لما يرويه أحد تلاميذهما وهو المؤرخ اليوناني المسيحي سقراط القسطنطيني[٣٠٤] بينما انتهى المآل بكلاوديو في روما. بقي "بليّاداس Palladas" في الإسكندرية، لكنهم حالوا دون أن يقبض مرتبه كموظف في البلدية يقوم بتدريس الأدب اليوناني[٣٠٥].

ليس من المعتقد أنه أمام هذه الروح الهدامة أن يبقى أي أثر مهم على حاله مثل العمود الضخم في السرابيوم، سواء كانت تلك التي يتوجها الإله الوثني سرابيس - هليوس أو طبقًا لما يقوله البعض الآخر، ذلك العمود الذي أقيم تكريمًا لدقلديانوس، وهو الإمبراطور الذي ضاق ذرعًا بالمسيحيين وطاردهم بقسوة، فمن كان يظن أن أتباع تيوفيلو المتحمسين سوف يتركون أثرًا على حاله أهدى للإمبراطور نفسه الذي استشهد على أيدي قواته الكثير من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة في الإسكندرية؟.

(304) Sócrates de Constantinopla, "Historia Eclesiástica", VI, 16.

(305) Dzielska, "Hypatia of Alexandria', pgs. 82-83, Harvard U. Press, Massachusetts, London, 1995.

وكما هدم المعبد ونهبت كل محتوياته، أتت النيران على كل محتويات المكتبة الصغرى وهي المكتبة الأقدم في العالم في ذلك الزمان، فقد ظلت المكتبة تعمل لمدة تقرب من ستمائة وخمسين عامًا، أي ضعف العمر الذي عاشته مكتبة الإسكندرية الكبرى، وكانت تلك المكتبة تضم في ذلك العصر مئات الآلاف من لفائف البردي والكتب المدونة على الرّق وأصبحت بذلك الوعاء الضخم للمعرفة التي كانت في ذلك العصر. لم يتبق شيء سواء في المباني التي اتسمت بالسواد من جرّاء الدخان ولا في الدخان ولا في دهاليزها تحت الأرض.

لقد كانت نارًا قضت على الفكر الوثني بمختلف تياراته التي تصورها تيوفيلو وقضى بها على السرابيوم والمكتبة. لقد كانت المحرقة الكبرى! أي الانتقال من كل شيء إلى العدم؛ ها هي خلاصة الكتب في العالم القديم تتحول إلى رماد هو خلاصة جهد الإنسانية. قضت النيران على كل شيء. وهنا يمكن القول بأن تيوفيلو لا يبدو أنه كان يهمه أي شيء، وعلى هذا فقد تحقق ما كان يصبو إليه أتاناسيو وزيادة. أما من بقي من عدد قليل من أمناء المكتبات وأساتذة المتحف والمكتبة الصغرى فقد هربوا إلى القسطنطينية ودمشق وبلاد الفرس.

نجد تيوفيلو وقد ظهر في مخطوطة قبطية وهو يشعر بالفخار وصُعِدَ به رمزيًا فوق "العمود الكبير"[٣٠٦]، وهذا دليل على "انتصار المسيحية" واستوائها على الأطلال المحترقة للسرابيوم. غير أن الكُتّاب المسيحيين أكدوا أن هذه الواقعة كانت المرة الأولى التي يدخل فيها المسيحيون إلى معبد الإله سرابيس، وعندما رأوا على حوائط المعبد رمز الحياة، "العنخ"، وهو الرمز الفرعوني للحياة الأبدية سارعوا إلى تقليده ونقله على حوائط كنائسهم وبذلك وضعوا تأصيلاً للرمز المسيحي وهو الصليب[٣٠٧]. لم يكن هناك رد فعل من القسطنطينية بعد الهجوم، إذ إنها لم يكن

---

(306) Manuscrito copto. Kunsthistorisches Museum, Viena.

(307) Sócrates de Constantinopla, “Historia eclesiástica”, V, 16, 17.

يهمها العدل أكثر من اهتمامها بإرساليات القمح التي كان يتحكم فيها المسيحيون من مواني الإسكندرية.

الأسى في الإسكندرية:

هناك شاهد، غير مريح، على تلك الأحداث الرهيبة، ألا وهو الباحث الوثني إيونابيو الأنطاكي(٣٠٨)، أي بلوتارك الفلاسفة السكندريين(٣٠٩)، إذ قدم لنا من خلال كتابه "حياة إيدسيو"(٣١٠) شهادة مريعة تشير إلى كيفية قيام أنصار تيوفيلو وأتباعه بالهجوم على المعبد بعنف وقد أحرقوه ودمروه بحيث لم يتبق فيه حجر على حجر(٣١١)؛ قضوا على كل ما كان يصادفهم ما عدا الأساسات التي لم يتمكنوا من اقتلاعها: "كان تدمير معبد سرابيس الرائع عام ٣٩١م على يد العنيف تيوفيلو، أسقف الإسكندرية، بعد أن تم غزو المكان إثر معركة دموية، إيذانًا بزوال الوثنية بالكامل من المشرق... فقد قام أُناس لم يسمعوا شيئًا قط عن الحروب بتنفيذ هجوم بطولي على الحجارة، وهاجموا المكان من كل صوب؛ لكن الشيء الوحيد الذي لم يتمكنوا من اقتلاعه هو أساسات المعبد نظرًا لضخامة الكتل الحجرية، إذ كانوا غير قادرين على زحزحتها من مكانها، لكنهم استطاعوا تكسير وتدمير ما عدا ذلك... وعندئذ، نجد أنه بدلاً من التعبد إلى آلهة المعرفة والحكمة أخذ الجميع يمارسون طقوسًا جديدة...".

كان الأمر مأساة ثقافية رهيبة على زمن البيزنطيين وصفحة سوداء في تاريخ الإنسانية؛ والشيء الغريب هو أن إيونابيو الأنطاكي، وهو من العلماء، لم يشر إلى

(308) Eunapio de Antioquía (m. 420 d. C.).

(309) Ampere, J. J-, "Voyage en Egypte et en Nubie', -" Viaje a Egipto y Nubla"-, Paris, 1868.

(310) Eunapio de Antioquía, "Vita Aedesii", 77-78.

(311) Según Gibbon, Eunapio, en "Lās Vidas de António y Edesio" execra de la rapina sacrílega i Teófilo (Mem. Ecles. XIII), 1776-1787.

إحراق المكتبة الصغرى بما فيها من كنوز الكتب؛ وربما ذكر ذلك في النص الأصلي ثم صمتت عنه النسخ التالية؛ كما أن الإشارة إلى آلهة الحكمة التي ظلت باقية في النص ربما تشير إلى أمر آخر سابق وهو العلماء وشياطين الإبداع Husas التي جرى تدميرها وحل محلها طقس ديني آخر.

وخلال تلك الأحداث وصل الدمار بمدينة الإسكندرية إلى درجة أن أسقف القسطنطينية وجهبذ الكنيسة، القديس خوان كريسستمو(٣١٢)، الرجل الذي كان شاهد عصر على الأحداث، كتب يقول: "... بلغ الدمار والخراب بالمدينة لدرجة أن المرء لم يعد يتعرف على مكان الزوما"(٣١٣) أي مقبرة الإسكندر الأكبر الشهيرة والأثر الأهم في الإسكندرية. وهنا فإن ما أضافه إلى توكيدات معاصرة إبيفانيو دي سلامينا حول زوال واختفاء المكتبة القديمة بالكامل في Bruchion الحي الراقي، إنما يشير إلى أنه لأول مرة تمكنت موجات التدمير من توجيه ضرباتها القوية إلى المناطق الوطيئة وإلى قمم الهضاب السكندرية وحولت المدينة إلى أطلال ابتداءً من راقودس وحتى البحر.

وفيما يتعلق باختفاء مقبرة الإسكندر الأكبر ومحتوياتها، وهو الموضوع الذي تحدث عنه كريسستمتو، وعما بقي من أطلال المكتبة الصغرى، لنترك أنفسنا في يد الحلم؛ فقد اكتشف عالم الآثار "بوتي Botti"، خلال القرن التاسع عشر الميلادي أن المدخل إلى الدهليز الكبير للسرابيوم، الواقع تحت الأرض قد أصبح من العسير الوصول إليه بسبب أطلال المعبد عندما احترق، وهذا وحده يفسر سرّ عدم وجود آثار نيران أو رفات موتى عند المدخل الذي ظل بكامله بما في ذلك التمثال الرائع للعجل أبيس الذي أهداه هادريان كما أن كُوّاته الغامضة كانت خاوية على عروشها، تعرضت هذه الكوات التي يرى البعض أنها كانت جزءًا من المخازن التي توجد تحت

(312) S. Juan Crisóstomo (347-407 d. C.).

(313) Crisóstomo, "Aáversus Judaeos", "Primera Homilia contra las Judios', 12, 26. 5.

الأرض من الكتب التابعة للمكتبة الصغرى، للنهب بالكامل دون أن يترك أي أثر على الدمار والهدم، وهنا يمكن القول بأنه جرى إنقاذ محتوياتها.

نعرف من خلال ليبانيو(٣١٤) أن رفات الإسكندر الأكبر كان من الممكن رؤيته بعد في الإسكندرية، أي نحو عام ٣٨٨-٣٩١م، وهذه آخر إشارة نعرفها عن هذا الموضوع، أي قبل حدوث المجزرة بوقت قصير. بذلك يمكننا التفكير أنه خلال تلك الساعات الدرامية، قامت أيدٍ أمينة ورحيمة بإنقاذ رفات الإسكندر الأكبر وحماية قبره من النبش. كانت إذن اللحظة المناسبة بينما كانت أعين كل من في المدينة تتجه إلى السرابيوم، فقد تمكن بعض الوثنيين من الشجعان من القيام بسرعة بإنقاذ رفات الإسكندر الأكبر ومعه كنوز مقبرته وهربوا من خلال الدهليز السرّي للخزانات الواقعة تحت الأرض؛ وتم ذلك في الوقت المناسب ذلك أنه بعد وقت قصير تعرض الأثر الجنائزي المذكور للدمار على يد المتعصبين عام ٣٩١م؛ وفي الوقت ذاته ربما تمكن آخرون في هذه الليلة الظلماء التي جرى فيها تدمير معبد السرابيوم، ووسط الصيحات والهرج والمرج، من إنقاذ بعض أهم كنوز المكتبة الصغرى وذهبوا بها إلى مكان آمن بجوار الإسكندرية.

ما زال العثور على الغرفة الجنائزية المجهولة، في مكانٍ ما من الأماكن البعيدة، حيث يوجد بها الصندوق الجنائزي الذي يضم رفات المؤسس الأسطوري لمدينة الإسكندرية وإلى جواره بعض مخطوطات السرابيوم الموضوعة في جرّاتٍ من الطين المحروق، مثار أمل عريض لدى الآثاريين؛ وربما كانت تضمن النسخة الأصلية من ملحمة الإلياذة موضوعة تحت مخدة ذلك الغازي الأسطوري في صندوق من الرصاص جيد الإغلاق، وكذلك لفائف البردي المصري القديمة التي أمر الإمبراطور سبتموسبيرو بوضعها في ضريحه.

وأخذت رحلة تهريب هذه الكنوز، التي تمت ليلاً بنقل التابوت ومعه المخطوطات على عربات تجرها البغال والحمير، بسرعة وفي ظل ظروف صعبة، طريقًا غير

(314) Libanio, "Omtion", "Oración", 49, 12.

الطريق المطل على البحر أو النيل فقد كانت طرقًا معرضة لرقابة الأعداء؛ وأخذت تتجه بعيدًا عن بحيرة مريوط، صوب الصحراء. وربما عبرت الرحلة البحيرة في جنح الظلام، وذلك حتى لا يستطيع أحد اقتفاءها؛ كان أفراد الرحلة يرجعون بأبصارهم إلى الخلف من حين لآخر ويراقبون الطريق وقد ملأهم الرعب، بينما عن بعد ترى ألسنة النيران التي كانت تلتهم الإسكندرية في الهضاب الأربعة، وترتفع عاليًا فوق راقودس وتكسو المشهد باللون الأحمر وهمهمة الصيحات والانفجارات. أما على الجانب الآخر من البحيرة فقد كانوا في الانتظار؛ وبعد ذلك يجري دفن الرفات المقدس ومعه الكنوز في مناطق نائية لكنها ليست شديدة البعد عن الإسكندرية، وربما كانت في واحات الصحراء الليبية التي كانت تتصل بالشاطيء، وربما كان ذلك في الواحة الأكثر قربًا من الإسكندرية وهي الواحات البحرية إلى جوار "معبد الإسكندرية"(٣١٥).

هذا المكان هو عبارة عن معبد بطلمي صغير له نقوشه البارزة والغائرة التي تمجد الملك المقدوني ووالده الإلهي آمون؛ وهو معبد لا شك أنه تأسس على يد الكهنة السكندريين؛ وقد تم إخفاء البناء الأول من الخارج في فترة غير محددة خلال العصر الروماني، وتمت إحاطة المبنى بعدد كبير من الغرف المشيدة من الطوب اللبن يصل ربما إلى ثلاثين غرفة وكانت مشيدة في صفوف تفصل بينها دهاليز، وتم إلحاقها بالمعبد دون سبب معروف. وربما أقام في هذه الغرف بعض الكهنة في فترة لاحقة ورغم ذلك فالغريب أنهم احترموا ما على جدران المعبد من نقوش هيروغليفية، غير أنه ربما لم يكن الهدف الأول لهم تحويل المكان إلى دير. ونظرًا لمخطط المعبد الغريب والغرف الملحقة به ظن البعض أنه ربما كان محطة للقوافل التجارية.

---

(315) R. S. Bagnall y otr., " Egypt, from Alexander to the Earfy Crístians", "Egipto, desde a los Primeros Cristianos"-, pg. 269, British Museum, London, 2004.

وعلى أية حال فإن هذا المبنى بكل ملحقاته يذكرنا بمبنى مخزن جيد التهوية يحيط بالمعبد، فهل جرى هناك إخفاء محتويات مقبرة البطل السكندري ومعه بعض لفائف البردي التي جرى إنقاذها من المكتبة الصغرى إلى جوار معبد الإسكندر الذي عثر عليه سليما في مصر؟ ازدهرت الواحة على زمن البطالمة وظلت كذلك حتى بعد وصول العرب إلى مصر أي أنها كانت مزدهرة خلال العصرين الروماني والبيزنطي، ووصلت إلى أقصى ازدهار لها خلال القرنين الخامس والسادس في توافق مع ازدهار انتشار المسيحية. ومع هذا فإن أحد الألغاز الكبرى والتناقضات التي نشهدها في واحة البحرية هو أنه لا توجد أية كنيسة على شاكلة ما عثر عليه من كنائس في الواحات الأخرى، بل ما يوجد هو معبد وثني مفتوح، سري وبعيد عن الأنظار وحوله ظل آلاف المصريين في عمليات التخطيط مثلما حدث في العصور الخوالي، فهل كان المكان أحد المعاقل البعيدة للوثنية لم يستطع الـ Philoponoi أن يعثروا عليه قط؟ وهل قام بذلك أحد الحكام المرتشين بترك تلك الواحدة البعيدة تعيش طبقًا لعاداتها الموروثة؟.

هنا نجد من المثير أن يتم العثور في هذه الواحة النائية على مصريين - رومانيين وقد قرروا أن يكون مثواهم الأخير في "وادي المومياوات الذهبية".[٣١٦] لأسباب لا نعلمها حتى الآن لكن ذلك يمكن أن يقودنا إلى مخبأ مقبرة الإسكندر الأكبر وكنوزها، هذا إذا ما كان قد تم ذلك ليكون هؤلاء بالقرب من بطلهم الأسطوري. هناك ممارسات تمتد لآلاف السنين وترجع إلى فجر تاريخ مصر عندما نجد أن الفراعنة والنبلاء كانوا يقيمون مقابرهم بالقرب من مقبرة أوزوريس. فهل أمكن لذلك المعبد البعيد عن الأنظار أن يشهد طقوسًا سرية مقدمة للإسكندر الأكبر وذلك تمجيدًا أيضًا للرفات المقدس ومعه لفائف البردي في كهف

(316) Hawass, Z., "Valley of the Golden Mummies", "f/Valle de Ias Momias de Oro", New York, 2000.

سري على حافة الصحراء المحيطة بالمكان؟ لا توجد لدينا أية أدلة، لكن هناك قرائن كثيرة متوافقة.

هذا هو ما يرى به أيضًا زاهي حواس أو ن.خ. ساوندرز[٣١٧] عندما يقول: "إن الواحات البحرية... كانت المكان المثالي الذي يقوم فيه الوثنيون وكذلك المسيحيون الذين يميلون إلى الإسكندر، بدفن المومياء الملكية... في هذا المكان البعيد، القصّي عن النظرات الفضولية تحول الوثنيون إلى المسيحية في ظل الإسكندر. وبأمان كامل مزجوا بين الديانتين كما كان يفعل آخرون طوال العصر المتأخر للإمبراطورية... وهنا نجد أن وادي المومياوات الذهبية كان على بعد كيلو متر ونصف من معبد الإسكندر. أضف إلى ذلك أن حواس كان مقتنعًا بأن عمليات الدفن هناك كانت تتم لقربها من مقبرة الإسكندر".

أطلال مهجورة في راقودس:

أصبحت هضبة راقودس مهجورة تمامًا، ولم يقم أحد ببناء شيء فيها، وطبقًا للحوليات التي حوّرها خوان نيكيو[٣١٨] فإن الأسقف تيوفيلو قد حول المعبد المتهدم - معبد السرابيوم - إلى كنيسة أطلق عليها اسم "القديس يوحنا المعمدان" وأكد أيضًا أنه على زمن الإمبراطور تيوديسيو الأول قام بطريارك سكندري آخر بتحويل السرابيوم إلى كنيسة، لكنها كانت هذه المرة كرّسة للأمير "أنويوريو" وللقديس "كوسمي" والقديس داميان. أضف إلى ذلك أن تيوفيلو أمام بازليكا أخرى أطلق عليها مسمى "الأركاديون"، رغم أنها لم تكن قبل عام ٣٩٨م، وهو المكان الذي يبدو أن Sozomen[٣١٩] أشار إليه على أنه شيد على أطلال السرابيوم. أي إننا نرى

(317) Saunders, "lexander>s Tomb: The Two Thousctnd Year Obsession to find the Lost Conqueror", "La Tumba de Alejandro: La, obsesión vieja. de dos mil anos en busca dei Conquistador perdido"-, pgs. 202-203, London, 2006.

(318) Juan de Nikiu, "Crón.", LXXVII (LXXVIII) 45, LXXXII, (LXXXIII), 37, 38.

(319) Sozomen, "Hist. Eccl", V. 15.

العديد من الكنائس في مكان واحد، وهذا كله هو ما يحدثنا عنه "بوتي Botti" مشيرًا إلى عدم صحته. إذن يمكن القول إنه قد أقيمت بالفعل كنائس وأديرة ولكن على مساحة معقولة من السرابيوم. ويحدثنا جريجورافيو ـ طبقًا لما أورده إبيفانيو(٣٢٠) ـ عن عملية تحويل معبد "هادريانون" إلى كنيسة.

لم يحاول أحد البناء قط على أنقاض السرابيوم بما في ذلك بناء مكتبة جديدة أو متحف بعد الهجوم الذي تعرض له المكان. كان المكان ملعونًا ومسكونًا بالأرواح الخاصة بمئات من البشر الذين قتلوا ووريت جثثهم التراب في مقابر جماعية؛ وكان من المستحيل تحمل الرائحة المنبعثة من الأجساد التي تعفنت والتي تناثرت أو رُصّت بالمئات. لم يتم دفن الجثث جميعها، وهذا ما أكده بوتي وهذا يُعد غير معهود وسلوك بربري في إطار تقاليد العصور القديمة. حامت حول المكان سحب من النسور والطيور الجارحة لتلتهم الأجساد المتعفنة بينما كان السكندريون يذرفون الدمع وهم يشعرون بالعجز لتلافي ما حدث. فمن الذي منعهم من دفن رفات الأموات؟ إلام يرجع هذا القرار اللاإنساني؟ يبدو أن المسيحيين، وهم المُلاّك الجدد، لم يريدوا فتح الموضوع بالحديث عنه أو وجود شهود على ذلك.

يمكننا أن نسوق في هذا المقام الكلمات التي قالها تيودورو(٣٢١) لتأنيب الأريوسيين، أتباع خورخي السكندري وكيف تعامل مع رفات الشهداء من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة من السكندريين قبل ذلك ببضعة أعوام، "وصل بهم الأمر إلى رفض تسليم الجثث إلى ذويها لدفنها، وألقوا بها في العراء دون دفن أو واروها للحيلولة دون القول بوجود علاقة لذلك بالأحداث الفظيعة التي وقعت، أو حتى معرفة أي شيء عنهم. لكنهم فشلوا فيما تخيلوا أنهم نجحوا فيه، فقد قام أصدقاء الذين قضوا بالتعبير عن شدة الأسى لفقدان الأجساد وأخذوا يروون ما حدث من

(320) Epifanio, "Contra Herejes", XIX, 2.

(321) Teodoreto, "Historia Eclesiástica", II, 11.

فظائع في مكان كانوا يفخرون بما كان عليه من اغتيلوا من إيمان". ويا له من أمر مؤلم ألا يقوم تيودوريتو ذلك الحصيف بكتابة كلمة واحدة يلوم فيها تيوفيلو على ما فعله من جريمة مماثلة بحق الوثنيين!.

إذا ما كان السكندريون يقومون حتى القرن السادس الميلادي بما يسمى "بيوم الرعب" سنويًا، إحياء لذكرى التسونامي الذي وقع خلال القرن الرابع الميلادي والذي دمر الفنارات والأحياء الشعبية، فهل لم يتذكروا ولقرون لاحقة تلك الأسر والأفراد من الثكالى ورفات الموتى من شهداء الوثنية الذين لم يدفنوا في السرابيوم؟ ربما كانوا يفعلون ذلك وهم يختبئون في ظلمة منازلهم، وفي سرية تامة؛ أي إن السكندريين لم ينسوا "يوم الفزع" طوال قرون عدة. نرى إذن أن الخوف والتابوهات من الكتابة أو الكلام ولدا متزامنين بعد المأساة مباشرة، وكانا وسيلة سياسية فعّالة للصمت عن الواقعة وزوال أية معلومات تتعلق بالوقائع. إذن لم يجرؤ أحد على الاقتراب من قمة مكان رهيب ومشئوم اللهم إلا إذا كان الخطر محدقًا مثلما يُقال بالنسبة لحالة هؤلاء الذين لجأوا إليه هربًا من ثورة عليهم بعد ذلك بقرن من الزمان.

يروي سوزومن(٣٢٢) أن السرابيوم أصبح بكامله تحت سيطرة المسيحيين حتى العصر الذي عاش فيه، أي حتى بداية القرن الخامس الميلادي، فقد أقام الرهبان، نحو عام ٤٠٠م، بين أنقاض المعبد القديم للكهنة الوثنيين، وهنا نجد أن إيونابيو يعبر عن استغرابه ورفضه بالإشارة إلى "أن كل شيء كان مباحًا في ذلك الزمان (للرهبان) ما دام من أتى هو من الذين يرتدون الثياب السوداء ويعلن على الملأ تنازله عن كل ما يملك"(٣٢٣). وهناك، بعيدًا عن النظرات الفضولية، أخذ تيوفيلو يحقق أقصى هواياته معلنًا اكتشاف كميات كبيرة من الذهب في الحفائر التي قام بها، كما إن هذه الكميات من الذهب لم تكن لتأتي إلا من نبش القبور

(322) Sozomen, "Hift. Hcd", V, 1 5.

(323) Eunapio de Ancioquía, "In vita Edesü", en Bocti, "Fouilles 1896" , Nota 2, pg. 37.

والكشف عن المخازن السرية للمعيد. واستخدم كل هذه الثروات في إقامة كنائس منيفة مثل بازليكا سان مينا التي تقع على أطراف صحراء مريوط، وأراد أن يجعلها بمثابة سرابيوم جديد.

عمود النصر:

أقام المسيحيون عندئذ - طبقًا لبوتي(٣٢٤) - ما يسمى "بعمود تيودوسيوس(٣٢٥)، في تيودوسيوس أو أركاديو(٣٢٦) إحياء للذكرى الخالدة "لانتصار المسيحية"، وفوقه يظهر تيوفيليو مزهوًا بالانتصار في أحد المخطوطات. وما زال هذا العمود قائمًا حتى الآن شاهدًا صارخًا على البربرية. وتثير الانتباه الجهود التي توالت مع مرور الأيام وحتى أيامنا هذه، والغاية منها المناداة غير المباشرة بأبرز الآثار السكندرية على أنه قد أقيم في عصر دقلديانوس تكريمًا له. وقد شهدنا أثناء الفورة التي قام بها المسيحيون أن العمود لم يصب بأذى من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة الذين وقفوا ضد دقلديانوس، هذا إذا ما كان هذه العمود قد أقيم تكريمًا لعدو المسيحية(٣٢٧).

أضف إلى ما سبق أن العمود قد أقيم في واقع الأمر في نهاية القرن الرابع الميلادي على أنقاض آثار قديمة متنوعة، منها قاعدة عمود قديم وأساسات وتاج مختلفين، من تلك القطع التي كانت متناثرة ضمن أطلال السرابيوم. وهنا نقول إنه خلال العصر القديم المتأخر، أي عندما جرت إقامة العمود، كان الفن والعمارة يعيشان أكبر عصور انحطاطهما، وكان ذلك، في المقام الأول، من جرّاء التدمير المنهج لكافة مقومات الموروث المكتوب للعالم اليوناني الروماني؛ لكن لم

---

(324) Botti. "Fouilies 1896", 14-21, 47 y ss., 86, 89,133- XXIII, XXIV, XXV, 138.

(325) Botti, "Fouilies 1896", pg. 138. La llamada hoy dia "Columna de Pompeyo", aunque atribuída a Diocleciano.

(326) Arcadio (395-408 d, c.).

(327) Botti, "Fouilles 1896", pg. 20.

يكن البعض قادرًا على تدمير الآثار الكبرى الموروثة عن العالم القديم؛ وعلى أية حال يمكن القول بأن إقامة العمود كان من المفترض أن تتم على عجل، على تلك الآثار والأطلال الخاصة بالسرابيوم والتي لم تكن قد جفت دماؤها بعد. ومع هذا فكما يقول د. دينون: "لا شيء يضارع عظمة هذا العمود، إذ نشاهده عن بُعد يطل على المدينة ويتحول إلى فنار تهتدي السفن به"(٣٢٨).

من جانبه، أكد المواطن "نوري Norry"(٣٢٩) أحد أعضاء "الحملة على مصر" التي قادها نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م "... من الواضح للعيان أن البدن (أي بدن العمود) قديم، أعيد استخدامه. أما الأجزاء الأخرى فهي ذات مذاق متواضع، إذ أن التاج غير ممشوق... والقاعدة غير جيدة المقاسات، وما فوقها أعلى بكثير وكل هذه المكونات تتسم بتواضعها الشديد مقارنةً بارتفاع العمود..."، وقال عنه سان خنيس أن بدن العمود يرجع إلى عصر سابق على عصر دقلديانوس وأن القاعدة التي يقوم عليها قصيرة للغاية.

أضاف دينون "أن القاعدة والتاج هما من صنف من الجرانيت مختلف عن بدن العمود... وأن هذه الكتلة من الرخام تستقر على طبقتين من الحجارة تم ربطهما بمعدن الرصاص..."، ويضيف بوتي "أن القاعدة ضئيلة الارتفاع ولا تصلح لهذا البدن... وباقي في مكونات قاعدة العمود ضئيلة"(٣٣٠)، وأشار في الوقت ذاته أن

---

(328) Denón, "Voyage dam Ia. Basse et Ia Haute Egypte, pendam lês campugnes du general Bonaparte", -" Viaje por el Bojo y Alto Egipto, durante Ias campanas del general Bonaparte"-, Imprimerie P Didot, Paris, 1802.

(329)Norry, "Extrait d'un rapport sur Ia colonne de Pompée, lu á VInstitut, par lê citoyen Norry, le 6 vendémiaire an 7", "Extracto de un informe sobre Ia columna de Pompeyo, leído en el Instituto, por el ciudañano Norry, el 6 vendimiario ano 7""-, T. I, pgs. 33-35, La Décade Egyptienne, Imprimerie Nationale, Caire, An VII de Ia Republique. Française, 1799. Reimpresión, Li-brairie Byblos, Beyrouth.

(330) Botti, "Fouilies 1896", pg. 86.

"بدن العمود التيوديسي ربما كان البدن نفسه الذي قلت عنه إنه عمود سرابيس. ويمكن القول بأن القاعدة التي ترجع إلى دقلديانوس كانت ترجع إلى عمود آخر أقيم تكريمًا لإمبراطور آخر...".

وبالفعل يمكننا القول بأن البدن القديم هو نفسه الخاص بالعمود المسمى "بعمود سرابيس" الذي كان يرتفع في الفضاء معلناً عن السرابيوم؛ وكما يقول بوتي: "نأمل أن نكون قد برهنّا بوضوح على أن العمود الحالي قد حل محل عمود سرابيس وأنه أحد المنجزات التي تمت في عهد تيودوسيوس... ويمكننا أن نطلق عليه عمود أركاديو"[٣٣١]. فقد استخدموا جزءا من الأثر الوثني القديم، وكانت هذه ممارسة شائعة في كافة التوجهات التوفيقية الدينية، التي جاءت بعدها المسيحية، وبقايا الممارسات الوثنية وذلك للعمل على امتصاص طاقاتها وتحييدها بما في ذلك رمزيتها، حيث جرى إحلال إله مكان آخر. كان الأمر واضحًا وجليًا عند السكندريين حيث ظلوا يرون ذلك العمود على ذلك العمود القديم الذي سُرق منهم.

نحن نقف في هذه اللحظة في الركن الغربي لقاعدة العمود الصغيرة تلك التي يحدثنا عنها بوتي، وهنا نجد نقشًا كتابيًا مكرّسًا لدقلديانوس "أقام بوسيدوس، والي مصر، هذا التمثال لجلالة الإمبراطور المبجل دقلديانوس الإله المهيمن على الإسكندرية"[٣٣٢]. وإلى هذا النص يستند الباحثون المحدثون ليؤكدوا أن العمود قد أقيم تكريمًا لدقلديانوس، وبالتالي فهو يرجع إلى فترة طويلة سابقة على قيام المسيحيين بنهب السرابيوم، وبالتالي فهذا العمود لا صلة له بالمسيحيين، لكنه يبدو أنها نسبة في غير محلها على الإطلاق.

وهذا صحيح، ففي المقام الأول يقول بوتي: "إن النقش الكتابي الذي نراه على قاعدة العمود الحالي غير كاف للبرهنة على أن الوالي بوسيدوس قد أقام هذا العمود تكريمًا لدقلديانوس، ذلك أن الجزء العلوي من هذه القاعدة كان المكان

(331) Botti, "Fouilies 1896", pg. 142, Conclusion, Alexandria, 1 abril 1897.

(332) Borti, "Fouilies 1896", pg. 19.

الأنسب لنقش النص بشكل يجعله ظاهرًا للعيان، فهذا النص المكرّس لدقلديانوس يمكن رؤيته فقط خلال الفترة من الحادية عشرة صباحًا وطوال مدة ساعة بعد ذلك"[٣٣٣]؛ وهنا نقول إن العمود يمكن أن يكون قد كُرِّس للإمبراطور، وإن النقش الكتابي كان يجب أن يكون بحروف كبيرة على ذلك الجزء الذي يوجد فوق القاعدة مثلما هو الحال في الآثار الإمبراطورية؛ ومن غير اللائق وضع هذا النقش التاريخي في مكان صغير، يمكن رؤيته عندما تكون الشمس ساطعة على مدى ساعة في منتصف النهار. وربما كان تكريسًا سرّيًا، أو شيئًا لا معقولاً لا يعرف له مثيل في أي أثر آخر في العصر الروماني.

يبدو إذن أن الأمر مخالف تمامًا لما هو متوقع، إذ يبدو أن إقامة العمود قد تمت بناء على طقس سحري ديني، ولم يكن هذا الطقس تكريمًا لدقلديانوس، بل ضده. وهنا نقول إن القاعدة التي يقوم عليها هذا العمود الضخم بارتفاعه الذي يبلغ ٢٨م. وقطره الذي يبلغ ٢,٥٠م. لا يتكون من كتلة حجرية واحدة بل من عدة كتل حجرية تم ربطها ببعضها باستخدام معدن الرصاص والملاط. وكانت هذه التقنية الفذة مكرسة لمقاومة الزلازل وقد استخدمت في أهرامات الجيزة وفي المعابد الفرعونية ودور العبادة اليونانية الهلنستية؛ وكانت هذه الكتل الحجرية المتناثرة والمكان الذي توجد فيه هي التي حفّزت على إقامة طقس به الكثير من السحر لإقامة العمود السكندري الكبير، والذي كان علامة على سوء طالع دقلديانوس.

أضف إلى ما سبق أن تلك الكتل التي وضعت تحت هذا الثقل العظيم الذي عليه العمود لم تكن قطعًا عادية، بل كانت جزءًا من آثار قديمة[٣٣٤] تم اختيارها بعناية، وتضم كل ماضي مصر. ونظرًا لأن القاعدة قد تعرضت للتدمير خلال عصور سابقة أصبح من الممكن ضم كتلة حجرية كانت هناك إلى الفراغات

(333) Botti, "Fouilles 1896", pg. 133-XXIII.

(334) Botti, "Fouilles 1896\ pg. 133-XXIV.

الموجودة، ومن بين هذه القطع التي تم تكفيتها في القاعدة سواء في الجوانب أو في الداخل هناك قطعتان من مسلات ترجع إلى عصر سيتي الأول من الرخام والرخام المجزع، والملاحظ أنه تم إدماج هذه القطع موضوعة نحو الأسفل(٣٣٥)، وهذه ممارسة سحرية قديمة، معروفة عند اليونانيين، والغرض منها تحييد الطاقات الناجمة عن هذه القطع. كما إن إحدى المسلات ربما كانت واحدة من أجمل المسلات وأرفعها قيمة في مصر على الإطلاق، حيث نجد بها بعض التجزيع(٣٣٦). كما تم تكفيت بعض الكتل الحجرية التي تحمل نقوشاً كتابية شهدها نوردن(٣٣٧). وربما كانت كل تلك القطع تمثل كل ذلك الماضي التليد من تاريخ الفراعنة التي كان المنتصرون ينظرون إليه على أنه وثني.

هناك قطعة أخرى هي قاعدة تمثال للملكة أرسينوي فيلادلفوس، ترجع إلى معبد أرسينيون الذي كان قائماً إلى جوار الميناء تكريماً لأخت وزوجة بطليموس الثاني فيلادلفوس، وهي واحدة من الملكات الأكثر تبجيلاً في الإسكندرية، وكانت ترمز إلى تلك العادة المستهجنة وهي زنا المحارم وكذا حالة البذخ التي كان يعيشها البطالمة. وفي نهاية المطاف الخاص بتعداد القطع الأثرية نجد القاعدة الشهيرة والصغيرة الموضوعة بين بدن العمود والجزء الذي يفصله عن القاعدة، وعليها النقش الخاص والمكرس لدقلديانوس حيث تظهر الحروف مكشوطة وشبه مُمْحاة(٣٣٨) وبخاصة اسم الإمبراطور وصفاته الإلهية وكذا اسم الوالي، وبذلك فإن هذه القاعدة تمثل العالم الوثني ومعه الإمبراطورية الرومانية. رأينا إذن أنه لكي تتم إقامة بدن العمود فقد جرى - طبقاً لرأي بوتي - استخدام بدن يرجع إلى عمود قديم هو عمود سربيس، أي بدن العمود الوثني، وكانت الغاية رمزية وسحرية.

(335) Botti, "Fouilles 1896", pg. 133-XXV.

(336) Saint-Génis, "Description de l'Egypte'\ -" Descrípción de Egipto", V, pg. 514.

(337) Norden, "Voyage", pg. 16, Paris, 1795.

(338) Botti, "FoufUes 1896", pg. 20,

نجد إذن أن البدن الضخم للعمود الكبير يجثم على كل ذلك الماضي، وأول ما يجثم عليه هو على الممقوت دقلديانوس، الذي تُرِك اسمه ظاهرًا، وذلك للتمثيل والتنكيل بذكراه. وها هو الماضي الفرعوني واليوناني والروماني لمصر يرقد أسفل العمود ويتراكم حوله، وهو العمود الذي أقامه المسيحيون من جديد. يبدو أن المشهد يضم عناصر سحرية ذات طابع فكاهي يستهدف توجيه بعض الطاقات، التي تتولد عن معارف وعقائد قديمة، وذلك لتأكيد انتصار المسيحية.

وفي هذا المقام يقول بوتي: "وبذلك... نجد في الإسكندرية الأثر الذي يشهد على عظمة النصر، وهو الأثر الذي يؤكد انتصار المسيحيين المضطهدين، هذا الأثر هو العمود..."(٣٣٩)، وهو العمود نفسه الذي عبر العرب عن إعجابهم به، وهذا ما يرويه لنا المسعودي، خلال القرن العاشر الميلادي، وأورده المقريزي، حيث يشير إلى أنه كان في الإسكندرية قصر منيف... وعمود ضخم شديد الارتفاع(٣٤٠). وأضاف المؤرخ أن هذا العمود كان يتحرك ويتمايل مع الرياح، وهذه مرونة مثيرة وضرورية للحفاظ على اتزان العمود ووضعه هذا منذ ستة عشر قرنًا من الزمان رغم أنه يبدو كورقة في مهب الرياح والعواصف.

وخلال القرون التالية لم يعد أحد، للحديث عن العمود في الإسكندرية سواء من المسيحيين أو الوثنيين، ولم يجر الحديث عن أي مكتبة موروثة عن العالم القديم أو عن أي كتاب نجا من الدمار الذي تعرضت له المكتبتان اللتان كانت المدينة تتوفر عليهما. ولم يعد يذكر بعد ذلك السرابيوم أو المكتبة الصغرى باعتبارهما مركزين حيويين، في أي من النصوص اللاحقة. يمكن القول إذن، سيرًا في هذا على ما يقول به روفينو وأنطونيو وأوسوريو أنه لم تكن هناك أية مكتبة عامة سواء كانت بطلمية أو رومانية في الإسكندرية مع نهاية القرن الرابع الميلادي، وهذا استنتاج يخلص إليه أيضًا "إي. برشيتا E. Breccia"، مدير المتحف اليوناني

(339) Botti, "Fouilles 1896", pg. 20.

(340) Butler, 341"The Arab Conquest...", pg. 387.

الروماني، حيث يؤكد أنه "من الصعب، وشبه المستحيل القول بوجود مكتبة كبرى عامة في الإسكندرية مع نهاية القرن الرابع الميلادي"(٣٤١).

وعلى أية حال فإن حالة الخجل من تدمير المكتبة الصغرى كانت عبئًا ثقيلاً على كاهل المنتصرين، وبالتالي كان من الأفضل الصمت عنها صمتًا أبديًا؛ إما خوفًا، أو قهرًا، مثلما حدث بعد تدمير المكتبة الكبرى في الإسكندرية؛ إذن التاريخ يكرر نفسه، فأمامنا الآن مكتبتان وحريقان وصمت في كلتا الحالتين. تمكن النسيان من الكارثة وأصبحت هضبة راقودس مهجورة ونهبًا للحزن والموت.

المرحلة الثانية من التابوهات وخداع حول تدمير المكتبة الصغرى:

بعد تدمير السرابيوم، وتناثر أطلاله التي اعتلاها سواد الدخان والرطوبة والرائحة الكريهة للجثث المتعفنة بدأت حركة مسيحية تستهدف طمس معالم الحقيقة؛ وبالفعل فكما حدث مع هدم المكتبة الأولى في الإسكندرية، نجد في هذه الحالة الثانية - منذ البداية - نوعًا من التستر على الرواية الحقيقية للأحداث. والشيء الغريب هو أن التاريخ يتكرر، حيث تتكرر سلسلة أخرى من الشواهد الزائفة أو الغامضة التي أحاطت حتى يومنا هذا بموضوع زوال السرابيوم والمكتبة الصغرى.

مما لا شك فيه أن حريق وتدمير المكتبة الكبرى وكذا المكتبة الصغرى كانا عبارة عن زلزال ثقافي، أعقبه، في الحالتين، انتصار من قاموا بالحريق والتدمير؛ كما إننا نعرف أن المنتصرين هم الذين يقومون بكتابة التاريخ لصالحهم، وفي هذه الحالة أقروا الرقابة والعقاب لمن يقومون بنشر الحقيقة؛ إن تدمير السرابيوم ونهبه كان ضربة قاضية قضت على العالم القديم؛ لكنهم لم يقتلوا فقط المدافعين عن هذا العالم من الوثنيين، بل أدانوهم بالنسيان وعدم الذكر على صفحات التاريخ الدرامي الذي مرت به الإسكندرية مرات عديدة.

---

(341) Breccia, "Alexandreia ad Aegyptum", "Aiejandria junto a Egipto", Bergamo, 1914.

وبالإضافة إلى المؤرخ الوثني إيونانيو الأنطاكي، نجد الراهب روفينو أو آخرين غيره من الذين كانوا شاهدين على العصر وعلى حجم الدمار الذي حاق بالإسكندرية البيزنطية، فكتابات هؤلاء جميعًا قد قاومت وظلت رغم الظروف غير المواتية، وهنا نلاحظ كيف أنه تم التوصل إلى مناهج متعددة العمل على إخفاء معالم مأساة حريق المكتبة الصغرى، وقام بذلك عدة مؤرخين حاولوا الفصل بينها وبين تدمير السرابيوم رغم أنها كانت جزءًا من الأجزاء التي تحظى بالكثير من التوثيق في تاريخ العالم القديم المتأخر. لقد بدأت الروايات الأسطورية تنتشر خلال تلك الأيام، وجاءت من لدن الكُتّاب المعاصرين للأحداث، وبينما لزم آخرون الصمت فضل البعض طريق التضليل.

وعلى أية حال، فإن القراءة الأكثر إثارة للأحداث نجدها عند الكاتب والعسكري السوري الوثني أميانو مارثلينو في كتابه "تاريخ روما"[٣٤٢]؛ كان المؤلف يحب الإسكندرية، وعبر عن حبه لها بهذه العبارات: "إنها تاج على رأس كل المدن وأصبحت شهيرة لأسباب كثيرة رائعة... ففيها النسيم العليل والهواء الناعم الرقيق... ولا يكاد يمر يوم إلا ويرى أهلها السماء صافية والشمس ساطعة..كان في هذه المدينة العديد من المكتبات.."[٣٤٣]. ومع هذا لم يتورع عن تزييف تاريخها.

الشيء الغريب هو أن أميانو كان واحدًا آخر من عدد قليل من الكُتّاب الذين شعروا بضرورة الإشارة إلى وجود مكتبتين ملكيّتين في الإسكندرية، في الوقت الذي زالت فيه الثانية من الوجود على يد المسيحيين؛ وهذه معلومة مهمة قد ذكرت رغم أن المخطوطة قد كتبت بعد الكارثة ذلك أنها تشير إلى أنه عند لحظة الكتابة كانت كلتا المكتبتان قد زالتا من الوجود؛ والأكثر من هذا غرابة هو أن الإشارة إلى المكتبتين قد تم الخلط بينهما.

---

(342) Amiano Marcelino (330-395 d. C.), "Rerum Gestarum"

(343) Amiano, "Rerum Gestarum", XXII, 16, 7.

من الواضح إذن أن أميانو خلط في النص الذي تركه لنا بين الحريق والدمار الذي تعرضت له المكتبة الصغرى، وهو الذي كان معاصرًا للأحداث التي وقعت لها، وبين ما حاق بالمكتبة الكبرى؛ فقد اتهم يوليوس قيصر بأنه هو الذي كان وراء تدمير المكتبتين!، والشيء الذي لا يصدق أن هذا المضمون نفسه هو الذي كتبه أميانو بالنسبة للإسكندرية، وجاء ذلك بعد كارثة تدمير السرابيوم مباشرة، وقال في كتابه "تاريخ روما" إنه "كانت هناك في هذه المدينة مكتبتان ذواتا قيمة كبيرة، وطبقًا لشواهد موثوق بها وردت عند كُتّاب كبار... فقد كان هناك سبعمائة ألف كتاب كانت في مخازنهما بفضل إسهامات الملوك البطالمة، واحترقت هذه الكتب كلها أثناء حرب الإسكندرية في الوقت الذي كان يجري فيه نهبها في زمن دكتاتورية يوليوس قيصر"(٣٤٤). ويلاحظ أن أميانو عندما يتحدث يذكر "المكتبات"، مثلما هو الحال عند ترتوليانو، الذي كان يتحدث بداهةً عن المكتبتين الملكيتين الوحيدتين في الإسكندرية البطلمية.

هل نسى أميانو المكتبة الصغيرة الشهيرة وهي مكتبة راقودس، التي كانت إلى جوار المتحف الروماني العظيم بما فيها من عشرين مدرسة داخل حرم المعبد الأكثر جمالاً في الإمبراطورية - وهو مجموعة رائعة من المباني تشبه مباني الفاتيكان اليوم - حيث احترق كل شيء على أيامه؟ من يمكن له أن يصدق ذلك؟ وكيف أمكن لأميانو وهو المؤرخ أن يخلط بين القرون وأسماء المكتبات؟ إلى من يريد تقديم هذه الخدمة التي تتمثل في الخلط العقلي؟ أو من كان يخشاه أميانو حتى يجبر على تزييف نص وإدخال الغموض عليه؟ نحن في حقيقة الأمر أمام شاهد غريب ووجهة نظر تأتينا من كاتب ينظر إليه في القضايا الأخرى على أنه محايد وواضح، كما أنه مصدرنا الأساسي في استقاء المعلومات بالنسبة للتاريخ وأحداثه في عصره على شاكلة ما نجده في "الحوليات" لتاثيتو.

(344) Amiano, "Serum Gestarum", XXII, 16. 12-15, 17.

هناك مفاجأة أخرى وهي أنه يبدو أن أميانو قد استخدم زمنين نحويين مختلفين عندما قام بوصف السرابيوم والمكتبة الصغرى، حيث يبالغ في وصف عظمة هذا المقر باستخدام زمن المضارع وكأنه يزور المكان قبل تدميره، وعندما يتعلق الأمر بالمكتبات البطلمية يستخدم زمن الماضي. من البدهي إذن أنه لو استخدم الزمن الماضي فقط كان يمكنه أن يجمع المكتبتين في إطار حديثه عن الحريق القديم الذي تسبب فيه يوليوس قيصر، وبذلك يبدو أن حريق المكتبة الصغرى التي يفترض أنها قد دمّرت على يد يوليوس قيصر لم تكن له علاقة بتدمير السرابيوم.

وحتى تزداد الأمور تداخلاً يبدو أن أميانو خلط بين تواريخ عمليات تدمير مجموعة السرابيوم، لأنه يصر على أن ذلك حدث عام ٣٨٩م، وبذلك يختلف عن الرواية التي وردت في كتاب "Edicto" لتيودوسيو الأول عام ٣٩١ م؛ ولكن إذا ما كان السرابيوم قد تعرض للتدمير بالفعل عام ٣٩١م. فالخلاصة التي يجب أن نخرج بها هي أن أميانو قد اختلق التاريخ أو التواريخ ومقصده من هذا هو إزاحة التهمة عن الإمبراطور تيودوسيوس الأول، وعن مسئوليته عن الكارثة، كما أزاح أيضًا عن نفسه وعن تيوفيلو واقعة حريق المكتبة الصغرى ونسبها إلى يوليوس قيصر. غير أننا اليوم، في حقيقة الأمر، نرى أنه إذا ما كان كتاب "تاريخ روما" قد كتبه أميانو عام ٣٩٣م بعد التاريخ الحقيقي الذي تم فيه القضاء على السرابيوم والمكتبة والتي كان من الممكن للمؤلف أن يراها رأى العين، رغم رفضه الكتابة عن ذلك، فإن ما حدث منه هو مغالطة محضة.

كان أميانو إذن الأول في غمط الحقيقة الخاصة بهذه المأساة السكندرية الثانية؛ فقد فتح الطريق أمام التابوه والصمت وغمط الحقائق. ويرى بعض الباحثين أن أميانو كان مسيحيًا لكنه لم يعلن عن ذلك، أو أنه كان من أنصارهم، وهذه هي الأسباب الوحيدة التي يمكن أن نفسر بها هذا الخطأ الذي لا يصدق، وهو "أول تزييف تاريخي" للتدمير العنيف الذي حاق بالسرابيوم ومكتبته، حيث لم

يجد أميانو أي حرج في إلحاق التهمة بيوليوس قيصر الذي توفى منذ زمن وهي تهمة تتسم في أنها كارثة ثقافية فاضحة على زمانه، جرى ارتكابها بعد ذلك بأربعة قرون على تواجد يوليوس قيصر في الإسكندرية. وربما أيضًا فعل أميانو ذلك خوفًا من تعرضه لعنف الجماعات المسيحية التي أخذت تستولي على الحكم كما فعل "نونّو Nonno" حيث ترك توجهاته الكتابية الوثنية خوفًا من تلك الجماعات.

أدى هذا التزييف في واقع الأمر إلى خلق وإنشاء مدرسة، فطبقًا لبعض الدارسين نجد أن الخلط الظاهري بين المكتبتين السكندريتين يوجد أيضًا في مخطوطة "Codex Parisinus" ضمن تقريظ Apologetico لترتوليان(٣٤٥). فالنص الذي نجا ووصل إلينا يتسم بالغموض الكامل وبدلاً من أن يفصل بين المكتبتين يخلط بينهما ليصبحا مكتبة واحدة، ويبدو أيضا أنه يؤكد على أن مكتبة البطالمة كانت جزءًا من السرابيوم، وبذلك يخلط بين المكتبة الكبرى والمكتبة الصغرى. حقيقة الأمر إذن هي أنه تم التأكد من أن النص الذي أورده ترتوليانو تعرض للتحريف عن عمد في تلك المخطوطة، التي ترجع لعصر، هو العصر الشارلماني، خلال القرن الثامن أو التاسع، وهذا لاحق للأصل بعد زمن طويل.

ولما لم تكن قد ظهرت بعد تلك الرواية غير الحقيقية المضادة للعرب، والتي تم اختراعها بعد ذلك بقرون ينبغي أن نسأل عمن هو المستفيد من هذا الخلط الظاهري بين المكتبتين، في فترة تاريخية متأخرة مثل الفترة الشارلمانية وبالتحديد بعد الغزو العربي للإسكندرية. لا شك أنهم هم المسيحيون؛ فهذا الخلط وكذا الخلط الذي جاء من أميانو يقصد منهما أن نعتقد أن النار التي تم إضرامها في الفترة التي عاش فيها يوليوس قيصر قد أتت على كافة المكتبات الملكية في الإسكندرية، وهنا نجد أن المسيحيين يغسلون أيديهم مرة أخرى من الواقعة.

(345) Tertuliano (160-222 d. C), "Apologético", "Códice de Paris", 13, 18. 8.

كان هذا الخلط الأولي يستهدف أمرًا آخر محددًا ألا وهو أن الأجيال اللاحقة سوف تظل على جهلها بأن تلك الأحداث المأساوية قد وقعت أو أن المكتبة الصغرى كانت موجودة بالفعل في العالم القديم أو أنها كانت ذات أهمية كبرى في العصر الذي كانت قائمة فيه. وتحقق الهدف المقصود من وراء ذلك بنجاح، فنحن ما زلنا لا نذكر شيئًا عن وجود المكتبة الصغرى حتى عهد قريب، أي عندما أشرنا إلى المكتبة السكندرية الكبرى. بينما أخذ الكثيرون يشيرون إليها على أنها المكتبة الصغرى.

سار الأسقف إيبفانيو دي سلامينا، على نهج أميانو، وهو رجل عاش طويلاً، من ٣١٥م حتى ٤٠٢م. نحن إذن أمام كاتب مسيحي آخر شعر بالحاجة الملحة للإشارة إلى المكتبتين، مثلما فعل أميانو، أي المكتبتين الملكيتين في الإسكندرية، وكذلك الحفاظ على مسمى "المكتبة الصغرى"، وأشار إلى أن المنطقة المجاورة "تضم مكتبة كبيرة وأخرى صغيرة مشيدة في السرابيوم وكان يطلق عليها "المكتبة الابنة" للمكتبة الأم"[٣٤٦]. هذه الرواية التي وردت على قلم أبيفانيو تدحض النظرية القائلة بأنه خلال العصر القديم جرى دمج المكتبتين في واحدة. وأوضح إبيفانيو بما لا يدع مجالاً للشك أن المكتبتين لا تختلفان عن بعضهما فقط من حيث التسمية بل من حيث المكان.

نعرف أيضًا أن هذا النص قد كتب بعد زوال المكتبتين الملكيتين السكندريتين، ومع هذا فإن التاريخ المفترض للنص الذي ورد عن أبيفانيو يراه البعض أنه يرجع إلى منتصف أو نهاية عقد الثمانينيات من القرن الرابع الميلادي، أي قبل تدمير السرابيوم. فهل نحن أمام لغز آخر؟ أو كيف أنه عنّ للبعض أن يقول أن المكتبة الصغرى قد دُمِّرَت وأحرقت وزالت من الوجود قبل وصول المسيحيين إلى السرابيوم بزمن طويل وبالتالي لم يرتكب هؤلاء هذه الفعلة؟ لا شك أن هذا هو

(346) Epifanio. "Pés. y med", XI, 11.

مقصد إبيفانيو، حيث كان يحاول إحداث فصل كامل بين المسيحيين وبين ما جرى للمكتبة الصغرى؛ فكيف؟. ما فعله هو إحداث تعديل على ما كتبه؛ وهو نص يفترض البعض أنه كتب عام ٣٩٢م أو عام ٤٠٠م. أمر جدير بالتصديق القول بأن إبيفانيو هو الشخص المهيأ لمثل هذه الرواية والتعديلات فقد كان يعشق كثيرًا إدخال تعديلات على النصوص؛ نرى إذن أن إبيفانيو محل شك فيما يتعلق بتغيير الأرقام التي وردت بشأن محتوى المكتبة الكبرى(٣٤٧).

قبل الكارثة وبعدها:

هناك آخرون أكثر براجماتية مثل أنطونيو أو روفينو. فقد شهدنا أن معلم الخطابة اليوناني أنطونيو الأنطاكي الذي أشار في كتابه "تمرينات في الخطابة"(٣٤٨) الذي ألفه في نهاية القرن الرابع الميلادي، إلى ما رآه في يوم من الأيام وهو يزور الإسكندرية عام ٣١٥، أي عندما كان السرابيوم في كامل أبهته وزينته؛ لكن أنطونيو كان فطنًا عندما استخدم الزمن النحوي الماضي في معرض وصفه، وهذا يعني أنه عندما كان يكتب كان على وعي كامل بأن ما يقصّه لم يعد له وجود. هو إذن فضل سرد ما عليه المعبد وليس ما تعرض له من تدمير رغم أنه من الذين عاصروا الواقعة. ولما كان وثنيًا فقد فضّل الحذر والحيطة وصمت صمتًا تامًا عن الإشارة إلى الحريق الذي تعرض له المعبد الذي يجلّه وهو السرابيوم.

وإذا ما اطلعنا على ما قال به عالم اللاهوت اللاتيني المسيحي/ روفينو تيرانيو أو الملقب بالأكيلي Aquiteia، نجد أنه قد عاش سنوات طوال في الإسكندرية، خلال الفترة من ٣٧٢م حتى ٣٧٨م، وبعدها خرج مطرودًا وتوجه إلى فلسطين؛ حيث انضم إلى رفيقته رفيعة الشأن ميلانيا تلك المرأة الغنية الأرملة ليعيشا في هناء وسعادة. تتلمذ خلال فترة إقامته في الإسكندرية على ديديمو

(347) Epifanio, "Pes. y med", XI.

(348) Aftonio (fl. fines s. iv-tn. después dd 400 d. C.). "Progymna.sma.t/z", 40.

في المكتبة Didascalium، وبالتالي كان من الذين يرتادون السرابيوم بشكل مكثف ويرتادون متحفه والمكتبة الصغرى، وهي منشآت قد وصفها لنا معبراً عن إعجابه بها قبل زوالها وتدميرها. يقص علينا روفينو ذلك خلال الفترة من ٣٩٩-٤٠٣م، وربما كان ذلك خلال عام ٤٠٢م، في كتابه "التاريخ الكنسي"[٣٤٩]، من خلال ترجمة أولية من اليونانية إلى اللاتينية، لكتاب "التاريخ الكنسي" لـ"يوزيبيو دي قيصر Cesarea"، وقد أضاف إلى هذه الترجمة كتابان هما العاشر والحادي عشر لاستكمال الكتاب حتى وفاة تيودوسيوس الأول عام ٣٩٥م "مضيفاً ذلك إلى الكتب الأخرى وكأنها تكملة"[٣٥٠].

ويروي لنا روفينو أيضاً في كتابه "تقريظ"، ما مرّ به خلال السنوات الست التي قضاها في مصر حيث زار أديرة نيتريا، ويروي لنا أنه عاد إلى مصر بعد فترة من الزمن، هما عامان بالتحديد؛ ولما كانت هذه الزيارة الثانية قد جاءت بعد كارثة السرابيوم فإنها لم تكن قط عام ٣٨٥م كما يرى البعض، بل كانت ابتداءً من عام ٣٩١م، فرغم أنه كان في فلسطين ولم يرَ رأى العين ما حدث في حينه فإنه قد رآه بعد تعرض المكان للدمار، لكنه ألقى باللائمة على الوثنيين الذين أثاروا المسيحيين الثائرين. ورغم أنه أكد أيضاً أن تيوفيلو هو الذي حض الجماهير المسيحية على تدمير السرابيوم، الذي أحزنه فقدانه، ومع هذا نوّه ببقاء بعض الأطلال الخارجية مثل الأعمدة[٣٥١].

يدفعنا روفينو[٣٥٢] إلى التفكير إلى أنه قبل عام ٤٠٠م كان كل شيء قد طالته يد التدمير في الجزء العلوي للشرفة الأولى للمقر، بحيث لم يتبق أي شيء فقد دمّرت دور العبادة والمتحف والمكتبة الصغرى والمسلات والعمود الكبير المكرّس للإله

(349) Rufino (341-410 d. c.), "Historia Ecclesiastica",. XI, 22-30.

(350) Rufino, "Prefacio" a "Sobre los Primeros Tiempos de Origenes".

(351) Rufino, "Hist. Eeles.", XI, 23.

(352) Rufino, "Hist. Edes.", XI, 27.

سرابيس هليوس الذي ربما سقط من جرّاء أعمال التدمير. وهنا يمكن الإشارة إلى أن المؤرخ إي. جيبون، في كتابه "تاريخ الإمبراطورية الرومانية"، تحدث عن روفينو وأنه لما كان قد ظل "في الإسكندرية قبل الأحداث وبعدها، يمكننا قبول شهادته على أنها شهادة شاهد حقيقي عاصر الأحداث"(٣٥٣).

قام أحد رجال الدين، وهو المؤرخ وعالم اللاهوت القوطي بابلو أوروسيو، بزيارة الإسكندرية بعد وقوع الكارثة بأعوام قليلة، أي عام ٤١٦م، وفي رحلة العودة إلى شبه جزيرة أيبيريا، مسقط رأسه، كتب حول الموضوع في كتاب له بعنوان "الكتب السبعة ضد الوثنيين"(٣٥٤) وهي مؤلفات تستهدف التدليل على أن المسيحيين لم يكونوا هم الذين تسببوا في سقوط روما، وجاء ذلك بناءً على نصيحة قدمها له أستاذه القديس أغسطين. ورد في فقرة تتسم بالغموض الشديد في أحد الفصول وصف للحريق الذي كان يوليوس قيصر وراءه، أن عدد الكتب التي احترقت أثناء الحرب السكندرية الأولى بلغ أربعمائة ألف، وبعد أن أكد أوروسيو أنه لم يكن هناك في ذلك الزمان أية مكتبة ملكية أخرى في الإسكندرية وأن المكتبات التي تلتها قد أقيمت لتحل محل المكتبة التي دمرت، وقال "فيما يتعلق بذلك الأمر شاهدت الكوّات خاوية على عروشها في مكتبات المعابد وكذا الأرفف فقد جرى نهبها وتدميرها على يد أناس تابعين لنا، وهذا حق. ومع هذا ربما كان من المنطقي القول بأن المسيحيين قضوا على الكتب التي كانت في المكتبات القديمة... بدلاً من القول بأنه كانت هناك مكتبة أخرى، وهي مكتبة يعتقد أنها كانت موجودة، بغض النظر عن الكتب الأربعمائة ألف التي أشير إليها قبل ذلك - أي الكتب التي أحرقها يوليوس قيصر - وأنها نجت ولم تتعرض لأذى الحريق" الذي أحدثه يوليوس قيصر".

لم يشر أوروسيو إلى المكتبة الصغرى باسمها، لكن من البدهي أنه يتحدث عنها وعن الكارثة الكبرى التي عانت منها المدينة من جرّاء العنف المسيحي، خلال

(353) Gibbon, "Hist. Imperio Romano", III, 28.

(354) Orosio (c. 380- m. 418 d. C.), "Historiaram advenum paganos libri septem", VI, 15. 31-33, 16.

الأعوام التالية مباشرةً لوصوله إلى الإسكندرية؛ من البدهي إذن أن أوروسيو قد خانته ذاكرته وأفكاره، فليس من المألوف أن يقوم أوروسيو بزيارة أطلال السرابيوم التي يسيطر عليها المسيحيون، والذي عانى أكبر كارثة تعرضت لها المدينة آنذاك، بل تعدى ذلك إلى أن تأملاته غير الواضحة تجعله يقبل بأنه كان يفكر تحديدًا في "هذه المكتبة التي كانت موجودة"، أي الثانية، "المكتبة الصغرى" التي نجت من نيران يوليوس قيصر، عندما تحدث عن "الكوات الخاوية على عروشها" التي رآها والتي دمرها "أتباعنا" على أنهم "المسيحيون".

كما لم يشر أوروسيو إلى السرابيوم من قريب أو بعيد، وهو المعبد الذي تعرض لتدمير بشع على يد المسيحيين؛ وربما شعر بأنه في موقف غير مريح، كما إن المعبد والمكتبة كانا في مكان واحد؛ وإذا ما كان هذا المعبد قد تعرض للدمار فالمنطق يقول بأنه لم يتبق هذا ولا ذاك من المنشآت الموجودة في مكان واحد. وعلى أية حال، ربما من أجل ذلك الموضع، بدا أن خطابه كان يتركز حول مصير المكتبة الصغرى، وكان همه الأكبر الحيلولة دون اتهام المسيحيين بإحراق المكتبة؛ ومن هذا المنطلق، وتأسيسًا على هذه البدهية، لم ينف فقط وجود المكتبة الصغرى بل لجأ إلى التأكيد، دون أية حجة منطقية، بأن المسيحيين أخذوا الكتب قبل إحراق الأرفف الخاوية.

ومع هذه الرواية التي وردت على لسان أوروسيو بعد ما لا يزيد على ربع قرن على الكارثة، نجده أنه وإن كان قد نقل أصداء ذلك الحدث الذي كان ماثلاً في الأذهان في عصره، يحاول نفى وتجاهل روايات شهود العيان من معاصريه من المؤرخين من أمثال إيونابيو الأنطاكي أو أو أفطونيو أو أميانو أو إبيفانيو أوروفينو أو ترتوليانو بشأن الوجود الفعلي للمكتبة الصغيرة في العصر القديم؛ ورغم تجاوزه الغامض لم يكن أمامه مخرج إلا أن يشير إلى وجودهال، ذلك أن الكوات التي تم تدميرها وتركها خاوية وهي التي رآها خلال القرن الخامس الميلادي

والتي مر زمن قليل على إحراقها لا يمكن إلا أن تكون مكونات المكتبة الصغرى في راقودس، ذلك أننا نعرف من خلال إبيفانيو أنه ابتداءً من نهاية القرن الثالث الميلادي لم تبق من المكتبة الكبرى أي قطعة من الحجارة؛ كما أن بعض دور العبادة الكبرى الأخرى المصحوبة بمكتبات مثل معبد قيصرون القديم تحولت إلى كنائس ولم يتم تدميرها. وعلى أية حال فإن شهادة أوروسيو تبرهن، من جانب آخر، وبما لا يدع مجالاً للشك، أنه ابتداءً من القرن الخامس الميلادي لم يعد هناك وجود لمكتبة كبرى في الإسكندرية.

فرض الصمت:

ظهرت خلال القرن الخامس الميلادي رواية أخرى تتحدث عن ذلك اليوم المشئوم، ألا وهي فرض حالة من الصمت غير المعلنة، لدرجة بدت وكأنها توجه سياسي؛ وقد أدى هذا إلى تحول في توجهات كل من أميانو وإيبفانيو وأوروسيو في العمل على تزييف المعلومات والمكتبات بإدراج اسم يوليوس قيصر. ففي هذه الرواية الجديدة نجد أن الحديث لا يجري حول المكتبة الصغرى، وتم تجاهلها بالكامل. وهذا هو الخيار نفسه الذي اتخذه إسترابون بالنسبة للحريق الذي تعرضت له المكتبة الكبرى. وفي هذا المقام نجد كُتّابًا آخرين مسحيين يقدمون لنا رواياتهم القائلة بتدمير السرابيوم تدميرًا كاملاً لكنهم لا يذكرون المكتبة الصغرى؛ وربما كان "سوفرونيو Sofronio" هو أول قائمة هؤلاء الكُتّاب، فهو دارس مسيحي كتب خلال القرن الرابع الميلادي مؤلفًا بعنوان "حول اجتثاث سرابيس"[٣٥٥].

من جانب آخر نجد سقراط القسطنطيني، مؤرخ الكنيسة البيزنطية، أو ما يسمى "سقراط اللاهوتي Scholasticus، في كتابه "التاريخ الكنسي"[٣٥٦] الذي كتبه باليونانية في منتصف القرن الخامس الميلادي، والذي يتناول الفترة من

(355)S. Jerónimo, "Vidas de Hombres Ilustres", 134.

(356) Sócrates de Constantinopla (380-c. 450 d. C.), "Historia Ecclesiastica", V, 16,17.

٣٠٥م حتى ٤٣٩م، مستمرًا في هذا على استكمال ما بدأه يوزيبيو[٣٥٧] وكذا معاصره روفينو، حيث يؤكد - أي سقراط - أنه بناءً على أوامر الإمبراطور قام تيوفيلو "بتدمير السرابيوم" بعد أن نهب معبد ميترا، وقام هناك بصهر التماثيل، وأقام كنيسة في المكان. وبعد ذلك بقليل تحدث كتاب آخرون مثل إيرمياس سوزومن[٣٥٨] وسوسيمو[٣٥٩] الذين استندوا إلى روايته وتناول الموضوع في الاتجاه نفسه.

من جانب آخر نجد أسقف Cyrrhus، سوريا، النسطوري، المسمى تيودوريتو يشير في كتابه "التاريخ الكنسي" يؤكد لنا "أن تيوفيلو كان رجلاً على درجة عالية من الحكمة والحذر، فقد أنقذ مدينة الإسكندرية من أخطاء عبادة الأصنام، فلم يقتصر مسلكه فقط على إزالة المعابد الوثنية... بل صعد إلى معبد سرابيس الذي وصفه البعض بأنه يتجاوز من حيث الحجم والجمال كافة معابد الدنيا" ووصف، بنغمة فيها ألم، كيف أنه تم تكسير تمثال سرابيس وألقى بأجزائه في أتون النار. فقد أخذوا رأس التمثال وجرّوها في كافة أنحاء المدينة حتى يراها الآخرون... وتهدم المعبد حتى الأساس... وعلى هذا ففي أنحاء العالم أجمع جرى تدمير كافة الأصنام..."[٣٦٠]. ويحدثنا زكريا "اللاهوتي" في كتابه "حياة سيفيرو"[٣٦١] الذي يرجع إلى نهاية القرن الخامس الميلادي عن موضوع تدمير السرابيوم وإلغاء الطقوس الدينية الخاصة به، ويؤكد أيضًا أنه قد تم تدمير المعابد الأخرى لكل من سرابيس وإيزيس الطبيبة" في كانوب ومينوسس وتم إخراج التماثيل وتكسيرها في الشوارع.

(357) Euscbio, "Hist. Ecles."

(358) Sozomen (m. 443 d. C.), "Hist. Ecd", VII, 15. 20.

(359) Zósimo, "Nueva Historia", V. 23

(360) Tcodoreto (393-45K d, C.), "Historia Ecclesiástica1", V, 22.

.(361) Zacarias Scholasticus, "Vita Severi"

الشيء الغريب، كما نرى، هو أن أيًا منهم لم يذكر الحريق الذي تعرضت له المكتبة الصغرى، رغم المأساة، وحاول غمط ذكرها. وعلى أية حال، فقد كانوا يرون أن تدمير السرابيوم يعني انتصار المسيحية. ورغم أنهم لم يشيروا قط إلى المنشآت الكبرى التي تهدمت والمذبحة التي تمت والجثث التي تُركت في العراء. إنه الصمت!، ولا شيء من قبيل الحديث عن شهداء من الوثنيين فقد كانت الشهادة حكرًا على المسيحيين، وهذا شيء لصيق بالحرب المقدسة التي بدأها الرهبان. نرى إذن أن هذه المذبحة كان لها تبريرها أمام أعين إلههم الجديد؛ إلا إن حرق الكتب التي كانت في المكتبة الصغرى، كان أمرًا مختلفًا، فقد صمتوا جميعًا عن الحدث. وفضلوا، إضافةً إلى ذلك، نسيان كل هذه الهزة، فهذا السلوك البربري لا يمكن التعرض لها بفخر.

أضف إلى ما سبق، لدينا شاهد آخر جوهري ألا وهو الخاص بكاتب مسيحي لم يذكره أي باحث آخر؛ إنه الأسقف المناصر للمذهب القائل بالطبيعة الواحدة، المصري خوان مدبًا، المعروف باسم خوان دي نيكيو(٣٦٢) الذي نراه من حيث المبدأ من أنصار نظرية الصمت المتآمر، ذلك أنه على مدار "حوليته" المطولة لا يبدو أنه ذكر من قريب أو بعيد المكتبة الصغرى، بما في ذلك تناول تدمير السرابيوم بشكل يخرجه عن سياقه التاريخي، ومعنى هذا أنه خطا خطوة أخرى في طريق الروايات المضللة، بينما نتأمل روايته التفصيلية التاريخية والملتزمة بالترتيب التاريخي والمحشوة بالعديد من الأسماء والطرائف المهمة والمحددة(٣٦٣) مثل اكتشاف نوع من السمك على شكل سيدة في نهر النيل... كانت إضافة إلى شكلها تلقى بالتحية.

غير أنه عندما ندقق في الأمر بعناية يبدو أن خوان دي نيكيا هو الذي كتب في "حوليته"، ولأول مرة، عن الحريق الذي تعرض له المتحف السكندري، لكن، يا

(362) Juan de Nikiu (activo 690-696 d. c.).

(363) Juan de Nikiu, "Crón", XCVI (XCVII).

للعجب! لم يظهر النص سواء كان كاملاً أو في مكانه. وبالفعل نجد أن كتاباته تسير ببطء وتقص علينا كافة الأحداث التاريخية وتتناول الأباطرة البيزنطيين والبطاركة السكندريين؛ غير أنه عندما جاء الدور، في الحديث، على الإمبراطور تيودور الأول، وعلى الأسقف تيوفيلو وتدمير السرابيوم تعقدت الأمور، حيث نجد أنه على مدار فصول أربعة[٣٦٤] تم خلط الترتيب الزمني.

ها نحن نجد عمليات توصيف خاطئة، لم يكن فيها خوان دي نيكيو المؤلف بل كان ضحية تلاعب وعبث بالنصوص التي كتبها، والغاية من ذلك الفصل من جديد بين "مرسوم" تيودوسيوس الأول وبين المسئولية عن تدمير السرابيوم، وهي نفس حالة الهوس التي كان عليها أميانو؛ كان الهدف أيضًا إبعاد تيوفيلو عن مسئوليته (وهو الرجل الذي يعلن أنه صاحب عملية تدمير معبد سرابيس) وأنه غير ضالع في حريق المتحف والمكتبة الصغرى وهذا نوع آخر من التوجهات التي يسير عليها الكُتّاب المسيحيون لدرجة الهوس.

من الملاحظ أيضًا أن تيوفيلو يظهر اسمه في الفصلين رقم ٧٧ و ٧٨ في إطار فترة حكم جوليانو، وبالتالي هو خارج السياق التاريخي الذي عاش فيه، وهو الذي يتناوله الفصل رقم ٨٢. يلاحظ أيضًا أنه في نهاية الفصل ٧٧ يجري الحديث عن بطاركة الإسكندرية حيث نقرأ "... وبعد تيمتيو - أتى - تيوفيلو الذي هدم المعبد المسمى سرابيس، وحوّله إلى كنيسة... حيث وضع هناك رفات القديس يوحنا المعمدان"[٣٦٥] الذي عثر عليه تيوفيلو، في تلك الفترة تحديدًا في الإسكندرية. أما الفصل التالي ٧٨ بكامله فهو مخصص للحديث عن سيرة تيوفيلو. لكن لم يرجع المؤلف إلى ذكر اسم تيوفيلو مرة أخرى في النص، أي في فصول ليست هي الخاصة به.

---

(364) Juan de Nikiu, "Crón.", LXXVII, LXXVIII, LXXXII, LXXXIII, 77,78,82,83.

(365) Juan de Nikiu, "Crón", LXXVII (LXXVHI), 45, 46.

يعود النص ليأخذ اتجاهه الصحيح ويواصل الحديث عن نهاية عصر جوليانو وعن من جاء بعده من الأباطرة وهما جوفياتو وفالنتي؛ غير أنه عندما نصل إلى الفصل رقم ٨٢ والذي يتحدث عن مُلْك تيودوسيو الأول يخرج النص عن الخط المرسوم من جديد ويعتريه الغموض. وخلال حكم تيودوسيو[٣٦٦] الأول يختفي اسم تيوفيلو بالكامل من النصوص، رغم أنه كان يجب أن يكون أحد الأبطال الرئيسيين فيه، وها نحن قد شهدنا أنهم تركوا هذا الاسم في مكان آخر. من البدهي أن هذا التصرف اللامعقول، وهو اختفاء أحد أهم البطاركة، الثالث والعشرين، وهو تيوفيلو من سياقه التاريخي، أمر مستحيل اللهم إلا كان هناك من حرّف النص.

يزداد التحريف عندما يتعلق الأمر بمن خلفه وهو تيموتيو الأول[٣٦٧] الذي يخلف تيوفيلو في هذا الفصل - ٨٢ - في إشارة ثانية تتحدث عن الاستيلاء على السرابيوم على زمن تيودوسيو الأول، وجاء ذلك في صورة عبارات تكاد تكون صورة طبق الأصل من الإشارة الأولى التي وردت في الفصل ٧٧ حيث يقول: "كان هناك معبد سرابيس في المدينة وحوّله - أي تيموتيو الأول - إلى كنيسة وجعل اسمها على شاكلة اسم ابنه الأصغر - ابن الإمبراطور - المسمى أونوريو. إلا أن هذه الكنيسة أطلق عليها أيضًا اسم آخر هو اسم الشهيدين كوسمي وداميان"[٣٦٨] وبعد ذلك نجدهم يريدون منا أن نصدق أن خوان دي نيكيو خلط اسم تيموتيو الأول باسم تيوفيلو، ثم قدم تاريخ تدمير السرابيوم، وأن النص حاول عدم ذكه مقدمًا رواية ثانية تتعلق بالحدث، منوهًا من خلالها سيطرة سلمية على المعبد الوثني، وجاء ذلك لا عن طريق تيموتيو الأول الذي لم يهاجم قط - في واقع الأمر - ولم يحول المعابد السكندرية الخاصة بسرابيس.

---

(366) Juan de Nikiu, "Crón.n, LXXXII (LXXXIII).

(367) Timoteo I (378-384 d. C.).

(368) Juan de Nildu, "Crón.", LXXXII (LXXXIII), 37, 38.

وتستمر عمليات التحريف، وجعلت من هذه الفصول فصولاً مليئة بالبلبلة، إذ بعد ذلك، أي في الفصل رقم ٨٣ المخصص لتيودوسيو الثاني، نجد أن من يظهر بعد تيموتيو الأول هو "سيريل Cirilo" خليفة تيوفيلو. ويظل اسم هذا الأخير مختفيًا رغم أنه في الفصل رقم ٧٧ يتم التأكيد على أن تيموتيو الأول قد خلفه تيوفيلو. وهنا نقرأ وقد احتوانا الاستغراب أن "سيريل الحكيم، بطريارك الإسكندرية، قد عُيِّن بعد تيموتيو"[٣٦٩] وهذا تزييف صراح ويناقض النص نفسه.

لكن ذلك يساعد كاتب النص على أن يسرد لنا أنه تحت إمرة سيريل وإمرة الإمبراطور تيودوسيو الثاني - وليس تيوفيلو ومعه تيودوسيو الأول - حدث أنه "في تلك الأيام انتابت النقمة على السكان الأرثوذكسي من أهل الإسكندرية فقاموا بجمع كمية كبيرة من الخشب وأحرقوا مقر الفلاسفة الوثنيين"[٣٧٠]. ويلاحظ هنا أن الفقرة التي أوردناها معزولة عن باقي النص وتخرج عن سياقه التاريخ، وقد وضعت الفقرة للفصل إحراق المتحف، الذي قام به تيوفيلو الذي زال من الوجود، وتدميره للسرابيوم، وكذلك إبعاد تيودوسيو الأول. غير أن الذي قام بالتحريف دون ذكاء لم يضع المذكور ويتحدث عن صلته باغتيال هيباتيا، طبقًا لرأي البعض، ويترك الأمر للفصل رقم ٨٨[٣٧١].

الأمر الواضح إذن هو أن هذا النص الموجز حول حريق "مقر الفلاسفة"، الذي هو جزء من فقرة سابقة أطول بكثير اختفت من الفصل رقم ٨٢ كانت تتحدث عن مغامرات تيوفيلو في ظل حكم تيودوسيو الأول - كان يمكن أن تشير فقط إلى حريق متحف السرابيوم ومدرسة الفلسفة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية، أي المكان الوحيد الذي هو مركز الفكر الوثني، وهو المركز الذي اشتعلت فيه النيران خلال تلك الآونة على يد المسيحيين ومعه مكتبته. لا يوجد مؤشر على

(369) Juan de Nikiu, “Crón.”, LXXXII (LXXXIV), 42.

(370) Juan de Nikiu, “Crón”, LXXXIII (LXXXIV), 45

(371) Juan de Nikiu, “Crón”, LXXXIII (LXXXIV), 87-100.

إضرام نيران أخرى قضت على مقر العلماء السكندريين، اللهم إلا الهجوم الذي قام به تيوفيلو. وربما كان ذلك محاولة تحريف أخرى للنص مستبعدة، حيث إن الأصل ربما كان يتحدث عن النيران التي أضرمها المسيحيون التابعون لتيوفيلو لإحراق السرابيوم والمتحف التابع له وكذا مكتبته، وجرى تحديد المسئولين والكيفية التي تمت بها العملية. وهذا شاهد له أهمية خاصة تمثل في رواية أسقف شريف من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة التي انتشلتنا من الموقف الذي نحن فيه.

نرى إذن أن التحريفات التي أُدْخِلَت على النص الذي كتبه خوان دي نيكيو توضح ببداهة ومن جديد الرغبة التي كانت سائدة في العصور الوسطى لإبعاد تيودوسيو الأول و"مرسومه" عن مسئولية تدمير السرابيوم والمتحف. أما فيما يتعلق بتيوفيل فإنهم، أي المحرّفون، قد جعلوه يختفي من السياق التاريخي؛ ورغم أنهم يشيرون إليه باعتباره مسئولاً عن تدمير السرابيوم، فقد كان ذلك على زمن جوليانو السيء، الأمر الذي يبرر سلوكه العدواني؛ لكنهم مع ذلك يعفونه تمامًا من مسئولية إحراق المتحف ومكتبته، وينسبوها للمسيحيين الأرثوذكس دون تحديد ودون ذكر الرؤساء المسئولين، وهم الذين قاموا بإضرام النار بتلقائية على زمن تيودسيو الثاني. وهذا كله محض إفتراء.

الشهادة الأولى الكاملة على المأساة:

نعرف أن الحقائق التاريخية عنيدة وتستعصي على المحو، فحقيقة الأمر هو أن مرتفعات هضبة راقودس التي كان السرابيوم مُقامًا عليها تعرضت للدمار الكامل في ذلك اليوم المشئوم، وأدت كتل أبدان الأعمدة والكتل الحجرية التي كانت في الجدران إلى القضاء على حياة الكثيرين من الكهنة الوثنيين والفلاسفة وبعض المواطنين السكندريين الذين صعدوا إلى المكان للدفاع عن مقدساتهم؛ قضت الغالبية الساحقة منهم نحبها، وطال الاحتضار بالبعض منهم سواء كانوا تحت ثقل الكتل أو مختنقين تحتها. ولقد كان الهجوم على السرابيوم مباغت

ولهذا لم يستطع المدافعون عنه إنقاذ المعبد من الدمار والنار أو إنقاذ أنفسهم اللهم إلا القليل من الذين نجوا.

كان الإيطالي جوزيب بوتي أول وآخر من تحدث بصراحة ووضوح عن هذه الأحداث التاريخية في العصر الحديث، وهو الآثاري الذي أسس المتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية عام ١٨٩٢ م، وكان أول مدير له. كان بوتي أول آثاري يقوم بإجراء حفائر علمية في المقر الذي كان فيه معبد السرابيوم ونشر نتائج أبحاثه خلال الفترة من ١٨٩٥ - ١٨٩٧م، وكانت عبارة عن مذكراته بالتفصيل وعنوانها "جبانة الإسكندرية والسرابيوم طبقًا لأفونيو والحفائر التي أجريت"(٣٧٢). هذا صنف من الكتب التي تم تجاهلها والصمت عنها صمتًا مقصودًا من قِبَل كافة الباحثين حتى أيامنا هذه، وكأننا أمام تابوه هو المأساة القديمة التي تعرض لها السرابيوم، وكان بوتي آخر ضحايا هذا التابوه الذي كان ماثلاً في الأذهان خلال هذا القرن الذي نعيشه.

وفي كتابه الثاني بعنوان Fouilles الذي يستند في تأليفه إلى اكتشافاته الآثارية التي جرت عام ١٨٩٦م تحدث عن "عمود تيودوسيوس"(٣٧٣)، ويبدو أنه قد لفت انتباهه ولأول مرة وصف الأحداث التي قدمها لنا كل من إيونابيو وروفينو قبل ذلك بألف وخمسمائة عام، وكأننا أما شاهد عيان آخر على أحداث ذلك اليوم المشئوم، أو كأننا أمام ماكينة الزمان التي دفعت به إلى خضم أحداث المأساة وهو يعيش خلال القرن التاسع عشر، وكانت من الدقة بمكان لدرجة أنه صورها لنا وكأنه يراها رأى العين.

(372) Botti, "La Acrôpolis de Alejandría y el Serapeum de acuerdo con Aftonïo y Ias excavaciones", 1895; ^Excavaciones en Ia columna teodosiana, 1896", 1897; "Piano dei barrio de "Rhacotis" en Ia Alejandría romana', \897, Société Archaeologique d'Alexandrie, Alexandrie.

(373) La Ilamada popular e impropiamente "Columna de Pompeyo".

في ذلك الكتاب الثاني الذي ألفه وكتبه بوضوح يكشف لنا عما اكتشفه تحت أنقاض المعبد، في الفصل الرابع بعنوان "ملاحظات مستقاة من: "يوميات الحفائر". تم اكتشاف هياكل عظمية فوق الشرفة الثانية في الناحية الشرقية (Propileos)، ويقول: "... مازلت أرتعد حتى الآن أمام الرعب الذي عاش فيه هؤلاء الموتى الذين عثرت عليهم في المنطقة المحيطة بالعمود وبخاصة في الجهة الشرقية بالشرفة الثانية، ولقد بلغ عدد هذه الهياكل مئات كانت تحت أنقاض الجدران والكتل المهشمة من الجرانيت التي تم إلقاؤها من علُ. وفي الجهة اليمنى، قمت بإجراء الحفائر في خندق طويل، كان ممتلئًا عن آخره بالهياكل العظمية حيث وضعوا الجثة فوق الأخرى ولا توجد كتل حجرية للمقبرة إلا كتل الأحجار الرملية التي كانت أرضية المبنى. وفي الجهة اليسرى وبعد النزول من على جانب الهضبة كان المكان يبدو وكأنه ustriunum. لقد مر الموت من هذا المكان، فقد امتدت ألسنة النيران بقوة، فالأرضية في ذلك المكان كانت سوداء ولزجة ومليئة بالعظام المحترقة وجزازات من السيراميك الروماني للمبات الإضاءة. أما من الناحية الغربية، وعلى بعد سبعين مترًا من العمود، كانت الهياكل العظمية مرصوصة بين أطلال عمود وفي أساسات أحد المباني الواقعة في الجنوب الغربي.

كان هذا الاكتشاف البغيض يتسم بغيبة أية آثار تتعلق بالعصر البيزنطي أو العربي؛ أما بقايا إحراق الجثث... فهي لا ترجع إلا إلى العصر اللاحق على عصر تيودوسيو... وتحت أرض الإسكندرية تمكنت من إحصاء مئات، بل آلاف، من الهياكل العظمية ابتداءً من "عصر البطالمة Lagidas" حتى أفول شمس الحكم البيزنطي. كما إنني لم أجد في حياتي قط شيئًا يشبه هذه الفوضى في حالات الموت... كان يمكننا أن نرى هناك مشهدًا من مشاهد المذبحة التي تمت في هذه النهاية المفجعة لحياة من كانوا يؤمنون بسرابيس ونهب السرابيوم. وإذا ما كان

الأمر كذلك فقد بدا وكأننا، بشكل أو بآخر، شهود عيان على المشهد الذي تمثل في الإمساك بمن كانوا يؤمنون بسرابيس. كما إن الانفعال ترتفع حرارته وفظاعته عندما نرى أن ديانة سرابيس، بتبسيط شديد لعلم اللاهوت الوطني، هي التي فتحت الطريق أمام المسيحية. ويمكن لنا أن نؤكد ذلك دون أن نقع في أي تناقض، وذلك بأنه لو لم تتنصر المسيحية لكان للكاهن الأعظم لمعبد سرابيس مقره أمام Quirinal(٣٧٤).

هذه الرواية المثيرة للعجب، والتي كانت ضحية للتابوه المتفق عليه والذي ما زال يخيم على أمر تدمير السرابيوم، تبدو وكأنها نشأت في مشهد كان مدفونًا طوال ستة عشر قرنًا من الزمان، وأخذت تظهر من جديد بكل ما فيها من فظاعة، وتصيح بأعلى صوتها معلنة حقيقة ما جرى. هذه الرواية التي تم تجاهلها وتحييدها والصمت عنها من قبل كل هؤلاء الذين يدرسون الإسكندرية، تبدو وكأنه عندما يتم تجاهلها سوف تخدم في شيء ما، كما إنها تحكي لنا شيئًا حقيقيا مثيرًا للألم، وهو أن الذين شاركوا فيه بالفعل والخداع والغمط، وخلقوا هذا التابوه على مدار القرون كانوا يريدون أن يحجبوا عنا جزءًا من التاريخ. فالمشهد المأساوي الذي تم العثور عليه دون أن يمسه أحد وما شهدته عيون الآثاريين خلال القرن التاسع عشر الميلادي إنما يعكس لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن هذا المكان الرهيب شهد النهاية المأساوية للثقافة الفرعونية التي استمرت آلاف السنين.

ومن خلال ما اكتشفناه عن طريق هذه الشهادة الآثارية فقد تحول كل شيء في السرابيوم إلى أنقاض ورماد، وما زالت هناك حتى يومنا هذا بعض جزازات من الأعمدة المحروقة والتي تهدمت، وهذه كلها شواهد على أكبر كارثة في العالم القديم، وعلى مذبحة لا مثيل لها. وبعد الهجوم على المكتبة الصغرى نشب بها

(374) Botri, "Fouilles à la colonne théodosienne, 1896", pgs. 78-79, Société Archaeologique d'Ale-xandrie, Alexandrie, 1897.

الحريق الذي أتى عليها، وأصبحت كُوَّاتها تحمل بصمات الحريق على مدار القرون وكأنها شاهد صامت على ما حدث في الأزمنة الماضية؛ وبعد الهجوم نجد بعض كتل الجدران التي سقطت وبعض القطع التي ما زالت تحمل درجة عالية من الرطوبة والجثث والأشلاء والأعمدة التي تحيط بكل هذا وكلها تعتبر بمثابة شاهد على المعبد المقدس، وتطاير رماد لفائف البردي بكثافة وحملتها الرياح في شكل زوبعات صغيرة؛ وهناك الآلاف الأخرى من هذه اللفائف التي احترقت وشكلت طبقة التصقت بالحوائط.

الشيء الغريب هو أن بوتي أدرك أنه كان يتحدث عن هدم المكتبة الصغرى، وهذا موضوع شديد الحساسية في مصر على عصره منوهًا إلى أنه ربما كان المعبد قد زال قبل ذلك الوقت بعدة سنوات. لكن حيلته تسقط بوضوح، إذ من البدهي أنه يحاول الخلط بين هدم مكتبة أنطاكية على يد خوبيانو عام ٣٦٤م بهدم السرابيوم(٣٧٥) عام ٣٩١م وهذه زلة لا يتصورها أحد وقع فيها مؤرخ له وزنه مثل هذا الرجل؛ وحتى يكون هناك معادل لصمته اقتصر بوتي على وصف ما شاهده كان ذلك كافيًا، فما شاهده كان آثار مذبحة عنيفة وتدمير بشع قضى على السرابيوم بإضرام النار وإسالة الدماء. ولم يكن الرجل في حاجة إلى إضافة المزيد.

قراءات وروايات أخرى مثيرة:

أول هذه الروايات هي التي قدمها لنا الإنجليزي إ. جيبون(٣٧٦) حيث ابتكر عام ١٧٧٦م قصة وواقعة تاريخية دون أن يكون لها أي أساس اللهم إلا التقليل من حدة المأساة، وقال مقولته هذه قبل سنوات طوال من الاكتشافات الآثارية لبوتي:

(375) Botei, "Fouilles 1896", pgs. 132-133,138-141; Butler, "TbeArab Conquest...", pg. 414.

(376) Gibbon, "The History of the Decline and Fali ofthe Roman Empire", "Historia de Ia Decadência y Caída dei Império Romano", III. 28, "Destrucción dei Paganismo", London, 1776-1787

"إن الوثنيين أصحاب الحظ التعس، الذين ثاروا عندما علموا بأمر مرسوم تيودوسيو الأول انسحبوا بسرعة وهدوء واختفوا عن الأنظار هربًا من نقمة وغضب أعدائهم (من المسيحيين). وأخذ تيوفيلو يهدم معبد سرابيس دون أن يواجه صعوبات كثيرة...".

أما مكتبة الإسكندرية العامرة فقد تعرضت للنهب أو التدمير... لكن إبداعات العبقريات القديمة التي زال الكثير منها، وإلى الأبد، فربما تكون قد نجت من عملية تحطيم الأصنام وذلك لتكون بمثابة أداة التسلية وتدريب الأجيال اللاحقة...". واستنادًا إلى هذه الكلمات يُنسب إلى جيبو في ابتكاره بأن الرواية القائلة بأن المسيحيين هم الذين قاموا بتدمير المكتبة الصغرى عندما قاموا بتدمير ونهب السرابيوم ليس لها سند تاريخي.

هناك رواية أخرى، أكثر هدوءًا من السابقة، تتعلق بالأحداث المذكورة، نجدها من خلال خ. ماتر[٣٧٧]، الذي أكد عام ١٨٤٠م "أنه لكي يتم التدمير الكامل لمعبد السرابيوم كانت ملحقاته هي الأخرى عُرضة لنفس المصير وهي عبارة عن الصحون والبوائك والمقارّ والمكتبة التي ظلت هناك على مدى ما يزيد على ستة قرون...". وخرج بخلاصة تقول بأن هدم هذه الملحقات كان ضئيلاً وسرعان ما جرى ترميمها وبالتالي عاد السرابيوم إلى سابق بهائه، مثلما نجد في المتحف القديم "وبالتالي فعندما وصل العرب كانت مازالت هناك مكتبة عامرة".

يقص علينا أيضًا رجل الدين خ. ماسون نيل[٣٧٨]، في عام ١٨٤٧م، أن المتمردين هجروا السرابيوم قبل أن يستولي عليه الأسقف تيوفيلو وأتباعه؛

---

(377) Matter, "Histotre de l'Ecole d'AUxandrie, compares aux principales écoles contempomhif", "Historia de Ia Escuela de Alejandría, comparada con Ias principales escuelas contemporáneas"- , t. I, pg. 321, 2da, Ed., Paris, 1840-44.

(378) Mason Neale, "History ofthe Holy Eastern Cburch, the Patriarchate of Alexandria", -"Historia de Ia, Santa Iglesia Oriental, elPatriarcado de Alejandría-, pg. 212, Joseph Masters, London, 1847.

وأضاف المؤلف "من المؤكد أن انتصار المسيحيين لم يكن مخضبًا بالدماء من أي جانب، فقد سُمِحَ لإيلاديو، كاهن الإله جوبتر، وهو الرجل الذي اغتال تسعة أشخاص (مسيحيين) أثناء تلك الانتفاضة، قد سُمِحَ له بالفرار إلى دمشق...".

نجد آخرين من محبي إضفاء اللمسات الجميلة على التاريخ وقد جرأوا على أن يقصوا علينا أن المهاجمين كانوا من الحكمة بمكان بحيث أنهم لم يقتلوا أحدًا، ووصل بهم الأمر إلى تفكيك جزء من المعبد ليقيموا بالكتل الحجرية التي حصلوا عليها كنيسة لهم فوق المكان. ومن جانبه نجد أ. بتلر[٣٧٩] يؤكد بدوره، عام ١٩٠٢م، بعد أن تناسى الاكتشافات الآثارية لمعاصره بوتي، أن "مرسوم ثيودوسيو... قُرِئَ بصوت عال... وبينما هرب أتباع الديانة المصرية القديمة قام المسيحيون وعلى رأسهم أسقفهم تيوفيلو بهدم وتفكيك معبد سرابيس. وقد حدث هذا خلال عام ٣٩١م، وهو حدث من الأحداث التي لا جدال حولها". الشيء الغريب هنا هو الصمت الكامل عن الاكتشافات الرهيبة التي قام بها بوتي أثناء الحفائر التي جرت قبل ذلك بست سنوات والتي تدحض مقولات معاصرة.

وتطالعنا رواية أخرى هي لـ: أ.م. زغيب[٣٨٠] عام ١٩١٠م يقول فيها إن المخطوطات التي تم إنقاذها جرى تجميعها من جديد في السرابيوم ابتداءً من القرن الخامس الميلادي، وجاء هذا في "بائكة كبرى لها صالات مخصصة للقراءة، حيث جرى تكوين مكتبة مهمة مكونة مما بقي من المكتبات القديمة، التي أمكن العثور فيها على مخطوطات قديمة استطاع مسيحيو الإسكندرية جمعها".

---

(379) Butler, "The Arab conquest of Egypt and the last 30 years ofRoman dominion", "La conquista árabe de Egipto y los 30 últimas afias de domínio romano"-, pg. 413, The Clarendon Piw, Oxford, 1902.

(380) Zogheb, "Etudes sur VAncienne Alexandrie", "Estúdios sobre Ia Antigua Archaeol, d'Alexandrie, pgs. 151-174, Paris, 1910.

وفي عام ١٩٣٢م يقدم إتش. منير[٣٨١] رواية غير متسقة يشير فيها إلى ما تعرض له تمثال نحته "بريكس Bryaxis" من عدوان المسيحيين؛ واستطاع كافة المحاصرين من الوثنيين الفرار دون أن يلحقهم أذى ولم تتعرض المعابد للتدمير. ويشير إلى "أ، تيودوسيو... أرسل بـ Cynegius إلى مصر وذلك لتنفيذ الأوامر الصادرة بالتخلص من العبادة الوثنية... وأسفرت استفزازات البطريارك السكندري تيوفيلو عن اندلاع انتفاضة كبرى؛ وهنا نجد أن البطريارك تزعم هذه المجموعة من المسيحيين وهاجم المعبد السكندري الشهير. لكن الوثنيين، تحت إمرة الفيلسوف أويلمبيو، استطاعوا الهرب دون مضايقات، واحترم تيوفيلو المعبد الذي تهدم وغير من الملحقات، وسعد بأنه حطم رمز الإله سرابيس التمثال الذي يعتبر عملاً من الأعمال الرائعة للنحات بريكس وأمر بأن تعرض بقايا التمثال في المدينة...".

لم يكن تدمير السرابيوم، عام ٣٨٩م، إلا مرحلة أو فصلاً آخر من فصول صراع المسيحية مع الوثنية، لكن الحدث نفسه كان له صدى كبير نظرًا لمشاركة البطريارك تيوفيلو الرجل الذي أثار هذه الأحداث بالتوافق مع والي مصر إيفاجريو، استنادًا إلى المرسوم الإمبراطوري لتيودوسيو، وهذه صورة لما رواه الكثير من الكُتّاب المعاصرين للحدث. وفوق الأطلال أقام تيوفيلو كنيستين... وهناك دارت معركة كبرى وذات دلالة بالغة بين الوثنية والمسيحية".

وفي عام ٢٠٠٦م نجد ج. بولود[٣٨٢] يؤيد الرواية أو الرأي الذي قال به منير حول الهجوم على السرابيوم، وأضاف، بشأن تدمير المكتبة الصغرى، إضافة تتسم

(381) Munier, "L'Egypte byzantine, de Dioclecien á Ia Conquete rabe", -"Egipto bizantino, de Diocleciano a Ia Conquista rabe"-, pg. 36, 37, en Zaky, "Kesumen de Ia Historia de Egipto", l IFAOf Caire, 1932.

(382) Pollaud y H. Reid, "The Rise and Fali of Alexandria: Birthpiace ofthe Modern MintP, -"El Surgimiento y Ia Caída de Alejandría: El Lugar de Natitniento de Ia. Mente Moderna'-, pgs. 264-265, Viking Penguin Ed,, New York, 2006.

بالغموض: "يمكن أن يكون قد تم نقل مجموعات الكتب التي كانت في المكتبة قبل ذلك، ولو كان الأمر كذلك فلا نستطيع تأكيده لعدم توفر الأدلة على الوضع الذي آلت إليه؛ فكل ما تتضمنه لفائف البردي... لم يكن له محل من الإعراب في الإسكندرية المسيحية الجديدة... ونعتقد أن مكتبة السرابيوم جرى هدمها. غير أن الأمر المؤكد هو أن المخطوطات كانت لا تزال هناك أو أنه جرى حفظها في مكان آخر، ولم يجر الحديث مرة أخرى عن المكتبة الصغرى".

المدرسة الثانية للأفلاطونية الجديدة واغتيال هيباتيا:

رغم كل هذا لم يتمكن الأباطرة من اجتثاث جذور الفكر الوثني رغم قوة ضغط المسيحيين، فقد ظلت مستمرة عملية تعليم الفلسفة والأدب الوثنيين، والشيء نفسه نجد في مدرسة الأفلاطونية الجديدة في أثينا المنافس الثقافي للإسكندرية، واستمر هذا طوال القرن الخامس الميلادي، دون أن تتعرض هذه الدراسات لتهديد كبير رغم ما حدث من محرقة لبعض كتب الفلسفة الأفلاطونية الجديدة. ويؤكد Majecherek أنه "خلال العصر القديم المتأخر... لم يطرأ أي تعديل يذكر على طبيعة التعليم العالي آنذاك، فقد ظل الطلاب يقرأون هوميروس وشيشرون، إضافةً إلى الإنجيل، وظلت دروس البلاغة في موضعها المتميز ضمن العلوم التربوية"(٣٨٣).

بعد الهجوم المسيحي على المتحف، نجت بعض المدارس من هذا المصير في الإسكندرية، وهي مدارس جرى إعادة بنائها بعد المذبحة وكانت مجاورة لأطلال المكان، في بيت خاص، مثلما كانت العادة المتبعة خلال العصر القديم المتأخر(٣٨٤)؛ وعلى هذا فإن أميانو، عندما كتب عام ٣٩٢م، أكد "أنه خلال تلك الأيام كانت

(383) Majcherek, "Academic Life of Late Antique Alexandria", -"Vida Académica en la Antígua Alt-jandría Tardia"-, pg. 195, en El-Abbadi y otr. , "Qué le f aso Biblíot. Alejandria", Brill, 20QH.

(384) Eunapio de Sardes, "Vitae Soph.", VI.

الدراسة تتم في عدة أفرع معرفية ولم تستأصل من المدينة... فقد كان هناك الأطباء الذين عندما يؤكدون أنهم درسوا في الإسكندرية يتم التعاقد معهم على الفور(٣٨٥).

نعرف أن الفيلسوفة هيباتيا (الفلسفة الأفلاطونية الجديدة) كانت تقوم بالتدريس في مدرستها الخاصة بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة والتي توجد في منزلها هي؛ وكان ذلك في نهاية الثمانينيات من القرن الرابع الميلادي، أي قبل هدم السرابيوم؛ نعرف أيضًا أنها واصلت التدريس فور القضاء على المعبد، الأمر الذي يعني أن هذه المرأة الشجاعة استمرت في مهتمها في التدريس في المنزل رغم الخطر المحدق ورغم أن والدها وأصدقاءه قد هربوا أو قتلهم المسيحيون، وكان هدفها الإبقاء على جذوة الثقافة القديمة مضاءة في الإسكندرية.

يقول م. ديسلسكا(٣٨٦) عن هيباتيا ووالدها Theon: "إن انتصارها... كان محاولتها الإبقاء على الموروث السكندري في مجال الرياضيات وعلم الفلك واستمراره حيًا. وخلال فترة تدمير السرابيوم وإغلاق المتحف (الذي ربما كان مرتبطًا بما حدث من تدمير للمعبد السكندري الكبير)، تولى كل من الأب والابنة تأييد الفكرة القائلة بأن الإبقاء على الموروث العلمي والثقافي للهلنستية هو واحدة من المهام الأساسية التي يجب عليهما القيام بها...".

نعرف أيضًا أن "سينسيو دي سيرني S. de Cirene"، أحد تلاميذ هيباتيا كان في الإسكندرية خلال الفترة من ٣٩٠ حتى ٣٩٣م، والفترة من ٣٩٥ - ٣٩٦م وقام بالتدريس مع إيباتيا من ٣٩٢ حتى ٣٩٥م(٣٨٧)، ومعنى هذا أنه قام بالتعاون مع

(385) Amiano, "Rerum Gestamm", XXII, 16, 17-18.

(386) Dzielska, "Learned Women in the Alexandrian Scholarship and Society of Late Hellenism",- "Mujeres Ilustradas en Ias Escuelas Alejandrinasy Ia Sociedad del Helenismo Tardio'", pg. 132, en " Qué lê sucedia Bibi Alex.S, Brill, 2008.

(387) Blázquez, J. M., "Sinesio de drene, intelectual. La escuela de Hypatia en Alejandria", pg. 404, Gerión, 22-1, 2004.

أستاذته بالتدريس بعد تدمير السرابيوم مباشرة. وخلال فترة زمنية قصيرة، واصل علماء آخرون الطريق الذي رسمته، وقاموا بالتجمع مرة أخرى في متحف صغير، حيث أنشأوا معبدًا ـ مجددًا ـ لعبادة Musas واستطاعوا أن يجمعوا هناك المدارس الباقية المتخصصة في الفلسفة أو الطب. إننا أمام متحف جديد أعيد بناؤه بعد التدمير الذي حدث، وهو متحف صغير لكنه عازم ومصمم على ألا تغرب شمس الفكر القديم، في صرارع مرير مع المسيحية التي انتصرت.

وعلى أية حال، فقد أقاموا ذلك بسرعة، ففي بداية القرن الخامس، نجد أن سينسيو، التلميذ الذي كان يكتب الرسائل إلى هيباتيا[٣٨٨] يطلب منها نصائحها ويرسل من خلالها بتحياته لزملائه القدامى في قاعة الدرس، ويصف لنا المتحف الذي تم تجديده وإضافة تماثيل للفلاسفة باعتبار ذلك نوعًا من إدخال الأُبهة على المكان؛ وربما كان هذا المعبد هو الثالث من نوعه في الإسكندرية لكنه هذه المرة كان وراءه المبادرة الخاصة التي جاءت من لدن علماء كان لديهم شغف.

لم يوضح سينسيو أين أقيم ذلك المتحف، لكن من المؤكد أنه لم يكن في السرابيوم الذي احترق وتهدم، ولم يكن في مكتبة الحي الراقي Bruchion، التي كانت بحرًا من الأطلال. والأمر نفسه يصدق على كوم الدكة، أي بجوار الأوديون، مثلما يقول البعض ذلك أن المقارّ المسيحية المكتشفة حديثًا والتي سوف نتحدث عنها فيما بعد، ترجع إلى نهاية القرن الخامس الميلادي وبداية القرن السادس، ولم يكن بها أي مبنى به تماثيل وغرف. أضف إلى ما سبق أن سينسيو لا يتحدث عن أي مسرح جرى إصلاحه، وعلى أية حال فإن العلماء الوثنيين لا يتصور أنهم هدموا مسرحًا وهو العنصر الرئيسي لثقافتهم وممارسة أنشطتهم.

استقر العلماء السكندريون في المكان الذي كانت فيه المدينة في القطاع العلوي، أي الإسكندرية الرومانية والبيزنطية وهو مكان يمثل المدينة الكبرى طبقًا

(388) Sinesio, "Epistolas".

لتيودوريتو[389]. وقاموا بتزيين مقرهم بالتماثيل التي تمكنوا من العثور عليها والتي تمثل الفلاسفة الذين كانوا يحبونهم، وكانت تماثيل ملقاة في الشوارع ومحطمة أو بيعت على أساس أنها أعمال فنية حيث كانت مثل هذه التجارة رائجة، وقام على أمرها المسيحيون بما استولوا عليه من المعابد القديمة وزينوا بها منازلهم.

في هذا المبنى الخاص بالمتحف الذي ولد من جديد يمكن القول بوجود المدرسة الثانية للفلسفة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية، والتي أسسها أوليمبيو دورو العجوز[390]، وهو فيلسوف أرسطي وكيميائي مصري نعرف عنه أنه كان معلمًا لـ"بروكلو Proclo". وكان لهذا المتحف مكتبته ومن المؤكد أنها كانت شديدة التخصص تضم كافة المخطوطات والمذكرات التي كانت تدون أثناء الدروس وتركها المعلمون والتلاميذ من فلاسفة الأفلاطونية الجديدة في مكتباتهم الخاصة. وبعد أن زالت المكتبة الملكية الأخيرة وهي مكتبة السرابيوم نجد أن مكتبة هذا المتحف الثالث ربما كانت الأكثر أهمية في الإسكندرية الوثنية خلال القرن الخامس الميلادي، وزودت المدرسة الأفلاطونية الجديدة الثانية بالإسكندرية بنسخ من مخطوطاتها، وكانت هذه الأخيرة من تلك الأماكن التي يؤمها الكثير من الفلاسفة والطلاب في ذلك الأفول الرائع الذي عاشته المعارف الوثنية.

ربما كان من الناحية المالية تابعًا لبلدية الإسكندرية التي ظلت على احترامها وتقديرها الشديدين لهؤلاء العلماء وكذا إسهام تلاميذ المدرسة. أضف إلى ما سبق أن وجود "نيمسيو Nemesio" وكذا المسيحي سينسيو، الذي بدّل دينه، إنما يؤكد أنه منذ البداية كان يجتمع في هذا المكان وفي قاعة الدرس كل من الوثنيين

(389) Teodoreco, "Historia Eclesiástica", I, 1

(390) Olimpiodoro el Viejo (c. 390-400 d. C-).

والمسيحيين، وكانت العلاقات فيما بينهما يسودها التوتر أحيانًا وهذا انعكاس للصراعات السياسية التي كانت سائدة آنذاك.

استمرت هذه المدرسة الأفلاطونية الجديدة تحت إمرة الفيلسوفة والشهيدة هيباتيا[391] التي ولدت في الإسكندرية، وهي ابنة آخر عضو من الأعضاء النشطين في المتحف الروماني، وهو عالم الفلك والرياضيات السكندري تيون[392]، الرجل الذي اضطر للهرب إلى القسطنطينية عندما قام المسيحيون بتدمير السرابيوم. كانت هيباتيا امرأة غير عادية وواحدة من أتباع الفلسفة الأفلاطونية الجديدة تتسم بألمعيتها، كما كانت عالمة رياضيات وعالمة فلك وخبيرة في السحر. حازت شهرة واسعة بين الأوساط الاجتماعية الرفيعة في الإسكندرية وكافة أنحاء الإمبراطورية؛ مارست بعض النشاط السياسي[393]، وحاضرت في الميادين العامة "وسط المدينة"[394]، ومن هنا كانت تحظى باحترام ومعرفة الشعب السكندري لها. ويرى "داماسيو Damascio" أن المدينة بكاملها كانت تحبها وتقدرها تقديرًا شديدًا[395]. هي إذن امرأة حرة ومثقفة وجميلة وغير عادية، وبطلة شعبية.

اشتملت دروسها على تعاليم أفلاطون وأرسطو وبلوتينيو وبورفيريو وجامبليكو؛ وكانت تعتبر آخر مديرة لهذا المتحف الثالث في الإسكندرية، رغم استمرارية مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية بعد ذلك لمدة طويلة. كانت مدرسة تجمع بين الأشتات بها مجموعة منتقاة من المبتدئين يتلقون سرًا دروسًا في الهندسة المقدسة وممارسة السحر والتنجيم والفلك السري. وفي إحدى رسائلها إلى "إيركوليانو" قال لها سينسيو: "كان قدري وقدرك دراسة موضوعات رائعة

(391) Hypatia (370-415 d. C).

(392) Theón (c. 364-380 d. C.).

(393) Socrates, "Hist. Eclc", VII. 15.

(394) Damascio, PH, fr. 43 A.

(395) Damascio, PH, 43 E, p. 130.

كان مجرد ذكر اسمها يوحي باستحالة تحققها"[٣٩٦]، في رسالته أيضًا بعنوان "حول القدر" أوضح أنه بدأ مع إيباتيا في طريق العلوم السرية التي تتولى جوانب منها تفسير الأحلام والتكهن بالغيب والعرافة بالماء.

غير أن هيباتيا كانت تعي كل هذا، تهتم بالفلسفة، فهي الفيلسوفة كما أطلق عليها والدها، وكانت ترتدي العباءة البيضاء للفلاسفة؛ أضف إلى ذلك تعمقها في علم الرياضيات وعلم الفلك، لدرجة تجاوزت ما كان عليها والدها من علم، وهي التي شاركته في إصدار التعليقات على بطليموس وغيره من كبار العلماء. كانت قادرة على ابتكار أجهزة علمية معقدة مثل الأسطرلاب وجهاز قياس الرطوبة الجوية.

رأينا إذن أن هيباتيا كانت تلقي دروسًا في منزلها، حتى قبل أن يتم إعادة بناء المتحف، وكان يفد إليها الكثير من الطلاب سواء كانوا من الوثنيين أو اليهود أو المسيحيين؛ وفي هذا السياق نجد سينسيو يذكر الكثير منهم في "رسائله"، ومن بينهم الحاكم حزقيو العبري وأخيه "إينوبتيو Enoptio"، والحاكم الروماني "أورستس Orestes" الرجل الذي أشيع عنه أنه كان عشيق هيباتيا. وطالت تلك الشائعات أيضًا إيركوليانو الذي مكث في الإسكندرية خلال الفترة من ٣٩٣ حتى ٣٩٩م وكان صديقًا حميمًا كما كان زميل دراسة لسنيسيو في قاعات الدرس عند هيباتيا. ومن بين هؤلاء أيضًا نذكر "إيسيون Ision" وسير وهما صديقا كل من سينسيو وإيركولينو.

وعندما نتأمل وجود الطلاب المسيحيين نجد من بينهم أتاناسيو وجايو Gaio وتيودوسيو و"تيوتكنو Teotecno"، الذي ربما كان عالم لاهوت من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، وهناك بدرو صديق سينسيو. وربما درس مع كل هؤلاء نيمسيو[٣٩٧] وهو واحد من أباء الكنيسة اليونانية التي كانت تتبع منهجًا توفيقيًا

(396) Sinesio, "Epistola 137".

(397) Ncmesio (c. 400 d. C.).

يسير على الأفلاطونية الجديدة المسيحية. كان سينسيو يؤكد في "رسالة"[٣٩٨] أن كافة تلاميذ هيباتيا كان يجب عليهم أن يشكلوا جماعة وأن يتعاملوا فيما بينهم كأنهم أبناء عائلة واحدة الأمر الذي يعتبر جوهريا لفهم العلاقات الأخوية التي كانت تربط فلاسفة الأفلاطونية الجديدة بعضهم بعضًا في الإسكندرية سواء كانوا من المدافعين عن الوثنية أو المذهب النوفيقي المسيحي.

لكن التلميذ المفضل عند هيباتيا كان ذلك المدعو "سينسيو دي سيرن S. De Cirene"[٣٩٩] وهو أحد المثقفين والأرستقراطيين من الغنوصيين وأحد أتباع الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، اعتنق المسيحية وتدرج في المناصب الكهنوتية حتى أصبح أسقفًا عام ٤١٠م؛ عاش في الإسكندرية خلال تلك السنوات الدرامية، يتعاون مع هيباتيا في إلقاء الدروس، وكان يُكِن لها حبًا كبيرًا، وظل في هذا من عام ٣٩٣ حتى ٣٩٥م؛ الأمر الذي يعني أن سينسيو ربما كان في الإسكندرية عام الكارثة التي حلت بالسرابيوم، ثم استمرت إقامته خلال السنوات التالية وكان من المؤكد أنه يقوم بحماية أصدقائه الوثنيين الذين تواروا عن الأنظار. هناك احتمال بأنه ساعد هيباتيا في استئناف دروسها. والشيء الغريب أن سينسيو، وهو الرجل العاشق للإسكندرية ونافذ البصيرة بشأن ما حوله، لم يترك أية رسالة يقص علينا فيها تفصايل المأساة ودلالاتها. وربما كان ذلك لأنه كان مسيحيًا مرتدًا، أو أنه صمت عن ذكر هذه الواقعة حتى لا يستثير مشاعر العداء له من قبل زميله في علم اللاهوت تيوفيلو فقد كان الأول يطلب من الثاني بعض الأمور لأصدقائه.

ومع هذا فقد ورد في بعض النصوص التي تركها لنا نقده "لهؤلاء الذين يضعون القبعات السوداء - أي الرهبان - (الرسالة رقم ١٥٤، ديون ٤ - ١١) ويسم الرهبان بأنهم برابرة متعصبون من صناع السلال - وهذه الصفة كانت تعني في

(398) Sinesio de Cirene, "Carta a Hesiquio", 93, en Blázquez Martínez, "Sinesio de drene", pg. 415.

(399) Sinesio de Cirene (370-413 d. C.).

مصر أنهم من الفلاحين - وهم الذين يدمرون الثقافة ويكرهون الهلنستية"(٤٠٠).
وهذا يضفي المزيد من الوضوح على حالة الصمت المفترضة التي عليها سينسيو؛ ذلك الغضب الذي يصبه سينسيو على رأس الرهبان الذين يرتدون القبعات السوداء، وهم الذين قاموا بتدمير معبد السرابيوم أمام ناظريه، إنما يبرهن على أنه ربما كانت هناك رسالة تتحدث بوضوح عن الكارثة وربما اختفت هذه الرسالة.

كان الأسقف تيوفيلو مشغولاً بمتابعة هدم المعابد الوثنية مثل معبد السرابيوم العظيم دي كانوب(٤٠١) ومطاردة المسيحيين الذين يتبعون مذهب الأفلاطونية الجديدة، وبالتالي فقد ترك هيباتيا في سلام، في حماية سينسيو، وبالتالي واصلت إلقاء دروسها حتى عام ٤١٢م. وكان سينسيو يرسل إليها "بالرسائل"(٤٠٢) عن طريق "سيرني Cirene" وذلك حتى تقرأها أستاذته هيباتيا، ويطلب منها الرأي والموافقة قبل أن ينشر رسائله، وينوه لها بأنه كتب بعض النصوص في الفجر، مستلهمًا أحلامه في هذا؛ وفي نهاية حياتها زارها سينسيو كثيرًا فقد حل على الإسكندرية مرات عديدة خلال الفترة من ٤٠١ حتى ٤١٢م رغم أن الصداقة بينهما أصبها بعض الفتور.

لكن أعداء هيباتيا لم يرحموها، فبمجرد أن مات تيوفيلو تغيرت الأمور بشكل جذري، إذ تولى قيادة الكنيسة من بعده ابن أخيه وخليفته البطريارك س. ثيريلو(٤٠٣) الذي كان يختال في المدينة وبرفقته خمسمائة راهب، وهم الذين كانوا يعتبرون حرسه الشخصي، أُناس متعصبون للأسقف ويصعب السيطرة عليهم، وبالتالي سادت موجة من الرعب والخوف اجتاحت مصر؛ وخلال هذه الفترة جرى اغتيال هيباتيا اغتيالاً وحشيًا عام ٤١٥ م في الإسكندرية، طبقًا لما يرويه

---

(400) Dzielska, "Hypatia", pg. 61.

(401) Rufmo. "Historia Eclesiástica", XI, 26.

(402) Sinesio de Cirene, "Cartas a Hypatia".

(403) S. Cirilo (412-444 d. C.).

سقراط(٤٠٤) بجريمة أعلنها "داماسيو Damacio"(٤٠٥) الملقب بـ Suidas أو الأسقف القبطي خوان دي نيكيو(٤٠٦).

ويقص علينا "مالالاس Malalas" أن "سيرلو منح أهل الإسكندرية (ربما كان هذا قاصرًا على الرهبان) حرية التصرف بحق امرأة شهيرة ومحترمة وطاعنة في السن"(٤٠٧). ويلاحظ أن كافة هؤلاء الكُتّاب يروون كيف أن طغمة من المسيحيين المتعصبين وجدوها في فصول الدراسة أو في طريق عودتها إلى المنزل وهي تركب عربتها، فأخذوا يجرونها في الشوارع ويلحقون بها الأذى حتى داخل معبد قيصرون، وهناك نزعوا عنها ملابسها وهم يضربونها ويسبونها ويأخذون جزازات ذات حواف حادة من السيراميك والآجر، وأخذوا يقطعون بشرتها ويقتطعون أجزاء من لحمها وفقأوا عينيها(٤٠٨) وهي تحتضر، ثم أخذوا يقطعون أوصالها وهي مازالت حية وأخذوا يلقون بها في المحرقة.

كان لعملية اغتيال هذه التي كان مسئولاً عن التحريض عليها بشكل مباشر ومنذ البداية سيريلو، صدى فاضحًا في كافة أنحاء الإمبراطورية وتوافق ذلك مع الأوامر الإمبراطورية بمنع نشاط الجماعات والطوائف الدينية والكهنونية الوثنية. ويرى بعض المؤرخين أن هذه التعليمات كانت إيذانًا ببداية نهاية العصر القديم الذى كان يتسم بالعظمة؛ فيرى خ.م. بلاثكيث مارتنث "أن اغتيال هيباتيا هو واحدة من الجرائم المثيرة للاشتمئزاز التي ارتكبتها الكنيسة في العصر القديم المتأخر، وأن السكندريين ظلوا يذكرونها لفترة طويلة"(٤٠٩)؛ وبالنسبة

(404) Socrates, "Hist. Eccl.", VII, 15.

.(405) Suidas, "Hypatia"

(406) Juan de Nikiu, "Crón.", LXXXIII (LXXXIV), 87-100.

(407) Dzielska, "Hypatia", pg. 98.

(408) Damascio, PH, fr. 43 A.

(409) Damascio, PH, fr. 102, p. 81. 7-10 Zintzen, en Blázquez Martínez, "Sinesio de Cirene, inttlectual. La escuela de Hypatia en Alejctndría", pg. 419, "Gerión", 22, I, 2004.

لدثيلسكا "فقد قام الرهبان بقتل هيباتيا(٤١٠)" وهم أناس أطلق عليهم داماسيو "حيوانات وليسوا بشرًا"(٤١١).

وبعد هذه الأحداث "واصل السكندريون حضور دروس الفلسفة التي كان يلقيها إيسيدورو، وينادونه بالاستمرار رغم الرعب الذي كان يشعر به". ومن جرؤ على الخروج إلى الشارع كان صديق إيسيدورو وابن صاحب المزرعة (فقرة ٣٤ ص ٣٣ Zintzen)، ومن هنا نجد أن الذين خلفوا هيباتيا أبعدوا أنفسهم عن السياسة، وتقوقعوا على إعطاء الدروس الخاصة في الفلسفة وهم في منازلهم"(٤١٢).

ويرى ديثلسكا "أنه ليس من المستغرب أن تكون المصادر التي تتحدث عن هيباتيا قليلة... كما أنها مُقِلّة للغاية... والسبب الأكثر أهمية في هذا هو أنه خلال القرن الرابع الميلادي تمكن المؤرخون المسيحيون من الهيمنة على كل شيء، وربما كانوا يشعرون بالخجل من الكتابة عن المصير الفظيع الذي حاق بها (أي بهيباتيا). ورغم أن داماسيو قد عبر عن هذه الفظاعة، وهو واحد من المؤرخين القلائل الذين وصلت أعمالهم إلينا، فإن هناك آخرين (من الكُتّاب المسيحيين) من هؤلاء لم يميلوا إلى الحديث عن الماضي، وبالتحديد عن هذا الحدث المشئوم في تاريخ الإسكندرية وتاريخ الكنيسة السكندرية. لقد تمت حملة تعتيم لحماية المذنبين المرتبطين بالكنيسة الذين قاموا باغتيال شخصية شديدة الود مع المسيحيين. ونحن هنا نثور على هذا الصمت..."(٤١٣).

ـ أما سيريلو الذي أطلق عليه المسيحيون الأرثوذكس، بعد عملية الاغتيال المذكورة، لقب "تيوفيلو الجديد" ولأنه قام بتدمير كل ما بقي من مظاهر الوثنية في العاصمة المصرية(٤١٤) والرجل الذي ورث كل هذه الثروات التي حصل عليها

---

(410) Dzielska, "Hypatia", pg. 46.

(411) Damascio, P H, fr. 102.

(412) Dzielska, "Hypatia , pgs. 147-148, Nota 135.

(413) Dzielska, "Hypatia", pgs. 99-100.

(414) Juan de Nikiu, "Crón", LXXXIII (LXXXIV), 103.

عمه من العاصمة المصرية، فقد خطا خطوة أخرى وهي إغلاق المعابد اليهودية وطرد اليهود من الإسكندرية وكان ذلك تحت ذريعة أنهم كانوا يحضرون مشاهد مسرحية أيام الآحاد. وخلال الفترة من ٤٢٠ ـ ٤٣٠م كتب سيريلو نصًا محددًا مضادًا للوثنيين وضع له عنوانًا هو "ضد جوليانو"[٤١٥]، وصب جام غضبه على الفلاسفة الوثنيين من أتباع الأفلاطونية الجديدة من أعضاء المدرسة السكندرية. كان هناك هرقل السكندري[٤١٦] الذي كان يقوم بالتدريس لـ"تيوسيبيو Teosebio" وآخرين، وتوافق وجوده في المدرسة مع "بروكلو Proclo"، ثم هرب بعد ذلك إلى أثينا، سيرًا على ما فعل سيريانو السكندري[٤١٧] الرجل الذي أصبح معلم بروكلو في أثينا أيضًا ومدير لمدرسة أثينا.

بعد هذه الضربات القاتلة جرى هدم المعابد أو إغلاقها أو تحويلها، وتم منع ممارسة الطقوس التي كانت تُجرى بها، وبذلك نجد أنه ابتداءً من عام ٤٢٣م اختفى أي مظهر من مظاهر الوثنية في الشرق الأوسط. في تلك الآونة أصدر تيودوسيو الثاني[٤١٨] مرسومًا يقضي بتأسيس ما يسمى بالجامعة في القسطنطينية، وكان ذلك إعادة تأسس المدرسة المسيحية العليا في القسطنطينية مكان المدرسة الإمبراطورية على الطريقة المتبعة في بناء المتاحف الرومانية؛ وكانت الدراسة فيها باللغتين اليونانية واللاتينية، أما العلوم فهي البلاغة والقواعد والفلسفة والفقه.

لم يعد أحد يذكر المتحف بعد ذلك في الإسكندرية وكان ذلك ابتداء من بداية القرن الخامس الميلادي رغم أن بعض المدارس ظلت مفتوحة مثلما نراه في المدرسة الثانية للأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية. ومع هذا ورغم هذا

---

(415) Cirilo, "Contra Julianum".

(416) Hierocles de Alejandria (fl 420-430 d. C.).

(417) Siríano de Alejandria (fl c. 450 d. C).

(418)Teodosio II (408-450 d. C.).

الصمت نعرف أنه خلال القرن الخامس الميلادي كان فلاسفة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية على علاقات قوية بالمدرسة الموجودة في أثينا، وواصلت كلتا المدرستان حياتهما وسط هذا المدّ المسيحي. وانطلاقًا من لحظة معينة – إضافةً إلى عملية التبادل ـ نلاحظ وجود عملية نزوح حقيقي من الإسكندرية صوب أثينا، وكان النازحون هم فلاسفة الأفلاطونية الجديدة الذين لم يرجعوا بعد ذلك قط إلى العاصمة المصرية، فقد كان مد التشدد الديني المسيحي قويًا في مصر.

وعلى أية حال نجد أوليمبيا دورو العجوز يستأنف دروسه ويحاضر لبروكلو نحو عام ٤٣٠م، بعد اغتيال هيباتيا. كان بروكلو[٤١٩] أستاذًا في الفلسفة الأفلاطونية الجديدة ومن أتباع أفلوطين وقد تلقى دروسًا على يد عالم القواعد "أوريون Orion" وكان من أحد تلاميذه في الإسكندرية أمّونيو دي أرميا، وهيليو دورو، وهرقل السكندري؛ كان ذلك قبل عام ٤٣٠م وهو التاريخ الذي رحل فيه إلى اليونان وقام بإدارة مدرسة الأفلاطونية الجديدة في أثينا؛ كان أيضًا عضوًا في المدرسة السكندرية ومعاصرًا لهيباتيا وأسكيبيودوتو السكندري[٤٢٠]، تلميذ بروكلو وأستاذ إيسيدورو، المهتم بعلوم الطب والسحر وزعيم التوجهات العلمية التي كانت تسير عليها مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية.

يؤكد لنا ماجريك[٤٢١] "أنه مما لا شك فيه أن المدينة كانت تعيش ميلادًا جديدًا في مجال التعليم، بدأ مع نهاية القرن الخامس الميلادي... وأصبحت الإسكندرية ـ على شاكلة أثينا ـ المركز المهم في الحياة الأكاديمية خلال العصر القديم المتأخر؛ فهنا نرى أن الفيلسوف أرميا السكندري وأبناءه أمّونيو بن أرميا

---

(419) Proclo (412-485 d. C.).

(420) Asclepioctoto de Alejandría (fl 450 d. C.).

(421) Majcherek "Los Auditórios Romanos Tardios de Alejandría", "Alexandria., Auditoria of Kom El-Dikka , Warsaw, 2007.

وشقيقه هليودورو السكندري درسوا جميعًا في أثينا مع سيرنانو ورافقتهم في هذه الرحلة والدتهم أيديسا، التي كانت هي الأخرى فيلسوفة في الأفلاطونية الجديدة، وكانت مشهورة بجمالها وأعمالها الطيبة. كان أمّونيو دي أرميا[٤٢٢] أحد المعلقين على أرسطو، وكان تلميذًا لبروكلو وأستاذًا لفيلسوف وعالم رياضيات هو "إيوتيكيو Eutiqiuo"، وللطبيب "جيسيو Gesio"، ولعالم القواعد "حريوقراس Harpocras"، ولبعض الفلاسفة المسيحيين ومنهم سيمبلثيو وفيلوبونوس وأسكليبيو دي ترالس.

كانت هذه الأحداث المتواكبة من الهدم والمطاردة والاغتيالات في مصر ضربة قاتلة للثقافة الفرعونية التي كانت تعيش حالة انحطاط، فصممت للأبد خلال الفترة من ٣٩٤م، وهو تاريخ آخر نص هيروغليفي معروف، وبين عام ٤٥٢م، أي تاريخ آخر نص مكتوب الديموطيقية، وكلاهما كان في معبد إيزيس في فيلة. في الوقت ذاته نجد أن ما يسمى "ببيت الحياة" أو المكتبات المقدسة قد أغلقت وضعف وضع الكتبة والعلماء، وعاش الكثير منهم يمارسون عقائدهم سرا ويخفون ما بقي وزادوا بذلك من عدد هؤلاء الذين يبطنون ما لا يظهرون وهم الذين أكسبوا الإسكندرية شهرة في العصور القديمة المتأخرة في مجال العلوم الباطنية وجعلوا من مصر بلد السّحرة.

كان هؤلاء يقولون بأنهم على أطلال مجموعة من الكتب يطلق عليها "كتب توت"، أي هرمو الهلنستي، الذي تعود أصوله إلى ما قبل التاريخ؛ وكانوا من خلال هذه الكتب يقومون "بالاتصال بالموتى ويؤدون ما يريدون عن بعد". وقد وردت إشارات تتعلق بهم في كتاب "Corpus Hermeticum" للغنوصيين السكندرية، وهو الكتاب الذي يعتبر الدليل لكافة أفرع الأدب السري والكيمياء. أضف إلى هذا أن أعضاء جماعة غنوصية، وهي Lampetianos، التابعة لخوان دي أباميا

(422) Ammonio de Herraia (m. 517 d. C.).

جاءوا من دير القديس سمعان، في سوريا، لتلقي العلم على يد السحّرة في الإسكندرية.

وخلال القرن الخامس الميلادي نجد عالم القواعد - من أتباع الأفلاطونية الجديدة - وهو أورابولون(٤٢٣)، الذي كان أستاذًا في المتحف أو في أكاديمية الإسكندرية -طبقًا لإحدى البرديات - يكتب بالهيروغليفية(٤٢٤) حول معنى رموز هذه اللغة المصرية، ذلك أن عدد الكتبة الذين بمقدورهم قراءة النص أصبح في تناقص، كما أنه كان يشرح الأبعاد الصوفية لهذه الرموز. وخلال القرن المذكور نجد أبناءه أسكليبياد وإيرايسكو؛ فالأول مارس مهنة التعليم طوال حياته في الإسكندرية، وكان إيسيدورو من بين تلاميذه، كما كتب حول الديانة والآلهة المصرية ومصر في عصور ما قبل التاريخ. وهناك الابن الثاني، إيراسكو، المتصوف الوثني وأستاذ الفلسفة في الإسكندرية، وعندما مات ظهر لأخيه أو تمثل في صورة الإله ديونيس بابكو وقد غزا النور كافة أحشائه وطُبِعَ رفاته على الكفن الذي يلفه.

ميلاد الكنيسة القبطية:

كان لتدمير السرابيوم آثاره الفورية على "مدرسة طلبة العماد Didascalium" التي كانت ترتبط به ارتباطًا حميمًا، وكان اغتيال بعض الأساتذة والطلاب الوثنيين وهروب بعضهم، وتدمير قاعات المدرسة والمكتبة الرائعة يمثل ضربة قوية للأفلاطونية الجديدة المسيحية، لكن المدرسة قد أغلقت بعد هدم السرابيوم بوقت قصير وبعد وفاة المبجّل ديريمو عام ٣٩٩م؛ فقد أمر تيوفيلو بإغلاق "مدرسة اللاهوت" المسيحي في الإسكندرية ومعها المدرسة Didascalium في

(423) J. Masperó,"Horapolton et lafm du paganisme egyptien", -"egípcio", t. XI, pg. 163-195, IFAO, Galre, 1914.

(424) Horapolón, "Hieroglyphica" Horapolón y elfin.

إطار صراعه الأعمى، وكان السبب هو أن التوجهات الأفلاطونية الجديدة لهذه المدارس لم يخبُ أورها.

كما طارد تيوفيلو المسيحيون من أنصار الأفلاطونية الجديدة الذين كانوا لا يزالون على نهج أوريجينس وديديمو في المدرسة مع نهاية القرن الرابع الميلادي؛ وبعد إدانة مؤلفات ذلك العالم - أوريجينس عام ٤٠١م من خلال كتابه "ضد أوريجينس" وإغلاق المدرسة أخذ يطارد أنصاره من السكندريين من أمثال أمون، وديسقورو، وإيوسيبيو وإيوتيمو. وأثمر صراعه. ففي عام ٤١٢م، أي عندما توفى تيوفيلو كانت هناك عشرون كنيسة لها أسماء معروفة في الإسكندرية.

واصل سيريلو، خليفة تيوفيلو، الطريق في مطاردة المسيحيين من أنصار الأفلاطونية الجديدة؛ وفي عام ٤٣١م اتهم نسطور، بطريارك القسطنطينية بالهرطقة، لأنه كان يدافع عن فكرة أن المسيح كان إنسانًا وليس إلهًا متجسدًا. وبعد عام ٤٣٢م ظهر في الإسكندرية نسطور نفسه واتخذ طريقه إلى المنفى في الواحة الكبرى في الصحراء الليبية؛ وكان الأسقف رابولا دي إيديسا قد أدانه وأغلق "مدرسة تعليم اللاهوت" التابعة لإيديسا حيث كانت تجرية فيها ترجمة أعمال أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان إلى السريانية وجرى إصدار الأوامر بإحراق كافة الكتب الخاصة به وبأتباعه. وفي المنفى تمكن نسطور من نشر كتاب تحت اسم مستعار، عنوانه "بازار هيراكليراس"، وعندما اكتشف هذا الكتاب صدر الأمر بتحريم قراءته ونسخه والبحث عنه لإحراقه؛ وبعد ذلك بقليل صدر مرسوم آخر عن تيودوسيو الثاني، عام ٤٣٥م، يدين من خلاله كافة كتب نسطور على أساس أنها هرطقة، وجدد أيضًا أوامره بمنع التقدمات في المعابد الوثنية وأضاف "... هذا إذا ما كانت بعض هذه الممارسات موجودة حتى الآن".

وفي عام ٤٤٤م، بعد موت كل من تيوفيلو وسيرلو، وهما أكبر من طاردوا التوجهات الأفلاطونية الجديدة، سواء لأتباعها من المسيحيين أو الوثنيين، عادت المدرسة Didascalium لتفتح أبوابها سيرًا على نهج الجهود المبذولة لإعادة بناء

مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية وجاء ذلك على يد أصدقائها من الوثنيين. لكن الأمر لم يدم طويلاً.

ابتداءً من ذلك الوقت بدأت عملية الفلترة التي من خلالها جرى تدمير كافة مقومات الأدبيات الوثنية على يد المسيحيين، وكان ذلك في المحرقات الكبرى، واختفت فجأة وحلت محلها، اعتبارًا من القرن الخامس الأدبيات المسيحية ذات التوجه الواحد، وكأن الكُتّاب الوثنيين قد اختفوا من الوجود، لكنهم لحسن الحظ تركوا لنا بعض الآثار. جرى في بعض الأحيان الحيلولة دون قيام الناسخين بإعادة نسخ بعض الأصول وتم تشديد العقوبات على من يخالف ذلك، وبالتالي ضاعت النصوص والمؤلفات الوثنية بعد عدد قليل من الأجيال؛ هذا يمكن القول بأن الرقابة استطاعت أن تكمم أفواه كل هؤلاء الذين كانوا لا يزالون على عهدهم بالكتابة ضد الأوضاع الراهنة، أي ضد عالم يتسم بالقمعية والعنف.

عندما نريد ذكر أمثلة، نشير إلى أنه خلال الفترة من ٤٤٤م إلى ٤٤٩م كتب الأنبا ديسقورو السكندري(٤٢٥) رسالة إلى الإصلاحي شنودة الأتريبي، من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، في مصر العليا، مبلغًا إياه وكذا معه ثلاثة من الأساقفة، ضرورة الاستيلاء على كتب أحد الكهنة من الهراطقة(٤٢٦)؛ وعلى هذا، فطبقًا لإيباتيو(٤٢٧) "فإن صاحب السمعة السيئة شنودة... قام بسرقة وتدمير النصوص المقدسة التي كانت في حوزة أحد الوثنيين من عِليّة القوم في المنطقة، وطبق الأمر نفسه على مجموعة يشتبه في كونها من الغنوصيين المسيحيين الذين كانوا يجتمعون في معبد مهجور في بلدة قريبة".

---

(425) Dioscoro de Alejandría (444-454 d. C.).

(426) D.C. Sarefield, "Burnmg Knoiuledge": Studies of Bookbumingin Antient Rome", "Quemanda Sa-biduria": Estúdios sobre la Quema de Libros en Ia Antigua Roma"", Ohio State U., Hiscory, 2004.

(427) Hypatio, "Callinicus", -"Calinico"-, 43. 1-8.

وبالتوازي مع هذا، أصدر تيودوسيو الثاني أمرًا عام ٤٤٨م بإحراق الكتب المناهضة للمسيحيين التابعين لتيوفيلو، وجاء ذلك بعد أكثر من مائلة عام على محاولة قسطنطين الأول في هذا الصدد، لكنه لم ينجح كثيرًا، ذلك أن الناس استطاعوا إخفاء هذه المخطوطات وورثوها أبًا عن جد على أنها كنوز ثمينة. وبعد ذلك تعرضت بعض الكتب أيضًا للحرق وهي كتب "ثلسو Celso" وكتب الإمبراطور الوثني جوليانو، أو إيوتروبيو أو ليبانيو.

أدى هذا التراكم لقوة أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة للأرثوذكس المصريين إلى تمكّن البطريارك ديسقورو والسكندريين الأرثوذكس، في مجمع إيفيسو الذي عقد عام ٤٤٩م، من انتزاع الاعتراف بالمذهب القائل بالطبيعة الواحدة بأنه المذهب الرسمي للمسيحية. لكن ذلك لم يستمر، فقد أتى بعد ذلك الكثير من الصراعات والنقاش الحاد؛ وبعد ذلك بوقت قليل، أي عام ٤٥١م، وهو تاريخ انعقاد مجمع كالثدونيا، الذي دعا إليه الإمبراطور مارثيانو[٢٤٨] انقسمت الكنيسة الشرقية إلى الأبد بحيث أصبح هناك فريقان هما أتباع مذهب الطبيعة الواحدة والكالثدونيين، وكان ذلك إيذانًا بمولد الكنيسة القبطية المصرية.

أعلن المسيحيون المصريون والسوريون استقلالهم عن القسطنطينية واتخذوا منهجهم مذهب الطبيعة الواحدة وعارضوا السيطرة البيزنطية، الأمر الذي كان السبب في المزيد من أعمال القتل والفوضى، وفرض أسقفيات مختلفة وخلق عداوات، وهذه الأسقفيات هي الكنيسة القبطية الوطنية والمستقلة، وأسقفية الأقباط المصريين أو أهل البلاد، والأسقفية الملكانية، أي أسقفية البيزنطيين، وهم الكاثوليك الإمبراطوريين الذين حظوا بتأييد سلطة بيزنطة. أدى كل هذا إلى حدوث فتن عنيفة في الإسكندرية بين المسيحيين، حيث هرب في ذلك العام بعض الأساتذة خوفًا من غضب الغوغاء، ولجأوا إلى السرابيوم القديم، طبقًا

---

(428) Marciano (450-457 d. C).

لرواية إيفراجيو اللاهوتي[٤٢٩] ولا بد من أن هذا المهرب كان بين ما بقي من بوائك خارجية للمبنى القديم.

تحالف مارثيانو مع بابا روما للقضاء على التفوق السكندري، فطرد، في عام ٤٥١م، البطريارك ديسقورو السكندري القائل بمذهبه الطبيعة الواحدة، وأرسل بأسقف سكندري آخر مكانه هو بروتيريو[٤٣٠] على أساس أنه أول بطريارك ملكاني للإسكندرية، وكان يحرسه ألفان من الجنود. صدر أيضًا مرسوم عن مارثيانو، عام ٤٥٥م، بمنع الكتب التي تنتقد مجمع كالثدونيا وأمر بإحراق كافة الكتب التي تدافع عن مذهب الطبيعة الواحدة؛ لكن ذلك لم يجد نفعًا فازداد التباعد؛ واعتبارًا من ذلك الحين نجد أن كلاً من الكنيستين المصريتين لهما بطاركهما في الإسكندرية. وكانت الكراهية متبادلة.

حدث تناوب بينهما في المقر السكندري استمر حتى عام ٥٣٨م، وظلت هذه المشاحنات الطاحنة بين أتباع المذهبين على أشدها في الإسكندرية حتى مجيء العرب. وعندما مات مارثيانو، تم اغتيال بروتيريو في شوارع الإسكندرية لأنهم من المتعصبين لمذهب الطبيعة الواحدة؛ وكان ذلك خلال حكم الإمبراطور ليون الأول[٤٣١].

وفي نهاية المطاف أمر الأباطرة بإغلاق المدرسة Didascalium بشكل نهائي، فقد كانت مركزًا آخر من المراكز التابعة لمذهب الطبيعة الواحدة القريبة من الأفلاطونية الجديدة، وبذلك أعلان عن هزيمة هذا الاتجاه أمام الأرثوذكسية. والخطوة التالية هي نقل مدرسة علم اللاهوت السكندرية ومعها المكتبة الخاصة بها إلى القسطنطينية، وربما جاء ذلك مع نهاية النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي. ومحصلة هذا هو شعور المسيحيين السكندريين من أتباع الأفلاطونية

---

(429) Evragio, "Historia Ecclesiásticá",11, 5.

(430) Proterio (451-457 d. C.).

(431) Leónl (457-474 d. C).

الجديدة بأنهم لا يحظون بالحماية وبالتالي انخرط الكثير منهم سرية في صفوف المسيحيين ثم عاودوا الظهور من جديد في "مدرسة الإسكندرية" الوثنية، وكل هذا بحثًا عن الدفاع عن أفكارهم.

فلاسفة وثنيون وفيلو بنوي Philoponoi (أي محبي العمل):

شهد المشهد السكندري نشاطًا أكاديميًا مكثفًا خلال نهاية القرن الخامس، وصاحب ذلك توترات كبيرة ناجمة عن انتشار المسيحية، وفي عام ٤٨٢م أصدر الإمبراطور زينون[٤٣٢] نصًا أطلق عليه "Henoticon" وفرضه على الطوائف المسيحية المختلفة يحاول من خلاله التقريب بين المذهبين الملكاني ومذهب الطبيعة الواحدة، وهذا ما وافق عليه البطريارك بدرو الثالث مونجي[٤٣٣] وبذلك ساد السلام الاجتماعي المدينة لفترة من الزمن، بين المسيحيين حيث تتابع على رئاسة الكنيسة بطاركة من أتباع الطبيعة الواحدة دون غيرهم.

عندما ننتقل إلى المدرسة الأفلاطونية الجديدة نجد أن كلاً من أمّونيو دي أرميا وهليودورو أصبحا أساتذة الفلسفة في الإسكندرية وكان العميد هو دماسيو السوري[٤٣٤] الذي درس في الإسكندرية في مرحلة شبابه، كما كان أيضًا تلميذًا للعميد "ثيون Theon"[٤٣٥] وللفيلسوف إيسيدورو. كتب داماسيو "حياة إيسيدورو" وصف فيه الحياة الثقافية في العصر السكندري حيث عاش أحد عشر عامًا. وفي عام ٤٨٣م رحل إلى أثينا وكان آخر مدير لمدرسة الأفلاطونية الجديدة الأثينية. ويرى "ليروش Leroux" أن داماسيو قام قبل رحيله من الإسكندرية إلى أثينا بجمع عدد كبير من الكتب ذات التوجه الأفلاطوني والأفلاطونية الجديدة، وأطلق على هذه المجموعة "مجموعة الكتب الفلسفية"[٤٣٦] حيث كانت تضم

(432) Zenón (474-491 d. C.).

(433) Pedro III Monge (480-483 d. C.).

(434) Daraascio (n. c. 460-m. después 532 d. C.), "Vita Isiãori"

(435) Theón (fl.464d.C.).

(436) "Colección Filosófica".

نصوصًا لأفلاطون وأفلوطين وبروكلو وسمبليثيو وداماسيو. وقد قام هذا الأخير بانتقاء الكتب ونسخها في مكتبة مدرسة الأفلاطونية الجديدة السكندرية، وهي المدرسة الوحيدة التي كان يمكن لها - في نهاية القرن الخامس - أن تزوده بنسخ جيدة يحملها معه إلى أثينا، فقد كانت العدة الضرورية لدروسه التي يلقيها.

في عام ٤٨٥م درس مع أمّونيو دي أرميا المسيحي زكريا اللاهوتي أسقف "ميتلين Mitilene" الذي ألف "الأمّونيو" أو ما يسمى "خلق للعالم"[٤٣٧]، الأمر الذي يشير إلى أن علماء الأفلاطونية الجديدة من الوثنيين في الإسكندرية كانوا على عكس زملائهم في أثينا، أي كانوا يتخذون موقفًا تصالحيًا مع المسيحيين، سيرًا في هذا على النموذج الذي سارت عليه أول مدرسة للأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية. ووصل ذلك إلى أنه خلال نهاية القرن الخامس الميلادي تعرض أمّونيو دي أرميا لضغط شديد تمثل في مطاردة المسيحيين وبالتالي اتفق مع البطريارك أتاناسيو الثاني[٤٣٨] على أن تتخلى المدرسة الفلسفية الوليدة في الإسكندرية عن بعض أفكار الفلسفة الوثنية وهي الأفكار التي لا تتوافق مع الرمزية المسيحية. أدى هذا إلى إثارة غضب دماسيو وحدوث مواجهة بين المدرستين.

خلال تلك الفترة، ظهرت في الإسكندرية مجموعات من الغيورين من رجال اللاهوت أطلق عليهم Philoponoi (محبّو العمل) وهي عبارة عن مجموعات من المتطوعين العلمانيين القريبين من الكنيسة. أخذ هؤلاء يعملون على التوفيق بين زملائهم الوثنيين أو من يسمون Crypto-Paganos دون عنف وهي مجموعة لم تحسم أمرها بشأن الاختيار بين العالم القديم والعالم المسيحي؛ وقد عملت هذه المجموعات بشكل كبير على الانتزاع من هؤلاء الحائرين أحد أهم أسرارهم ألا

---

(437) Zacarias Scholasticus, "Ammonius", 92-99.

(438) Atanasio II (c. 489-496 d. C.).

وهو المكان الذي يخفون فيه الكتب المقدسة للتنجيم والسحر ليأخذوها بعد ذلك إلى المحرقة. كان زكريا شنودة يؤكد على أن هذه المجموعات المحبة للعمل كانت تتألف أساسًا من مجموعات من الطلاب الذين كان الوثنيون يخشونهم(٤٣٩). كانوا يمارسون أنشطة مثل العناية بالمرضى وكتابة الملاحظات في أثناء العظات أو الصلاة في الكنيسة كل ليلة. وتركزت هذه الأنشطة في منطقة جغرافية بعينها هي كوم الدكة.

كان زكريا اللاهوتي شديد القرب من هؤلاء "محبي العمل" عندما درس البلاغة عام ٤٨٥م في الإسكندرية برفقة صديقه الشاب الوثني الذي يدعى سيفيرو، الذي أصبح بعد ذلك أسقفًا من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة في أنطاكية(٤٤٠). وقد وصفهم زكريا في كتابه "حياة سيفيرو" حيث سرد الحياة الطلابية القائمة آنذاك في الإسكندرية، يقول: "كانوا يأتون لدراسة البلاغة وكانوا من شباب الأرستقراطية من كافة مدن الشرق"، وهذا ما قصه علينا ر. تيخا(٤٤١). وكان من بينهم من يسمون بمحبي العمل، وهم شباب كانوا يشعرون بالميل إلى الإيمان والعقائد المسيحية، كما كانوا يشكلون جزءًا مما يمكن أن يطلق عليه جماعات دينية ذات أهداف تعاونية... ورغم أن الكثيرين كانوا مجرد طلاب في علم اللاهوت فقد أظهروا حماسًا كبيرًا في جذب زملائهم الوثنيين إلى الديانة الجديدة...

كان الطلاب المسيحيون يستخدمون طرائق من بينها الوسائل العنيفة والردع... وفي هذا المناخ الجامعي والحضري الذي يمثل الخطوة الأخيرة في

---

(439) Zacarias Scholasticus, "Vita Severi", 24.

(440) Severo, obispo de Antioquía (512-518 d. C,).

(441)Teja, "La Quema de Libras de Magia como forma de represión religiosa y política, en el Império Cristiano", pgs. 73-99, en M. Marcos y R. Teja, "Tolerância e intolerância religiosa en el Mediterrâneo Antíguo: Temas y Problemas", E. Trotta, Bandue, II, 2008.

التحوّل إلى المسيحية كانت هناك خطوة أسبق وهي إحراق كتب السحر..."[442].
وعلى هذا استمر "الأبطال الرئيسيون في حربهم على السحر ولم تشارك فيه السلطة الإمبراطورية ولا الأساقفة بل الرهبان والطلاب. وكانت الأداة الأكثر أهمية في الاستخدام هي البحث عن الكتب المقدسة في السحر وإحراقها"[443].
وصاحب ذلك أيضًا الكشف عن الأماكن السرّية لممارسة الطقوس التي احتفظ بها بعض الوثنيين من خلال رشوة السلطات المحلية.

ولهذا السبب الأخير، نجد أن أعضاء المدرسة السكندرية كانوا يتمكنون من الصلاة في المعبد المقدس "لإيزيس ميديا" في مينوفيس، بالقرب من المدينة، الأمر الذي دفع بأحد من اعتنقوا المسيحية، وهو "باراليو Paralio"، أن يبلغ عن "محبي العمل"، ورافقه الرهبان ودعمهم البطريارك بدرو الثالث مونخي، نحو عام ٤٨٤م أو ٤٨٨م واتجهوا جميعًا نحو معبد إيزيس وقاموا بتدميره بالكامل وعذبوا الكهنة وقتلوهم[444]، وهذا ما يقصه علينا زكريا اللاهوتي في كتابه "حياة سيفيرو".

يؤكد زكريا أن التماثيل المقدسة لإيزيس تم حملها "حي وسط المدينة"[445] في الإسكندرية وجرى وضعها في محرقة تقع أمام مكان يطلق عليه "Tychaion"وهو معبد إلهة "الحظ"[446] بالمدينة المكان الذي كان يحظى باحترام شديد في الإسكندرية، فقد نجا المعبد وظل على حاله لقرون في مواجهة معبد "Las Musas".
وبعد أن تم تكسير الأصنام كان باراديو يشعر بأن الآلهة التي سقطت من على

---

(442) Teja, pg. 84.

(443) Teja, pg. 96.

(444) Rassias. V G., "Christian Persecutions agaimt thc Hellenes", " Persecuciones cristianas contra los Helenos"-, Anoithti Poli d-, Athcns, 2000.

(445) Zacarias Scholasticus, "Vita Severi", "Patrologia Orientalis", II, 33-35.

(446) La diosa griega Tyché era Ia romana Fortuna, diosas tutelarcs de Ia ciudad.

عروشها تفزعه "وتملأه بالرعب ليلا[٤٤٧]، فما كان من معلمه زكريا إلا أن نصحه بأن يحرق كتب السحر والشعوذة وبذلك ارتاح منهم.

وفي عام ٤٨٨م أنزل الإمبراطور زينون جام غضبه على مثقفي الإسكندرية[٤٤٨]، واشترك الراهب إستبان في هذه المطاردة للوثنيين. ومن جهة أخرى تم قتل معلم الخطابة سوزيمو دي غزنة على يد المسيحيين. وجرى اعتقال أجابيو وكذلك فلابيو أورابولون؛ أما إيرايكو الفيلسوف والمتصوف فقد تعرض للمساءلة والتعذيب، ولم يجد مخرجًا إلا الهروب إلى منزل الطبيب جيسيو حيث مات هناك. وبفضل إبلاغ مسبق جرى إنقاذ حياة عالم القواعد حربوقراس وقام بذلك صديقه إيسيدورو الفيلسوف؛ وحتى يتمكن هذا الأخير من الهرب ذهب في رحلة مع دماسيو طاف خلالها الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وزار العديد من فلاسفة الأفلاطونية الجديدة في هذه الفترة نلاحظ هدم مضمار الخيل Lageion وهو أول مضمار وسيرك في الإسكندرية إلى جوار السرابيوم.

ومن جهة أخرى فعندما نتأمل الشرق المسيحي، بعد الإغلاق النهائي لمدرسة إيديسا عام ٤٨٩م في عصر الإمبراطور زينون، الرجل الموالي لأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، نجد أن المدرسين والطلاب المسيحيين المتحدثين بالسريانية والموالين لنسطور يهربون صوب الإمبراطورية الساسانية في فارس اتقاء مطاردة المسيحيين الأرثوذكس من المتحدثين باليونانية، وبذلك نجد شقًا آخر في صف المسيحيين الشرقيين؛ فالمسيحيون الذين فرّوا إلى فارس أطلق عليهم بأنهم هراطقة نسطوريين. هاجر هؤلاء وبصحبتهم العديد من الكتب والمكتبات حتى لا

---

(447) Zacarias Scholasticus, "Vita Severi", 37-38.

(448) Szabat, E. "Teachen in the Eastern Roman Empire (Fiftk-Seventh Centuries). A Histórica! Stu-dy and Procopogmphy", -"Maestros en el Império Romano Oriental (Quinto-Séptimo Siglos). Un Estúdio Histórico y Procopogrâjïco"-, pgs. 177-345, en Derda y otr.," Alejandría, Auditórios de Kom El-Dikka , Warsaw, 2007.

يتمكن الأرثوذكس من إحراقها، وسرعان ما أنشأوا مدرسة للمترجمين في "نيسيب Nisibe" إضافةً إلى "أكاديمية حريوقراط" في "جوندي شابور Jundishapur"، وترجموا النصوص اليونانية إلى الإيرانية وأسسوا لنهضة ثقافية غير عادية. وفي نهاية القرن الخامس جرت ترجمة أعمال لأفلاطون إلى العربية والفارسية.

المدرسة المسيحية في الإسكندرية:

شهدت نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس ـ أي بعد إغلاق مدرسة طلبة العماد Didascalium ـ تطور ما أطلق عليه "المدرسة المسيحية في الإسكندرية" بتأسيس مدرسة ثانية ومكتبة مسيحية في الإسكندرية تحت الإشراف اللصيق للبطاركة الأرثوذكس بالإسكندرية وهم الذين اجتمعت في أيديهم كل السلطات، أي في يد الكنيسة القبطية الجديدة، وكانت المكتبة تضم كتبًا في الدراسات اللاهوتية والمسيحية الأرثوذكسية؛ ونظرًا لعدم وجود أية آثار فإن الفكرة السائدة حتى الآن هي أن هذه المدرسة التي تدرس الفكر المسيحي لا تشكل جزءًا من أية مؤسسة بالمعنى المفهوم للكلمة مثلما كان الحال في المدرسة القديمة، بل كانت عبارة عن حركة تقوم بتلقين النظريات واللاهوت الكنسي الذي كان منتشرًا في الإسكندرية سواء في الكنائس أو المنازل.

ووسط هذه الحركة نجد أسماء مهمة مثل أتناسيو وتيوفيلو وسيريلو وأبوليناريو، الوضع الذي يفترض أحد أمرين: الأول، هو أن هذه المدرسة الجديدة ومعها المكتبة المسيحية تنسب إلى الكنيسة القبطية، ورغم أنها لم تكن موجودة بالفعل خلال القرن الرابع الميلادي، أي في عصر أتناسيو، فقد كانت بمثابة حركة دينية مصرية تدافع عن مذهب الطبيعة الواحدة الأرثوذكسية التي اتخذت هذا الاسم في عصر سيريليو؛ أما الأمر الثاني، هو أن كتابات هؤلاء البطاركة من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة قد جرى إدراجها في المدرسة المذكورة، رغم أن المدرسة القديمة كانت موجودة في عصر كل من أتناسيو وتيوفيلو. من البدهي

إذن أن أتباع مذهب الطبيعة الواحدة الأرثوذكس المصريين كانت لهم أماكن للتلقين خلال القرن الرابع الميلادي وكذلك مكتباتهم الدينية حتى قبل أن تزول المدرسة القديمة من الوجود، وسوف يكون هؤلاء هم الذين يفوزون على المدى الطويل، ومن هؤلاء سوف تظهر هذه المدرسة الجديدة السميحية بالإسكندرية خلال القرن السادس الميلادي.

يمكن الافتراض بأن أطلال الآثار التي قيل إنها كانت جزءاً من المكتبة الكبرى، والتي اكتشفت عام ٢٠٠٤م على يد بعثة آثارية مصرية بولندية تحت إشراف الدكتور "ج. Majcherek" في كوم الدكة، أي في مركز الإسكندرية البيزنطية، وهي آثار ترجع إلى نهاية القرن الخامس الميلادي وطوال القرن السادس، حيث كانت متصلة بهذه المدرسة المسيحية الثانية. ويصف لنا رئيس البعثة الآثارية المذكورة هذا الاكتشاف في دراسته المعنونة "قاعات المحاضرات الرومانية المتأخرة في الإسكندرية: مقاربة آثارية"، وفي دراسة أخرى بعنوان "الإسكندرية، وقاعات كوم الدكة والتربية خلال العصر القديم المتأخر"(٤٤٩). ورغم ما تم إعلانه في وسائل الإعلام، فإن هذه الآثار لا يمكن أن تنسب أبداً إلى المكتبات الملكية في الإسكندرية، ولا تتوافق معها سواء من حيث الموقع أو العصر.

حقيقة الأمر نجد أن ما هو مكتشف هو عبارة عن مجموعة من القاعات الصغيرة تتسع الواحدة منها لعدد يتراوح بين عشرين وثلاثين وهي على شكل حدوة ومزودة بمقاعد ممتدة على شكل مدرجات مع وجود كرسي رئيسي مخصص للمدرس ومنصة صغيرة للطلاب في المركز. هذه النماذج المعمارية السابقة، التي على شكل حدوة، ومدرجات وأماكن جلوس وصالات منفصلة لكل

(449) Majcherek, " Los Auditórios Romanos Tardios de Alejandría: Una Aproximadón Arqueológica", pgs. 11-50, en T. Derda, "Alejandría, Auditórios de Kom El-Dikka y ia Educatión en laAnti-güedad Tardia", Warsaw, 2007; "Vida Académica de Ia Antigua Alejandría Tardia,. Una Aproximadón desde el Trabajo de Campo", pgs. 191-206, en El-Abbadiy otr., " Queleocurrió Bibl, Aíex.?, Briil, Leiden-Boston, 2008.

مدرس، حيث كانوا يقومون بالتدريس سواء كانوا مدرسين أو فلاسفة وثنيين مثل هيباتيا(٤٥٠) ولانسياني(٤٥١) إنما تؤكد على قوة التراث المعماري في العصر الروماني بحيث يصبح نموذجًا يُحتذى وهذا ما وجدناه في المكتبات المسيحية في روما.

كانت هذه القاعات موزعة بين أسوار الأوديون القديم أو المسرح الروماني الصغير في الإسكندرية وبين الحمامات إلى جوار مقلب ضخم عبارة عن هضبة ضخمة إلى جوار القاعات، وكانت هذه الهضبة واحدة من عشرات الهضاب من مقالب القمامة التي أخذت تظهر على المشهد الحضري القديم في الإسكندرية البيزنطية خلال القرن الخامس الميلادي، وقد هجرت وأخذت تعاني من كثرة الأطلال والصراعات العرقية. كانت القاعات مشيدة في شكل مجموعات منفصلة، طبقًا للحاجة دون أن تكون هناك خطة أو مخطط، وكانت كلها تطل على الشارع كأنها محلات، وكان بعضها في مواجهة مراحيض عامة وبالتالي لم تكن تشكل أي جزء من أي أثر. توزعت هذه القاعات كأنها مدارس صغيرة على طول ناصية واحدة، في المنطقة التي يؤمها الكثير من الناس في المدينة، أي أمام طريق Agora الذي كان مزدانًا بالأعمدة الرشيقة. ويمكن أن تتسع جميعها لعدد يتراوح بين ٥٠٠ و ٦٠٠ فرد(٤٥٢) حيث يصل عددها إلى ما يتراوح بين خمس عشرة قاعة وعشرين ربما كانت مخصصة للصلاة أو الخطابة.

ترجع كافة هذه القاعات إلى العصر البيزنطي، أي ابتداءً من نهايات القرن الخامس وبداية القرن السادس وامتد ذلك إلى القرن السابع. وقد تكرر المشهد

(450) Libanio, "Chriaf, III. 7; Juan de Nikiu, LXXXIII (LXXXIV), 101; Decreto dei 425 de Teo-dosio II; Elias, Pseudo "In Porphym Isagogen commentãrium", 21. 30, mencionados por Majcherek en los dos textos.

(451) Lanciani "Ancienf Rome in the Light of Recent Discoveries\ 1888.

(452) Majcherek, "Auditórios Romanos Tardios de Alejandría", pgs. 11-50, en Derday otr., "Alejandría. Auditórios de Kom El-Dikka", Warsaw, 2007.

كما سبق أن رأينا، (حيث جرى تدمير المتحف والمكتبات الملكية) إذ انتصرت عقيدة جديدة في الإمبراطورية. ولم يكن الأمر يقتصر فقط على إغلاق معابد بل كان جوهر نشاط المسيحيين في هذه المدينة الوثنية هو التلقين الذي لا يكل للسكان والتمكن من اعتناقهم المسيحية؛ وكان بناء هذه القاعات يحظى بتأييد الإمبراطور أتناسيو[٤٥٣] الذي مال بوضوح للمذهب القائل بالطبيعة الواحدة، وكان هو مذهب الأغلبية في كل من مصر وسوريا، وألمح إلى اهتمام خاص بالمدينة المصرية، لدرجة أنه قام بترميم فنارها.

الأمر إذن هو أن هذه القاعات لم تكن على سبيل التحديد منشآت مخططة بل كانت أدوات يجري استخدامها في التلقين الأمر الذي أسهم في إحداث تغيير مهم في ماهية التخطيط المعماري للمسرح، حيث جرى هدم مكان العرض وجرى تغير جذري على وظيفة المبنى، وتحول إلى ما يشبه قاعة للدرس حيث نجد قبة بيزنطة وذلك لاستقبال الموجات الجديدة من المسيحيين في الإسكندرية. وربما بالغ البروفيسور البولندي عندما وصف اكتشافه بأنه عبارة "عن الجامعة الأقدم في تاريخ البشرية" وإذا لم يكن جامعة، ربما كان مقر المدرسة المسيحية في الإسكندرية، حيث استخدمات أفضل المباني الموجودة في المدينة الرومانية.

من المؤكد أن هذه القاعات وعملية إدخال تعديلات على المسرح الصغير هما من نتائج توجهات حضرية جديدة طبقًا للظروف السياسية، ويعني أيضًا الاستيلاء على كافة الآثار الوثنية الكبرى وإعادة تأهيلها لصالح العقيدة المسيحية. ولا شك أن الأوديون الروماني القديم كان مثاليًا من حيث أنه مركز من مراكز تلقين الجماهير بخاصة الطبقة الشعبية وبذلك تكون القاعات مخصصة للطبقة الراقية. وربما أمكن بناء أكبر من مجرد جامعة جديدة في المركز الكبير للتأهيل الخاص بالمسيحيين في الإسكندرية.

---

(453) Atanasio (491-518 d. C.)

جرى بناء هذه القاعات على أطراف الإسكندرية البيزنطية نفسها وإلى جوار الفلاء الذي هُجر وكان في يوم من الأيام حيّ علية القوم أو الحي الملكي المجاور للميدان الكبير الذي ما زال هو المحور الحيوي في المدينة. مرّ بهذه المدارس المتخصصة في تلقين وتعليم العقيدة الجديدة كافة الطلاب الراغبين في العماد وظل هذا قائمًا لمدة قرن من الزمان، وبعد ذلك كان على البيزنطيين أن يغادروا الإسكندرية بسبب الغزو العربي.

في تلك الآونة كانت تجرى في تلك القاعات وبين جماعات الرهبان وجماعة "محبي العمل" أنشطة لاهوتية مكثفة ومكرّسة لنشر التعاليم المسيحية ومحاربة كافة الهرطقات، التي كانت تعتبر على درجة الخطورة التي عليها الفكر الوثني. ورغم الحمية والغيرة التي كانت لدى جماعات محبي العمل فإنهم قد تعايشوا خلال القرن السادس الميلادي مع المدارس الوثنية. وعلى أية حال يرى "واتز Watts" أنه مع القرن السادس الميلادي "نجد أن هذه المجموعة (محبي العمل) كانت موجودة في المدارس، لكن لم تحظ بالمساندة المهمة بين الطلاب... فكانوا يكافحون حتى يحولوا دول تحول الطلاب المسيحيين إلى الوثنية... كما أن التغيير في نظام تعاليم الفلسفة كان أمرًا صعبًا للغاية وليس كما تقول جماعات محبي العمل"(٤٥٤).

بقاء مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية:

خلال القرن السادس الميلادي ظلت في الإسكندرية عدة مدارس وثنية، تتسم بشهرتها ونشاطها، مثل مدرسة الفلسفة، التي كانت تتولى تدريس القواعد وعلم الفلك وعلم البصريات والفيزياء والرياضيات. كما نرى أيضًا مدرسة الطب. وظل هناك تعايش في مدرسة فلسفة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية بين الطلاب المسيحيين وطلاب الفلسفة الأفلاطونية الجديدة حيث كانت هناك

(454) Watts, "City and School in Late Antique Athens and Alexandria", 8, pgs. 204-257, U. California Press, 2006.

الكثير من الأفكار المشتركة المتعلقة بعقيدة التوفيق بين المذاهب، ومن بين هؤلاء نجد بعض الفلاسفة الوثنيين مثل أمّونيودي أرميا الذي نعرف عنه أنه كان لا يزال يلقى دروسه حتى عام ٥١٥م، وكذا أخوه هيليودورو السكندري أو أوليمبيو دورو الشاب، إضافة الي جماعات المسيحيين المسماة جماعات محبي العمل، وإلياس وداوود الأرمني.

يبدو أن زكريا اللاهوتي اكتشف مدرسة الأفلاطونية الجديدة هذه في مركز الإسكندرية، حيث أشار في عام ٥١٨م إلى "معبد Las musas حيث كان الشعراء والخطباء وأبناء الدارسين يتنزهون ويلقون محاضرات"(٤٥٥). ومن خلال هذا المسمى الجميل المكون من مجموعات من الوثنيين نجد أن معبد Las musas يمكن أن يكون هو مدارس المتحف التي كانت لا تزال قائمة في مقر مقدس ومكرس للمعارف القديمة ألا وهو معبد Las musas. وهذا لن يكون أبدًا المجموعة غير المنتظمة من قاعات الدرس التي عثر عليها في كوم الدكة كما يرى البعض، بل كان المتحف السكندري الثالث الذي تحدث عنه سينسيو دي سيرني، الذي مازال حيًا حتى بعد مرور قرن من الزمان أي حتى بداية القرن السادس الميلادي، ورافقه في هذا كل من مدرسة الأفلاطونية الجديدة ومدرسة الطب داخله.

تلقى رواية زكريا المزيد من الضوء حول مقر هذا المعبد في الإسكندرية؛ فعلى ما يبدو كان مقرًا مقدسًا في مواجهة الأثر الوثني الأكثر شهرة واحترامًا في المدينة ألا وهو معبد الآلهة Tyche أي معبد Tychaion وهو عبارة عن مبنى ضخم وسط العاصمة المصرية تتوجه القبة المسماة "القبة الخضراء" التي ورد ذكرها في مصادر عربية(٤٥٦) وكان به تماثيل لكافة الحكام ابتداءً من الإسكندر

(455) Zacarias Scholasticus, "Ammonius", 1064 A, en J. S. Mckenzie, "The Place where Alchemist and Scholars sit (...) was like stairs", "El Lugar donde Alquimistas y Sabios se sentaban (...) era como escaleras "-, pg. 79, en Derda y otr., "Alejandria. Auditorios de Kom El-Dikka", Warsaw, 2007.

(456) Ibn Rusta (fl. 903), en Mckenzie, "Place WhereAlchemist..:", 2007.

الأكبر إضافةً إلى ألواح من البرونز مدونة عليها الوصايا، وظل ذلك على حاله حتى عام ٦٠٢م.

نعرف أن أوليمبيودورو العجوز قام بإعادة تأسيس المتحف الذي تحول إلى معبد Las Musas عند السكندريين؛ وربما كان يوجد في ميدان رئيسي في المنطقة المرتفعة للمدينة التي كانت في عصر الرومان، حيث كانت تتم الاحتفاليات الكبرى المدنية والدينية احتفاءً بالمدينة وأصولها ونبلائها. كان معبد Las Musas الوثني أمام معبد Tychaion وما زال له مكانه في النسيج العمراني للإسكندرية خلال العصر المتأخر، فما زالت شعلة المعرفة الخاصة بالعصر القديم موجودة.

خلال تلك الفترة، وطبقًا لكلمات واتز "فإن الموقف الديني للإسكندرية كان غامضًا... فبعد وفاة البطريارك أناستايو عام ٥١٨م حدثت مواجهة بين تيارين من مناهضي المذهب "الكالثدونياني" في الإسكندرية. ولم يكن للبطريارك تيمونيو سيطرة كبيرة على الأطراف الضالعة في الأزمة والذين أسهموا في شق صفوف الكنيسة"(٤٥٧) ذات التوجه القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح بحيث رأينا من هم أتباع الأسقف سيفيرو الأنطاكي، ومن هم أتباع جوليانو دي هالي كارناسكو، وذلك بسبب قضية بيزنطية تتعلق بجسد المسيح وعدم بلاه. كانت الصراعات وسط أوساط أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة حامية الوطيس.

خلال تلك الفترة، أمر الإمبراطور جوستنيان(٤٥٨) بعمليات مطاردة للفلاسفة الوثنيين الذين جرى التنكيل بهم على الملأ وأحرقت كتبهم، وخلال هذه الآونة تمكن أوليمبيودورو الشاب من النجاة من هذه المطاردات بفضل مساعدة جماعات محبي العمل. أمر الإمبراطور بإلغاء كافة المدارس الوثنية من خلال المرسوم الذي أصدره عام ٥٢٩م، فتم إغلاق مدرسة الأفلاطونية الجديدة في أثينا، وهي

---

(457) Watts, "City and School" pg. 246.

(458) Justiniano (527-565 d. C.), "Decreto dei529 d. C".

المدرسة الأكثر تأثرًا بتيارات السياسة، حيث كان مديرها دماسيو، وبهذا نعدم آخر موروث من العصر القديم في الغرب. وربما شهدت تلك الفترة عملية انتقال المكتبة الفلسفية لدماسيو ذات الأصول السكندرية، من أثينا إلى القسطنطينية، وبعد ذلك بأربعمائة عام، أي في القرن العاشر الميلادي، قام أحد الدارسين بترجمة النصوص.

والشيء اللافت للانتباه أنه في عام ٥٢٩م نجت مدرسة فلسفة الأفلاطونية الجديدة السكندرية من هذا الموقف، وكان ذلك بفضل كتابات الفيلسوف السكندري والمسيحي الذي تحول عن العقيدة الوثنية جوهانز فيلوبونوس، أو Philoponus أو Filopono، أو خوان، عالم النحو[٤٥٩]، وبالتالي فإن مدرسة الإسكندرية لم تغلق. كان فيلوبونوس عالم لاهوت شهير من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، كما كان فيلسوفًا سكندريًا خلال القرن السادس الميلادي، وهو أحد معلمي أرسطو وأحد أساتذة المدرسة وتلميذ أمّونيو دي أرميا وكذا لرومانو، وزميل دراسة لـ"أسكليبيو دي تريّاس A de Trallas". لكن لا يعرف فيما إذا كان من جماعات محبي العمل، رغم أن اللقب الذي لقبوه به يوصي بذلك، وقد كان إلياس أول من أشار إلى ذلك[٤٦٠]. يقول واتز أن تأييده لجماعات "محبي العمل" ليست محل جدل[٤٦١]، ومن جانبه نجد "ل. ماك كول L. Mac Coull" يقول بأنه كان أول عقلية عالمية، وربما الوحيدة في مصر المسيحية"[٤٦٢].

---

(459) Nicéforo Callisto (490-570, fl. 530-54? d. C.), "Historia Eclesiástica", XVIII. 45, afirma la identidad entre Juan el Gramático y Philoponus .

(460) Elias, "Sobre las "Categorias" de Aristóteles", 246. 14.

(461) Watts, "City and School" pg. 243.

(462) Mac Coull, "The historical Context of John Philoponus in Byzantine-Coptic Egypt", " El contexto histórico de juan Philoponus en el Egipto Bizantino-Copto"-, Journal of Ancient Christiani-ty, 2006.

ومن هنا فإنه خلال عام ٥٢٩م، أي عام صدور ذلك المرسوم المشار إليه والصادر عن جوستنيان، سارع فيلو بونوس بنشر كتابه "ضد بروكلو"(٤٦٣) الذي كان قد بدأ كتابته قبل ذلك ببضعة أعوام، ووعد في هذا الكتاب بنشر كتاب آخر أكثر إثارة للجدل وهو بعنوان "ضد أرسطو" ناقدًا نظرية أرسطو، الأمر الذي حاز رضا الإمبراطور الذي أمر بمنع تعليم فلسفته جزئيًا في الإمبراطورية وكانت النتيجة أن جوستنيان لم يطبق هذا الخطر في الإسكندرية عام ٥٢٩م على الوثنيين الذي واصلوا ممارسة مهنة التعليم. وبهذا وصلت مدرسة الأفلاطونية الجديدة السكندرية فتح أبوابها في المشرق على أنها المؤسسة الوثنية الوحيدة حيث كانت الأفلاطونية الجديدة تواصل بث إشعاعها، وأصبحت بذلك آخر معاقل الثقافة الوثنية.

هذا التصرف، الذي لا يصدق، والذي قام به فيلو بونوس، ذلك المسيحي من أعضاء مدرسة الأفلاطونية الجديدة، والذي تمثل في استمرارية هذه المدرسة الوثنية، إنما يؤكد على درجة الوحدة التي كانت تربط بين المثقفين الوثنيين والمسيحيين من أصحاب الاتجاهات الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية. ولما كانت المدرسة القديمة Didaxalium قد أغلقت منذ ثمانين عامًا لجأ المسيحيون من أتباع الأفلاطونية الجديدة إلى ذلك المركز العلمي، وابتعدوا عن التيارات الأكثر أرثوذكسية التي كان عليها الرهبان من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة.

لا نعرف حتى الآن السبب الذي دفع فيليبونوس إلي كتابة تلك الرسائل التي كانت مضادة بشكل مباشر لأفكار أستاذه أمّونيو دي أرميا كما أنها تضرب بقوة التوافق بشأن التعليم الفلسفي في الإسكندرية حيث كان الموروث المشترك لكل من أفلاطون وأرسطو يحظى بالاحترام الكامل(٤٦٤)، وعلى أية حال فإن سلوكه جلب

(463) Philoponus (c. 490 -575 d. C), "De aeternitate mundi adversus Proclum" o "Contra Proclais", -"Sobre Ia eternidad dei mundo contra Proclo y sus dieciocho"-,

(464) P. Hoffmann, "Philoponus and the Rejectíon of Aristotelian Science", -"Philoponus y el Rechazti dc la Ciência Arhtotélicá"- Ed. R. Sorabji, pgs. 57-83, London, 1987.

عليه عداوات كثيرة جاء من المسيحيين السكندريين من أنصار المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، وكذلك بين أصحاب المذهب المغاير وهم "الكالثودينيين" ووصل بهم الأمر لتلقيبه "بالمسيحي المزيف" والنسطوري كوسمي Indicopleustes(٤٦٥). وبناءً على هذا نجد أن كتاباته أصبحت محرمة؛ وفيما يتعلق بتغيير وجهة النظر يرى واتز "أن كل شيء يدفعنا للافتراض بوجود أسباب فلسفية وشخصية"(٤٦٦).

وفي عام ٥٣١م، وتزامنًا مع كل هذه المطاردات للوثنيين نجد مجموعة من آخر ستة فلاسفة من فلاسفة الأفلاطونية الجديدة في الإمبراطورية تلجأ إلى فارس لسنوات قليلة، حيث آواهم الملك كسرى أنوسوان الأول(٤٦٧) أي Choroes لليونانيين، ودافع عنهم ضد جوستيانو. ترك وجود هؤلاء الفلاسفة أثره وكان من بينهم دماسيو حيث ثبت وجوده في فارس عام ٥٣٢م. وخلال القرن السادس الميلادي كان العرب في دمشق يبحثون عن أعمال أفلاطون وعن أعمال الأفلاطونية الجديدة من تأليف دماسيو(٤٦٨).

ومن خلال مدرسة الأفلاطونية الجديدة الوثنية واصل التدريس فيها الأخوان هيليودورو السكندري، الذي كان يقوم بتدريس القواعد وعلم الفلك، وأمّونيو دي أرميا الذي كان يقوم بتدريس فلسفة أرسطو؛ وفيما يتعلق بهذا الأخير "لم يكن يروق له أن يكتب"، مثل سابقه أمّونيو ساكاس، غير أنه حفظت الكثير من تعاليمه وكان ذلك بفضل الملاحظات التي كان يدونها تلاميذه مثل أسكلبيو دي ترابيّس

(465) Cosme Indicopleustes, "Topographica Cbristiana", -"Topografia Cristiana"-, 1. 2. 1-12.

(466) Watts, "City and Schoot", pg. 250.

(467) Khushraw I (531-578 d. C.).

(468) C. Prince, "The Historícal Context of Arabic Tmnslation, Learning, and the Libraries of Medieval Andaluzia", -"El Contexto Histórico de Ia Tmducción arabe, Aprendizaje y Bibliotecas de Ia Andalucía. Medieval"-, Library Hiscory, Vol. 18, 2, pgs. 73-87, 2002.

وفيليبونوس، والملاحظات "المأخوذة عن مداخلاته الشفوية"[٤٦٩] طبقًا لما وُصِفَت به آنذاك.

كان وجود تيار للفلسفة الأفلاطونية الجديدة في إطار أتباع مذهب الطبيعة الواحدة أمرًا له تأثير عميق، بما في ذلك في أوساط الأكليروس المصري؛ ووصلت درجة تأثير هذا الاتجاه إلى أنه في عام ٥٣٣م استطاعوا أن يشاركوا في القسطنطينية في نقاش ديني[٤٧٠]، حيث بلغ عدد المشتركين ستة من المعتدلين وهم الذين لُقّبوا "بالسيفريانوس" حيث تزعمهم سيفيرو الأنطاكي، وكانت مناظرتهم ضد ستة من أصحاب المذهب الملكاني بزعامة إيباتو، أسقف إسفيو حول الكتابات المختلفة لديونيسيو الملقب بـ Areopagita[٤٧١]، الذي يفترض أنه أول أسقف لأثينا؛ كانت هذه النصوص من الإسهامات المسيحية الرائعة في ميدان التوفيق بين المذاهب وهي شديدة التعمق في باب الفلسفة الأفلاطونية الجديدة؛ كانت هذه الإسهامات تحاول التوحيد بين مواقف المذهب الملكاني والمذهب القائل بالطبيعة الواحدة من تيار الأفلاطونية الجديدة الذي كان يواصل درب بركلو الذي تحول إلى المذهب القائل بالطبيعة الواحدة. وكانت هذه الإسهامات موجهة إلى طلاب العماد وكذا الذين جرى تعميدهم حديثًا[٤٧٢]، كما كانت نصوصًا توفيقية تحاول تطور روح ما يسمى بـ Henation الذي كان عليه الإمبراطور زينون.

رفض إيباتيو نصوص ديونيسيو بحجة أنها مختلفة، ذلك أن سيريلو السكندري لم يكن يعرفها ولم يرها قط في مخازن الكتب السكندرية؛ وهنا يقول خ. Stiglmayr:

(469) S. Pérez Corres, "Pa/abras de filósofos", oralídad, escritura y memória en Ia filosofia antzgua".

(470) Inocencio, obíspo de Maronia, "Crónica"(Hardouin, II, H59 sq).

(471) Dionisio elAeropagita, Pseudo (mediados s. I d. C.), "Los Nombres Divinos", "Teologia Mística", "Jcrarquia Celestial", "Jerarquia. Eclesidstica".

(472) Dionisio (D. D. N., III, 2).

"وعلى أية حال، يلاحظ أن الإشارة إلى أراشيف الإسكندرية لم يكن لها وزن قليل عنده (أي عند إيباتيو) ذلك أنه كان يعرف أن الإسكندرية بمكتباتها، كانت في يد الهراطقة (أي أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) من زمن"(٤٧٣).

وعلى هذا فإن المطالبة بالنصوص التوفيقية، الأفلاطونية الجديدة، التي كتبها ديونيسيو جاءت فقط من لدن آخرين هم أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة من المعتدلين النسطوريين. وكان تيمستيو من بين أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، وهو أحد الشمامسة في الإسكندرية نحو عام ٥٣٣م وكذا كولوتو السكندري، وفيلوبونوس(٤٧٤) وإيولوخيو، بطريارك الإسكندرية(٤٧٥). أما من كانوا من بين الموحدين Monotelitas فنجد من بينهم "ثيرو Ciro" بطريارك الإسكندرية(٤٧٦).

لم يميز جوستنيانو بين التيارات بل بين المذاهب، وفي عام ٥٣٨م فرض على الناس بطرياركًا من أتباع المذهب الملكاني المستقل، وهو الوحيد الذي كان يقيم في الإسكندرية، وطرد البطريارك القبطي من المدينة؛ كما قام أيضًا بطرد الأقباط من كنائسهم مثل كنيسة قيصرون وسلمها للمكانيين؛ والشيء الغريب هو أن الكنيسة القبطية الرئيسية خلال ذلك العصر (والتي تحولت فيما بعد إلى كاتدرائية الإسكندرية) ويطلق عليها اسم Angelion قد أقيمت إلى جوار السلالم المؤدية إلى السرابيوم. وهذا مكان غريب يبرهن كذلك على اللعنة التي حلت بأعلى الهضبة التي تم الاعتداء عليها لدرجة أن المسيحيين الذين انتصروا لم يجرؤا قط على إقامة أي مبنى هناك.

(473) Stïglmayr, "Dionysius the Pseudo-Areopagitf, -"Dionisia el Pseudo-Areopagita"-, en "The Ca-thotic Enciclopédia", Vol. 5, Appleton, New York, 1909.

(474) Philoponus (fl. 546-549 d. C.)

(475) Eulogio de Alejandría (580-607 d. C.).

(476) Ciro de Alejandría (630-643 d. C.).

أضف إلى ما سبق أنه بسبب مبالغات أتباع أوريجنيس من المسيحيين، الذين نسبوا إليه مقولات متشددة لم يقل بها قط، جرى إدانة هذه النصوص عام ٥٤٥م و ٥٥٣م بمناسبة انعقاد المجمع الخامس في القسطنطينية والذي دعا إليه جوستتيانو، وعلى الفور جرى استبعاد هذه الكتب من قبل الكنيسة الكاثوليكية وجرى تدمير هذه الكتب أو تزييفها. وقد أدى هذا الأمر إلى أن يكون الأفلاطونيون الجدد من المسيحيين من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة أكثر حرصًا عن ذي قبل، وانضم أغلبهم إلى المدرسة الوثنية السكندرية.

كان أوليمبيادورو الشاب[٤٧٧]، آخر كبار المفكرين الوثنيين في مدرسة الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية وهو فيلسوف وعالم فلك وأحد المعلقين على أفلاطون وأرسطو، ومهتم بـ Jamblico (جامبليكو) الفيلسوف السوري وتلميذ أمّونيو دي أرميا. ولما لم يكن يدون ما يقول قام تلاميذه المسيحيون وهم إلياس واستبان وداوود الأرمني هم الذين كانوا يدونون ما يقول. كان الرجل يدافع في "التعليقات" عن نظريات غاية في التعارض مع العقيدة المسيحية، وسار في هذا على نهج أفلوطين ذلك العلامة في باب الأفلاطونية الجديدة.

كان أوليمبيادورو الشاب شاهدًا رغم أنفه على ما حدث عام ٥٥٠م، حيث قامت تيودورا، زوجة الإمبراطور جوستنيانو بأن أصدرت أمرًا بإحراق الإسكندرية، لأن السكندريين لم يقبلوا بمن يحظى بحمايتها بطرياركًا لهم وهو تيودوسيو. وفي عام ٥٤م خرج الفيلسوف إلى الشارع بصحبة الآلاف من السكندريين الخائفين من هزات أرضية خفيفة، وهي هزات غير شائعة طبقًا لما يرويه أجاتياس "وكان ذلك في مدينة الإسكندرية الواقعة على النيل"[٤٧٨]. أشار الفيلسوف المذكور أيضًا في "التعليقات" إلى زلازل شهدتها الشواطئ المصرية قبل

---

(477) Olimpiodoro eljovm (495-570 d. C.).

(478) Agatias (9. mediados s. VI d. C), "Agatbias", II. 15, 1-2, mencionado por Majcherek en "Auditórios Rom. Tard", "Warsaw, 2007.

ذلك العصر، وكانت شديدة القرب من الإسكندرية، لكنه، ومعه أستاذه أمّونيو دي أرميا، لم يذكرا أي دمار سواء كان في المباني أو ناجمًا عن تسونامي في الإسكندرية.

هنا نتذكر نص "رسالة إلى م. جومارد" التي كتبها رولهاك[٤٧٩] حيث يقول فيها بأن أوليمبيادورو[٤٨٠] أشار إلى حركة شهدتها مياه البحر وكانت موجات كبيرة شوهدت بالقرب من الكانوب ومن هرقليا. ويواصل، مستندًا إلى شهادة الفيلسوف أمّونيو، قائلاً بأن الأراضي المجاورة لهاتين المدينتين، بما في ذلك مسافة تصل إلى خمسة أضعاف مساحة خمسة إستادات، تعرضت للغرف لدرجة أنه كان يشاهد بعد ذلك بوقت طويل أثر ذلك على المباني والمنازل وأطلالها حيث كانت وسط المياه... ويشير أوليمبيادورو نفسه إلى ارتفاع موجات البحر في "أكايا Achaia" (اليونان) مصحوبة بهزة أرضية..."[٤٨١]. وفي صيف عام ٥٦٤م ألقى أوليمبيادورو الشاب سلسلة من المحاضرات في الإسكندرية كان موضوعها علم الفلك، وكان آخر مدير وثني للمدرسة.

---

(479) Raulhac, "Lettre a M. Jomard, Membre de l'Institut et Commisaire du Gouvernement prés Ia Commision d'Egypte, sur Ia Signification du Nom d'Hercule et sur Ia Nâture de ce Dieu", "Curta ai Sr, Jomard, Miembro dei Instituto y Comisario dei Gobierno en Ia. Commón de Egipto, sobre el significado delNombre de Hérculcs y sobre ia Naturaleza de este Dios", Nota A, pgs. 15-16, ChczMerlín, Libraire, A Paris, 1818.

(480) Olimpiodoro, "In meteora Aristotelis Commentari, interprete Joanne Baptista Camotio, folio 31", -"Comentarios sobre los "Meteoros"de Aristóteles, traducido por Juan Bautista Camotio, folio 31"-.

(481) Los mismos restos que viera Sonnini a finales dei s. XVIII, descritos en "Traveis", en cuyos grabados aparecen enormes estatuas de diosas griegas, varadas en Ias playas como si fueran sirenas. Los pescadores de Ia bahía de Abukir, donde acabaron de hundirse Ias ciudades de Canope y Heraclea, a 8-10 metros de profundidad, siempre llamaron a aquella parte dei mar que cubría los restos, el "Mar Muerto", porque sus aguas no se movían, a pesar de estar en mar abierto. Estas ruínas subacuáticas están siendo rescatadas por F. Goddio, "Tesoros sumergidos de Egipto", Madrid, 2008.

وبعد ذلك بوقت قصير، أي نحو عام ٥٦٥م، زار الإسكندرية أنطونيو الملقب بالشهيد، وهو حاج ذهب إلى فلسطين، وكتب بلهجة حماسية أن "الإسكندرية مدينة رائعة"[٤٨٢] وبعد وفاة الفيلسوف أوليمبيادورو الشاب عام ٥٧٠م اختفت العقائد المصرية القديمة بعد أن ظلت على الساحة ما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام، وتمثل ذلك في تنفيذ الأمر الذي أصدره الإمبراطور جوستنيانو الثاني[٤٨٣] بإغلاق معبد إيزيس في فيلة، جنوب مصر.

وبعد وفاة أوليمبيادورو الشاب عانت مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية من عملية تعديل واسعة النطاق حيث تم تحويلها بالفعل إلى مدرسة ثانية للأفلاطونية الجديدة المسيحية ذات الطابع الأرسطي، والأمر أن هؤلاء كانوا يمثلون الأغلبية في صفوف التلاميذ الملتحقين بها وكانوا يتعاونون بشدة في تنفيذ مهامها؛ ومن هنا فإن وجود فلاسفة من أتباع الأفلاطونية الجديدة في المواقع الإدارية بهذه المدرسة في نهاية القرن السادس الميلادي جعل الكثير من الباحثين يشكون حتى في مجرد وجودهم وخاصةً إلياس الذي لقب بـ Pseudo-Elias. كان المسيحي إلياس - في نهاية القرن السادس الميلادي - المعلق على أعمال كل من أرسطو وبورفيريو ومدرس الفلسفة، وربما الطب أيضًا، من تلاميذ أوليمبيودورو، وخلفه في إدارة المدرسة. ومن خلال عمله المُعنون، "قبل التحليلية" نستخلص أنه قبل أن يرحل إلى الإسكندرية ويكرس جهده للفلسفة الأفلاطونية الجديدة، أي في المكان الوحيد في الإمبراطورية الذي ما زالت تتم فيه هذه الدروس، كان واليًا للإمبراطور[٤٨٤]؛ ففي "المدخل إلى المراتب لأرسطو"[٤٨٥] كتب صفحات رائعة حول

(482) Antonino Mártir, Palescine Pilgrims Text Society, Vol. II, pg. 35, en Butler, "The Arab Con-quest...n,pg.371.

(483) Justino II (565-578 d. C.).

(484) Westerink, L. G., "Elias on thePrior Analytics", Mnemosyne, 14; 126-139.

(485) Elias, "Sobre Categorias", CAG 18. l, pg. 122f, en Wilson N. G., "Scholars of Byzantium", "Estudiosos de Bizancio"-, pg. 47, London, 1983.

الكيفية التي يجب أن يمارسوا فيها فنهم أمام شُرَّاح النصوص. وابتداءً من ذلك الحين أخذ الكثيرون من المسيحيين يؤمون مدرسة الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية، رغم أن بها كان لا يزال هناك بعض التلاميذ والأساتذة الوثنيين، ومن بين من خلفوه نجد داوود الأرمني وإستبان السكندري.

ومن تصاريف القدر أن داوود الأرمني - مع نهاية القرن السادس وبداية السابع الميلادي - ربما كان من الشباب الذين أرسل بهم بطريارك بلدهم إلى إيديسا، والإسكندرية وأثينا والقسطنطينية، وذلك لدراسة اليونانية وتلقى تعاليم آباء الكنيسة والفلاسفة الوثنيين، وجمع المخطوطات التي تساعد على ترجمة الإنجيل إلى اللغة الأرمنية؛ وكنوع من الاستطراد نقول إن داوود لما كان تلميذًا لأوليمبيودورو الشاب وزميل دراسة لإلياس، كما كان متأثرًا بأفكار الأفلاطونية الجديدة، فقد قام بترجمة أغلب أعمال أفلاطون وأرسطو وبورفيريو[٤٨٦] وساعده الموروث الأرمني خلال الفترة من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر على ربطه ووصله بداوود Anhaghat أو الذي لا يُهْزم.

يرى بعض الباحثين أنه مع نهاية القرن السادس الميلادي كانت مدرسة الإسكندرية مركزًا من مراكز مقاومة أفكار الأفلاطونية الجديدة؛ وبالفعل يُلاحظ أن الأفلاطونية الجديدة الوثنية، قد حل محلها، في معظم الجوانب، الأفلاطونية الجديدة المسيحية، التي ظلت قائمة في ظل المؤسسة الوثنية؛ غير أنه يمكن أن نرى في تلك الأثناء مجموعة من الدراسات التي ترتبط بذلك المدرسة السكندرية ذات العمر المديد، مثل دراسات أسكليبو الشاب وإيوسكولابيو، وسمبليثيو وخوان ليدو. هنا يقول عالم الآثار Majecherek: "إن دهليز المشاهير، سواء كانوا من الطلاب أو الأساتذة، كانت كبيرة. كما أن المشهد العام للحياة الأكاديمية والثقافية كان واضحًا وقويًا إذ استمرت الإسكندرية خلال العصر

(486) "Dicdonario histórico, o Biografia Universal Compendiada", 1831.

القديم واحدة من المراكز التعليمية الكبرى في مجالات الفلسفة والقانون، وفي الطب بصفة أساسية وجلبت إليها الكثير من العلماء والأساتذة من مختلف أنحاء العالم القديم"(٤٨٧).

المترجمين من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة، والأفلاطونيين الجدد:

تربى في أحضان هذه المدرسة للأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية، خلال القرن السادس، المسيحيون من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة ومن بينهم الطبيب والفيلسوف سيرجيو دي رس أيّنا، أو المسمى Teodosiopolis، وكذا الفيلسوف خوان الأبامي، الذي ربما كان من أتباع أوريجنيس؛ بدأ هذان سلسلة من الترجمات إلى السريانية والآرامية للنصوص الفلسفية والطب اليوناني والهلنستي، والتي كانت لا تزال في تلك المدرسة، وفي مكتبات أخرى بالمدينة.

نجد إذن تكوين ما يسمى مجموعة أو دائرة أنصار مذهب الطبيعة الواحدة من المترجمين السكندريين، وكانت هذه الدائرة أو المجموعة تحت رعاية مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية، وكانت هذه المجموعة ذات أهمية كبيرة في الحفاظ على النصوص الكلاسيكية التي كانت لا تزال قائمة في الحضر المسيحي حيث كان يجرى إما باستبعادها أو تصحيحها أو إعدامها. كانت الفلسفة اليونانية وما حدث من تقدم في العلوم الهلنستية تقابل بالرفض من قبل الإمبراطورية البيزنطية، سواء من حيث النظرية أو التطبيق، ومن بينها كروية الأرض وحركة النجوم والتقدم الذي حدث في علم الفيزياء والميكانيكا، وأدى ذلك إلى العيش في عالم لا ملامح واضحة له ولا حراك فيه ويدور حول مركزه يحكمه اللاهوت الأرثوذكسي والإيمان بالميتولوجيا المسيحية التي كانت لا تزال في مرحلة الولادة خلال تلك الآونة.

---

(487) Majcherek, " Auditorios Rom. Tard. Alejandria", pg. 48, en Derda, " Alejandria, Auditorios de Kom El-Dikka", Warsaw, 2007.

ومع العمليات المستمرة في إحراق الكتب أخذت هذه القرون تتباعد رويداً رويداً عن الموروث العلمي والفلسفي اليوناني الهلنستي، وأخذت تختفي من الغرب ذلك أن الثقافة الرومانية لم تكن قط وريثة لهذه العلوم. وهنا يقول ل. إكس بولاسترون(٤٨٨): "إنه في أثناء الأزمنة المظلمة، خلال بداية العصور الوسطى، أي خلال الفترة من ٥٥٠ حتى ٧٥٠م، لم تجر عملية نسخ الكتب الكلاسيكية في الغرب، واختفت بشكل شبه كامل... وبالتالي لم ينج من جماع الأدب الكلاسيكي إلا القليل وتم إلحاق هذا بتيار الإنتاج الأدبي المختص بترجمة آباء الكنيسة والتوراتي واللاهوتي إضافةً إلى مؤلفات مسيحية أخرى من تلك التي تعتبر من كنوز المكتبات خلال العصور الوسطى".

انتقل مركز المعرفة إلى الشرق، وكان ذلك من خلال الذين كانوا يفرون من المطاردات ويقومون بترجمة الأعمال إلى السريانية ابتداءً من القرن الرابع الميلادي؛ وكانت اللغة السريانية اللغة المشتركة للأدب في آسيا الغربية خلال الفترة من القرن الثاني حتى القرن الثامن الميلادي، ابتداءً من سورية وشبه الجزيرة العربية وانتهاءً بالصين، كما كانت وسيلة الاتصال الثقافي لكافة العرب وكذلك للفرس. ومن خلال تلك الترجمات السكندرية، ومعها تلك التي تمت في إيديسا وNisibe - مثل نصوص أفلاطون وأرسطو والأفلاطونية الجديدة - قد نقلت إلى العرب ابتداءً من القرن الرابع واستمر ذلك حتى القرن السادس؛ وسرعان ما اطلعوا على كافة "التعليقات على أرسطو" التي كتبها فيليبونوس وكانت تعليقات واسعة الشهرة بين العرب.

كان تأثير هذه النصوص المترجمة من اليونانية إلى السريانية كبيراً، رغم أنها كانت في بعض الأحيان مجهولة المصدر أو غير المكتملة apocrifos، ومن أمثلة ذلك ما نجده من هذه النماذج ملخصاً للإلياذة لأفلوطين، وكان يطلق عليه في العالم الإسلامي مسمى "لاهوت أرسطو"؛ نجد إذن أن هذا التزييف الذي ينسب

(488) Polastron, "Books on Fire", 2007.

إلى أرسطو ساعد على انتشار كل من الأرسطية والأفلاطونية الجديدة، وأصبحت من الأبعاد النمطية في الفلسفة العربية. ولا بد من أن المترجم المجهول لهذا الملخص كان على صلة بالمترجمين من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة وأتباع أورجنيس السكندريين، واتصل كذلك بالمترجمين المسيحيين من خارج الإسكندرية.

هذا التطور المثير والاستمرارية التي كانت عليها المدارس الوثنية في الإسكندرية خلال العصر القديم المتأخر جعلت منها - أي من المدارس - المعقل الحي الأخير للمعارف القديمة، حيث ظلوا يواصلون تقديم الشروح والنسخ والطباعة لتلك المخطوطات القديمة التي كانت تبرهن على أن العقل استطاع حل طلاسم العالم. أما فيما يتعلق بالوجود المفترض للمكتبة الكبرى في مكان ما بالإسكندرية، في ذلك العصر، أي نهاية القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلاديين فإنه تتوافر لدينا أدلة النفي من قِبَل اثنين من الأصدقاء القُدامى من الرّحالة.

ها نحن نجد رجل الدين المسيحي السوري خوان موشوس[٤٨٩] وصديقه وتلميذه الدمشقي الراهب سان صوفرونيو[٤٩٠] الذي أصبح راهبًا في مصر عام ٥٨٠ م، وأطلق عليه "الصوفي والمدافع عن الإيمان واللغة المعسولة"، ثم أصبح بعد ذلك بطريارك القدس. عاش هذان في الإسكندرية خلال الفترة من ٥٨١ حتى ٥٨٤م، وأصبحا تلميذين من تلاميذ الفيلسوف إستبان السكندري، ثم زاراها بعد ذلك مع بداية القرن السابع الميلادي طوال عشرة أعوام. وتبرهن مؤلفات هذين الصديقين على أنه لم يعد هناك أي أثر للمكتبات الملكية القديمة في الإسكندرية، أي قبل مجيء العرب بزمن قليل.

---

(489) Mosclios (m. 619 d. C.).

(490) S. Sofronio (%0-63Kd. C; patriarca de Jemsalén, 634-638 d. C.), Batler, "The Arab Co 96-101.

كان هذان الصديقان الحميمان يتجولان في الإسكندرية وهما يستمتعان بما يحيط بهما وقد وصف موشوس ذلك بقوله: "هناك فردوس (حدائق) في المدينة وحدائق للمنازل الكبرى".[491] وقاما بعدة رحلات بناءً على التعليمات الكنسية، وقرآ الكثير وكتبا كذلك ثم قاما بزيارة العديد من المكتبات والأديرة في مصر العليا، إضافةً إلى مساعدة البطريارك أناستاسيو[492] في محاربة "التوحيدية Monolitimo" أي الهرطقة التي كان يعاني منها البطريارك الملكاني للإسكندرية خوان الملقب بالمسكين أو الشحاذ[493]. كانت الإسكندرية المكان الذي كتب فيه موشوس كتاب "المراعي الروحية"[494] وقدمه لصديقه صوفرونيو، وهو على فراش الموت، حتى يقوم بنشره، وهذا ما فعله عام ٦٢٠ م.

وخلال تلك السنوات المذكورة، في الإسكندرية، أخذ كل من موشوس وصوفرنيو يترددان على كوسمي، الملقب بالدّارس، وهو أحد المثقفين المسيحيين الذي اشتهر بأنه يملك أفضل مكتبة خاصةً في الإسكندرية، وترددا كذلك على تيودورو الفيلسوف والمتصوف وما لديه من عدد مهم من الكتب. زارا أيضًا "زويلو Zoilo"، القارئ المثقف والفقير في آن رغم أنه كان يقوم بالعناية الشديدة بالنصوص المسيحية وجعلها مجلدات فاخرة ويرسلها إلى الإمبراطور[495] وكانت هذه ممارسة شهيرة ومعتادة في الإسكندرية. غير أن كلا الصديقين ـ موشوس وصوفرنيو ـ لم يذكرا في مؤلفاتهما العديدة أي إشارة عن المكتبة السكندرية المشهورة، كما لم يقدما أي دليل على أنها كانت موجودة في العصر الذي عاشا فيه. المكتبات التي كانت موجودة هي إذن مكتبات خاصة أغلبها مسيحية، كما أن المكتبات الوثنية كانت مخبأة في مختلف أنحاء الحاضرة.

(491) Mnsclios, "Pratum Spirituale", cap. 207.

(492) Anastasio (604-616 d. C.).

(493) Juan el Limosnero (609-617 d. C.).

(494) Moschos, "Pratum Spirituale".

(495) Burler, "The Arai Conquest...", pg. 98.

وما يبرهن على هذا مكتبة كوسمي، وقبلها مكتبة الأسقف السوري لاميدا، موروبار كوستانت،[٤٩٦] خلال النصف الأول من القرن السادس الميلادي، والذي نفى إلى الإسكندرية وتخصص في اللغة اليونانية، وجمع هناك مكتبة ممتازة. وهذا يبرهن على أن الإسكندرية، (ولو كان ذلك من دون مكتباتها الملكية) كانت حلمًا لأي متخصص في عالم الكتب، وكانت مدينة مليئة بالكتب ولفائف البردي المخبأة في مكتبات خاصة أو معروضة للبيع في الأسواق، أي أنها كانت لا تزال عاصمة التعليم الدنيوي في كافة أنحاء الإمبراطورية البيزنطية، كما كانت قبل ذلك في العصر الروماني.

وحتى القرن السابع الميلادي كان الفيلسوف الأفلاطوني الجديد والصوفي الوثني وأحد شُرَّاح أرسطو وعالم الرياضيات والكيميائي وعالم الفلك إستبان السكندري كان لا يزال يقوم بالتدريس في مدرسة الإسكندرية، وهو آخر مفكر موسوعي من العالم القديم، وكان يطلق عليه "الفيلسوف الكوني" الذي ذهب إلى القسطنطينية قبل عام ٦١٧م بناءً على طلب الإمبراطور هرقليو[٤٩٧] وأخذ يحاضر في المدرسة الإمبراطورية. ويرى بعض الباحثين المحدثين أن إستبان كان قد حمل معه في رحلته إلى القسطنطينية المجموعة الكاملة لمكتبة مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية، وهذا يبدو قليل الاحتمال، ذلك أن المدرسة واصلت الحياة لمدة مائة عام بعد ذلك، كما إنه من الممكن أن يكون إستبان قد أصدر أوامره في الإسكندرية بنسخ كافة النصوص الأفلاطونية الجديدة التي أرادها دون الحاجة إلى الاستيلاء على كافة الكتب التي كانت موجودة.

وبعد ذلك بوقت قصير، أي عام ٦١٩م بدأ الغزو الفارسي لمصر واستمر لعشرة أعوام، واستولى الفرس على مصر التي كانت تحت إمرة الإمبراطور هرقليو. وتعرضت الإسكندرية للنهب والتدمير من جديد، رغم أن تعداد سكانها

(496) Butler, pg. 101.

(497) Heraclio (610-641 d. C.).

آنذاك كان يصل إلى ستمائة ألف، وكانت المدينة الثانية في الإمبراطورية بعد روما؛ ويرى "مومنير Munier" "أن الفرس انتشروا آنذاك في أنحاء مصر... ووصلوا إلى النوبة حيث جرى نهب كافة المدن وبخاصة الأديرة والكنائس التي كانت تضم داخلها كنوزًا كثيرة... ويؤكد المؤلف العربي لكتاب "تاريخ البطاركة" أن الرهبان الذين كانوا يقيمون في الأديرة الستمائة المحيطة بالإسكندرية ذبحوا... أما القيادات الدينية... فقد هربت إما إلى خارج مصر أو أنها هربت في مقابر مهجورة...".

وبعد هذه الممارسات الفظيعة... بدا أن الفرس عادوا إلى اتخاذ موقف متسامح... وبفضل تسامح عريض نجد أن أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة تمكنوا من ملاحظة مزايا الاحتلال الفارسي ومقارنتها بإجراءات المطاردة البيزنطية. وهذا درس لن ينسوه عندما وقع الغزو العربي للمدينة"(٤٩٨).

واستنادًا إلى هذا لم يقم الفرس بإغلاق قاعات تدريس الديانة في كوم الدكة، وبالتالي واصلت المدرسة المسيحية عملها، كما ترك الفرس البطريارك القبطي أندرونيكو(٤٩٩) في مقره، رغم أنه قد تجاوز الحد في ممارسة سلطاته، إذ أمر في عام ٦٢٠م بهدم معابد وثنية أخرى مساهمًا بذلك في هدم ماضي مصر بالكامل. إلا إنه كانت هناك جيوب باقية من الوثنيين في صفوف الشعب المصري وموزعة في أماكن مختلفة من وادي النيل والفيوم، حيث ظلت على وفائها لعقائدها الفرعونية والتعبد للإلهة إيزيس وابنها حورس، واستمر هذا لمدة قرن من الزمان بعد ذلك، وهذا شاهد على أن مصر لم تتحول إلى المسيحية عن بكرة أبيها ونحن في القرن السابع الميلادي.

---

(498) Munier, "El Egipto Bizantino, de Diocleciano a Ia Conquista "rabe", en Zaky, "Resum. Hist. Egipto", pg. 67, IFAO, Caire, 1932.

(499) Andronico (616-623 d. C).

وعلى هذا أمكن لنا، كما فعلنا في الجزء الأول من هذا العمل، البرهنة على أن الشعوب العربية بعيدة كل البعد عن المشاهد التي جرى وصفها ولم يكن لها أية علاقة بتدمير وإحراق المكتبة الملكية الثانية في الإسكندرية وهي المكتبة الصغرى. لم يكن العرب إذن موجودين قط في الإسكندرية في الوقت الذي كانت تعرضت فيه المكتبتان الملكيتان الوحيدتان، اللتان توجدان في المدينة للحريق والدمار وطواهما النسيان. كما لم يكونوا موجودين خلال القرن الأول أو في القرن الرابع. وهنا نتساءل: لماذا نصرّ إذن على إسناد التهمة لهم وأنهم المذنبون؟ نحاول أن نفك طلاسم هذا اللغز من خلال الفصل الثالث لهذه الدراسة، ولنر فيما إذا كنا قادرين على التوصل إلى إجابة عن هذا السؤال؟.

الفصل الثالث

الغزو العربي للإسكندرية

الاستيلاء على الإسكندرية:

لم تكن تلك آخر فصول البربرية والعنف التي أطاحت وهدمت مدينة الإسكندرية على زمن البيزنطيين، فالمشهد الديني المليء بالتقلبات لم يكن مريحًا وتتابعت الصراعات. فعندما استردت بيزنطة العاصمة المصرية، عام ٦٢٩م، في عصر هرقليو، بالبدء في آخر عشر سنوات من السيطرة البيزنطية، حتى ٦٣٩م، ظلت الإسكندرية تشهد حتى تلك الفترة مسرحًا لمواجهات عنفية بين الفئات المسيحية المختلفة التي تناحرت فيما بينها تناحرًا داميًا، فهناك الحرب الأهلية بين الملكانيين وبين أنصار المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، الأمر الذي أسفر عن العديد من الشهداء الأقباط.

خلال هذه الفترة بدأ العرب غزوهم لمصر في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب[٥٠٠] وكان ذلك في خريف عام ٦٣٩ - ٦٤٠م، أما القوات العربية فكانت بقيادة عمرو بن العاص[٥٠١]، الذي حاصر قلعة بابيلونيا الواقعة على ضفاف النيل، في مكان مجاور لهليوبولس القديمة، وبعد حصار دام مدة طويلة ولكن دون قتال استسلم البيزنطيون وعلى رأسهم الحاكم المدني والبطريارك الملكاني ثيرو السكندري عام ٦٤١م، وهذا ما يرويه لنا خوان دي نيكيو في "حوليته"[٥٠٢].

(500) Omar (591-644, califa 641-644).

(501) mru (594-663).

(502) Juan de Nikiu, “Chronique”, CXVI, CXX, CXXI.

فور ذلك نجد بنيامين الأول(٥٠٣) البطريارك الثامن والثلاثين يعظ وهو في صحراء وادي النطرون، حيث نفى إلى هناك، وينادي بأن يعترف أهل مصر بالوجود العربي مقابل حصولهم على كنائسهم التي صادرها منهم أصحاب المذهب الملكاني، وكذا حرية إقامة الشعائر، الأمر الذي وافق عليه العرب على الفور، وكان هذا هو السبب الذي من أجله قام الأقباط بمساعدة جيش عمرو بن العاص. ويلاحظ أيضًا أن سانونيو وأتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة في مصر العليا قد قبلوا بهذه المسألة.

أعاد البيزنطيون، بقيادة الجنرال تيودورو، ومعهم أصحاب المذهب الملكاني، انتشارهم خلف أسوار الإسكندرية وهناك قاوموا الحصار الذي فرضه عمرو بن العاص لمدة تتراوح بين خمسة أشهر وأحد عشر شهرًا. وفي نهاية المطاف فتح الأقباط أبواب الإسكندرية أمام العرب ودخلها عمرو بن العاص دون أن يحدث بها دمارًا أو ينهبها؛ ووجد سكانها أنفسهم مُجبرين على دفع الجزية، بناءً على نصيحة الخليفة عمر فدية للأرواح والأموال، أضف إلى ذلك أنه من خلال "معاهدة الإسكندرية" مُنِحَ البيزنطيون مُهلة عام، أو بالتحديد أحد عشر شهرًا، لمغادرة الإسكندرية. وبذلك نجد أنه بعد عام، أي في ٦٤٢م، وبعد رحيل الأسطول الإمبراطوري البيزنطي الذي كان يضم ثلاثمائة مركب، مصحوبة بالكنوز الملكية والأرستقراطية المحلية والكثير من المسيحيين الملكانيين اكتملت أركان الغزو العربي وانتصار أنصار المذهب القائل بالطبيعة الواحدة في مصر، فقد رحل أعداؤهم المشتركون من البيزنطيين الملكانيين إلى الأبد من البلاد.

ويرى كل من خوان دي نيكيو(٥٠٤) وكاتب الحوليات يحيى بن أيوب، أن عمرو دخل الإسكندرية سلميًا دون خوض أية حروب، وعارض استرقاق السكندريين الذين هزموا، وفي مقابل ذلك طلب منهم دفع الجزية مثلهم في هذا مثل كافة

(503) Benjamín I (623-662).

(504) Juan de Nikiu, CXX, 72.

المصريين؛ وهناك استقبل البطريارك بنيامين الأول استقبالاً حافلاً وسمح له بعودته إلى منصبه في مقره بالإسكندرية على الفور، واعترف به ممثلاً وحيدًا للمسيحيين المصريين، الذين أطلق العرب عليهم مسمى "الأقباط"[٥٠٥]. وأكد خوان دي نيكيو أن بنيامين الأول قال: "إن طردهم (أي البيزنطيين) وانتصار العرب إنما مرده سوء شخص الإمبراطور هيراقليو ومطاردته الأرثوذكس (أتباع مذهب الطبيعة الواحدة) بواسطة البطريارك ثيرو. كان هذا هو السبب الكامن وراء هزيمة الروم (البيزنطيين) وخضوع مصر للعرب"[٥٠٦].

شعر عمرو بن العاص وهو القادم من الصحراء والعيش في الخيام، بالإعجاب بهذه المدينة الضخمة وأسواقها الثرية، وهذا ما قال به في رسالته إلى الخليفة عمر بن الخطاب[٥٠٧] وهي الرسالة التي عنى بها كثيرًا "إيوتيكيوس Eutyquios"، وفيها روى للخليفة أنه عثر على أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمّام وأربعمائة مسرح واثنا عشر ألف محلاً للخضروات وعدد كبير من اليهود الذين يعملون بالتجارة ويستطيعون أن يدفعوا الجزية؛ كما أشار عمرو بن العاص في هذه الرسالة أيضًا إلى الثروات الضخمة التي لن تخرج من الإسكندرية صوب القسطنطينية، وأوضح له أنه سوف يرسل إليه في المدينة المنورة قافلة ضخمة من الجمال تمتد من المدينة حتى الإسكندرية[٥٠٨].

وبعد ذلك بأربع سنوات تمكن القائد البيزنطي مانويل من استعادة الإسكندرية وساعده في ذلك اليونانيون الذين كانوا لا يزالون بالمدينة، عندئذٍ عاد إليها عمرو ابن العاص مرة أخرى واستعادها عام ٦٤٦م باسم الخليفة عثمان بن عفان، لكن

(505) Jevenois, de, :Continuidad dei mundo antigua":"La denominación, Capto, viene dei egípcia Kwt-ka-Ptah, que significa "El santuário de Ia fuerza vital de Ptatí", pg. 39, Ambit, Barcelona,1999.

(506) Juan de Nikiu, "Crónica , CXXI, 1.

(507) Amru, "Caria ai califa Ornar".

(508) O'Shea, "Sea of Faith", pg. 52, New York, 2006.

كانت الاستعادة بالحديد والنار حيث هدم أسوارها العتيدة؛ وجرى تعيينه حاكمًا عليها، وحظى ذلك باحترام المسيحيين والمسلمين. حاول الإمبراطور كونستانت الثاني[٥٠٩] القيام بعمليات إنزال مرة أخرى في الإسكندرية عام ٦٥٥م وصحبه أسطول كبير، لكن العملية باءت بالفشل فقد فاز العرب السكندريون في معركة الصواري.

خلال تلك الآونة تم إغلاق المدرسية المسيحية في الإسكندرية بشكل نهائي، وجرى إغلاق قاعات تدريس الديانة في منطقة كوم الدكة التي كانت تستخدم في منتصف القرن السابع أو نهايته مقابر للمسلمين، وربما يرجع السبب في إغلاق مراكز التلقين هذه إلى أنها لو بقيت مفتوحة لتحولت إلى خطر سياسي رغم عدم وجود أية إمكانية تدفع المصريين الأقباط إلى التحالف معها ولو بشكل مستتر، وهي المراكز التابعة للملكانيين البيزنطيين. ومع هذا ظلت مدرسة الأفلاطونية الجديدة مفتوحة، الأمر الذي يشير إلى احترام العرب لنشاط فلاسفة الأفلاطونية الجديدة، وهم الوحيدون القادرون على نقل المعارف القديمة، وهي معارف كان العرب على إطلاع عليها من خلال الترجمات إلى السريانية، وهنا يقول م. مايرهوف: "في الإسكندرية، ظلت المدرسة مفتوحة لحسن الحظ وظلت كذلك حتى بعد بداية العصر الإسلامي بزمن"[٥١٠].

وابتداءً من القرن السابع الميلادي هناك ما يؤكد على تبادل المخطوطات المسيحية بين مقر بابوية روما التي كانت تتوفر على ذخيرة مكتبة منذ القرن الخامس تضم كافة النصوص الدينية والنصوص التي تتوفر عليها الكنائس السكندرية، ولما كانت هذه الأخيرة قد أغلقت المركز التعليمي في كوم الدكة وما صحب ذلك من إغلاق المكتبة وإحالة النُسَّاخ إلى الاستيداع فقد كانت في حاجة

(509) Constante II Heraclio Pogonato (641-668).

(510) Meyerhof, "Von Alexandria nach Bagdad", -"Desde Alejandria hasta Bagdad"-, SPAW, 1930, en GriÜmeier. A. y otr., "Christ in Christian Jraditiorf", "Cristo en Ia Tmdición Cristiana",Vol. 2, Pç. 4, pg. 108, Continuum Int. Publ. Group, 1996.

ماسة إلى نسخ جديدة لتوزيعها في كافة أنحاء مصر والنوبة وإثيوبيا؛ فهناك الكتب المقدسة التي يضم أكثرها أيقونات رائعة، واستطاعت روما أيضًا أن تصدر نماذج من الصور واللوحات المقدسة والدينية.

جاء العرب إلى الإسكندرية وهي منقسمة على نفسها وقد أضنتها قرون من الحروب الأهلية؛ وكان ما بقي منها ليس إلا ما بقي من المدينة القديمة، ومع هذا كانت لا تزال تحتفظ ببعض بهائها، إذ كانت حاضرة يصل تعداد سكانها إلى ستمائة ألف نسمة مع بداية القرن السابع الميلادي وكانت من الضخامة بمكان لدرجة كان من الصعب معها الانتقال من المدينة من أقصاها إلى أقصاها في غضون يوم كامل، وهذا ما رواه الأسقف والحاج الغالي (من بلاد الغال) أركولوفو[٥١١] الذي زارها عام ٥٧٠ م. دخل العرب مدينة كان انعكاس ضوء الشمس على رخام مبانيها وأعمدتها وأرضياتها يعمي أبصارهم، فلجأ إلى تغطية الشوارع والأسواق بالقماش وابتعدوا عن هذه الأضواء المتلألئة، فما زالت قائمة هناك حتى ذلك الحين المسارح والحمامات والقصور والحدائق والمعابد التي نجت.

عندما نتناول ما جاء لدى كُتّاب الحوليات العرب نجد "الإستجري Istakhri" يحدثنا عن أن المدينة كانت تتلألأ بأنوارها ليلاً ونهارًا[٥١٢]؛ أما السيوطي فقد قال بأن الناس اعتادت ارتداء الملابس السوداء أو الحمراء بسبب كثرة الحوائط المكسوة بالرخام الأبيض... كما يشير إلى أنه كان من الصعب الخروج والتنقل بالمدينة ليلاً وبخاصة في الليالي المقمرة فضوء القمر ينعكس على الجدران البيضاء في المدينة التي بلغت من الوضوح بمكان يجعل الخياط يقوم بإيلاج خيطه في سم الإبرة دون الحاجة إلى ضوء صناعي، ولم يكن بمقدور أحد دخول المدينة دون أن يغمض عينيه اتقاء لانعكاس الضوء على الجص والرخام[٥١٣].

(511) Arculfo, "De Loas Sanctiis", "Sobre los Lugares Santos", II, 28.

(512) Lsiakhri, "Bibliot. Geog. Arab.", ed. Goeje, I, pg. 51, en Bucler, "TheAmb Conquest...", pg. 369.

(513) Suyuti, "Husn ai Muhadarab", en Butler, pg. 369-

وخلال القرن العاشر الميلادي نجد المسعودي يؤكد وجود تندات من الحرير معلقة للتقليل من شدة انعكاس الضوء على الرخام[٥١٤]، وكان الحكم يقول بأن الإسكندرية عبارة عن مدن ثلاثة الواحدة إلى جوار الأخرى، وكل لها أسوارها كما يحيط سور عام بالثلاثة[٥١٥]. ويضيف أبو عبد الله بن ظريف أنه كانت هناك سبعة هضاب[٥١٦]. أما عن أجباب المياه تحت الأرض في الإسكندرية، فقد أثارت إعجاب السيوطي الذي قال، مصورًا الموقف، بوجود مدينة فوق أخرى، وهذا لا يوجد له مثيل في مختلف أنحاء الدنيا (أي هذه المباني تحت الأرض) حيث نجد هناك أعمدة مرتفعة وملساء على شاكلة الأعمدة التي يمكن للإنسان أن يجدها في أي مكان[٥١٧]. أما عن جمالها فيحدثنا أيضًا أبو الفدا ويشير إلى أنها أجمل مدينة وأنها شيدت على شكل طاولة الشطرنج، كما أن تنظيم الشوارع يجعل من المستحيل على أي غريب أن يتوه فيها[٥١٨].

غير أن الإسكندرية كانت أيضًا بحرًا من الأطلال وبخاصة القطاعات القديمة منها البطلمية مثل هضبة راقودس وحيّ الصفوة. كما نعرف أيضًا أن الزلازل قد أحدثت تأثيرها المدمر على الشاطئ بعمق ثمانية أمتار حيث غاصت في أعماق البحر تلك الواجهة المعمارية للمدينة القديمة. ومن الواضح أن الميناء الكبير قد غطته الأطلال الغارقة، الأمر الذي جعل عملية رسوّ المراكب تتعرض لمخاطر شديدة، كما أنها ارتطمت بالميناء[٥١٩].

انحسرت الإسكندرية العربية بعيدًا عن الأطلال، واتجهت صوب الغرب، وأصبحت لها أسوار جديدة التحتمت بالقطاع العلوي وبالتالي أصبحت الهضبة

(514) Mas'udi, en Butler, pg. 369.

(515) Al Hakam, en Butler, pg. 370.

(516) Zarif, en Butler, pg. 370.

(517) Suyuti, en Butler, pg. 370.

(518) Abulfeda, "Historia Universo.?, en Mckenzie, "The Place where...", pg. 56.

(519) Sonnini, S. C., "Traveis in Upper and Lower Egypt", "Viajes por el Alto y Bajo Egipto", De-brett, London, 1800.

التي فوقها أطلال السرابيوم خارج الأسوار بما في ذلك "عمود النور أو عمود الأعمدة"(٥٢٠)، الذي ظل الدليل الضروري للبحّارة. وخارج الأسوار أيضًا أصبحت المقارّ الملكية القديمة ومنها حي الصفوة في عصر البطالمة والحي المسمى بحي Neapolis خلال العصر الروماني وهي أحياء كانت مهجورة، وطرقاتها مليئة بالأتربة، أما تلك التي كانت تؤدي إلى الحضر فقد كانت مليئة بالكتل الحجرية والأعمدة والتماثيل وسط هضاب جرداء ونخيل ونباتات العليق. امتدت رقعة المدينة حتى سفح الهضاب ووصلت إلى ميناء Eunostos وهو الميناء الأكثر أمانًا، حيث توجد هناك مخازن البضاعة والتجار؛ ووصلت كذلك إلى شواطئ بحيرة مريوط وامتدت إلى ما وراء ما يسمى "بباب الشجرة" نحو الأسوار. هناك أيضًا خارج الأسوار أرباض يسكنها الصيادون بالقرب من مراكبهم وشباكهم حيث أقيمت المنازل فوق الرمال التي كانت جزءًا من Heptastadion، أي الممر الذي كان يربط بين جزيرة فاروس والمدينة. كانت الفنارة مازالت قائمة حتى ذلك الحين؛ وكثرت المساجد وأماكن الرباط داخل أسوار المدينة وخارجها، وكثيرًا ما نجد أن الفلاسفة وأولياء الله الصالحين من العرب قد اختاروا مقارًا لهم على شاطئ البحر بنسيمه العليل وزرقة مياهه، وكانت هذه المقارّ تقام فوق كثبان الرمال التي تُرى كنتوءات في كل من الميناء القديم ومدينة الإسكندرية.

دخل عمرو بن العاص مدينة مهدّمة كما نشهد ذلك في السرابيوم وآخر مكتبة ملكية في الإسكندرية وهي المكتبة الصغرى، التي تهدمت تحديًا قبل ذلك التاريخ بقرنين ونصف من الزمان، ونسيت تمامًا. ولا شك أن عَمْرًا صعد إلى هناك، أي إلى هضبة راقودس، المنطقة الاستراتيجية الفريدة، لكن لم يكن صعوده للمكان لتدمير مكتبات لم تكن على قيد الحياة بل كان الهدف السيطرة على المدينة، وتأمل ما عليه المكان من حالة مزرية. لم يكن هناك شيء؛ وإذا ما كانت قد بقيت بعض المخطوطات الثمينة المكتوبة باليونانية والعبرية، واللغات الأخرى، في

(520) "Aammoud-es-Saouan", como la llamaron siempre en árabe los alejandrinos.

المكتبات الخاصة التي كانت لا تزال قائمة في الإسكندرية عند مجيء العرب إليها، فقد كانت تلك التي خلفها وراءهم البيزنطيون في أثناء الفترة (شهوراً) التي كانوا يجمعون فيها أمتعتهم وثرواتهم، فقد كانوا يعتبرون هذه المخطوطات من المخطوطات التي تتضمن هرطقات وبالتالي فمصيرها الإهمال والتدمير.

لم يكن العرب يريدون، على زمن الغزو أو بعده، أن يقيموا على هذه الهضبة الملعونة، هضبة راقودس، المليئة بالجن ورفات موتى معرضًا للشمس. خيّم الصمت على ذلك المكان منذ أن جرى تدميره، ولم يتحرك فيه ساكن عند الغزو العربي، فالرمال لم تكن قد غطت بعد آلاف الهياكل العظمية التي اكتشفها عالم الآثار بوتي تحت الأرض، وأدى هذا إلى خلق جو من المأساوية على المكان، فقد كان المارّ يطأ بالفعل العظام والجماجم وهو ينتقل في هذا المكان.

ظل الأمر على هذا النحو حتى القرن الحادي عشر حيث أخذ الرحّالة ومن لديهم فضول الاقتراب من المكان وإلقاء نظرة على أطلال السرابيوم وتحولت المنطقة إلى محجر. وكان هذا المكان هو الذي أشارت إليه "مخطوطة عربية" على أنه قصر، ١٠٦٧م، في معرض وصف الإسكندرية، كما تحدثت المخطوطة المذكورة عن أن أحد كُتّاب الحوليات السابقين أكد أنه خلال القرن الحادي عشر لم يكن السرابيوم إلا أطلالاً ولم يتبق منه إلا الأعمدة التي كانت لا تزال قائمة ولم يسقط منها شيء[٥٢١] وكذلك الباب الضخم الذي يشكل المدخل الرئيسي؛ وهو المكان الذي يوجد فوق هضبة راكودس والذي لا يزال أهل الإسكندرية يطلقون عليه حتى ذلك اليوم "عمود السواري"، و"مكان تيجان الأعمدة" حتى يومنا هذا.

عندما زار الإدريسي مصر عام ١١٣٦م تحدث عن وجود مائة وستة عشر عمودًا كانت لا تزال قائمة فى السرابيوم القديم؛ ويرى بوتي أن عددها بلغ ١١٦٧ عمودًا عندما تهدم بشكل نهائى ما بقى قائمًا من هذا المبنى العملاق، وتحول إلى

(521) "Descripción de Atejandría", MS rabe 580, dei 1067, de Ia Biblioteca Real de Paris, en Bi tti, "Fouilles 1896", pgs. 1-2, 1897.

محجر اتخذه أهل الحي طوال سبعة قرون. وفى "صفوة الألباب" نجد أنه كان فى ذلك العام أثر من ثلاثمائة عمود مكسور حول العمود الكبير. كما تساءل ابن جبير عما بقى فى المكان عام ١١٨٣م وقد هاله ارتفاع العمود. ومن جانب آخر نجد أن الأمير قراقوش، في أثناء حكم الملك العزيز، ابن صلاح الدين[٥٢٢] يتولى أمر الدفاع عن الشواطئ السكندرية باستخدام الكثير من الأعمدة. وعندما زار عبد اللطيف الإسكندرية عام ١٢٠٠م أحصى أربعمائة عمود محطمة.

القبط في حماية العرب:

من البدهى أن تصحب الغزوات العربية في بداياتها عمليات دمار وقتلى فى الشرق الأوسط؛ غير أن الأمر في مصر لم يحدث على هذا النحو فلم تكد تكون هناك صراعات أو معارك متعددة، فقد تم احترام الأقباط من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة وكان ذلك منذ البداية، وتحولوا إلى ذميين أو أهل الذمة وهذه مصطلحات أطلقت على معتنقي الديانات التي قبل بها المسلمون، وكان يحق لأهلها ممارسة شعائرهم، كما كانوا يحظون بدرجة كبيرة من الاستقلال الذاتي، ما داموا يقومون بدفع الجزية، وبعد الغزو العربي، وقعت هناك انتفاضات قبطية عام ٧٢٥م و٨١٥م احتجاجًا على الجزية، غير أنه، مع هذا، عاش الأقباط المصريون أفضل فترات السلام والازدهار على طول تاريخهم.

يرى فلاشر "أن المسيحيين، أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، من السوريين ومصر، قد بدا لهم المسلمون بمثابة من حررّهم. فلقد وُصفت الكنائس المسيحية - القبطية والسريانية وغيرها من الطوائف والمِلَل - بأنها كنائس "أسيرة" وهذا توصيف شائع، لكنه وصف غاية في التضليل، إذ تحررت هذه الكنائس من ربقة المطاردات البيزنطية، وازدهرت ازدهارًا لم تشهده من قبل وصحب ذلك مولد

---

(522) El Aziz (1193-1198).

أدبيات روحية رفيعة ومصحوبة بالأهازيج والعظات والكتب الدينية واستطاعت كل من الكنيسة النوبية... والأثيوبية.. أن تكون على اتصال، ولو كان متقطعًا، ببطاركتها في الإسكندرية"(٥٢٣).

أضف إلى ما سبق أن رسول الإسلام محمد، الذي كانت إحدى زوجاته مصرية استوصى بأهل مصر خيرًا من القبط. وإذا ما كان البعض يرى أن هذه العبارات هي التي اخترعها المؤرخون المصريون من المسيحيين من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، وذلك ليحظوا بحسن معاملة الغزاة، فليس لأحد أن ينكر ما ورد من آيات في القرآن التي تتحدث عن مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن(٥٢٤).

يُلاحظ أيضًا أن الغزو العربي قد أعلن عن قدومه مصحوبًا، في نظر المسيحيين الشرقيين، بمجموعة من الأحداث العجيبة والضخمة في فلسطين عام ٦٤٠ م، فطبقًا للمقولات التي تم تناقلها حدث زلزال في فلسطين إضافةً إلى رمز أطلق عليه "الظهور"، حيث ظهر في السماء صوب الجنوب نور وكأن ذلك نبوءة بالغزو العربي، وظل ذلك الرمز ممتدًا لثلاثين يومًا من الجنوب إلى الشمال، وكان على شكل سيف"؛ وربما كان ذلك غازات ناجمة عن صدع في التركيبات الصخرية في منطقة تغطيها الرمال؛ وعلى أية حال كانت هذه الظواهر تنويها وإشارات درامية تبحث عن أن السماء كانت تناصر الغزاة الجدد.

يذكر ث. ويلز ذلك، ثم يضيف أنه في عام ٦٤٠ م زال سلطان الروم في سوريا وفلسطين وما وراء النهرين، وفي منتصف العام المذكور نفسه سقطت

(523) Fletcher, "The Cross and lhe Crescem. The Dramatic Slory ofthe Eariiest Encounters between Christians and Muslims", "La Cruz y ia Media Luna. La dramática historia de los choques más tempranos entre cristianosy musulmanes"-, pg. 40, Penguin, London, 2005.

(524) "Abl al-Kitab", en árabe.

مصر البيزنطية في يد العرب بما في ذلك مدينة الإسكندرية، التي هي مركز حيوي للدراسات الخاصة بالثقافة اليونانية القديمة. كان أغلب الناس في تلك الأماكن من المسيحيين من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة الذين طاردهم البيزنطيون على أساس أنهم هراطقة؛ وغالبًا ما قام هؤلاء بالترحيب بالعرب باعتبارهم محررين لهم... وقامت السلطات المسيحية الأرثوذكسية بمطاردة النسطوريين وكذا بعض أتباع مذهب الطبيعة الواحدة سواء في سوريا أو مصر أو غيرها..."[٥٢٥].

نجد أيضًا أن Sabeos الأرمني التابع لمذهب الطبيعة الواحدة، يكتب عام ٦٦١م وقت أن كان الغزو الإسلامي على أشده في المشرق يشير إلى أن العرب حظوا بمباركة الرّب في صراعهم ضد البيزنطيين"[٥٢٦]. كما نجد أسقفا نسطوريا، خلال القرن السابع، يؤكد على "أن العرب... هم الآن حكامنا، لكنهم لا يحاربون الديانة المسيحية بأي حال من الأحوال، بل هم على العكس يتفهمون عقيدتنا ويحترمون كهنتنا والقديسين ويقومون بالتبرع لكنائسنا وأديرتنا". وخلال القرن التاسع الميلادي يؤكد لنا كاتب الحوليات المسيحي، من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، Pseudo Dionisio de Tel Mahre، في كتابه "تاريخ Zuquin" أن البيزنطيين... كانوا يرتكبون كافة الجرائم فى حق شعبنا وفى حق كنائسنا لدرجة أن الديانة التي ندين بها قد أصبحت على وشك الزوال. لكن الله أتى بأبناء إسماعيل وجعلهم ينقلون من الجنوب... وكان التعامل معهم وسيلة لحصولنا على حريتنا..."[٥٢٧].

---

(525) Wells, "Sailingfrom Byzantium. How a, LostEmpire Shaped the World", -"Navegando desde Bizancio. Como un Império Perdido Modeló el Mundó"-, pg. 126, Delta, New York, 2007.

(526) Palmer, A., y otr., "The Seventh Century in the West-Syrian Chronicles>, -"ElSigla Séptimo en las Crónicas Sirias Medio-orientales"-, Liverpool Un. Press, Liverpool, 1993.

(527) Dionisio de Tel-Mahre, Pseudo (final s. VIII-principios s. IX), "Chronica".

كتب الأسقف القبطي سيفيرو، من الأشمونيين (هرموبوليس)، ابن المقفع،[٥٢٨] في كتابه "تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية في الإسكندرية قائلًا: "إن عمرًا وجه رسالة أقاليم مصر قال لهم فيها إنه منح الحماية والأمان للمكان الذي يوجد فيه بنيامين، بطريارك المسيحيين الأقباط سلام الله عليه، وعلى ذلك فليأت إلى الإسكندرية وله الأمان الكامل حتى يقوم بتصريف شئون الكنيسة ويكون راعيًا لأمته... (وبعد أن وصل البطريارك) توجه إليه عمرو وقال له بأن يعود لتولي شئون كنيسته والرعية فيها، وأدعوك لأن تصلي من أجلي ولك كل ما تريد، وهكذا دعا له البطريارك بنيامين...".

في نهاية القرن الثاني عشر، نجد ميجل السوري، بطريارك أنطاكية يصف في "حوليته" الدمار الذي حاق بالسرابيوم على يد المسيحيين مشيرًا إلى أن كل رمز تحوّل إلى أنقاض وكانوا يلقون بهذه الرموز والتماثيل في النار ويجرّون رءوسها في الشوارع؛ غير أن ميجل انضم إلى هذا الفريق من الكُتّاب المسيحيين، خلال الخامس الميلادي، في إيثار الصمت الرصين عن مصير مكتبة السرابيوم، لكنه أشاد بالتسامح الإسلامي نحو المسيحيين الأقباط في عبارات شبيهة بتلك التي تحدث بها ديونيسيو حيث قال بأن ما حدث لنا من عتق من قسوة وفظاظة البيزنطيين وسوء معاملتهم وغضهم لم يكن بالشيء الهين، حيث يمكننا الآن أن نعيش في سلام[٥٢٩].

ويرى ج. طولان أن "بعض المؤلفين المسيحيين يرون أن الغزاة العرب كانوا... عقابًا سماويًا.. بينما يرى البعض الآخر أن المشهد لم يكن بهذه القتامة (ذلك أن) الكنائس المنافسة (أتباع مذهب الطبيعة الواحدة) قد تنفست الصعداء بشكل

(528) Severo Muqaffa (915-príndpios s. XI; 5. finales s. X), "Historia Patriarcharum Alexandrinorum Jacu bitantm", "History ofthe Patriarchs ofthe Coptic Church of Alexandria, Benjamin", 1904.

(529) Miguel el Sírio (1166-1199), "Chronica".

جماعي؛ وبعيدًا عن الضغوط (والمطاردات المتقطعة التي مارستها القسطنطينية) استطاعت هذه الكنائس أن تحصل على حرياتها الدينية وأن تصل في ذلك إلى مستوى كبير مع الحكام الجدد من المسلمين... وقد رسم بعض المؤرخين، خلال القرن السابع الميلادي، الإسلام وصفًا حميدًا... وبالتالي فإن الغزوات (العربية) كانت تقابل بشكل مختلف... (وبصفتي) من أنصار مذهب الطبيعة الواحدة فإنني أعرب عن سعادتي بتحرري من القمع البيزنطي..."(٥٣٠).

لم يحدث أن تعرض المسيحيون للمطاردات في الدول الإسلامية، وظلت أبراج الكنائس والأديرة حاضرة في المشهد المعماري في هذه البلدان، ومن هنا فإن الادعاء غير المؤسس لا يتوافق أبدًا مع هذه الروح التصالحية العربية واحترام المسيحية. فالمسلمون يؤمنون بالمسيح باعتباره واحدًا من أنبياء الله وبجلوا السيدة مريم، وكانوا يرون أن كلاً من أفلاطون وأرسطو هما أبوا الفلسفة. وبالتالي كيف يمكن أن نتصور أنهم يمكن أن يحرقوا مؤلفات هؤلاء لأسباب دينية؟ ومن المؤكد أن هذا المسلك أيضًا هو ما حدث مع المكتبات المسيحية السكندرية التي تأسست خلال القرنين الخامس والسادس، فقد كانت هذه المكتبات هي جزء من أملاك من يحظون بحمايتهم وهم الأقباط.

الصمت الكامل عن التدمير المفترض للمكتبة على يد العرب:

لم يربط أحد العرب بأمر تدمير مكتبة الإسكندرية، خلال القرون اللاحقة على غزوهم، وخيم صمت كامل شارك فيه جميع من كتبوا عن غزو العرب للإسكندرية، سواء كانوا من العرب أو من البيزنطيين. هذا الإجماع المطبق وهذا الصمت التام كانا يعنيان، بغض النظر عن المعتقدات الدينية، أن الأمر هذه المرة لم يكن مرتبطًا بموضوعات من المحرّم الخوض فيها أو الحديث عنها بل كان

(530) Tolan, "Sarracens, Islam in the Medieval European Imagination", Columbia Un. Press, 2002; "Sarracenos. El Islam en Ia imaginación medieval europea", pgs. 74-75, Un. de Valcnciu, Valencia, 2007.

الأمر يتعلق بشيء بسيط وهو أنه لم يحدث. ولما كنا قد عرضنا في سطور سابقة ما آل إليه حال المكتبات الشهيرة الملكية من زوال خلال الفترة التي وصل فيها العرب إلى الإسكندرية، أي أنهم وجدوها طللاً بعد عين ومنسية. أضف إلى ذلك أن كافة الناس كانوا يعرفون بأمر من أحرق هذه المكتبات، وبالتالي لم يكن المجال يسمح بالحديث عن اختراع أكاذيب في هذا المقام.

لم يذكر الأسقف خوان مدبّة (يوحنا مدبة) التابع لمذهب الطبيعة الواحدة شيئًا عن المشهد المفترض الخاص بإحراق مكتبة الإسكندرية على يد العرب، وكان هذا الرجل يعرف باسم خوان نيكيو، وهو من الذين عاصروا الأحداث، ولم يشر إلى أي دمار في "حوليته" التي كتبها باليونانية والقبطية حول غزو الإسكندرية؛ ووصل به الأمر إلى التأكيد على أن "عمرًا التزم بما تم الاتفاق عليه من سداد الجزية المفروضة عليهم ولم يأخذ شيئًا من الكنائس، كما لم يتسبب في أي حادثة من حوادث النهب والسلب ودافع عن المسيحيين طوال مدة ولايته"[٥٣١]. الأمر الذي يتناقض تمامًا مع المقولة الزائفة.

ولما كان خوان دي نيكيو من السلطات الكنسية فإنه يعتبر خير شاهد على دحض المقولة فهو شاهد مسيحي مهم. وقد جرت ترجمة هذه "الحولية" إلى العربية عام ١٦٠٢م على يد جيريل المصري بناءً على طلب ملكة الحبشة، غير أن هذه الترجمة العربية اختفت؛ وهناك ترجمتان من العربية إلى الأثيوبية تعكسان المشاعر المعادية للمسلمين التي كان عليها المترجمون الأحباش من القبط. وبالرغم من الغضب الواضح من سطور الترجمة لم تُظهر المقولة الزائفة في أي مصدر آخر.

---

(531)JuandeNikiu (aci. 690-696), "Chronica", CXX. El MS más antiguo es el de la "Bibliotéque Na-tionale", dei s. XVII. El segundo, es el MS dei "British Museum", dei s. XVTJI, encontrado en la antigua biblioteca dei emperador etíope Teodoro, en Magdala.

ولما كنا قد شهدنا أن النصوص التي حرّفها خوان دي نيكيو كانت تحاول تزييف كل ما يتعلق بحريق السرابيوم والمتحف، الهيئتين اللتين أحرقتا على يد المسيحيين، في محاولة لمباعدة الواقعة عن تيودوسيو الأول وتيوفيلو اللذين هما المذنبان الرئيسيان في هذه الكارثة، فمن الملاحظ أنه لا يوجد هناك أي تنويه عن أن المحرِّفين هؤلاء عرفوا خلال القرن السابع بالأكذوبة التي تتهم العرب، ومن البدهي أنهم كانوا قبل القرن الثالث عشر الذي تم فيه اختراع الأكذوبة.

لكن لم يكن هناك أي صدى لهذه الأكذوبة عند خوان دي نيكيو أو أي كاتب بيزنطي. وبالنسبة للمؤرخين العرب، فرغم أنهم بدأوا الكتابة عن الموضوع متأخرين عن المسيحيين، لم يذكروا أي شيء عن هذه الأكذوبة التي من المؤكد أنهم كانوا يجهلونها؛ وعلى هذا لم يشر إليها الكتاب الأول مثل حنين بن اسحاق[٥٣٢] والواكدي[٥٣٣] قاضي بغداد الذي كتب عن غزو مصر في كتابه "كتاب فتوح مصر"[٥٣٤]، والكندي[٥٣٥] الذي كان يلقب بفيلسوف العرب، وابن عبد الحكم في كتابه "فتح مصر"[٥٣٦] أو البلاذري في كتاب "فتوح البلدان"[٥٣٧] الذي كتبه عام ٨٦٨م، ويعتبر واحداً من المصادر الأكثر أهمية في باب فتح العرب لمصر. هذه الكتب كلها ترجع إلى القرن التاسع الميلادي وتحدثت عن فتح مصر.

شهدنا إذن ما قام به ترتوليانو من تزييف النصوص خلال الفترة الواقعة بين القرن الثامن وبداية التاسع، حيث لوحظ تجاهله الكامل لهذه المقولة الزائفة ضد العرب ثم يذهب إلى أبعد من هذا ويخلط بين المكتبات ويتحدث عن أن يوليوس قيصر هو المسئول عن كل شيء مثلما فعل أميّانو وذلك لتبرئة المسيحيين. وفيما

(532) Hunayn ibn Ishaq (n. 808).

(533) El-Wakidi (747-823).

(534) Pseudo Wakidco, "Kitab Futuh Misr".

(535) Al Kindi (c. 850).

(536) Ibn el-Hakam (m. 870), "Futub Misr".

(537) Al Baiadhuri (806-892), "Futuh ai Buldan".

يبدو، فإن هذه النظرية المعتادة التي تداولها المسيحيون ليزيحوا عن أنفسهم هذا الاتهام غير المريح خلال العصور الوسطى المتأخرة، الأمر الذي يبرهن في حد ذاته على أنه خلال القرون السابقة على غزو العرب للإسكندرية، لم يدر بخلد أحد بما في ذلك المسيحيين اتهام العرب بإحراق المكتبة الكبرى، ولو تم ذلك لكانت خاطرة بلهاء ذلك أن الجميع يعرف أن ذلك زيف. لقد حاولوا مرارًا وتكرارًا اتهام يوليوس قيصر الذي طالت المسافة الزمنية بينه وبين الواقعة.

لم يتحدث عن الموضوع أيضًا البطريارك الملكاني للإسكندرية سيد بن بتريسي، الذي أطلق عليه اللاتينيون Eutyquios، المولود بالقاهرة عام ٨٦٧م. وقد كرّس كل طاقاته في محاربة مذهب الطبيعة الواحدة الذي عليه الأقباط. ولما كان هذا البطريارك واحدًا من السلطات الكنسية فهو أحد الشهود المسيحيين الذين يدحضون المقولة الكاذبة، وقد ورد في كتاب "طوق اللؤلؤ الثمين"[٥٣٨] تحليل تاريخي امتد حتى عام ٩٣٧م، ومن خلال ما جرى عرض وصفًا تفصيليًا لغزو الإسكندرية على يد العرب، لكن لم يذكر على الإطلاق أكذوبة إحراق وتدمير المكتبة العريقة، التي لم تكن موجودة، على يد عمرو بن العاص.

غير أن ما ذكره Eutyquios في كتابه كانت "الرسالة" التي بعث بها عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب[٥٣٩] حيث يعدد له فيها كل تلك الأعاجيب التي شهدها في المدينة التي غزاها، أي وجود أربعة آلاف قصر، وأربعة آلاف حمام، وأربعمائة مسرح، واثني عشر ألف محل لبيع الخضروات ولم يذكر في تعداده لما رأى أي شيء عن السرابيوم أو عن أي مكتبة، الأمر الذي يوضح بداهة مدى زيف المقولة.

تحدث عن هذه المعلومات وعن الرسالة المذكورة مؤرخون عرب آخرون مثل إبراهيم البلوي الذي أشار إلى أربعمائة مكان لتزجية وقت الفراغ للملوك، في

---

(538) Eutyquios (patriarca 933-940), "Nothm El Ganhar".

(539) Amru, "Carta ai califa Omar".

إشارة إلى المسارح، وتحدث أيضًا ابن عبد الحكم، ويحيى بن داوود، وأبو قابيل، وهاني بن المتوكل ومحمود بن سعيد المشيمي دون أية إشارة إلى أية مكتبة أو أي تدمير فوري لها على يد العرب، ولو كانت هذه الواقعة موجودة لما غفلوا جميعًا عن ذكرها على افتراض أن ذلك أي الهدم كان بناءً على أوامر صادرة عن عمر بن الخطاب.

توقف بن عبيد عند نقطة مهمة لديه وهي حمّامات الإسكندرية مؤكدًا ما سيفعله لاحقًا كل من أبي قابيل والمقريزي(٥٤٠) حيث يشيرون إلى وجود حمامات بها دهاليز ضخمة للجلوس، الأمر الذي يرفع من طاقتها الاستيعابية لتصل إلى آلاف الأفراد. ولما كان تعداد الذكور اليونانيين في الإسكندرية يبلغ مائتي ألف عند غزو الإسكندرية يمكن القول إن أكثرهم بل جميعهم يمكنهم دخول الحمامات الأربعة آلاف دفعة واحدة.

لم يتحدث عن هذه الأكذوبة أيضًا ابن النديم، خلال القرن العاشر الميلادي، الكاتب المهم بالنسبة لنا ذلك أنه أدرج في "كتاب الفهارس"(٥٤١)، والذي يرجع لعام ٩٨١م، بابًا كاملاً حول يحيى النحوي الذي يعتقد أنه Philoponus الفيلسوف المسيحي من أتباع الأفلاطونية الجديدة والمعروف بين العرب. وهو رجل عاش خلال الفترة بين ٤٩٠م و٥٧٠م، وكان على علاقة صداقة بعمرو بن العاص عندما غزا الإسكندرية عام ٦٤١م أو أن ذلك حدث بعد قرن من الزمان.

وهذا مجرد تبرير للحديث عن المدينة القديمة، أي إنه بنية أدبية تتمثل في حوار، وهذه تقنية تستخدم أيضًا في مصادر عربية أخرى، ونسبت إلى عمرو بن العاص حوارات أخرى دارت بينه وبين شخصيات تاريخية معروفة في أثناء حملاته الحربية. شارك في هذا الحوار النديم الذي تحدث عن أمور مختلفة ومن

(540) Bucler, "TheArab Conquest...", pg. 368, Nota 1.

(541) An-Nadim (vivió cn Bagdad entre 936-c. 995-998), "Kitab al-Fihrist".

بينها ازدهار الإسكندرية وتأسيس مكتبة الإسكندرية وتطويرها، حيث أشار إلى أنها كانت تضم ٥٤١٢٠ كتاب على زمن البطالمة، ونُسِب إليه أنه مؤلف الحوار الذي دار مع الراهب "إسحاق Isacco" بينما الحقيقة تقول بأنه مأخوذ في حقيقة الأمر عن Aristeo وبالتحديد عن إبيفانيو دي سلامينا الذي قدّم لنا رقمًا غريبًا لعدد الكتب هو ٥٤٨٠٠ لفافة بردي كنوزًا للمكتبة القديمة. ورغم أبحاثه عن المكتبة الكبرى فإنه ـ أي النديم ـ لم يشر قط إلى نهايتها المفترضة على يد العرب.

هناك شهادة مهمة وهي شهادة سيفيرو المقفّع، الأسقف القبطي الذي عاش في نهاية القرن العاشر الميلادي والذي اعتمد في تأليف كتابه، "تاريخ البطاركة"[٥٤٢] على إيوزيبيو بشكل أساسي ولم يشر من بعيد أو قريب إلى تدمير السرابيوم على يد تيوفيلو، ولو أنه تحدث بشكل غير مباشر عن النهب والسلب الذي تعرضت له أطلال المعبد المذكور، ولم يشر أيضًا إلى أي حريق شب في مكتبة من المكتبات وكان وراءه عمرو بن العاص؛ ورغم أنه يروي لنا بشكل مفصل خطوات الغزو العربي للإسكندرية مشيرًا، في هذا السياق، إلى الرسالة الحقيقية التي كتبها عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب. ويتسم هذا الصمت بالأهمية وبخاصةٍ عندما نضيفه إلى الصمت الذي عليه معاصره، وهو Eutyquios الأسقف الملكاني للإسكندرية عدوه اللدود إيديولوجيًا.

لم يكن أي من هذين الأسقفين المصريين ـ سيفيرو وإيوتيكيوس ـ يعرف شيئًا عن هدم أي مكتبة على يد العرب، وكان كلاهما يمثلان، كل في مذهبه، الطائفة المسيحية في مصر خلال القرن العاشر، سواء من الأقباط أو الملكانيين. وعلى هذا فعلى الصعيد المسيحي لم يكن أحد يعرف شيئًا عن هذه الأكذوبة والحال كذلك في باقي أنحاء مصر. وخلال العصور الوسطى لا نجد أثرًا لهذه الأكذوبة في الذاكرة الشعبية المصرية أو العربية أو المسيحية.

(542) Severo Muqaffa, "History ofthe Patrieirchs, Teófilo, Benjamin I", X!, XXVI.

كما لم يشر إليها المؤرخون في معرض حديثهم حول غزو الإسكندرية مثل الكاتب الفارسي الطبري(٥٤٣) الذي يعتبر بمثابة تيتو ليفيو العرب، كما إنه هو الذي انتهى من تأليف كتابه "التاريخ العام" عام ٩١٤م؛ وكذلك الأمر بالنسبة للمسعودي(٥٤٤)، الذي عاش خلال القرن العاشر، أو أبو صالح أو أي مؤرخ آخر سواء كان مسلمًا أو مسيحيًا. هناك صمت مطبق على أية حال، فلم يكن أحد يعرف حتى ذلك الحين بالقصة المفتراة، ولم يكن أحد يعرف شيئًا عن المكتبة القديمة التي زالت منذ زمن.

قيام العرب بإعادة جمع المخطوطات القديمة:

يُقال: "إن الرسول محمدًا جعل محبرة العالم بمثابة دم الشهداء". ورغم أن ابن خلدون أشار في "المقدمة"، إلى أن المسلمين كانوا عربًا أميين لا يعرفون القراءة أو الكتابة، وحتى يعوضوا ذلك استعانوا باليهود والمسيحيين أو ببعض الأعراق غير العربية من الذين يعرفونهم(٥٤٥)؛ وقد بدأ العرب، منذ بداية توسعهم، جمع كافة الكتب التي تنسب إلى الكلاسيكية، ما استطاعوا، ثم ترجموها إلى العربية وهذا موقف لا يتوافق مع الافتراض الذي يقول بأنهم دمرّوا المكتبات والكتب عندما غزوا مصر؛ وإنما يقول المنطق بعكس ذلك.

ومع بداية القرن السابع الميلادي نجد أول مجموعة من مؤلفات الأدب العربي المعروفة؛ ومن الأمور ذات الدلالة هي أن النص الأصلي الذي ألفه "ثيون Theon" والد هيباتيا "حول الأسطرلات الصغير"(٥٤٦) الذي يرجع إلى القرن الرابع الميلادي قد عرف به الكُتّاب العرب فقط خلال القرن السابع الميلادي. ومن البدهي أن يكونوا قد عثروا عليه في الإسكندرية، في مدرسة الأفلاطونية

(543) Et-Tahari (838-923).

(544) Mas'udi (fl. c. 960).

(545) Ibn Khaldun (1332-1406), "al-Muqaddimaii".

(546) Dzielslía, "fíypatia of Alexandria", pg. 73.

الجديدة التي كانت لا تزال مفتوحة وبمباركة من الغزاة، الأمر الذي يؤكد الاحترام الذي يكنه العرب للموروث العلمي الذي ظلت الإسكندرية تحتفظ ببعض منه.

نعرف أيضًا أن الإسكندرية كانت مليئة بالكتب حتى بعد الغزو العربي، ونعرف ذلك من أخبار الزيارة التي قام بها الأسقف النسطوري يعقوب دي إيديسا للمدينة عام ٦٨٠م، وهو رجل من البارزين في اللغة اليونانية وفي "الكتابات المقدسة" حيث قدم إلى هناك لمزيد من التقدم في مستواه اللغوي في اليونانية؛ وقام بزيارة العديد من المكتبات في العاصمة المصرية؛ وسوف يبرز هذا الرجل باعتباره عضوًا في مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية التي كانت لا تزال مفتوحة. وخلال هذا العقد من الزمان (٦٨٠م - ٦٩٠م)، أي بعد وقت قصير على غزو العرب للإسكندرية، نجد النصوص اليونانية والقبطية تترجم إلى اللغة العربية.

وفي عام ٦٩٣م، ظهرت في مصر أول بردية ثنائية اللغة، أي بالعربية واليونانية، وهذا دليل على عدم منطقية زيف إحراق الكتب المكتوبة باللغة اليونانية جميعها، كما أنه يؤكد على حاجة ملحة واهتمام شديد بمعرفة محتوى هذه الكتب الغامضة التي وجدوها في الإسكندرية. ومن هنا فإن الفضول المعرفي بين الصفوة العربية كان واضحًا في باب اكتشاف هذه الأعاجيب التي تضمها الكتب اليونانية. يمكن القول إذن إنه لم يكن ليأمر أي قائد أو حاكم عربي بإحراق كتب كانوا يعتبرونها أهم من الكنوز. وكانت هذه الكتب تضم التقدم المعرفي البارز في علم الميكانيكا والرياضيات وعلم الفلك والفيزياء والفلسفة.

ربما تؤكد هذه البردية ثنائية اللغة على وجود قواميس ثنائية اللغة معروفة منذ القدم، وهذا كله إنما هو محصلة التواجد الفعال والنشط لهؤلاء الرجال من أنصار اتجاه أورجنيس، أي دائرة المترجمين في حقل الأفلاطونية الجديدة من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة، وهي عبارة عن كتب باللغة القبطية واليونانية

والآرامية والسريانية، لغات ظلت جزءًا وأداة لدى مجموعات الدارسين المسيحيين في إطار مدرسة الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التي كانت لا تزال على قيد الحياة وظلت حتى القرن السابع رغم العقبات والمصاعب؛ وقد برز في هذه المدرسة الكثير من الأطباء والعلماء المسيحيين من أمثال "هارون Aaron" و"بابلو دي إيجينا P.de Egino"، وقد درس هذا الأخير في الإسكندرية وعمل بها وكان شاهدًا على الغزو العربي. من أحد مؤلفاته "علم الطب"(٥٤٧) وهو كتاب اهتم به العرب كثيرًا، كما أنه قام بتعليم خوان السكندري(٥٤٨)، الطبيب والسفسطائي، الذي كان هو الآخر شاهدًا على الغزو، كما أن دروسه الطبية حول حريوقراط وجالينو كان لها تأثير واسع في الدراسات العربية الأولى.

برز أيضًا سيفيرو سيبوت(٥٤٩) الفيلسوف وعالم الرياضيات وعالم الفلك، ومعه أيضًا تلميذه "أثاناسيو دي بلد A. Balad"، وكذا الأسقف جريجوريو دي أوران ويعقوب دي إيديسا، ثم قام كل هؤلاء بنشر وبث "هلنستية مسيحية"(٥٥٠) بالآرامية. كما كان هؤلاء المترجمون بمثابة جسر رائع تم من خلاله انتشال الكثير من النصوص الكلاسيكية، إضافة إلي أن ترجماتهم إلى السريانية أمكن لها أن تصل من الإسكندرية إلى كافة أنحاء العالم العربي عبر سوريا؛ وبذلك نرى أن الإسكندرية لم تكن مدينة مجهولة لدى القبائل العربية، وكان هؤلاء يعرفون منذ قدومهم أن الكتب هي أبرز كنوزها.

في الوقت ذاته نجد الغرب المسيحي يشهد اتهامًا بالهرطقة لكتب أرسطو وباقي العلوم الكلاسيكية وظل على هذا النحو حتى القرن الثالث عشر الميلادي.

---

(547) Pablo de Egina (Prímera mitad s. VII), "De ré medica", "Suidas", II 808.

(548) Juan de Aíejandría (Primera mitad s. VII).

(549) Severo Seboth (c. 662).

(550) Meyerhof, "Von Akxandrie nach Bagdaid, pgs. 389-429, SPAW, 1930, en "Christin Chris-tian Tmdition", Vol. 2, Pt. 4.

أما في الجانب العربي فإنهم، بما في ذلك الدولة الأموية(٥٥١) في دمشق، التي أسست الفرقة السنية، قد جمعوا كافة الكتب في الطب المكتوبة بالقبطية واليونانية وقاموا بترجمة أعمال بعض الفلاسفة الذين كانوا يعيشون في مصر إلى العربية وكان هؤلاء المترجمون من الذين ينسبون إلى مدرسة الأفلاطونية الجديدة طبقًا لما يرويه لنا النديم في "الفهرس".

ويرى ذلك المؤلف أن خالد بن يزيد هو الذي دفع إلى الترجمة عن القبطية في مصر رغبةً منه في معرفة أسرار الكيمياء، وتعاقد مع مجموعة من العلماء المصريين من الخبراء في اللغة القبطية واليونانية والعربية(٥٥٢) وقد تم اعتبار هذه الترجمات على أنها مثل الأصل Agatodemony Hermos Trimegisto. ترجع أول لفافة بردي مكتوبة بالعربية بالكامل إلى عام ٧٠٩م، بينما ترجع آخر لفافة ثنائية اللغة (اليونانية والعربية) إلى عام ٧١٩م.

وفي عام ٧١٨م أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز(٥٥٣) بنقل أكاديمية الإسكندرية ومكتبتها إلى أنطاكية، أي بالقرب من دمشق عاصمة الأمويين، وقد أدى هذا كله إلى نشوء حركة ترجمة الفكر الكلاسيكي إلى العربية ابتداءً من الحين مثل ترجمة أرسطو والأفوطونية الجديدة في عصر الخلفاء العباسيين(٥٥٤) في بغداد. وخلال ذلك العصر تم نقل مدرسة الإسكندرية القديمة وكنوزها المتمثلة في الكتب والمترجمين إلى مروى ووهران بالقرب من عاصمة العباسيين.

كان ذلك خلال القرن الثامن الميلادي عندما تم إدخال الورق، من الصين، في العالم العربي، وبذلك زادت أعداد الكتب. هنا يمكن القول إن التعطش للمعرفة امتد إلى كافة أرجاء العالم العربي، ونشط البحث عن المخطوطات القديمة

---

(551) Dinastia Onfeya (661-750).

(552)Yazid (708), en An-Nadim, "índices"

(553) Omar 11(718).

(554) Califas Abasidas (750-870).

وجلبها إلى المكتبات وترجمة الآلاف منها، وكان يرعى ذلك الحكام والأرستقراطية والعلماء. وعلى هذا كان للمدارس اليونانية وللمترجمين في سوريا والعراق وفارس دور رئيسي في نقل الثقافة اليونانية القديمة إلى العرب وبخاصة الفلسفة والمؤلفات العلمية؛ ومن المعروف في هذا المقام أن المراكز الهلنستية التي كانت قد انبثقت عن المدارس السكندرية تعيش حالة أفول.

يرى ابن خلدون في مقدمته[٥٥٥] أن الخليفة العباسي المنصور[٥٥٦] طلب من الإمبراطور البيزنطي أن يرسل إليه بكتب الرياضيات والفيزياء والفلسفة، وترجمتها عن اليونانية والبهلوية واللاتينية والسريانية؛ وفي نهاية القرن الثامن شهدنا العديد من النصوص الفلسفية اليونانية مترجمة إلى العربية، وكذا مؤلفات تدخل في إطار العلوم البحتة حيث كان الخلفاء يجزلون العطاء لها.

يؤكد ب. لويس أن بعض أوائل المترجمين كان لهم إنتاجهم الخاص بهم وعادةً ما كانت هذه الإسهامات تتمثل في ملخصات وتحليلات للأصول اليونانية... وكان التأثير اليوناني ملحوظًا في مناحي العلوم المختلفة... وأدت الجهود الضخمة المبذولة في ميدان الترجمة التي كانت تتم إما مباشرةً عن اليونانية أو عن ترجمات وسيطة هي السريانية إلى زيادة حركة النشاط العلمي خلال القرنين التاسع والعاشر. كما نعرف أن حركة الترجمة بدأت في عهد الأمويين، حيث ترجمت بعض الكتب في مجال الكيمياء، سواء كانت يونانية أو قبطية. وخلال عهد عمر بن عبد العزيز، قام يهودي يُدعى Masaryawaib، من مدينة البصرة، بترجمة كتب في مجال الطب عن السريانية إلى العربية. وعادةً ما كان المترجمون من المسيحيين واليهود وبخاصةٍ من السوريين؛ غير أن الترجمة في عصر الأمويين كانت تتسم بعدم انتظامها وبأنها نتاج جهود فردية، وعندما تولى

(555) Ibn KhaJdun, "al-Muqadãimah"

(556) Al Mansour (754-775).

العباسيون خضعت لنظام رسمي، وهنا يمكن القول بأن القرن التاسع الميلادي كان فترة الذروة وبخاصة في عصر المأمون[٥٥٧].

بيت الحكمة ومدرسة المترجمين في بغداد:

أسس الخليفة المأمون[٥٥٨] بيت الحكمة عام ٨١٣م، وهو مدرسة مهمة للترجمة لها مكتبتها التي كانت كتبها منسوخة عن مدارس المترجمين التي كانت تابعة بشكل مباشر للمكتبة الكبرى في الإسكندرية. وكان بيت الحكمة أيضًا مركزًا للترجمة والبحث يضارع تلك المؤسسات السكندرية القديمة، واستطاعت هذه الهيئة أن تدفع بالترجمة إلى العربية بعدد مهم من الكتب المكتوبة باليونانية والسريانية والهندية والبهلوية، وكذلك مؤلفات أرسطو؛ وشهد بيت الحكمة أيضًا تقدمًا علميًا ملموسًا في علم الرياضيات وعلم الفلك، وجذب إليه الكثير من العلماء المشاهير مثل الكندي، أول الفلاسفة العرب حيث كان عضوًا في بيت الحكمة.

سافر المترجم الشهير والطبيب والمتخصص في تنظيم المكتبات حنين بن إسحاق، من بغداد إلى الإسكندرية في منتصف القرن التاسع، وكانت غايته تعلّم اليونانية في مدارسها، الأمر الذي يدل على أن التعليم في الإسكندرية كان لا يزال نشاطًا حيًا رغم نقل مدرسة الأفلاطونية الجديدة إلى الإسكندرية، وكذا وعندما تحدث اسحاق عن أفكار الفلاسفة تطرق إلى التكوين الأدبي Harran لبيت الحكمة، وأشار إلى المتحف ومكتبة الإسكندرية القديمة وتحدث عن أن اجتماعات الفلاسفة كانت تتم في... وقام اليونانيون... وشيدوا لهم منازل من ذهب كانت مزينة بالكثير من الزخارف...[٥٥٩].

(557) Lewis, "The Arabs in History", 1950; New Edition, Oxford, 1993; "ria", pg. 169, Madrid, 1956.

(558) Al-Ma'moun (813-833).

(559) Ishaq, "Nawadir fil-falasifa".

ويرى ساندرز أن عدد المخطوطات التي نجت من تلك الفترة كان كبيرًا، فقد كانت المكتبة الوطنية في فيينا تضم اثنين وعشرين ألف كتاب باليونانية وأحد عشر ألف بالقبطية وخمسين ألفًا بالعربية وهذا هو في حد ذاته قمة جبل الثلج المتمثل في التبادل بين اللغات من خلال المصريين والجويك المتحدثين باليونانية والغُزاة العرب(٥٦٠).

دفع شغف المأمون بالكتب إلى اكتنازه العديد من المخطوطات، فقد كان يبعث برسائل مصحوبة بهدايا ثمينة إلى الأباطرة البيزنطيين، في صورة سفارات إلى القسطنطينية طلبًا للكتب اليونانية التي تتناول الفلسفة بالدرس، وغيرها من الكتب المنتقاة من المكتبات البيزنطية، طبقًا لرواية النديم. وتحولت هذه المراسلات بين الملوك العرب والمسيحيين إلى تقليد اعتبارًا من القرن التاسع الميلادي وكان ذلك موروثًا أدبيًا استخدمه بعد ذلك المؤلفون العرب باعتباره مادة للسرد والحديث.

ووصل الأمر بالمأمون في بعض المراسلات أن طالبهم بالمخطوطات اليونانية باعتبارها نوعًا من تعويضات الحرب، كما نعرف أيضًا أن كافة كتب أرسطو لم تكن كلها جزءًا من الكنوز التي خرج بها البيزنطيون من الإسكندرية، وهذا ما يرويه النديم في "فهرسه" حيث يقول بأن أرسطو ظهر في المنام للخليفة المأمون وحثه على ترجمة كتبه إلى العربية، وعلى ذلك قام الخليفة بإرسال مجموعة من الرسائل إلى الروم وطلب من الإمبراطور أن يبعث إليه بكتب معينة لأرسطو وهنا كان رد الملك المسيحي أن هذه الكتب لا تتوفر لديه ولو كانت في صورة نسخ مقلدة من الأصول(٥٦١).

لم يتم العثور على هذه الكتب إلا بعد ذلك ومعها عدد ضخم من الكتب الأخرى في دير مهجور في قبرص أو بيزنطة، حيث كانت محفوظة في مخزن له

---

(560) Saunders, "Alexanders Tomb".

(561) An-Nadim, "Kitab al-Fihrist".

مغاليق كثيرة، على زمن قسطنطين الأول، وتم إرسالها على الفور إلى بغداد. وفي هذا المقام نجد أن كلاً من ابن النديم وابن نباتة يؤكدان على مسارعة الرهبان في التخلص من هذه الكتب الكلاسيكية المخبأة والبعيدة عن أيدي العلماء والباحثين، ويرسلون بها على الفور إلى الخلفاء العرب خوفًا من أن تؤدي "العلوم القديمة" أو ما يسمى "علوم العقل" إلى نقل أي نوع من العدوى "للعقائد الدينية الصافية" في الإمبراطورية البيزنطية.

ومع هذا كله شهد عصر المأمون، الرجل الذي بدأ هذا الجهد الرائع في دعم ترجمة الفكر اليوناني إلى العربية وشارك في ازدهار الفلاسفة الأكثر عقلانية، نقول شهد هذا العصر زراعة بذرة الفرقة؛ فلم يدر بخلده إلا العمل في هذا السياق الثقافي ومحاولة ممارسة سياسة فوقية تفرض على العالم الإسلامي فكرًا عقلانيا يونانيا فوق المعتقدات الدينية، وأطلق على هذا التيار من المفكرين المعتزلة، وضمت هذه الجماعة فريقًا من المراقبين أطلق عليه "المحنة" وكان يمكن لهم اتخاذ قرار في ممارسة التعذيب في محاولة لفرض آرائهم الفلسفية على المسلمين.

ظهرت موجة معارضة لهذا الاتجاه تمثلت في التوجهات الصوفية وعلم التوحيد وأصبحت العمود الفقري للعالم الإسلامي؛ وأخذنا نشهد منذ اللحظات الأولى ظهور أصوات في العالم العربي تناهض هذه الحركة التي تتمثل في ترجمة الموروث اليوناني بكامله. وابتداءً من القرن التاسع الميلادي، نجد أن "علوم العقل" تتعارض مع "علوم الدين" وذلك في الأوساط الأكثر تشددًا. وأصبح العقل، الذي يرتبط بالموروث اليوناني، مهمشًا ابتداءً من القرن الثاني عشر، وذلك لحساب العقيدة، وهذا ما حدث في أوروبا العصور الوسطى حتى ذلك الحين. ورويدًا رويدًا تعرضت حركة الفلاسفة والمترجمين للنقد الشديد وألصقت التهمة بهؤلاء على أنهم أجانب ومناهضين للإسلام، وتدهورت العلوم الإسلامية وأخذ يخبو نورها ثم انطفأت بينما بدأ الخط المعاكس لذلك في أوروبا.

على أية حال، نجد أن الجهد الذي قام به الخليفة المأمون قد أيده فيه وسار على نهجه بعض الحكام والرعاة العرب الذين ضموا العديد من الكتب إلى مكتباتهم وطلبوا ترجمة آلاف المخطوطات اليونانية التي تتناول الفلسفة والموسيقى والرياضيات والهندسة والطب والميكانيكا وعلم الفلك أو التنجيم. أدى هذا الجهد كله إلى نهضة غير مسبوقة في البلاط العباسي وفي العالم العربي. وكان العصر الذهبي للإسلام متمثلاً في الفترة من القرن التاسع الميلادي حتى القرن الثاني عشر، حيث كانت فترة من أزهى العصور في تاريخ الفكر الإنساني، وسوف تسهم هذه الفترة بعد ذلك بقرون، في إدخال نور العلم إلى الغرب وصحب ذلك أسماء لأعلام كبار مثل ابن سينا[٥٦٢] الذي يعتبر النموذج في التقدم العلمي في عالم الطب العربي، وهو علم تقدم على الغرب طوال عشرة قرون؛ وهناك علماء آخرون في سياق دخول العلوم العربية إلى الغرب مثل ابن رشد[٥٦٣] أكثر الفلاسفة العرب تأثيرًا على الفكر الغربي وإليه ترجع أصول مدرسة "علم اللاهوت المسيحي".

أدى كل هذا إلى خلق شعلة من النور غير مسبوقة في الثقافة العربية وأصبحت هذه الثقافة رائدة بين الأجيال الشابة في أوروبا، وقد أعلن هذا في منتصف القرن التاسع الميلادي ألبارو باولو وهو الإسباني الأندلسي الذي اعتنق الإسلام وكان أحد علماء اللاهوت وأحد شعراء المستعربين، إذ أكد في مؤلفه المعنون "دليل مصغر في الهداية" الذي كتبه عام ٨٥٤م وقال فيه "يطرب زملائي من المسيحيين بالقصائد والرومانث العربي، ويدرسون أعمال رجال الدين والفلاسفة من المسلمين، وليست هذه الدراسات لدحض ما جاء بها، ولكن حتى يتمكنوا من الاستخدام الصحيح للغة العربية وأساليبها الصحيحة... كما أن الشباب المسيحيين لا يعرفون لغة أو أدب آخر إلا العربية، هم يقرؤون ويدرسون

(562) Avicena (c. 1037).

(563) Averroes (1126-1198).

بنهم هذه الكتب العربية، ويكوّنون مكتبات كاملة العربية مهما كلفهم في ذلك من ثمن ويتغنون بالثقافة العربية في كل مكان"[٥٦٤].

أسس ابن طولون[٥٦٥]، خلال القرن التاسع الميلادي، مكتبة في الإسكندرية، لكنها كانت أكثر تواضعًا عن مكتبة بغداد، وقام في آن معًا بترميم الفنار والأسوار، وقناة الإسكندرية، والشيء المثير للانتباه هو أن عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ كتب في مقال له بعنوان فيه تقريظ للتجار، يشير إلى أن ذلك القرن نفسه شهد كسادًا تجاريًا في عالم الكتب التي كان يطلبها العلماء كما أن المتداول منها كان قليلاً وغير جيد"[٥٦٦]. ونحو عام ٩٠٠م بدأ تصنيع الورق في الإسكندرية وبعد ذلك انتقل من هناك إلى الأندلس وأوروبا.

عاشت المدرسة الأفلاطونية الجديدة، ومعها مكتبتها الثرية مرحلة انتقال أخرى في بداية القرن العاشر، وقام بذلك النسطوري يوحنا بن حيلان، بأن نقلها من Harran حتى بغداد عام ٩٠٨م حيث رعاها الخليفة العباسي المقتدر[٥٦٧] واندمجت في مدرسة المترجمين التي أسسها المأمون. وفي منتصف القرن العاشر، ازدهرت في بغداد مدرسة لهؤلاء الفلاسفة المسيحيين الذين كانوا يعتبرون من الهراطقة وهم النسطوريون، وكان يرأسها أبو بشر متي بن يونس[٥٦٨]. ويرى البعض أنه هو وتلميذه، الفيلسوف التركي محمد الفارابي[٥٦٩] كانا يمثلان الأصداء الأخيرة لمدرسة الأفلاطونية الجديدة السكندرية.

ومع نهاية القرن العاشر كتب الأسقف القبطي وعالم اللاهوت والمؤرخ سيفيرو، المقفع، في مؤلفه "حياة البطاركة"[٥٧٠] مشيرًا إلى ما كان عليه من واجب

(564) Paulo Alvarus (c. 800-861), "Indicuius luminosus".

(565) Ibn Toulum (870-884).

(566) Al Yahiz (c. 869).

(567) Al Muktadir (908-932).

(568) Bin Yanus (m. 94Q).

(569) Al-Farabi (870-950).

(570) M S Copto de Paris, Alejandría, s. XI.

الرحيل إلى الإسكندرية لمدّ يد العون لبعض العلماء الأقباط في مجال ترجمة بعض المخطوطات القبطية واليونانية إلى العربية، ذلك أن أغلب المسيحيين المصريين لم يعودوا يعرفون هذه اللغات القديمة خلال القرن العاشر.

يرى "ابن جلجول Yelgul" المؤرخ والطبيب القرطبي والمتخصص في التاريخ الهلنستي، خلال القرن العاشر، أن رومانو، إمبراطور القسطنطينية، ـ أو ربما قسطنطين السابع ـ أرسل إلى الخليفة القرطبي عبد الرحمن الناصر[٥٧١] ـ عام ٩٤٨م ـ برسالة مصحوبة بهدايا رفيعة، من بينها الكتاب الطبي المصوّر باليونانية، "المادة الطبية" لمؤلفه ديسقوردس، وأضاف أن هذه الرسالة كانت تتضمن أيضًا مخطوطة "التاريخ"، لأوسوريو، وهو كتاب يتناول الأحداث الماضية وأخبار الملوك القدامى والأحداث المهمة. وكان الإمبراطور "رومانو" يشير في رسالته إلى عبد الرحمن الناصر إلى أن كتاب ديسقوردس لن يقيد الخليفة في شيء اللهم إلا إذا عثر على رجل يفهم اليونانية ويعرف سمات علم الطب أي موضوع الكتاب، وإذا ما كان هناك من يستطيع أن يفعل ذلك فإن الكتاب سوف يكون ذا جدوى عظيمة. وبالنسبة للكتاب ديسقورس هناك في الأندلس من يستطيع أن يقرأ باللاتينية وهم قادرون على ترجمة ذلك إلى العربية"[٥٧٢].

يبدو أن لا أحد قد تمكن، في قرطبة، من ترجمة الكتب، حتى قام الإمبراطور رومانو، بناء على طلب عبد الرحمن الناصر، بإرسال الراهب نيكولاس إلى قرطبة، عام ٩٥١م لتأهيل مترجمين عن اليونانية واللاتينية في الأندلس، وعلى هذا ففي عام ٩٥٢م تمت ترجمة كتاب "التاريخ" لأوسوريو إلى العربية[٥٧٣]، ويقال

---

(571) Abd al-Rahman III ai Nasir (912-961).

(572) Ibn Yulyul (fl. 976-1009), en el Prólogo de su libro "Tafsir Kitab Diyusquridus" o "Libro de Ia explicadón de los nombres de los medicamentos tomados dei libro de Dioscondes", transmitido por Ibn Abi Usaybi'a (m. 1270) en "Uyun al-anbafi tabaqat al-attiba", o "Noticias sobre Ias ge-nemciones de médicos".

(573) Traducción ai árabe de Orosio conocida como "Kitab Hurushiyusb".

أن القاضي قاسم بن أسبق، وقاضي المسيحيين وليد بن خيزران هما اللذان قاما بهذه الترجمة.

كان العرب شغوفون بالكتب وأصبحوا في نهاية المطاف من أكبر جامعي المخطوطات في التاريخ، ووصل الأمر إلى القول بأن الخليفة الحكم الثاني(٥٧٤) كانت لديه مكتبة بها أكثر من أربعمائة ألف كتاب في مكتبته "الأموية في قرطبة"(٥٧٥) وكانت هذه الكتب مفهرسة في ثمان وأربعين مجلدًا، وكان لهم وكلاؤهم في القاهرة وبغداد ودمشق أو الإسكندرية، والغاية هي شراء مخطوطات أو نسخها، ويدخل في ذلك كل ما يمكن العثور عليه وتجنيد عدد من النُسّاخ والمجلدين والمترجمين ورساميّ المنمنمات ليعملوا في ملاحق تابعة لقصر الخليفة. أضف إلى ما سبق وجود سبعين مكتبة أخرى في قرطبة الأموية وكان يتم نسخ سبعين ألف كتاب في العام. ووصل عدد الكتب في المكتبة الفاطمية بالقاهرة إلى مليوني كتاب، وإلى ثلاثة ملايين في مكتبة طرابلس(٥٧٦).

وفي الوقت ذاته نجد الكتب في العالم المسيحي - سواء في بيزنطة الأرثوذكسية أو أوروبا الكاثوليكية خلال العصور الوسطى - مرتفعة الثمن إضافةً إلى صعوبة العثور عليها؛ وأحيانًا ما نجد المكتبات تضم خمسة كتب أو عشرًا في القصور، أما مكتبة كلوني أو كانتربوري فقد كانت تضم ثلاثين أو أربعين مجلدًا. وكان لدى القديس إيسيدورو المكتبة الأضخم في الغرب، حيث وصل عدد دواليبها أربعة عشر دولابًا يضم مائة وأربعين كتابًا. وخلال القرن العاشر نجد مكتبة دير ريبول تضم ١٩٢ كتابًا، أما المكتبات الأكثر ضخامة في أوروبا، مثل مكتبة Avignon والسوربون فقد كان عدد الكتب قد وصل إلى الفين عام ١١٥٠م.

(574) Al-Hakam II (961-976).

(575) Dozy, R., "Historia de los Musulmanes en Espana"., T. III, V, pgs. 97-98, Ed. Turner, Madrid, 1984.

(576) Citada por Gibbon, e incendiada por el cruzado Conde de St. Giles,

لم تكن في أوروبا مكتبات حقيقية حتى بعد بداية القرن الثالث عشر الميلادي، كما لا نعرف بوجود غرف مخصصة لها، فقد كانت الكتب والرُّق تحفظ في الكوّات والصناديق أو الدواليب ذات الأرفف؛ ولهذا فإن المكتبات خلال العصور الوسطى كان يطلق عليها مسمى "الدولاب" أما لفظة مكتبة فقد كانت تعني صندوقًا مخصصًا للكتب. وحتى عام ١٣٣٨م كانت مكتبة السوربون بباريس تضم ١٤٠٠ كتاب منها ٣٨٨ كتابًا يمكن الإطلاع عليها وهي كتب مربوطة على ترابيزاتها.

وبناءً على كل ما سبق كان العرب واعين لدورهم الرئيسي في الحفاظ على النصوص الكلاسيكية ونقلها إلى الغرب، حيث بدأت دراستها، بفضل العرب، في كل من Chartres وبولونيا وأكسفورد وباريس. ويمكن القول بأن الكثير من النصوص والكتب الفريدة والتي لم تطبع عد للمؤلفين الكلاسيكيين قد واصلت حياتها من خلال الترجمات إلى العربية، وهنا يؤكد إتش. إنيس أنه لم يحدث في تاريخ البشرية وجود مثل هذا الزخم من الأدب (الكلاسيكي الوثني) الذي تعرض للتدمير بشكل راديكالي[٥٧٧] في أوروبا تلك العصور، فقد اختفى من الساحة النُسّاخ المسيحيون في تلك الجغرافيا، ولهذا كان يُنظر إلى العرب بإعجاب في الغرب خلال العصور الوسطى على أنهم هم الفلاسفة الحقيقيون الذين ورثوا الفكر اليوناني وأنقذوه من النسيان وكذا شيئًا من العلوم مثل الرياضيات وعلم الفلك.

رد الفعل المسيحي والأدبيات المثيرة للجدل:

كان رد الفعل من قِبَل المسيحيين الغربيين والأرثوذكسي الملكانيين غامضًا إزاء الغزو العربي وجاء هذا منذ السنوات الأولى، ورغم أن المسيحيين كانوا يرون أن الخطر الداهم بالنسبة لهم هو المتمثل في الهراطقة المنتشرين في الشرق

---

(577) Innis, "The Bias of Communication", -"AlFilo de Ia. Comunicación" 1991

الأوسط، فإن موقفهم إزاء الغزوات العربية اتسم بالإعجاب والرفض، أي الإعجاب بمدنهم الجديدة مثل بغداد والإعجاب بغزواتهم العظيمة وما بلغوه من علم ورفعة ثقافية. كان كل شيء يبدو وكأنه عطيّة نزلت من السماء؛ وفي المقابل هناك ضعف الغرب وانحطاطه وقد أشار إلى هذا البعض مثل تيوفانس، عام ٨١٥م في مؤلفه "حولية Gronografia"(٥٧٨) وريكاردو دي مونتي كروتشر في مؤلفه "الرسالة الخامسة" لعام ١٢٩١م(٥٧٩).

في الوقت ذاته، وبفضل التحول الكثيف من اعتناق المسيحية إلى اعتناق الإسلام في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بما في ذلك إسبانيا، نلاحظ أن المؤلفات أصبحت ذات نغمة عدائية متنامية(٥٨٠) إزاء ما كانت تعتبره عقيدة خاطئة، وهنا يوضح طولان(٥٨١) أن أوائل الكُتّاب من المسيحيين المناصرين من الذين أسسوا توجهًا لاهوتيًا لمواجهة ما أطلق عليه الوثنية ومواجهة اليهودية التي نشأت منها الطوائف المسيحية، وكذا الأفلاطونية الجديدة، قام هؤلاء الكُتّاب أو هذا الاتجاه بفعل الشيء نفسه لمواجهة الإسلام.

في هذا المقام، وبشكل متوازٍ، جرت محاولات محو الماضي من جانب المسيحيين؛ ورغم الغزو العربي فإن الذكرى الأليمة الخاصة بمقتل هيباتيا، تلك الشهيدة الوثنية والتي ارتبطت بمتحف الإسكندرية لم تُمح عبر الزمان؛ أمام هذا الموقف ظهرت في الكنيسة اليونانية حركة تهدف إلى إخراج تلك الحادثة عن سياقها منتهزة بذلك المسافة الزمنية الفاصلة بين الحادثة وبين تلك الفترة وانتهزت كذلك حالة الغموض التي لفّت تلك الأراضي التي لم يعد ممكنًا

(578) Teofanes, "Chronographia".

(579) Monte Croce, "Epistole V de perditione Acconis".

(580) Said, E. W-, "Onentalism", ""rientaltsmo"-, pgs. 59 y ss., Vintage Books Ed., New York, 1979.

(581) Tolan, "Sarracens", Columbia Un. Press, 2002; "Sarracenas. Ellslam ...", pgs. 70-85, Un. Valencia, 2007.

استعادتها وهي مصر نظرًا للغزو العربي؛ أي إن ذكرى هذه الشهيدة جرى إخراجها عن سياقها التاريخي، حيث كانت هناك حاجة إلى بطلة مسيحية للمسيحيين الجدد وبذلك جرى إبداع شهيدة جديدة هي القديسة كتالينا السكندرية التي ستكون الشبيهة لهيباتيا.

كانت مجهولة تماما خلال القرون التالية، على افتراض وجودها خلال القرن الرابع الميلادي، لكن ذكراها ظهرت فجأة في Mènologium Basilianum خلال القرن التاسع الميلادي للإمبراطور باسيليو، وكذلك عند سيميون ميتا فراستس، خلال القرن العاشر، وتم فبركة هذه الشخصية من البداية إلى النهاية على أنها هيباتيا الجديدة[٥٨٢]، إلا أنها كانت هذه المرة مسيحية. نشهد الخدعة من جديد؛ ومن المفترض أنها كانت عالمة لها فضلها، وليست إلا ابنة أخ قسطنطين الأول والملكة المتخيلة لمصر الغامضة، عانت التعذيب واستشهدت على يد الملاعين من الوثنيين السكندريين. وأطلق على ذلك الدير البعيد الذي يقع في قلب شبه جزيرة سيناء اسم القديسة الجديدة وأصبح الدير تحت سيطرة الكنيسة اليونانية؛ ومن المفترض أن هذه القصة قد حملها الصليبيون إلى أوروبا خلال القرن الحادي عشر، ونجح الأمر على الفور، فقد تمكنت قصة هذه القديسة الجديدة من محو القديمة وهذا ما فكروا فيه، لكنهم لم يدركوا جيدًا ما كانت عليه هيباتيا من عظمة حيث أصبحت نموذجًا للمرأة المستقيمة والعالمة، وكذلك الجميلة والحرّة. أما الأخرى وهي كتالينا فقد كانت مهملة وفقيرة وكأنها عملة زائفة وظلت على هذا النحو لعدة قرون تالية.

كانت القديسة الأخري غير معروفة على الإطلاق خلال القرون التالية لدي السكندريين ولم تعترف بها الكنيسة القبطية في مصر التي لا تعرفها باعتبارها

(582) Davis, H. T., "Alexandria: The Golden City", -"Alejandría: La CiudadDoradà", Evanston III, Principia Press of Illinois, 1957; Dzielska, M, "Hypa-tia of Alexandria", "Hipatia de le-jandría", pgs. 21-22.

قدسة. وبالتالي كانت ابتكارا مسيحيا يونانيا أو ملكانيا، حيث اخترعوا أيضا المكان المفترض الذي استشهدت فيه في الإسكندرية وكذا رفاتها. ويقص علينا جاك دومال(٥٨٢/١) الذي زار دير سانتا كتالينا وجعلوه يشاهد الجمجمة واليد المحنطة للقديسة المفترضة.

وعلي أية حال فإن هذا الابتكار الخاص بسانتا كتالينا سرعان ما انتشر في أوروبا بسرعة من خلال الحكايات التاريخية مثلما ورد عند فوراجين(٥٨٢/٢) وكان ذلك جزءا من حملة ضد العالم الإسلامي. ففي القرن الخامس عشر ظهرت ما يطلق عليها "حامية المعرفة" وتم الخلط بينها وبين الرومان الذين قتلوا كتالينا المفترضة ومعهم العرب.

انتشر الكثير من الدراسات اللاهوتية المعادية لانتشار الإسلام، وكان ذلك نوعًا من أدبيات إطراء المسيحيين الشرقيين، وجرى خلال الفترة من القرن الثامن الميلادي حتى القرن الثاني عشر تصدير ذلك إلى الغرب، إذ كانت المحطة الأولى شبه جزيرة إيبيريا، التي غزاها العرب، ثم انتقلت بعد ذلك إلى أوروبا. ترجم الكثير من هذه المؤلفات بالعربية إلى اللاتينية وانتشرت بشكل واسع. لكن مع نهاية الحروب الصليبية أخذت المعارف الخاصة بالعالم القديم والتي انتشلها العرب تنتشر في الجامعات الأوروبية التي أنشئت حديثًا وبخاصةٍ في باريس وأكسفورد ابتداءً من القرن الثاني عشر الميلادي.

أخذت تظهر حركة جماعية في الغرب لتأكيد الذات وأخذت تبتعد عن التفوق الثقافي العربي وتبدع ميلادها الثقافي والفكري، وهنا نجد أن المواجهة الإيديولوجية أسفرت عما يمكن أن نطلق عليه رفضًا ثقافيًا، فقد أسهمت العلاقات بين بيزنطة وإيطاليا خلال القرون التالية وكذا الحصول على النصوص الكلاسيكية اليونانية من القسطنطينية بعد غزو هذه الأخيرة ونهبها على يد

(582/1) D Aumale J. Voix d oriente- Monreal -1945-Pg.132

(582/2) Voragine J. La legende Doree.

الصليبيين، نقول أسهم كل ذلك في استقلال الغرب وانقطاع تبعيته للمصادر العربية، وبدأت حركة ثقافية قوية.

ومع هذا ورغم كل شيء فخلال تلك القرون التي أعقبت غزو الإسكندرية لم يخطر ببال أحد أن يقول شيئًا عن تلك الحضارة العربية الرائعة التي انتشلت الكتابات القديمة، وحافظت عليها وأنها كانت حضارة متسامحة مع الشعوب والعقائد، وأن هذه الحضارة لم تكن مسئولة قط من قريب أو بعيد عن حريق المكتبات الملكية في الإسكندرية وزوالها، وأن تلك المكتبات قد تعرضت للدمار قبل وصول العرب إلى مصر بوقت طويل. نرى إذن أن هذه المقولة الشائعة الآن عن العرب في هذا المقام لم تكن معروفة على الإطلاق حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي سواء من جانب العرب أو المسيحيين.

نخلص إذن إلى القول بأنه بناءً على ما قدمناه في الفصول الثلاثة السابقة أنه عندما كانت هناك مكتبات لم يكن هناك وجود للعرب في الإسكندرية، وعندما وصل العرب لم تكن هناك مكتبات. يبدو الأمر وكأنه عبارة عن لعب بالكلمات لكنه تأكيد يتسم بالبساطة وبالصدق. إذن، العرب لم يحرقوا هذه المكتبة أو تلك أو أيًا من المكتبات الملكية في الإسكندرية. والسبب: هذه المكتبات لم تكن موجودة عند وصولهم. فلماذا إذن هذه المقولات؟.

الباب الثاني

من اخترع الرواية الملفقة؟

الفصل الرابع

الحروب الصليبية والرواية المختلقة ضد العرب

المواجهة بين الثقافات:

علينا أن ندقق في المعطيات السياسية التي كانت تحدث في الشرق الأوسط حتى نعثر على إجابة، فهذه المنطقة تتسم بأنها مسرح سياسي شديد التعقيد. الزمان هو القرن الثاني عشر (أي بعد عدة قرون على الغزو العربي للإسكندرية) حيث قدمت الجيوش الأوروبية الفرنجية في موجات متتالية (أطلق عليها في بداية الأمر Passagium generale، وبعد ذلك مسمى (Cruzados) وتعاقبت ضد المنطقة.

أدت الفترة الطويلة للفرنجة في الإسكندرية، عام ١١٦٧م، أي عندما قام ملك القدس أمالاريكو الأول بالتحالف مع الخليفة الفاطمي في مصر وهو الشيعي Adid[٥٨٣] ليكونا صفًا واحدًا ضد الغازي السني شيركوه، الأمر الذي أدى إلى تجدد اهتمام الغرب بالإسكندرية ومصير مكتبتها الشهيرة. وفي ظل هذه الظروف نجد أنه نتيجةً لهذا التحالف قدم الجنود الفرنجة إلى المدينة ومكثوا فيها لمدة عام وكانت أمامهم فرصة، قبل أن يطردهم منها شيركوه وصلاح الدين الأيوبي، تمثلت في إجراء حفائر بين الأطلال والهياكل العظمية المحيطة بالعمود الكبير. وكان البحث يتركز حول الكنز الذي كانوا يظنون أنه مخبأ في هذا المكان.

(583) El Adid (1163-1169).

هل كان على زمن الخليفة الفاطمي المذكور عندما أتى فرسان المعبد Templarios إلى القاهرة واتصلوا بعلماء الأزهر؟ أم أنهم وهم يجوبون الحواري التي يحيط بالقصرين الملكيين اكتشفوا عند أبواب المدينة ذلك التابوت الأخضر اللون الشفاف الذي تم العثور عليه في الهرم الأكبر على زمن المأمون، وظنوا أنه مرصع بالزمرد؟ هل حل فرسان بالإسكندرية؟ وهل كانوا هم الذين أعادوا التنقيب في منطقة العمود الكبير من أجل العثور على كنوز أو بقايا مخطوطات؟.

من المعروف، على أية حال، الاهتمام الشديد الذي أبداه الصليبيون بأطلال السرابيوم؛ وبمناسبة وجودهم في الإسكندرية، نسجوا على الفور قصتين مرتبطتين بتلك المأساة، وهما روايتان عاريتان تمامًا عن أي أساس من الصحة، وما هما إلا خدعة وتضليل؛ أولاهما أنهم نسبوا أمر إقامة العمود الكبير إلى بومبي، وهو العمود الذي يرمز عندهم إلى انتصار المسيحيين، وبذلك عادوا إلى الحديث عن إضفاء حالة التصوف على أميانو، حيث خلطوا بين هدم السرابيوم على يد الرومان وأطلقوا على العمود مسمى "عمود بومبي". وهذه رواية لم يقبل بها السكندريون أبدًا، حيث كان العمود عندهم، كما عرفنا، يُطلق عليه "عمود النور" أو عمود الأعمدة" إحياءً لذكرى العمود القديم وهو "عمود سرابيس".

أما الرواية الثانية فهي اتهام عمرو بن العاص بأنه هو الذي قام بصهر التماثيل من الذهب والفضة التي كانت لا تزال موجودة للإله سرابيس، وكان ذلك بعد خمسمائة عام؛ وكان هدفه استخدام هذه المعادن في صك العملات؛ وهذه رواية تتناقض تمامًا مع منطق السلب والنهب وتتجاهل ما أكده إيونابيو وأميانو وروفينو وسقراط وسوزومن وسوزيسمو وتيودور وزكريا وإيسيدورو دي بيلوسيو أو بالاديو دي إيبيتوبولس. لم يكن هؤلاء الصليبيون الجهلاء يعرفون شيئًا عن شغف تيوفيلو بالذهب!.

لنتأمل هاتين الروايتين اللتين اخترعهما الصليبيون في الإسكندرية، هذه المدينة التي كانت لا تزال تحمل شواهد على آثار الحريق المدمر للسرابيوم. كان

الجميع يتذكرونه، وكان يشكل جزءًا لا يُمحى من ماضي المدينة. وهنا نقول إن الرواية الأولى كانت، كما شهدنا، تسير على الإستراتيجية نفسها التي اتبعها الصليبيون خلال العصور الوسطى حيث تلقى باللائمة على قيصر وتحاول أن تمحو الآثار والشواهد على غير ذلك؛ فبومبي الذي اغتيل على الشواطئ المصرية قبل أيام من وصول قيصر إلى الإسكندرية، نجده يظهر فجأة وقد جرى الربط بينه وبين السرابيوم، وهو الرجل الذي لم تطأ قدماه المكان، كما إن قيصر أقام له نصبًا تذكاريًا على الشاطئ أطلق عليه مسمى Cassium[٥٨٤].

عندما نتناول الرواية الثانية نجد أنها ذات مضمون وخلفية مختلفين، حيث ينسب أمر التدمير الأخير للسرابيوم إلى عمرو بن العاص والعرب، وأنهم هم الذين نهبوا الذهب الذي كان؛ وهذه محاولة لربط العرب لأول مرة باختفاء معبد السرابيوم. حيث حاولت هذه الرواية أن تجعل العرب ضالعين في الأمر فإذا لم يكونوا مشاركين في الهدم فهم ضالعون في أمر أطلال المعبد. إنها محاولة هزلية لاتهام العرب بأي ثمن، وهذا دليل واضح على حملة غير شريفة للتسميم والتضليل ولم تتورع الحملة عن اللجوء إلى محض الخيال والخداع لتنسج خيوطها. هي حملة ظالمة ولا منطقية مآلها الفشل، لكنها تشير إلى موقف جديد وتوجهات جديدة في المواجهة مع العرب. وسوف يمضي قرن من الزمان حتى تكتمل معالم الاتهام.

الشيء المهم في هذه الرواية هو أن الصليبيين، خلال القرن الثاني عشر، لم يشيروا لا إلى حرائق أو مكتبات، فقد وضعت عمرو بن العاص على مسرح الأحداث وهو يأمر بجمع بقايا تماثيل، ولم تتحدث عن كتب وحريق فلم يكن أحد يعرف شيئًا عن هذه الأكذوبة التي تتعلق بالحرائق وبالعرب، ويدخل في هذا المصريون من المسلمين والمسيحيين الذين كانوا منتشرين في المدينة وينتقلون فيها وهم مسرعي الخطى. ولهذا لم يكن الصليبيون - عند عودتهم إلى أوروبا -

(584) Amiuno, "Rerum Gestarum", XXII, 16, 3.

المتحدثين بهذه الأكذوبة التي تتهم العرب بإحراق مكتبة الإسكندرية؛ فهذه الأكذوبة لم تكن لها ملامح بعد وبالتالي لم يستطيعوا بثها. سوف تمضي خمسة قرون حتى يطلع عليها الأوروبيون؛ وعلى أية حال نجد أن الصليبيين قد عبروا بصمتهم عن أن الأكذوبة القائلة بأن العرب هم الذين أحرقوا مكتبات ليس لها أساس من الصحة خلال القرن الثاني عشر.

بعد انتصار صلاح الدين الأيوبي[٥٨٥] خلال القرن الثاني عشر، أخذنا ننتقل إلى القرن الثالث عشر وهو آخر قرن يشهد وجود الأوروبيين في المشرق، حيث كانت مصر مسرحًا للعمليات الحربية، فقد كان القرن الذي شهد الهجوم الذي قامت به فينيسيا على الإسكندرية عام ١٢٠٢م، وقام الفرنجة بالهجوم على دمياط عام ١٢١٨م في عصر السلطان الأيوبي الملك العادل[٥٨٦]، وهذا السلطان هو نفسه الذي أمر بهدم كنيسة سان ماركوس القديمة في الإسكندرية وهي المقر البطرياركي القبطي الذي كان يطلق عليه "الكمشة Qamcha"، وتمخض عن هذا القرار الشعور بالعداء للأسرة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين.

كان ذلك القرن هو الفترة التي قام فيها الفرنجة من جديد بغزو دمياط وجزء من الدلتا لفترة وجيزة، بقيادة لويس الرابع عشر، وكانت هذه بمثابة الموجة السابعة للغزوات الصليبية، وزال هذا الغزو بعد قليل (١٢٤٩ - ١٢٥٠)؛ وفي الوقت ذاته نشهد بعد ذلك هزيمة الموجة الثامنة والأخيرة من الصليبيين على يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عام ١٢٦٠م.

شهد هذا القرن أيضًا ازدهار المدارس الصوفية في الإسكندرية، وكان من أبرز مشايخها علماء من الأندلس أقاموا هناك، وكان أولهم أبو بكر الطرطوشي، أو القادم من بلدة Tortosa[٥٨٧]، وكان مشهورًا بالكثير من الكرامات، كما كان قد

---

(585) Saladino (1172-1193).

(586) El Adi (1200-1218).

(587) El Tarcoussi (998-1067).

عرج في بداية الأمر على رشيد ثم أقام بالقرب من ميناء البضائع بعيدًا عن منطقة الأنفوشي، وهناك أسس مدرسة شهيرة، وكان له تلاميذ ومريدون كثيرون. يضم مسجده بئرًا معجزة يفد إليه الكثير من الناس للشرب والوضوء.

أتى بعده متصوف بلنسي تربى أو ولد في شاطبة وهو الشيخ ابن جبير، وقد اشتهر في الإسكندرية باسم "سيد جابر"؛ كان هذا الرجل يشغل منصبًا مهمًا في بلاط غرناطة، وكان شاعرًا ورحّالة وكاتبًا له كتاب يتحدث عن المشرق[٥٨٨]. اشتهر باعتباره أحد علماء المسلمين من ذوي التوجهات الصوفية، وجاء إلى الإسكندرية مع بداية القرن الثالث عشر، ونظر إليه الناس على أنه من أولياء الله الصالحين فأقيم له مسجد دفن فيه يقع على شاطئ البحر في منطقة ربما كانت قرية للصيادين، وأصبح الحي الذي دفن فيه يعرف اليوم باسمه.

وبعد ذلك بوقت قصير ظهر في الإسكندرية بلنسي آخر وهو سيد محمد الشاطبي[٥٨٩] وهو فيلسوف صوفي قدم من بلدة شاطبة في الأندلس، واسمه اليوم يطلق على حي آخر من أحياء الإسكندرية المعاصرة والذي كان قبل ذلك يقع خارج أسوار المدينة في الجهة الشرقية التي كان فيها ضريحه.

وأخيرًا نشهد حضور رجل تحول إلى أحد كبار أولياء الله الصالحين في الإسكندرية وهو أبو العباس المرسي[٥٩٠]، الفيلسوف والصوفي الذي هاجر من أرضه من مرسية خلال القرن المذكور، من جرّاء أحداث حرب الاسترداد في الأندلس، وأقام في الأنفوشي، أي حي الصيادين في الإسكندرية بالقرب من أرصفة الميناء الكبير. كان الإمام الشاطبي أستاذه؛ وبلغت شهرته الآفاق في المعرفة والتقوى لدرجة أنه أصبح اليوم بمثابة حامي الإسكندرية. وها هو مسجده الذي يضم ضريحه، موجود في ميدان يسمى المساجد السبعة بمآذنه

---

(588) Goubair (1145-1217), "Rihlá

(589) El Shatby (1193-1273).

(590) El Moursi (1219-1289).

الشامخة وقبابه التي تذكرنا بقباب المرابطين، وشكله المشرقي الذي تنعكس صورته وتتلألأ على صفحة المياه.

كل هذا الجمال وهذه الجاذبية التي كانت عليها الإسكندرية هما ما تحدث عنه بعد ذلك ابن دقماق(٥٩١)، في نهاية القرن الرابع عشر، وكانت نغمته في الحديث خليط من الشعرية والمشاعر الدينية حيث أكد أن عبد المالك بن خريج أشار بأنه طبقًا لشريعة موسى أنه إذا ما حج إنسان إلى الإسكندرية صباحًا فإن الله سيهبه تاجًا مرصعًا باللؤلؤ ومعطرًا بالمسك والكافور، ويمتد بريق التاج ليشهده من في المشرق والمغرب.

وعلى أية حال نجد الشرق الأوسط قد عاش هذه المشاهد من الموجات الصليبية التي أخذت تتكسر على شاطئ المقاومة العربية وتحول حلم الصليبيين إلى حطام، وهنا نجد أن كافة أوراق اللعبة أصبحت على المائدة، وأصبح اللعب القذر أحد مكونات الحياة اليومية. خلال هذه الفترة من العصور الوسطى المتأخرة وخلال هذه المواجهة بين كبريات القوى السياسية آنذاك، والمواجهة بين ديانتين وبين ثقافتين، خلال منتصف القرن الثالث عشر، ثم اختراع أكذوبة تدمير مكتبة الإسكندرية الكبرى على يد العرب.

تم الخروج عن خط الدعاية السياسية الدينية، بعد صمت دام ستمائة عام، حيث تمثّل المسيحيون مسئوليتهم عن تلك الكارثة أو توجيه الاتهام بين الحين والآخر إلى يوليوس قيصر، وتحول الاتجاه سريعًا من الرومان إلى العرب وأنهم هم المسئولون عن الواقعة. انتشرت هذه المقولة سريعًا وكأنها هبطت من السماء ولكن دون أية إشارة سابقة على الأمر ودون أي برهان أو وثيقة تتكئ عليها. تم تصميم ذلك وكأنه أداة دعائية، لها سوابقها قبل ذلك بقرن من الزمان بتوجيه الاتهام للجانب المعادي، أي العرب، بمسئوليتهم عن الكارثة التي وقعت قبل مجيئهم بزمن طويل كما أنها ارتكبت على يد آخرين غيرهم.

(591) Dukmak, V, pg. 117, en Butler, "The Anu Conquest... , pg. 36 J.

اختراع الأكذوبة على يد أبي الفرج:

هذا الاتهام المتأخر والعنيف كان تزييفًا للتاريخ، يدخل في الإطار العام الخاص بالخلط بين المكتبتين القديمتين في الإسكندرية، وهي روايات بدأت كما سبقت الإشارة خلال القرن الرابع الميلادي مع أمينيو واستمرت حتى زمن أسرة شارلمان؛ غير أن الأمر هذه المرة مختلف فبدلاً من اختيار يوليوس قيصر فاعلاً وراء حريق وهدم المكتبات السكندرية، وقع الاختيار على ضحية أخرى، وهم العرب حيث أصبحوا، طبقًا للرواية الجديدة، المذنبين، وهذه رواية يستحيل تبريرها مقارنةً بالرواية الأولى.

يشير كل شيء إلى أن الشخص الذي اخترع هذه الرواية وبثها ربما كان من كُتّاب الموسوعات، أرمني قبطي ذو أصول يهودية تحول والده إلى مذهب monofisismo ويدعي أبو الفرج بن هارون الملطي، ويطلق عليه ابن العبري، ويعرف في الغرب باسم جريجوريوس أبو الفرج؛ عاش خلال الفترة من ١٢٢٦م حتى ١٢٤٦م. وكان لقبه الأخير يشير إلى أن والده عبري. وينفي بعض الباحثين المحدثين هذه الترجمة ويقولون بأن اللقب يعني "أنه من عبرا Ebra" وهي مدينة سورية قريبة من "اللاذيقية Malati"، غير أن هذا لا يعني أن نتناسى أن العرب كانوا يلقبونه أيضًا بهذا Malati "أي ابن هذه البلدة"، وكان بالإمكان أن يظل على هذا اللقب إذا لم يشاؤا أن يكون المعنى أشمل. ومن الامر الصائب سياسيا تأكيد هذا التأويل الحديث.

كان أبو الفرج راهبًا في أنطاكية وأسقف Gubos عندما كان عمره عشرين عامًا، وأصبح أسقف Lacabene وهو في الحادية والعشرين، وبعد ذلك - عام ١٢٥٢م - أصبح أسقف حلب؛ وكانت كل هذه المناصب في سوريا الإسلامية. ابتداءً من عام ١٢٦٤م جرى تعيينه بطريارك الطائفة المسيحية القائلة بمذهب الطبيعة الواحدة في المشرق وظل في هذا المنصب حتى وفاته؛ ورغم أن مقر منصبه كان في الموصل فإنه قد استقر به المقام في فارس، أي في عواصم أباطرة

المغول وهي تبريز و"ماراجا Maragha"، ويمكن القول بأن حياته اعتراها تغير كامل، فقد كان الجزء الأول منها هو صعود نجمه بسرعة في التدرج اللاهوتي تحت ظل المسلمين، أما الجزء الثاني فقد تمثل في العيش في فارس مع من غزوا سوريا ومع أعداء العرب. إنه تغير ملحوظ في الولاء.

عُرِفَ بأنه مؤلف مسيحي سوري، وكان غزير الإنتاج ويلقب "بعبقري القرن" نظرًا لمعارفه الواسعة باليونانية والسريانية والعربية؛ كتب العديد من المؤلفات في اللاهوت والطب والعلوم والتاريخ والفلسفة، وكان دائم الترحال وزيارة المكتبات والعلماء في سوريا؛ ألف العديد من الكتب باللغة السريانية، وبعضها بالعربية، ويلاحظ أن أغلبها لم يُترجم أو يُنشر في أوروبا.

لم تظهر المقولة الزائفة التي نحن بصدد الحديث عنها في مؤلفه الشهير وهو "حولية"[٥٩٢] المكتوب بالسريانية، وهو مؤلف يتكون من: حولية سريانية وحولية لاهوتية[٥٩٣]. وعندما نتحدث عن الحولية السريانية[٥٩٤] نقول إنها عبارة عن التاريخ العام ابتداءً من آدم حتى الزمان الذي عاش فيه المؤلف، ولم تظهر الرواية في النص الأول الأصلي لهذا الكتاب، الذي يتسم بأنه مسهب للغاية، بل ظهرت في ترجمة جزء من "الحولية السريانية" إلى العربية، حيث قام المؤلف نفسه بالترجمة بعد ذلك، في نهاية حياته وذلك لأسباب لا نعلم عنها شيئًا. ويلاحظ أنه اختصر ذلك الجزء الذي تناول فيه الغزو العربي للإسكندرية ونشره في شكل ملزمة وضع لها اسمًا هو "خلاصة تاريخ العرب"[٥٩٥]، ظهرت فيه لأول مرة هذه الرواية الكاذبة بكل تفاصيلها.

كان أبو الفرج شديد الحرص، حيث لم يشر إلى المصادر التي اعتمد عليها ليخرج علينا بهذه الرواية التفصيلية، وما فعله كان عكس ما سار عليه الآخرون

(592) Abulfaragius, "Makhtbha-nutb Zabhne", en siríaco.

(593) Abulfaragius, "Chronicon Syriacum' y "Chronicon Ecclesiasticum".

(594) Abulfaragius, "Chronican Syriacum". Su titulo original en siríaco era "Mukh-tasarfi-

(595) Abulfaragius, "Specimen Historias Ambum

في هذا السياق[٥٩٦]. وبذلك لم يكن باستطاعته تأكيد سلسلة الناسخين التي تنتهي بالمؤلف الأصلي، وهذا بعد أساسي في نقل النصوص في الببيليوغرافيا العربية كما إن الكُتّاب الجادين لا يحيدون عنه. وألمح أبو الفرج إلى أنه عثر على هذه الرواية وهو ينتقل بين الأحياء ويتحدث مع أهالي المكان بخاصة الأحياء الشعبية في الإسكندرية، وهنا نتساءل: عن أي حيٍّ يتحدث؟ مع الأخذ في الحسبان أن كلاً من المسيحيين والعرب كانوا يجهلون هذه القصة تماماً خلال القرن العاشر، وهذا ما تحدثنا عنه شهادات كل من إيوتيكيوس وسيفيرو، كما أنها لم تكن معروفة خلال القرن الثاني عشر وقت الغزوات الصليبية.

نشعر بالمفاجأة لصمته أكثر مما لو جرؤ على تقديم تأكيدات على روايته الغريبة؛ فالأحداث التي تُرى لاحقًا تبدو وكأنها تشير إلى أن هذه القصة تقوم في الأساس على المؤرخين العربيين اللذين يبدأونهما هما الوحيدان اللذان كتبا عن الموضوع وكانا من المعاصرين لأبي الفرج، رغم أنهما أسبق منه من حيث المولد، هذان المؤرخان هما عبد اللطيف، وابن القفطي. كان هذا الأخير هو الذي اعتمد عليه أبو الفرج ونقل عنه القصة أو الرواية المذكورة شبه كاملة، ذلك أن المؤرخ الأول ـ عبد اللطيف ـ لم يكتب في هذا الصدد إلا عبارة قصيرة.

تدور حبكة هذه الرواية حول حوار مفترض ومستحيل يتعلق بأطلال المكتبة الأسطورية ظهر في النص الذي تركه أبو الفرج، وهو حوار يدور بين الفيلسوف فيلوبونوس وبين عمرو بن العاص بشأن المكتبة الكبرى وإحراق كتبها على يد العرب بناءً على أمر صدر عن عمر بن الخطاب. وهنا نجد أن أبا الفرج لا يتورع عن ذكر اسمى هاتين الشخصيتين اللتين عاشتا في فترة وعصر مختلف عن عصر إحراق المكتبة؛ وسار في هذا على خطوات النديم[٥٩٧] أي الرجل الأول الذي اخترع هذا الحوار المتخيل بين هذه الشخصيات التاريخية التي عاشت في

---

(596) Burler, "The Arab Conquest...", pg. 402.

(597) An-Nadim, "El Libro de los ndices".

قرون مختلفة؛ وعلى هذا فإن أسانيد أبي الفرج تقوم من حيث المبدأ على حوار زائف لم يكون موجودًا قط ذلك أن فيلوبونس توفى عام ٥٦٦م، أما عمرو بن العاص فقد غزا الإسكندرية عام ٦٤١م.

رأينا إذن كيف أن الرواية الموجزة التي أوردها النديم تتحدث عن الإسكندرية ومكتبتها القديمة، لكنها لم تشر قط إلى حوار دار بين عمرو بن العاص وفيلوبونس حول المكتبة، أو إلى تبادل من خلال الرسائل المجهولة بين عمرو وعمر ابن الخطاب، ويندرج الأمر كذلك على موضوع تدمير العرب للمكتبة. إذن نجد أن أبا الفرج أضاف إلى النص الذي أورده عن النديم شيئًا من عندياته وهو تلك الرواية الغريبة التي تضم المحور الأساسي للزيف، وأضاف إليها تلك الأصداء القديمة التي تتعلق بشهادة أوسوريو حول "الدواليب" المحروقة، وغايته من وراء ذلك أن تكون هذه الرواية المخترعة أكثر قبولاً.

وطبقًا للنص الذي تركه لنا أبو الفرج، من المفترض أن فيلوبونس طلب من صديقه العربي عمرو بن العاص أن يسلمه صناديق الأراشيف الملكية التي تتضمن آلاف الكتب التي تنسب إلى المكتبة الكبرى التي أنشأها بطليموس الأول. وكان فيلوبونس يحاول من خلال ذلك إنقاذ بعض مؤلفات أرسطو وكذا كتبًا أخرى شهيرة على أساس أن هذه الكتب ليست ذات نفع عند قائد غزو الإسكندرية. وطبقًا لرواية فيلوبونس كانت هذه الكتب مخبأة في مكان ما في المدينة ويصل عددها إلى ٥٤١٢٠ كتابًا ـ وهو العدد نفسه الذي ذكره النديم ـ ويفترض أن ذلك هو كل مخزون المكتبة القديمة حتى ذلك العصر، وكانت محفوظة في مكان آمن. وبالنسبة لعمرو بن العاص فقد أظهر الحيطة إزاء هذا الشرح الغريب الذي قدمه فيلوبونس، وتوجه إلى الخليفة عمر بن الخطاب يسأله المشورة من خلال هذه الرسالة المزعومة(٥٩٨).

(598) Amru, Pseudo, "Carta apócrifa ai califa Omar".

يواصل أبو الفرج مشيرا إلي أنه بعد ذلك اكتشف عمرو بن العاص هذه الرواية الخادعة التي قدمها له فيلوبونس، وجاء ذلك من خلال ما قصّه عليه ضابط يوناني من أن الكنوز البطلمية القديمة من الكتب قد احترقت ولم يعد لها وجود في حريق الإسكندرية وكان هذا الحريق ناجمًا عن فعلة أول الأباطرة الرومان، وكان هذا سابقًا بزمن طويل على تاريخ مولد الرسول محمد، ويمكن كذلك مشاهدة بعض أرففها التي احترقت في أراشيف بعض المعابد السكندرية، وبذلك استلهم بشكل مباشر النص الذي كتبه أوروسيو، لكنه لم يفصح، بالطبع، عن أن هذا المؤلف المسيحي كان يؤكد خلال القرن الخامس الميلادي أن المسيحيين هم الذين أحرقوا المكتبة الثانية، أي مكتبة معبد السرابيوم، فقد كانت المكان الذي بقيت فيه الدواليب التي اسودّ لونها من الحريق.

وطبقًا لأبي الفرج، بعد التأنيب اللازم، أن فيلوبونس طلب من عمرو بن العاص الصعود إلى هضبة راقودس، أي إلى ذلك المكان المقفر الذي كانت فيه أطلال معبد السرابيوم وذلك حتى يطلع على أطلال دواليب الكتب الخاصة بالمكتبة الصغرى، وشرح له بأن النيران أتت على كافة المخطوطات. وفي ذلك المكان وصف له موقفا ما قام به يوليوس قيصر خلال الحرب السكندرية الأولى فيما يتعلق بمخازن الكتب التي كانت في الميناء والمكان الذي شهد احتراق أربعين ألف كتاب التي لم تكن تنسب إلى المجموعات الملكية؛ وألحّ المؤلف على الخلط بين الحريقين في معرض حديثه بأن جعل الحدثين حدثًا واحدًا متخذًا بذلك طريق التزييف الذي سار عليه أميانو مارثلينو بأن كال الاتهام ليوليوس قيصر. وبعد ذلك أخذ يؤكد على إمكانية العثور على مجموعة الكتب المذكورة سليمة حيث إنها مخبأة في مخازن منسية في الإسكندرية مع بداية زمن الغزو العربي، وهذا كله مناقض للبدهية التاريخية التي تقول بزوالها شبه الكامل خلال القرن الأول قبل ميلاد المسيح وبشكل كامل مع نهاية القرن الرابع الميلادي.

لم يستلهم أبو الفرج الحوار الذي دار بين فيلوبونس وعمرو بن العاص بأن أخذ من المصادر العربية بل أضاف إليه نهاية عربية تتعلق بالمكتبة الكبرى، ذاهبًا

إلى أبعد مدى في التزييف بتغيير العصور والأحداث، وبناءً على ذلك، وطبقًا لروايته، فإن هذه الرواية تنتهي باتهام عمرو بن العاص بإصدار الأوامر بإحراق تلك الكتب التي تُنسب إلى المكتبة الشهيرة، ونسى بذلك أمر الخليفة عمر الذي يفترض أنه أرسل لقائده رسالة فيها الردّ الذي يشير إلى[٥٩٩] أنه إذا لم تكن هذه الكتب تتضمن شيئًا من القرآن الكريم فهي لا جدوى منها ذلك أن كتاب الله كاف، أما إذا ما كانت تضم فكرًا مختلفًا فليس من الضرورة الحفاظ عليها ويمكن له أن يقوم بإحراقها.

وعلى هذا فطبقًا لخيالات أبي الفرج قام عمرو بن العاص بإحراق الكتب المفترض وجودها والتي بقيت من مكتبة الإسكندرية، وذلك لعدم أهميتها دينيًا عند العرب ولم ينج من هذا التدمير إلا مخطوطات أرسطو، وكان مآل هذه الكتب النار حيث استخدمت طبقًا لهذه الرواية في تسخين المياه في الحمامات العامة في المدينة طوال ستة أشهر، وكانت نهاية الرواية التي قال بها أبو الفرج ميلودراما محاولاً من خلالها إبراز حجم المأساة المفترضة؛ واختتم الفقرة التي تحدث فيها عن ذلك بقوله: استمعوا وتعجبوا من الأشياء التي تحدث".

يبدو أن أبا الفرج لم يقم بعمليات حسابية بسيطة قبل أن يكتب هذه الأكذوبة، فلما كان هناك في مدينة الإسكندرية أربعة آلاف حمام قادرة على استيعاب ما يتراوح بين مائة ألف شخص ومائتي ألف في آن، طبقًا لوصف ابن عبيد، ولما كان عدد الكتب التي ستُحرق يبلغ ٥٤١٢٠ كتابًا، فإن كل حمام يناله أربعة عشر كتابًا، أي ما يوازي اشتعال النيران بشكل جيد لمدة عشر دقائق، وإذا ما حسبناها طبقًا لعدد الأفراد الذين يرتادون هذه الحمامات فإن كل شخص سيناله نصف أو ربع كتاب محروق وهذا وقود قليل جدًا ليكفي مدة تستغرق ستة أشهر طبقًا للرواية الكاذبة لأبي الفرج.

---

(599) Omar, Pseudo, "Carta apócrifa a 'Amru"

ويرى الباحث حمزة الفاروزي أن عدد الكتب الضرورية لتشغيل هذه الحمامات يبلغ أربعة عشر مليونًا وأربعمائة ألف كتاب حتى يمكن أن تكون رواية أبي الفرج ذات مصداقية. كما إن لدينا مثالاً يتمثل في الحريق الذي تعرضت له مكتبة جامعة ليون التي التهمت في ستة أيام نحو مائتين وثمانين ألف كتاب(٦٠٠)؛ وإذا ما قبلنا برواية أبي الفرج فإن عدد الكتب التي كان يجب أن تُحرق لا بد من أن يبلغ ما يزيد على خمسة ملايين كتاب، وبالتالي فإن عدد الكتب التي أشار إليها أبو الفرج لن يستغرق إحراقها أكثر من يومين، هذا يوضح لنا كل شيء حول هذه الرواية المتخيلة التي قالها أبو الفرج والرسالة التي بعث بها عمر بن الخطاب؛ ومع هذا كله أصبحت هذه الرواية المتخيلة نجاحًا أدبيًا في الغرب وتكررت حتى الملل من خلال الذين يتحدثون عنها سواء من المدافعين عن صحتها أو القائلين بزيفها، ويا لها من طريقة غريبة للبحث عن الحقيقة.

على أية حال، فإنه إذا ما كانت هناك قوات للجيش في حالة حرب فلا يبدو أمامها من الضروري قراءة الكتب والمخطوطات ثم تدميرها وهي كتب لا يفهم معناها ولغتها إلا القليل من العلماء، كما يجب أن تضع في الحسبان أن القرآن ينهى عن إحراق الكتب المقدسة. ومما لا شك فيه أن لفائف الكتب التي عثر عليها في القصور السكندرية قد طالتها النيران وكان ذلك ضمن الحريق الذي شب فيها (أي القصور) وطال الأثاث الذي لم يكن أبناء الصحراء الذين قدموا إلى الإسكندرية بحاجة إليه، كما إن قطع الأثاث هذه كان يمكن أن تكون وقودًا جيدًا للحمامات بدلاً من لفائف البردي التي سرعان ما تحترق رغم كثرتها.

وإذا ما كانت هذه الكتب قد احترقت، فهي كتب لم تكن من موروثات المكتبة الكبرى في الإسكندرية أو من المكتبة الصغرى الملكية، فقد كانت هاتان المكتبتان آخر المكتبات في مصر، ثم زالتا كما سبق القول، بشكل نهائي مع نهاية القرن

(600) Empereur, "La destruc. Bibl. Alex", pg. 88, en "" Qué le ocurr, Biblioí. Akj.?", Brill, 2008. El incendio de la Biblioteca de la Universidad de Lyón ocurrió en 1999.

الرابع الميلادي طبقًا لآراء جميع الخبراء في المسألة. المشكلة تكمن إذن في هذه الرواية المخترعة وهذه الأكذوبة المستحيلة التي لا تصمد أمام تحليل بسيط. وهنا يمكن القول بأن أبا الفرج كان يعرف جيدًا، كما نعرف نحن اليوم، أن العرب لم يحرقوا قط المكتبة الكبرى في الإسكندرية، والسبب ببساطة شديدة هو أن هذه المكتبة لم تكن موجودة عندما أتوا إلى الإسكندرية.

متابعة هذه الرواية:

لكننا نتساءل: كيف أمكن لأبي الفرج أن يدخل روايته الزائفة ويجعلها تظهر كأنها نسخة لروايتين سابقتين كتبهما هو، رغم أنهما ظهرتا في مؤلفات آخرين؟ الدراسة المتأنية للتواريخ والظروف التي وقعت فيها هذه الأحداث يمكن أن تقدم لنا نتفة مما حدث في واقع الأمر.

ما فعله أبو الفرج هو التوليف بين العناصر المختلفة وعدم الوقوف في منتصف الطريق في إعداد روايته المزعومة، فقد كان بحاجة ماسة أن يؤسس روايته على رواية أخرى سابقة على مؤلفه، وذلك حتى يضفي عليها طابع الصدق، وذلك بالبرهنة على ما لا يقبل البرهان؛ كما كان في حاجة إلى مؤلفات كتبها مؤرخون عرب للتدليل على أن العرب كانوا يعرفون تلك الأحداث وكتبوا عنها واتهموا أنفسهم بما لم يفعلوا؛ لكنه كان أيضًا واعيًا إلى أن هذه النصوص لم تكن موجودة.

لم يصب أبو الفرج بالوجل من الموقف، فحتى يجعل ما لم يكن موجودًا من نصوص كان عليه أن يجتاز بعض الصعاب؛ ففي المقام الأول نجد العصر الذي إليه تنسب الرواية التي يبحث عنها؛ ومن المؤكد أنه لم يذهب بعيدًا في بحثه ـ من الناحية الزمنية ـ لأنه كان يعرف أن كافة المؤرخين العرب، ابتداءً من القرن السابع وحتى الثاني عشر، قد لزموا الصمت الكامل إزاء هذه الرواية المخترعة، كما أن كتبهم معروفة، ومن هنا كان عليه أن يختار من بين معاصريه وليجرّب حظه ويرى فيما إذا كان هناك من كتب عن الموضوع وكسر بذلك حاجز الصمت

الذي استمر لستمائة عام؛ وكانت نيته مبيتة لاتهام العرب بالقيام بهذا الحدث؛ أضف إلى ما سبق كان هناك الفاصل المكاني، إذ كان في حاجة لأن يعرف، عن قرب، هؤلاء الذين كتبوا عن الموضوع ليعرف ما قالوا به، ويحصل كذلك على تلك النصوص الممتازة لكنها غير معروفة، قبل فوات الأوان.

والشيء المثير هو أن أبا الفرج وجد الأصول التي كان يبحث عنها على الفور رغم العقبات، وهي النصوص التي يُفترض أنه نقل عنها النص الذي أورده. كان الأمر سهلاً عنده ذلك أن الذين قرروا الكتابة ـ ويا للعجب! ـ كانوا من المؤرخين العرب، ولم يقتصر الأمر على المعاصرين منهم بل أيضًا من هؤلاء الذين كانوا قريبين من هذه الفترة، وكل هؤلاء عاشوا خلال القرن الثالث عشر وهم من مدينة حلب في سوريا، وبدا الأمر وكأن هناك اتفاقًا بين الطرفين.

كان هناك اثنان معروفان من بين هؤلاء المؤرخين العرب الذين هم على استعداد لإبلاغ العالم بسرّ ظل دفينًا طوال ستمائة عام لم يتحدث عنه أحد، وأصبحوا على استعداد، والحملات الصليبية في أوجها، لإيذاء صورة العرب وسمعتهم، وكان هذان من المؤرخين المشهود لهم وهما عبد اللطيف، الرجل الذي قدم الرواية الأولى بشكل موجز، عن أن كتب المكتبة الكبرى جرى إحراقها على يد عمرو بن العاص، بناءً على أوامر صدرت من الخليفة عمر بن الخطاب[٦٠١]، وكأننا بهذا المؤرخ يشير على من سيأتي بعده وبخاصة ابن القفطي الذي يفترض أنه قام بعد خمسة عشر عامًا، بالكتابة بشكل موسع ومسهب حول الموضوع الذي يبدو كأنه صورة طبق الأصل لما أتى به أبو الفرج ولو أنه وجيز بعض الشيء.

هناك مؤرخ عربي آخر، وهذا أمر مثير للغرابة، يتسم بالحنكة، معاصر لأبي الفرج، ألا وهو العالم الشهير والمؤرخ المصري جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف ابن القفطي[٦٠٢]، أي ما يُطلق عليه عادةً ابن القفطي، وهو معروف في

---

(601) Al Latif, "Reiadón de Egipto".

(602) Al-Qifti (1 172 Qift- 1248 Alepo).

الغرب باسم "جمال الدين Gemaledinus"، وهذا المؤرخ هو الذي أخذ عنه ظاهرًا أبو الفرج الحوار الشهير، وحجتنا في ذلك هي الشبه الكبير الذي يكاد يصل لدرجة التطابق بين النصين، كما أن النص الذي كتبه ابن القفطي كان أسبق على النص الذي كتبه أبو الفرج. الشيء المثير للدهشة هو أننا ونحن في خِضَمّ الحروب الصليبية لا نستطيع أن نتخيل مؤرخًا عربيًا جادًا مثل ابن القفطي وصديق صلاح الدين الأيوبي، يجرؤ على تدوين أكاذيب تتعلق بتاريخ بلاده والاستيلاء على الإسكندرية؛ وهي أكاذيب معروفة للجميع كما أنها يمكن أن تفيد الفرنجة.

أضف إلى ما سبق أن هذه الرواية تشوه سمعة عمر بن الخطاب وهو الزعيم البارز الذي كان يحبه المصريون، مثلما هو الحال بالنسبة لعمرو بن العاص، الرجل الذي اشتهر لا بغزواته فحسب بل بما أسسه من هيئات إنسانية وثقافية في وادي النيل؛ وكل هؤلاء على مذهب أهل السُنّة مثله؛ كما أن الرواية تشوه سمعة العالم العربي وثقافته. وكلل روايته بإضافة بعض التفاصيل مثل تلك الكذبة المتمثلة في إحراق الكتب واستخدامها في تسخين الحمامات، وهذا بعد يؤكد شطحات خيال المؤلف. وهذا شيء غير لائق، على أية حال، بأن يكون ضمن ما كتبه مؤرخ عربي على شاكلة ابن القفطي.

كان ابن القفطي مستشارًا لصلاح الدين الأيوبي في القدس، ثم عاش بعد ذلك في حلب، ابتداءً من ١٢٠١م، أي منذ أن عُيّن قاضيًا ووزيرًا. ألف الرجل ستة وعشرين كتابًا لم يصل إلينا منها إلا اثنان، وفي نهاية حياته، أي عام ٦٤٧هـ (١٢٤٦م)، كتب أحد هذين الكتابين بعنوان "طريق الحكماء"[٦٠٣] وهو عبارة عن سيرة أكثر من أربعمائة عالم مرتبة ترتيبًا أبجديًا، تناولت حياة علماء الفيزياء والفلك والفلاسفة، مصحوبة بملاحظات لمؤلفين يونانيين فقدت أعمالهم

(603) Al-Qifti, "TarikAl-Hukama".

الأصلية. وقد نقل أبو الفرج هذا الكتاب؛ ضاع الأصل، لكن لا ندري متى وأين، وما علينا هنا إلا أن نرضى بالموجز الذي قدمه لنا "الزوزني Zawzani"، حيث كتبه خلال عام ١٢٤٩م أو ١٢٥٠م وأطلق عليه عنوانًا يشير إلى أنه أبرز المختارات من كتاب "طريق الحكماء" (٣٤٩ ـ ٣٥٤) ويُشار إليه إلى أنه مثل النص الأصلي للقفطي، حيث يتناول الكتاب سير علماء يونانيين مرتبين أبجديًا.

كان ابن القفطي يتحدث في كتابه المذكور عن الكيفية التي وصلت بها الفلسفة إلى العالم العربي عن طريق الإسكندر الأكبر وأرسطو؛ وهنا نقول من الصعب أن نصدق كيف أن مؤلفًا بهذه الحصافة يمكن أن يؤكد بعد هذه السطور أن العرب قاموا بتدمير كتب العلماء اليونانيين في الإسكندرية، آخذًا في الحسبان أن التراث الفلسفي العربي كان قد بدأ مساره اعتباراً من القرن السادس وحتى القرن السابع، كما أن تدمير تلك الكنوز الأدبية ليس إلا مصيبة كبيرة في نظرهم.

يطري المؤرخ في هذا الكتاب مصر، ويصفها بأنها مكان شديد الجمال والروعة. وفي الوقت ذاته، يشير إلى أنه كان في مصر في الأزمنة الغابرة مكتبة عظيمة، يُطلق عليها "حقل المعرفة". أضاف المؤلف في الفقرة التي تناولت هذا الموضوع عبارة تعتبر من أكثر العبارات إثارة للشك حيث إنها تؤكد أن هذه المكتبة كانت موجودة حتى مجيء المسلمين. وهي مشكوك فيها لأن ابن القفطي لم يكن مصريًا فقط بل كان أحد الرجال المغرمين بالأدب ويعرف تاريخ بلاده جيدًا، وكان يعرف أن مثل هذه العبارة ما هي إلا أكذوبة، لأنه كان يعرف النصوص الموروثة عن أوروسيو التي جرت ترجمتها إلى العربية وهي نصوص تؤكد عكس ذلك تمامًا.

بعد هذا المدخل يمكننا أن نقرأ كتاب "الزوزني Zawzani"[٦٠٤] وكيف أن ابن القفطي قد أقحم نفسه في اختراع أدبي غريب وغير موفق، يضم كافة التفاصيل

(604) Al Zawzani, "Epitome sobre las más selectas citas dei Tarik Al-Hukama", 354.

التي نعرفها من خلال أبي الفرج ومنها الحوار الذي دار بين "النهوي Nahawi" وعمرو بن العاص، وانتهى الأمر بالرّد الذي تمثل في رسالة الخليفة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص[٦٠٥] وتدمير الكتب التي كانت موجودة في المكتبة القديمة، بإحراقها في الحمّامات. من المفترض أن تكون هذه الرواية هي الرواية العربية الأولى والوحيدة عن هذا الفصل المؤلم وهي الرواية التي تعمد أبو الفرج نقلها وزاد فيها، ذلك أن النص الذي ورد عند ابن القفطي كان أكثر إيجازًا، كما كان مختلفًا من الناحية الأسلوبية ولا يضم تلك الإشارة الخاصة بالتجول بين أطلال معبد السرابيوم، أو التطرق إلى الحريق الذي أضرمه يوليوس قيصر.

يبدو أن كل شيء هو ثمرة إعمال الذهن واختراع محض دون أية صلة بالحقيقة التاريخية بما في ذلك الحديث عن رسالة عمر وعن الحمّامات. غير أن هذا يمكن أن يكون عبثًا اللهم إلا كانت هناك غاية وراءه، وهنا نتساءل هل يمكن أن تتفق هذه الرواية مع ذلك القاضي العادل المصري والمسلم الذي هو المبجل ابن القفطي؟ من البدهي أن تكون الإجابة بالنفي، فلماذا إذن جرؤ على إدراج هذا الاختراع الأدبي في عمل عملي يتحدث عن تاريخ الشعب الذي إليه يُنسب؟ هل كان دافعه الخيلاء الكاذب في آخر مرحلة في حياته، أي كتابة هذه الرواية الكاذبة والتي لا طائل من ورائها مزيفًا صورة أهله؟ لا يكاد المرء يصدق هذا.

دسائس في مدينة حلب:

تشير كافة الاستنتاجات إلى اتجاه مضاد، أي نحو قصر آخر يقع في حارة مختلفة من حواري وأزقة مدينة حلب، عاصمة شمال سوريا خلال العصور الوسطى. هناك كان يقيم أديب ومؤرخ آخر كما كان يعمل في مجال الطب واشتهر بإبداعاته الأدبية، ونظرًا لأنه أكثر شبابًا كان قادرًا على ابتكار رواية عبقرية من وحي خياله، لكنها قابلة للتصديق، رغم أن ذلك لم يكن سهلاً. فإذا ما كان هناك أحد العلماء ولديه مكتبته فلا تهمه النتائج السلبية التي تترتب على ما

(605) Omar, Pseudo, "Carta apócrifa a'Amru".

يقول كما أنه كان على استعداد للمخاطرة من أجل الدفاع عن القضية التي جعلها نصب عينيه. ولم يكن ذلك الشاب إلا أبا الفرج الذي كان زميلاً وجاراً للقفطي لعدة سنوات.

من المعروف أن حلب كانت مدينة محصنة، ولم يتمكن الفرنجة من غزوها قط، وبالتالي أصبحت مدينة آمنة للغاية، وتحولت إلى نقطة أو ملتقى العديد من الرحالة والعلماء العرب. كانت حلب في حماية هضبة مرتفعة يقع فوقها حصن منيع، توجد بداخله مدينة عبارة عن مجموعة من القصور، وتحت هذا الحصن تمتد المدينة الصناعية، التي تعتبر واحدة من النقاط الرئيسية "على طريق الحرير" ولها مجموعة من الشوارع المسقوفة بالخشب والقماش، كما تضم سوقًا عامرة، ومحلات بها الكثير من الدواليب وبها الكثير من الوكالات التي تفد إليها القوافل التجارية، وبها مسجد جامع أنشئ في منتصف القرن الثاني عشر، أسسه نور الدين زنكي مع المدرسة الشهيرة التي كان يدرس فيها المذهب السُنِّي.

كان يعيش في هذه المدينة مجموعة مهمة من المثقفين يُطلق عليهم "علماء حلب" ومن بينهم الفارابي وابن القفطي وعلاء الدين. وربما أقام فيها فترات مطولة أبو الفرج حيث اجتذبه إليها الأمان وحياة الرفاهية والألمعيات الأدبية، وهو الرجل الذي تولى بعد وقت قصير أسقفية المدينة.

إذا ما أخذنا في الحسبان المشهد العام الذي كان سائدًا خلال القرن الثالث عشر وهو الحرب وصدام الحضارات والجوانب الدينية والتشدد الديني، يمكننا أن نتخيل، ببساطة، ما الذي حدث في ذلك السياق؛ وهنا نشك كثيرًا في أن يكون ابن القفطي، الرجل المعاصر لأبي الفرج وجاره في حلب، هو الذي يفترض أنه قرر كتابة ذلك الحوار المتخيل. وهذا الحوار يظهر على هذا النحو في الرواية الوحيدة المعروفة عن الكتاب أي من خلال موجز الزوازني.

كان ابن القفطي هو الذي ألف الكتاب عام ١٢٤٦م، عندما بلغ من العمر عتيًا، ٧٤ سنة. وهذا مخالف تمامًا لما كان عليه الفتى أبو الفرج الذي أتم في ذلك

التاريخ عامه العشرين من العمر، وجرى تعيينه أسقف "جوبس Gubos"، كما أنه وهو في ريعان شبابه سرعان ما أصبح على رأس طائفة كبيرة وقوية من المسيحيين في الشرق الأوسط، وكان أبو الفرج أستاذًا في الطب والفلسفة وعارفًا باللغة اليونانية واللغات الشرقية وبخاصةٍ العربية والسريانية. وقد دفع به موقعه الرفيع واهتماماته الثقافية إلى البقاء لفترات طويلة في حلب تلك المدينة العامرة بالسكان والمليئة بالمكتبات والعلماء.

في حلب استطاع هذا الأسقف من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة أن يحظى بثقة العرب وتأييدهم لهذا المذهب المسيحي. كما أنه كان مؤلفًا غزير الإنتاج ومؤرخًا، وبالتالي كانت له صداقة حميمة وبخاصةٍ بذلك القاضي والوزير والمؤرخ ابن القفطي، وحظي كلاهما بمكانة مهمة في المدينة وكان لهما شغف مشترك بتاريخ الإنسانية؛ وعلى ذلك فمن المنطقي القول بأن ابن القفطي الرجل الطاعن في السن وفي المرحلة الأخيرة من عمره يقوم بتأليف كتاب فيه إشارات يونانية، وليس أمامه من عون إلا مساعدة أبي الفرج في قراءة الأصول اليونانية بدقة حتى يستخرج منها ما يريد.

في تلك الأزمنة نجد أنه عندما يقوم كاتب ما بإنتاج نص، هو مخطوطته التي كتبها بخط يده يتم على الفور نسخ هذا النص بإملائه على بعض الناسخين، ثم يتم توزيعه بين معارفه وبذلك يتم وضع اللمسات النهائية بالنسبة لنشر الكتاب. وبعد ذلك يقوم بائعو الكتب بإعداد النسخ الضرورية لعملائهم من خلال الاستعانة بفريق من الناسخين. وإذا ما توفى المؤلف قبل نشر كتابه، ولم يكن قد ترك المخطوطة عند صديق يتولى نشرها وبثها، وهذا ما يحدث كثيرًا، فليس هناك مخرج إلا البحث عن نسخ من الكتاب لدى أفراد أسرته[٦٠٦]. من البدهي

(606) El filósofo neopLatónico Porfirio (234-305) cuenta en "Vita Plotini", "Vida de Platino", que él era el mejor amigo de su maestro Plotino, y que este le encargó la edición de sus escritos trás su fallecimiento.

أن الكتب كانت قليلة ومرتفعة الثمن ولا توجد إلا عند القليل من الناس، وكان النسّاخ يستغرقون من عام إلى اثنين في نسخ نص، ويقدر أن المخطوطة تستغرق من خمسين إلى مائتي عام حتى يتم بثها بشكل جيد وتصبح معروفة للجميع.

كان ابن القفطي طاعنًا في السن عندما كتب مخطوطته الأخيرة، ثم توفى على الفور بعد الانتهاء منها، أي بعد عامين بالتحديد (١٢٤٨م)، ومن هنا فإن الإمكانيات ضعيفة للغاية أمام انتشار هذا النص الأخير له. فما الذي حدث في حلب بعد وفاة ابن القفطي؟ ما الذي حدث في تلك السنوات الصعبة من ١٢٤٨حتى ١٢٤٩ أو ١٢٥٠م، حيث مرّ بالمدينة أحد المؤلفين وهو الزوزني وكلف نفسه مشقة إعداد الملخص الخاص به للنص الأخير الصادر عن ابن القفطي بدلاً من أن يأخذ نسخة كاملة؟.

ماذا كان مصير النصوص الأصلية التي تركها ابن القفطي؟ هل كانت نصوص ابن القفطي في يد أبي الفرج الذي ربما أفاد من الثقة الكاملة التي أودعها فيه صديقه المؤرخ؟ هل استطاع أن يطلع عليها الزوزني؟. نرى إذن أن كافة تفاصيل هذه القصة تدور حول مدينة حلب حيث كان يعيش فيها أبطال القصة في وقت واحد، أي ابن القفطي وأبو الفرج.

ابن القفطي، المؤلف المفترض لهذه الرواية الكاذبة:

حقيقة الأمر هو أن الأسقف الشاب أبا الفرج عاش، بعد ابن القفطي في مدينة حلب طوال فترة من القرن الثالث عشر، وتمكن بسهولة، من خلال استخدام حيله وألاعيبه، من إدخال تحريفات تجعل الكاتب العربي يبدو كأنه يكتب ضد ما يعتقده وما بعد موته، على شاكلة ما قام به مؤلف ذلك الحوار المهين الذي يشترك فيه شخصان لم يعيشا في الفترة نفسها متحدثين عن الحريق المفترض لمكتبة لم تكن موجودة آنذاك، أي في العصر الذي دار فيه الحوار.

لماذا إذن كان أبو الفرج في حاجة إلى قراءة ثانية أكثر إيجازًا (ويجب أن تكون بالعربية) لما أطلق عليه "الحولية السريانية" والتي أطلق عليها "خلاصة التاريخ العربي"[٦٠٧] حيث ظهرت هذه الرواية الزائفة لأول مرة بعد العثور على مؤلفات ابن القفطي المُحرَّفة؟ كان يجب أن يكون الأمر على هذا النحو، ذلك أنه نشر هذه "الخلاصة" في نهاية حياته. يبدو إذن أن كل شيء يشير إلى وفاة ابن القفطي قدم لأبي الفرج فرصة ثمينة كان هو في انتظارها، ألا وهي تنفيذ شيء (ووضعه على الورق) كان قد فكر فيه قبل ذلك منذ زمن. استغرق في الأمر أكثر من عام لإعادة النسخ والإضافة السريعة للنص الموروث عن الكاتب المصري، أي أن أبا الفرج أضاف من محض اختلاقه الأدبي إلى النص.

لم يكن هناك شيء أسهل عليه من هذا وهو الملقب بعبقري القرن، فهو رجل يتمتع بسلطة سياسية ودينية واسعتين في الشرق الأوسط، وكان من السلطات المعروفة في حلب كما أنه كان معروفًا لدى ابن القفطي. ويُطلق على هذا النوع من هذه الممارسات مسمى "الإدراج Interpolacion"، وكانت تلك من الممارسات المعتادة للتزييف أو التعديل الذي يتم إدخاله على النصوص ابتداءً من العصور المسيحية الأولى حتى العصور الوسطى. ومن المعروف للقاصي والداني أن هذه الممارسة الفجة كانت مستخدمة على نطاق واسع باعتبارها طريقة فظة وغير شريفة من أجل الدعاية لبعض التيارات الفكرية السياسية والترويج لها. وعلى هذا فإن أبا الفرج تمكن بسهولة من تزييف بعض آخر مخطوطات ابن القفطي؛ والشيء الغريب أنه معاصر له وليس سابقًا عليه فلو كان ذلك لكانت مؤلفاته معروفة للجميع.

أمكن لأبي الفرج أن يدرج في النص الأصلي كل ما يريد، ولم يكن إلا فقرة مطولة ومحسوبة بدقة أجبرته على فك تجليد النسخ وإعادة الأمر إلى ما هو عليه من جديد ـ فلم تكن هناك مطابع آنذاك كما أن النسخ المكتوبة بخط اليد

(607) Abulfaragius, "Specimen Historia Ambum"

كانت تستغرق من عام إلى عامين حتى يتم إعدادها-، ثم أعاد النسخ مرة أخرى إلى سابق عهدها. غير أن من المؤكد أنه لم يكن لديه وقت لإعادة نسخ النص بالكامل حتى يكون كأنه الأصل، والسبب هو الصعوبة الشديدة في تقليد خط ابن القفطي وما تم هو إدخال المراد بخط شبيه وهذا لا يستغرق الكثير من الوقت. لم يمر زمن طويل على هذه الفعلة إذ تم ذلك قبل أن يتمكن الزوزني، بعد عام على ذلك، من قراءة النص وتلخيصه. ولما كان ذلك الأخير مهتمًا بالموروث الأدبي للقفطي فلا بد أنه التقى بأبي الفرج، وليس الأمر لأن هذا الأخير كاتبًا شهيرًا بل ربما لأنه كان يستحوذ على آخر المخطوطات التي تركها ابن القفطي.

غير أن هناك مشكلة أخرى يجب التوصل لحل لها، وهي أن النص الذي تركه ابن القفطي أقصر بكثير، كما أن أسلوبه مختلف عن أسلوب أبي الفرج الذي يفترض أنه نقله عن الأول؛ فالنص الذي تركه أبو الفرج أطول، كما يقص أشياء لم تكن موجودة عند ابن القفطي. لكن الشيء الغريب هو أن أحدًا لم يعر اهتمامًا كبيرًا بالمصدر الذي نقل عنه أبو الفرج النص الزائد؛ فمن أي المصادر استقى هذه المعلومات التي وضح أنها تزييف وقح للتاريخ؟ هل أخذها من النص الذي تركه ابن القفطي، وهو نص غير معروف، وهذا ما يقول به من يقبل بهذه الرواية الكاذبة؟ أم هل كان هناك مصدر ثالث غير معروف بالنسبة للجميع، أي من مؤلف ثالث عربي غير معروف؟ أم أن ذلك كان من محض خيال "عبقري القرن"؟.

يبدو أن أبا الفرج شعر في خضم عنفوانه الإبداعي، بالحاجة إلى إضافة شيء إلى هذا النص التاريخي من قريحته الأدبية، وبذلك أطال فيما يفترض أن ابن القفطي هو الذي كتبه، بأن ظهر النص في صورة أكذوبة مطوّلة؛ وربما كان التفسير الأكثر بساطة يتمثل في كذبة جديدة، فنحن لا نعرف السبب وراء قيام الزوزني بإعداد ملخص، وكانت هذه ممارسة من الممارسات الشائعة بين الناسخين في الشرق الأوسط. وربما قام أبو الفرج بإعطائه النسخة ملخصة بشكل مباشر ومعدلة كذلك وترك له التوقيع عليها كأنها نسخته هو، أو أن هذا

المؤرخ لم ير إلا نسخة مزيفة؛ وإذا ما كان أبو الفرج هو الذي قدم الملخص مكتملاً للزوزني فإن المزِّيف أصبح في حلٍ من أن يفعل بالنص ما يشاء من إطالة النص المفترض للقفطي، فلن يتمكن أحد من معرفة النص الأصلي.

أضف إلى ما سبق هناك سؤال أخير لا يجد إجابة وهو أنه إذا ما كان المسرح الذي وصفناه والذي تم فيه إخراج النسخة التي تعرضت للإدراج Interpolacion، والمأخوذة عن الأصل الذي كتبه ابن القفطي ثم أدخل عليها أبو الفرج ما شاء، هو المسرح السليم، فإن المخطوطة المكتوبة بخط ابن القفطي لم يشهدها أحد إلا عدد قليل من أصدقاء ابن القفطي. وإذا ما تم حفظ الأصل عند أبي الفرج فما الذي فعله به؟ فهل كان قادرًا على تدميره في خضم رغبته في إزالة أية أدلة؟ هذا أمر في غاية البساطة نظرًا لأن أبا الفرج لم يكن لديه وازع أخلاقي في هذا المقام. وهنا نقول إن النص الذي كتبه ابن القفطي لم ير النور واختفى؛ وبالصدفة لم يتبق إلا الملخص الذي أعده الزوزني ثم الإضافة التي قام بها أبو الفرج. فما الذي وقع للنص وللنسخ الأصلية القليلة للقفطي؟ هل يمكن العثور على نسخة لم يُدرج عليها شيء وما زالت مخبأة في مكتبة من مكتبات حلب؟.

قضية النص الذي ينسب إلى عبد اللطيف البغدادي:

هناك مؤرخ ثالث يرتبط بحلب وله باع فيما يتعلق بالأكذوبة المفتراه، هو عبد اللطيف البغدادي[٦٠٨] المؤرخ والطبيب وعالم المصريات والرحالة العراقي الذي تحدثنا عنه، وهو واحد من العلماء الذين كان يعرفهم صلاح الدين الأيوبي، كما أنه أستاذ في الطب وفيلسوف في القاهرة وفي حلب أيضًا؛ ولهذا كان معاصرًا للاثنين السابقين ويكاد يكون متعايشًا معهما في المدينة نفسها، وفي هذا السياق كانت له صلة صداقة قوية بابن القفطي؛ والشيء الغريب هو أنه يبدو أن عبد اللطيف البغدادي ذكر في مؤلفاته ـ كما سبقت الإشارة ـ حريق الكتب في المكتبة

(608) Al Latif (1162-1231).

الكبرى على يد العرب بناءً على أمر صدر عن الخليفة عمر بن الخطاب، وكان ذلك بشكل موجز، وقبل ما ورد عن ابن القفطي بوقت طويل ـ حيث يفترض أن الأول هو الذي اخترع هذه الفرية بكاملها ـ ذلك أن عبد اللطيف البغدادي توفى عام ١٢٣١م، بينما كتب ابن القفطي كتابه عام ١٢٤٦م، أي خمسة عشر عامًا بعد وفاة البغدادي.

لقد جاء في كتاب عبد اللطيف البغدادي "كتاب الإفادة والاعتبار"[(٦٠٩)] أنه في أثناء زيارته للإسكندرية نحو عام ١٢٠٠م، عرج على مكان العمود الكبير المحاط بالعديد من الأعمدة المهشمة وأشار إلى أنه يرى أن هذا المكان هو الذي كانت فيه البائكة التي كان يعلم فيها أرسطو تلاميذه وكان هناك مخزن للكتب التي احترقت؛ الأمر إذن يتسم بالدقة والصحة حتى هذا الحد، إذ إن عبد اللطيف يتحدث عن السرابيوم وهذا واضح، وأكاديمية أرسطو في المكان كما كان يُطلق ذلك على المتحف في العصور الوسطى الرومانية، كما أنه شاهد على وجود الحريق الذي دمّر المكتبة الصغرى.

لكننا نرى فجأة خروج النص عن السياق، حيث يضيف المؤلف إلى نهايته عبارة قصيرة مشبوهة، تؤكد أنه كان هنا مخزن للكتب قام عمرو بن العاص بإحراقه بناءً على أوامر صدرت عن الخليفة عمر. وهذا التأكيد الغريب يتسم بأنه ليس سابقًا فقط على رواية ابن القفطي التي يفترض أنها الرواية الأولى والأكثر تفصيلاً. ثم يلح على الشيء نفسه، حيث لا يقتصر الأمر على الحديث عن حريق مكتبة السرابيوم، أي المكتبة الصغرى، بل يتهم العرب دون مواربة مكذبًا كذلك شهادة أوروسيو ويفعل الشيء نفسه فيما يتعلق بأصول وجذور هذا الاتهام الصارخ والموجز حيث لا يقدم أي دليل، سيرًا في هذا على ما فعله أبو الفرج، اللهم إلا ما سمعه عرضًا في الشارع، أي الأقاويل السكندرية التي أصبحت مصادر أدبية. وعلى أية حال نتساءل عن مصدر عبد اللطيف بالنسبة

(609) Al Latif, "Al-Ifada wáirtibar". "Khitaf, I, pg. 159, en Bucler, "TheArab Conquest...", pg. 403.

لهذه الفرية، مع العلم بأن سيفيرو المقفع ومعه إيوتيكيوس يقولان بأن هذه الرواية لم تكن معروفة على الإطلاق في مصر في نهاية القرن العاشر الميلادي، كما أنه لا توجد في القرن الثاني عشر أية رواية شفاهية عن هذه الرواية؟ لدينا مؤرخ عربي آخر قرر مد يد العون للفرنجة في زمن الحرب.

هل يمكن أن نخمن في هذا المقام أيضًا وجود اليد الخفية لأبي الفرج؟ بالطبع، يمكننا أن نخمن أيضًا أن أبا الفرج كان أيضًا اليد الخفية حيث وطّد من أركان تدليسه للنصوص التي أخذها عن ابن القفطي بإضافة فقرة قصيرة مكونة من جملتين قصيرتين لكنهما حاسمتان، وجاء ذلك في مؤلف ذلك الكاتب العربي الآخر وهو عبد اللطيف، وهو الكاتب الذي لم يعرفه أبو الفرج قط بشكل شخصي نظرًا لكبر سنه، ولو أنه كاتب عاش أيضًا خلال القرن الثالث عشر وفي حلب أيضًا. وها هو أيضًا قريب من أبي الفرج من حيث محل الإقامة، وهنا يمكن القول بأن مؤلفاته كانت سهلة المنال بالنسبة لأبي الفرج.

في هذا القرن المليء بالتقلبات نجد المغول بقيادة هولاكو يتحالفون مع المسيحيين النسطوريين ويستولون على حلب عام ١٢٦٠م، وقد قتلوا آلاف المسلمين واليهود، لكنهم لم يقربوا المسيحيين الذين كان أبو الفرج على رأسهم، حيث قاموا باستقبال المغول بفرحة غامرة رغم أنهم كانوا يعتبرونهم من الهراطقة. كما أسفرت المباحثات التي تمت بين أبي الفرج والغُزاة عن احترام حياة وأموال المسيحيين من التابعين للمذهب القائل بالطبيعة الواحدة، الأمر الذي رفع من شأن أبي الفرج وأصبح من القديسين في الإطار المحلي. أضف إلى ذلك أنه وطد صلاته بالغُزاة المغول حيث انتهى به الأمر إلى إقامته في عاصمة المغول في بلاد فارس. من جهة أخرى يلاحظ أن المذابح التي شهدتها حلب آنذاك خلفت الكثير من الكنوز العلمية المتمثلة في الكتب التي لا يجد من يحافظ عليها، فهل استغل أبو الفرج هذه الظروف الصعبة ليستولي على كافة مخطوطات عبد اللطيف؟

إذا ما تعلق الأمر المذكور بعبد اللطيف فإن المسألة أكثر يسرًا بكثير بالمقارنة بما حدث مع ابن القفطي، إذ تمثل الأمر في إضافة إلى النص الأصلي للمؤرخ

العربي أو إلى النسخ التي وقعت يده عليها، وتمثلت الإضافة في جملة واحدة ليست طويلة. سبق أن ذكرنا آنفًا أن الشيء الأكثر غموضًا هو أن عبد اللطيف توفى قبل الافتراض الذي يقول بأن ابن القفطي قد اخترع فجأة هذا الاتهام وكاله لبني جلدته وثقافته.

هنا يظهر مؤرخ عربي آخر خلال القرن الثالث عشر ويدلي بدلوه في هذه الفرية؛ إنه عبد اللطيف المؤرخ الشهير الذي عندما جاء إلى مصر كان يحمل رسالة من صلاح الدين الأيوبي لزيارة موسى بن ميمون(٦١٠) وهو العالم والفيلسوف اليهودي وأفضل طبيب في عصره، وكان يعتبر من خيرة الأطباء؛ عاش في الإسكندرية عام ١١٦٥م، لكنه كان يعيش في الفسطاط طبيبًا لصلاح الدين. وها هو مؤرخ عراقي تتوفر لديه معلومات خاطئة ويتسم تصرفه بالسذاجة إذ أقدم على أن يضم إلى كتابه الموثق عن مصر خطأ فادحًا يدنس سمعة العرب في أثناء الحروب التي كانت تدور رحاها في الشرق الأوسط.

هناك تبدو الكثير من التوافقات والصُدف الغريبة، وهناك عدد كبير من المؤرخين العرب من الذين يسهل خداعهم وكلهم من مؤرخي القرن الثالث عشر وأصدقاء لصلاح الدين ذلك الفارس الشهير بانتصاراته؛ كما أنهم جميعًا يعيشون ويكتبون وهم في حلب المحصنة، وهم جميعًا يقُصّون الأكاذيب التي تفيد الفرنجة ويتهمون شعوبهم بمسئوليتها عن مأساة لم ترتكبها قط.

من المثير للانتباه أن البروفسور فلورنسيا ج. فورلاني(٦١١) استطاع أن ينتشل رواية عبد اللطيف الموجزة، وهذا ما فعله أيضًا جيبون(٦١٢) حيث قال بصحة ما

---

(610) Maimónides (Córdoba 1135- El Fustat-Cairo 1204).

(611) Furlani, G., "Giovanni il Filopono e l'incenáio delia Biblioteca de Alessandria", "Juan Filopono y elincendio de la Biblioteca, de Alejandría-, 21, pgs. 59-68, Ste. Archaeol. d'Alexandrie, 1925.

(612) Gibbon, "Decadência Império Romano".

جاء فيها دون أن يقدم أية براهين اللهم إلا أنها مأخوذة عن الموروث الشفاهي المحلي الذي ظلت عليه الخرافات السكندرية، وهي عبارة عن موروث شفاهي لم يعره أحد انتباهًا طوال ستمائة عام؛ وكانت رمية من غير رامٍ حيث قام عبد اللطيف - كما يفترض - برصدها من الشارع السكندري في أثناء فترة إقامته القصيرة في مصر وقبل بهذه الخرافة على أنها حقيقة دون سند من أي مصدر سابق مكتوب. إنه لتصرف غريب يصدر عن مؤرخ مشهود له.

هنا نشير أن فورلاني يرفض الرواية المفترضة للقفطي وبالتالي يرفض ضمنًا رواية أبي الفرج على أنها محض اختلاق أدبي بما في ذلك رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، وهو بذلك يقع في تناقض مع نفسه بتأييده الفقرة التي وردت عن عبد اللطيف. وبهذا نصل إلى قمة الغموض، وبذلك يبقى الاتهام قائمًا لم يمس ولو أن مصدره كاتب عربي واحد هو عبد اللطيف الذي يفترض أنه أضل هذه الرواية الأسطورية. وعلى أساس هذه الرواية فإن عمرو بن العاص أحرق كتب المكتبة بناءً على أوامر من الخليفة عمر، طبقًا لما يقول به عبد اللطيف خلال بداية القرن الثالث عشر، ولم يتكرر هذا الاتهام مرة أخرى في النصوص العربية.

يتحدث ج. وايت[٦١٣] عن هذا الموضوع المتعلق بالإضافة التي وردت في مؤلف عبد اللطيف مشيرًا إلى "أن هذا النص المحدد الذي جرى استخدامه في الغرب لأهداف وغايات مثيرة للجدل... أدى إلى إثارة سخط الدوائر الإسلامية... ذلك لأننا عندما نريد كتابة تاريخ الدول الإسلامية ليس لدينا إلا القليل جدًا من النصوص القديمة... لكن فيما يتعلق تحديدًا بهذا الفصل الذي يتعلق بغزو مصر تتغير الأمور إذ نعثر على الكثير من الروايات التي تتسم بالكثير من الغموض مثل

(613) Wlet y otr., "LEgypte Musulmane de ia Conquéte Arabe á Ia. Conquéte Ottomane",-"Egifilti Musulmán, de Ia Conquista rabe a Ia Conquista Otomana"-, pgs. 109-153, Cairo, 1932.

رواية ابن عبد الحكم، والبلاذري والطبري والمسعودي والكندي. هذه الكتب كلها لم يرد فيها أي صدى عن حريق المكتبة، ومن هنا يصبح من المجازفة القبول بصحة هذه الرواية اعتماداً على ما جاء عند عبد اللطيف وحده بعد ذلك بستمائة عام.

إدراج نصوص على النص الأصلي، الممارسة الممقوتة:

كان أبو الفرج، على أية حال، ذا عادة يسير عليها في حياته؛ فقد رأينا أنه على زمن وجود مكتبة الإسكندرية الكبرى كان البطالمة يطبقون مبدأ الرقابة ويدخلون تعديلات على النصوص حسبما يحلو لهم وذلك لأسباب سياسية. غير أن البعض لم يقبلوا بهذا المسلك السكندري ورفضوا النصوص المعدلة وحضوا على البحث عن المخطوطات القديمة للتعرف على ما كتبه هوميروس وغيره من العباقرة الآخرين؛ وهنا نجد أن ديونيسيو هاليكارناسكو ألف كتاباً عن الخطيب ديناركو، ق. الرابع قبل الميلاد، وشكا فيه من التزييف الملحوظ على كتالوجات (فهارس) المكتبات السكندرية ومكتبات "برجامو Pergamo"، وقال بأنه قد نسبت إلى دينارو خطباً لا تتوافق على الإطلاق مع اتجاهه كما أنها كانت تشير إلى أنها كانت من كتب أخرى له...[٦١٤].

في هذا السياق نجد جالينو يؤكد خلال القرن التالي أنه "قبل أن يمارس ملوك الإسكندرية وبرجامو هواية شراء الكتب القديمة، لم يجرؤ أحد قبل ذلك على تزييف عنوان أحد الكتب، غير أنه عندما بدأ إغداق الأموال على الذين يأتون بعمل من أعمال القدماء ظهرت الكثير من هذه الأعمال وهي تحمل عناوين مزيفة"[٦١٥].

---

(614) Dionisio de Haiicarnaso (60a. C.-7d. C), "Sobre Dinarco", 1.

(615) Galeno, "Comment. In Hippocratis De natura hominis", "Comentários sobre Hipócrates y la natumleza humana", I, 127-

ويرى خ. أ. رودريجيث بالكارثل، أن أمناء المكتبات العامة الإمبراطورية، خلال العصر الروماني، من هؤلاء الذين ظهروا على أيام يوليوس قيصر وأسرة يوليوس كلاوديا، كانوا يقومون بشراء الكتب وتصنيفها للمكتبات العديدة التي أسسها هؤلاء الأباطرة كما كانوا مُجبرين أيضًا على استبعاد بعض الكتب التي بها سواء كان ذلك لأسباب سياسية أو فنية؛ ويقول الباحث في هذا الشأن: "فيما يتعلق بالباحثين والمكتبات خلال عصر الإمبراطورية الرومانية ينبغي أن نبرز الوظيفة السياسية لها، فالكتاب الذين يتعرضون لإدانات سياسية أو أدبية كانوا يتعرضون لما يمكن أن يطلق عليه "العقاب بالنسيان"(٦١٦) وهذا يقتضي أيضًا المزيد من الرقابة الثقافية التي يقوم بها النظام..."(٦١٧).

إنها ممارسات غير حميدة على الإطلاق قام بها المسيحيون الجدد، فمنذ ظهور المؤلفات الأولى للمسيحيين الذين ينسبون إلى مذاهب مختلفة أخذت تزدهر عمليات الإقحام على النصوص أو التعديل أو التزييف، وكان يقوم بذلك مختلف النسّاخ الذين ظلوا مسئولين عن إعادة نسخ وبث النصوص حتى ظهرت الطباعة؛ وتكررت الاتهامات المتبادلة بين الأطراف المختلفة على مدى قرون، ومن المعروف أن السبب الرئيسي لعمليات إقحام تعديلات على النصوص هو الدين.

كان إس. إيرينيو يتهم "مارثيون Marcion" الفيلسوف وعالم اللاهوت الغنوصي، الذي عاش خلال القرن الثاني الميلادي، بأنه قام بتغير جزء من نصوص رسائل القديس بابلو وتعديلها. كما نجد ديونيسيو، أسقف كورنتو يشكو من أن مؤلفاته قد تعرضت للتحريف لأسباب لاهوتية وذلك "بحذف بعض الفقرات وإضافة أخرى". كما نجد إيوزبيو دي ثيساريا، في كتابه "التاريخ اللاهوتي"(٦١٨) ينوه بأن أوريجنس،

(616) "Condena al olvido".

(617) Rodrigues Valcárcel, "Procumtor Bibliothecae Augusti: Los inícios de lãs bibliotecas públicas en Roma", 2004.

(618) Eusebio, "Historia Ecdesiastiea" , VI, 25.7.

القرن الثالث، كان يشك في صحة إجمالي النصوص التي كتبها القديس بابلو، ويرى أنه لم يكتب إلا بضعة سطور ولم يكتب لكافة الطوائف التي عرفها.

وتأكيدًا على ذلك نجد أن أوريجنس أورد في كتابه الموسوعي المُعَنوّن Hexapla العديد من المخالفات وإقحام نصوص على النص الأصلي واختلافات قائمة في النصوص الإنجيلية، وقال "إن الاختلافات بين النسخ المختلفة للكتب المقدسة قد ازدادت بشكل ملحوظ، ومرد ذلك أحيانًا للإهمال الذي عليه بعض النُسّاخ، وأحيانًا أخرى يجرؤ البعض منهم على فعل ذلك... بإضافات للنصوص أو حذف جزء منها طبقًا لما يرونه هم".

خلال القرن الثالث الميلادي نرى أيضًا أحد الكُتّاب الوثنيين وهو "ثلسو Celso" الذي أورده أوريجنس في مؤلفه "ضد ثلسو"، حيث يتهم المسيحيين بارتكاب تلك الممارسات وأشار إلى "أن بعض المسيحيين المؤمنين... وصلوا إلى مدى بعيد في هذا الطريق بأن أحدثوا تغييرات على النصوص تزيد عن ثلاث مرات وغيروا معانيها"(٦١٩). وخلال القرن الثالث الميلادي أيضًا نرى الباب داماسو يتحدث عن هذه المشكلة مشيرًا إلى الروايات المختلفة التي عليها المخطوطات اللاتينية للكتاب المقدس.

نرى إذن أن كافة الكتابات المسيحية خلال القرون الأولى كانت تعج بمثل هذه النماذج، وسوف تستمر في هذا الخط أيضًا خلال العصور الوسطى، وتتمثل هذه الممارسة في أن النُسّاخ كانوا ينسخون النصوص ويوائمونها على أساس معتقداتهم الدينية؛ والشيء المثير في هذا المقام أن النُسّاخ في الإسكندرية، المدينة التي تعتبر مهد النقد الأدبي، كانوا أكثر التزامًا وكانت التعديلات التي يدخلونها على النصوص طفيفة، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن ذلك كان ثمرة التأثير الضخم الذي خلفته مكتبة الإسكندرية على الترجمات

(619) Orígenes, "Contra Celsus", 2. 27.

والطبعات الأدبية، وبذلك كانوا يمارسون عملهم المهني بأمانة أكثر وبمعزل عن الإيديولوجيات الشخصية.

بلغ الأمر بالنسبة لهذه التعديلات أن تحولت إلى مشكلة أمام الكُتّاب المسيحيين، حيث توجد نصوص تتضمن تحذيرات ووعيد إلهي لمن يقومون بإحداث تغيير متعمد في النصوص واعتبار أنها نصوص مسيحية أصلية، وتشير هذه التحذيرات إلى "أنه إذا ما قام شخص بإضافة شيء إلى هذا النص الرسولي... أو قام بحذف بعض منه..." فإن عقاب الله سيناله. وهنا نرى أن روفينو، خلال القرن الخامس الميلادي يشير في كتابه "المقدمة Prefacio" إلى النص المتعلق بأوريجنس ويُطلق عليه "مقدمة لتعليقات أوريجنس حول الرسالة إلى الرومان"، وجاء ذلك في خمسة عشر كتابًا، وهنا يؤكد على الصعوبات التي واجهها في ترجمة هذه الكتب إلى اللاتينية "فقد جرى تحريف هذه الكتب"، كما أنه يلح على الوعيد الذي سيلقاه هؤلاء النُسّاخ مشيرًا إلى أنه "لا يمكن إضافة شيء إلى ما هو مكتوب أو حذف بعض منه أو إيلاج نصوص أخرى فيه أو تعديله..".

ووصل الأمر بروفينو إلى إصداره كتابًا بعنوان "حول تحريف كتب أوريجنس"، يتناول تزييف نصوص العالم السكندري حتى قبل مماته، ويؤكد على أن الكثير من النقد الموجه إلى تعاليم أوريجنس إنما يرجع إلى التزييف والإقحام الذي أدخل على مؤلفاته ومخطوطاته الأصلية؛ ومع هذا فإن الترجمات التي قام بها روفينو لنصوص أوريجنس إلى اللاتينية كانت مليئة بالتعديلات التي أدخلت على النص الأصلي، إذ يقول: " عليّ أن أضيف في هذا المقام عدة أمور وذلك لتعويض ما نقص وعليّ أن أوجز ما كان فيه إسهاب كبير"(٦٢٠).

(620) Rufino, "De adulteratione librorum Origemi", apéndice de la traducción de la de Panfilo. "Apologia"

وفي نهاية القرن الخامس أو بداية القرن السادس جرى التزييف الكامل لبعض "مؤلفات ورسائل القديس ديونيسيو أريوباجيتا"[٦٢١]، ويفترض ذلك خلال القرن الأول الميلادي، طبقًا لرأي ج. فرنانديث، وفي النصوص التي ورد ذكرها في مجمع القسطنطينية الذي عقد عام ٥٣٣م، وجاء ذلك من لدن سيفيرو الأنطاكي والقائلين بمذهب الطبيعة الواحدة من الأفلاطونيين الجدد المعتدلين، في معرض الدفاع عن رؤيتهم أمام "الكالثودونيين Calcedonianos". وكان ظهور هذا التزييف مثار فضيحة منذ البداية ذلك أن هذه النصوص ظهرت فجأة دون أن يعرف بها أحد خلال خمسة قرون؛ نرى إذن أن هذه النصوص ربما كانت بقلم أحد الوثنيين من الأفلاطونيين الجدد من سوريا والذي تحول إلى واحد من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة.

ومع هذا فقد حازت هذه النصوص نجاحًا في الغرب المسيحي، ولم يتم الردّ عليها حتى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وتم إهمالها واستبعادها نهائيًا مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، أي بعد ألف وأربعمائة عام على ظهورها. وهنا نقول إن هذه النصوص المسيحية المزيفة أخذت مسارًا شبيهًا بذلك المسار الذي أخذته الفرية ضد العرب، زيف لكنه نجاح ما بعده نجاح بين المؤمنين. وفي الوقت ذاته، أي خلال القرن الثامن الميلادي جرى تزييف كامل لكتاب "عطايا قسطنطين"، وهو تزييف لم يُكتشف إلا في القرن الخامس عشر وكان الهدف منه تبرير السلطة المحلية لبابا روما.

وبعد احتلال مدينة دمياط خلال القرن الثالث عشر تلك المدينة المطلة على فرع دمياط عند المصب على البحر الأبيض، أي خلال الموجة الخامسة من الموجات الصليبية (١٢١٩م) انتشرت في المعسكرات المسيحية عدة نصوص رسولية مثل الكتاب الشهير الذي يحمل عنوان "كتاب كليمنت" أو "عظات بطرس

(621) Fernandez, "La cmtíanización de ia Filosofia antigua en Atenas y Alejandría", Arbil, 112, 2008.

الرسولي التي صدرت في مجلد واحد وقام بذلك تلميذه كليمنت"، وهو كتاب كان يعتبر من الكتب القديمة جداً، ومع هذا لم يكن إلا تزييفًا تم ارتكابه خلال القرن المذكور، حيث كانت هناك نبوءة بسقوط الإسكندرية في يد الصليبيين.

من البدهي، في ظل هذه الممارسات الشائعة، والتي تدل على عدم وجود وازع قوي من ضمير حي، أن تظل قائمة وفاعلة خلال العصور الوسطى، وهذا ما نراه في "الفهرست Codex" الشارلماني لترتوليانو. جرى إقحام نصوص أو ممارسة التعديلات على النصوص المكتوبة بالعبرية على النصوص الوثنية فقط، وكانت الغاية من ذلك خدمة للدعاية المسيحية. وهنا علينا ألا ننسى أن كلاً من "مجمع باريس" (١٢١٠م) والبابا جريجوريو التاسع[٦٢٢] وسم كتب أرسطو والعلوم الكلاسيكية بالهرطقة والإلحاد وقرر منع دراستها، كما إن البابا جريجوريو التاسع نفسه، الذي أعلن أن "الجهل هو عماد الرحمة"، أمر بإحراق المكتبة التي أسسها أوجست في فلسطين، وأمر بتدمير أغلب كتب تيتو ليفيو وبخاصة الكتاب الأول الذي تحدث عن حريق مكتبة الإسكندرية على يد يوليوس قيصر. أمر غريب ذلك الصراع المحتدم مع تيتو ليفيو، فما الذي كان يراد أن يتم محوه من وراء ذلك؟.

عندما نتأمل الإمبراطورية البيزنطية، الوريثة لكافة مكونات التراث اليوناني، نجد أن الكنيسة كانت تنظر إلى النصوص القديمة نظرة امتهان؛ ثم كان علينا أن ننتظر حتى نهاية القرن الثالث عشر حيث ظهر رجل دولة ومؤيد لما هو يوناني، هو تيودور ميتوتشت، الرجل الذي أسس لآخر "نهضة بيزنطية" أو ما يسمى Paleologo، والذي أسس كذلك أفضل مكتبة في القسطنطينية، تم فتحها للجمهور نحو عام ١٣٢١م، وكانت في دير "شورا Chora"، وكان الهدف منها صيحة تحذير والدفاع عن الحفاظ على المخطوطات العلمانية وبخاصة المؤلفات اليونانية، وقد وجه رسالة إلى الرهبان يحثهم فيها على "الحفاظ على خزانات

---

(622) Gregorio IX (1231).

الكتب بحيث تكون في أفضل حال فهي كنوز مهمة يجب ألا نفقدها لأنها سوف تحظى باهتمام ورعاية الناس كافة في الأجيال القادمة"[٦٢٣]. كان جهداً مؤقتاً ذلك أن الشعور العدائي تجاه هذه الكتب الوثنية لم يختف قط من الثقافة المسيحية في بيزنطة.

وعلى أية حال، نجد أنه ابتداءً من القرن الثالث عشر، بدأ يظهر وعي جديد ويفتح طريقاً له في العالم الغربي، حيث يتم تغذية المواجهة الإيديولوجية مع العالم الإسلامي، في أثناء عنفوان موجات الحروب الصليبية. وفي هذا الإطار جاء تحريف النصوص العربية جزءاً من قائمة التحريفات السابقة، وكان ذلك وسيلة مألوفة للدعاية السياسية والأيديولوجية. وكان أحد ثمراته البدهية والمستمرة أن مكتبة الإسكندرية تعرضت للحريق على يد العرب خلال القرن السابع الميلادي. إنها عملية تزييف تاريخ، وأخذت تنضم إلى قائمة التحريف والتزييف أو الحذف.

نرصد أيضاً هذه الظاهرة من الإقحام والتحريف للنصوص في الثقافة العبرية، ويندرج ذلك على Pentleuco (الأجزاء الخمسة الأولى من التوراة). وهذا أمر يرجع إلى زمن أبعد بكثير، وقد بدأ عندما تمت ترجمة الكتب العبرية المقدسة إلى اليونانية وهي التي أطلق عليها العلماء اليهود الذين كانوا يعيشون في الإسكندرية خلال الفترة من القرن الثالث حتى القرن الأول ق.م. Septuaginta (الستينية)، بالتعاون مع المكتبة الكبرى والمتحف. جرى تغيير ترتيب الكتب وأضيفت أخرى وتم تحريف معاني بعض الكلمات والجمل بحيث أخذت معنى مغايراً. ولم يكن كل ذلك محض أخطاء نُسّاخ.

ومن الأمثلة الفاضحة على ذلك ما نراه خلال العصور الوسطى من نص ينسب لابن ميمون يطلق عليه كود ابن ميمون"[٦٢٤] (مشناه توراة) حيث تعرض

(623) Teodoro Metochites (1270-1332), "Cartas".

(624) Maimónides, "Mishneh Torah".

النص للكثير من التصحيحات والتعديلات على يد الناسخين وعلى يد ابن ميمون نفسه؛ كما تعرض النص للحذف من قبل الرقابة بحيث أصبح من المستحيل أن نعرف اليوم النص الأصلي[٦٢٥].

إدراج نصوص على النصوص الأصلية، حل أمثل في زمن الصليبيين:

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي ابتكر فيها المسيحيون الشرقيون هذه البدعة التي تتمثل في "رسائل" الخلفاء المسلمين واستخدامها سلاحًا للدعاية، ومن أمثلة ذلك تلك الرسالة التي نسبها المؤرخ الأرمني "جيفوند Ghevond"، القرن العاشر، للخليفة عمر بن عبد العزيز[٦٢٦] ويفترض أنها موجهة إلى الإمبراطور البيزنطي ليون الثالث[٦٢٧]، وكذلك الرسائل المتبادلة التي تظهر في "رسالات الكندي"[٦٢٨] (أو رد البيروني) والتي تدور بين اثنين من كبار الشخصيات في البلاط العباسي، أحدهما مسلم والآخر مسيحي، وكانت الرسائل تهدف إلى أن يعتنق الطرف الآخر ديانة الطرف المتحدث معه؛ وحقيقة الأمر، على ما يبدو، هي أن هذه الرسائل جاءت من لدن راهب مسيحي شرقي، فالنص بكامله معاد للإسلام.

جرت ترجمة هذه النصوص التي ألفها مسيحيون شرقيون، وهي نصوص تتخللها الكثير من الرسائل التي جرى نسخها من الموروث العربي، إلى اللغة اللاتينية وجرى بثها في الغرب خلال الفترة من القرن العاشر حتى القرن الثاني عشر؛ وهذا ما حدث بعد ذلك أيضًا بالنسبة للرسالة المختلقة التي أرسل بها عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص[٦٢٩]، التي جرى نقلها بالكامل حتى بالنسبة لهؤلاء الذين يسمون الرسالة والرواية الخاصة بمكتبة الإسكندرية

(625) Kraemer, J. L., "Maimónides", pgs. 168 y ss., New York, 2008.

(626) Omar II (717-720).

(627) León III (717-741).

(628) Al-Biruni, "Risalat al-Kindī"

(629) Omar, Pseudo, "Carta apócrifa a'Amru".

بالزيف. ومع هذا فإننا نرى أنه حتى القرن الثاني عشر كان هناك صمت المسيحيين الشرقيين إزاء الرواية المختلفة التي أوردها أبو الفرج.

ولما كان كل هؤلاء سابقين على أبي الفرج فليس باستطاعة أي منهم معرفة الرواية، وكان أقل شيء يمكن فعله في هذا المقام هو الانخراط في مناقشات صبيانية ذات طابع لاهوتي، قبل التعرض للتاريخ، والحديث عن الكارثة الإنسانية والثقافية التي تعرض لها معبد السرابيوم في الإسكندرية. وإذا ما كانت الرواية المختلفة حقيقية لكان موقف هؤلاء المسيحيين المشارقة مختلفًا للغاية. ولم يدر ذلك بخلدهم خلال تلك القرون الخمسة، ذلك أن أبا الفرج لم يكن قد ولد بعد أو حتى قام ببث بذور الجدال.

من المؤكد أن ما عليه أبو الفرج من اتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة لم يكن بعيدًا عن جرأته كما أن اهتمامه الشديد باختراع واختلاق الرواية التي لم تبرئ الرهبان المصريين السابقين على أصحاب المذهب القائل بالطبيعة الواحدة وأنهم هم من وراء الكارثة التي تعتبر صفحة من أسود الصفحات في التاريخ. جرى اختلاق صفحة غير مسبوقة في تاريخ مصر وكان الهدف منها استئصال الصفحة الحقيقية والإلقاء بها في غياهب النسيان. نشهد إذن كيف تتشابك الأسباب الكامنة وراء ذلك سواء كانت سياسية أم دينية.

من المعروف أن الكنيسة المصرية اليعقوبية كانت قد مرت خلال القرن الثالث عشر بأزمة حادة على المستوى الداخلي ذلك أنها أصبحت بلا بطريرك خلال الفترة من ١٢١٥ حتى ١٢٣٥م نظرًا للمواجهات الحادة بين بطاركة الإسكندرية وأنطاكية. كما نعرف أن أبا الفرج ولد عام ١٢٢٦م وكان ضالعًا في تلك الصراعات الدينية؛ ولما كان ابن الشخص اعتنق المسيحية فإن أداءه يتسم بالعمق والحماس؛ وبالتالي ليس من المستغرب أن يكون أسقفًا وهو في العشرين من العمر، بعد وقت قصير من انتهاء الصراعات الدينية المذكورة. ربما فكر في أن

هذه الرواية المختلفة يمكن أن تكون أداة لرأب الصدع ومداواة الجروح بين الأقباط وعليهم أن يكونوا صفًا واحدًا في مواجهة المنافس الحقيقي.

وهكذا كان الأمر، فسرعان ما تلقف الأقباط الأمر في الحال وقبلوا بهذه الرواية المختلفة على أنها صحيحة وظلوا على موقفهم حتى اليوم، وهذا قمة نجاح أبي الفرج. ورغم أننا ندرك أن بعض جوانب القصة ما هو إلا ثمرة المبالغة، فإن التعديل اللاحق الذي أدخله من عندياته، كان له تأثيره إذ أكد بدقة تسترعي الانتباه أن المدة التي استغرقها إحراق الكتب كانت ستين يومًا وليس ستة أشهر في حمامات الإسكندرية[٦٣٠].

كان للكنيسة القبطية المصرية عدو آخر ظهر لها خلال القرن الثالث عشر؛ ففي سياق الموجة الرابعة من موجات غزو الصليبيين[٦٣١]، التي استخدمت الخيانة والدم والنار، تم تدمير عاصمة البيزنطيين، القسطنطينية، مرتين خلال عام ١٢٠٤م، وهنا قام البابا إينتسيو الثالث[٦٣٢] محرك هذه الموجة الصليبية، قام بالتخلص من أعدى أعدائه وهم المسيحيون الشرقيون، بأن أمر بإنشاء البطرياركية اللاتينية في القسطنطينية في الإمبراطورية الجديدة الناشئة وهي "الإمبراطورية اللاتينية المشرقية للصليبيين" (١٢٠٤م)، وقامت البطرياركية بالجمع بين الكنيسة الكاثوليكية واليونانية.

وفي عام ١٢١٥م، وخلال انعقاد المجمع الكنسي الرابع في لِتّران، حيث كان الهدف منه الإعداد للموجة الصليبية التالية، الخامسة، من أجل الحيلولة دون الوقوع الوشيك لمصر في يد الكاثوليك، قرر البابا إينتنسيو الثالث إنشاء البطرياركية اللاتينية السكندرية للغايات نفسها. ثم جاء من بعده خليفته وهو البابا أونوريو الثالث[٦٣٣] حيث أسهم بشكل كبير في الإعداد للحملة الصليبية

(630) Butler, "The Arab conquest of Egypf", pg. 403.

(631) Cuarta Cruzada (1202-1204),

(632) Inocencio III (1198-1216).

(633) Honorio III (1216-1227).

الخامسة(٦٣٤) واستولى على دمياط، المدينة القريبة من الإسكندرية، وعلى بعض البلدات الواقعة في شمال مصر، كما سارع بتعيين أتاناسيو كلارو مونتانو باعتباره أول بطريارك لاتيني للإسكندرية عام ١٢١٩م في الوقت الذي كان الصليبيون لا يزالون يسيطرون على دمياط ثم أخرجهم منها المصريون بعد ذلك عام ١٢٢١م.

لا بد من أن هذه التحركات اللوجستية التي قامت بها البابوية الرومانية الثيوقراطية والمتشددة والتي تميل إلى الصراع والسيطرة على المستوى الدولي، والتي تمكنت بقوة السيف من استئصال من كانت تعتبرهم هراطقة من مدينة ألبي الفرنسية وأنصار بدرو بالدو، قد أثارت قلقا شديدًا لدى الأقباط، الذين رأوا أنفسهم وكأنهم منشقون عن الكاثوليك. وهنا نجد أن الدكتاتورية البابوية في بلد يخضع لضغط شديد على يد الصليبيين والفرنجة كانت أمرًا غير محمود على الإطلاق عند المصريين المسيحيين حيث ذَكّرهُم هذا الموقف بما حدث أيام البيزنطيين وما تعرضوا له من مطاردات على يد الكاثوليكيين.

في هذه اللحظة بالذات كان على الأقباط أن يكونوا يدًا واحدة أكثر من أي وقت مضى وأن ينظفوا ماضيهم ما استطاعوا حتى لا يفقدوا أتباعهم الذين ينضمون إلى صفوف الغُزاة الجُدد من الفرنجة فلجأوا إلى استخدام السلاح ولجأوا أيضًا إلى استخدام سلاح تدمير معبد السرابيوم ومكتبته وكان ذلك ضد ذكرى قديسيهم من الأقباط وأساقفتهم.

كان أبو الفرج سوريا لكن حياته كانت تشهد حركة دائمة في الشرق الأوسط حيث كانت له سطوته وسلطانه. لم يكن الرجل مولعًا بالخصومات مع الفرنجة الذين غزوا المنطقة الشرقية من البحر الأبيض أي سيطروا على رعايا البابوية الرومانية وبالتالي فهم من ألد أعداء الأقباط أصحاب المذهب القائل بالطبيعة الواحدة. كان عالمه مرتبطًا بالشرق الأوسط، وكان الشرق هو ميدان معركته الفكرية. وهنا يلاحظ أن النصوص التي قام بتحريفها والقصة التي اختلقها

---

(634) Quinta Cruzada (1217-1220).

مكتوبة بالعربية، وكانت النصوص موجهة إلى جمهور يتحدث العربية وليس اللاتينية.

فتح النص - الذي تركه - الباب أمام الظهور الحقيقي لهذه القصة المختلقة في الأدبيات العربية، كان ما فعله مخاطرة غير مسبوقة ألا وهي تدنيس تاريخ العرب من خلال نص مكتوب بالعربية رغم أنه كان مُحاطًا بالعرب من كل جانب؛ ومع هذا انضم أبو الفرج إلى ذلك المناخ الذي هو غياب شمس الصليبيين الذي انخرطت فيه أوروبا، أي في تلك السياسة الرجعية والحماسية ضد الإسلام والثقافة الإسلامية.

كان غموض أبي الفرج غريبًا، فقد حاك قصة اختلقها لتدنيس اسم من قاموا بحماية كنيسته، حيث كان هناك اعتراف بهذا المذهب وحمايته بشكل عام في العالم الإسلامي، وهذا عكس ما حدث في العالم المسيحي حيث كان ينظر للمذهب الشرقي على أنه هرطقة يجب القضاء عليها، كان من البدهي أن تؤدي الموجة الصليبية إلى إحداث تأثير على النسيج الاجتماعي في الشرق الأوسط وزادت الصراعات والأحقاد الدينية. وفي هذا السياق يمكن فهم سلوك أبي الفرج الذي تحول إلى مُزيِّف لأسباب سياسية ودينية. وهنا نتساءل عن الدوافع الأخرى التي كانت وراء تصرفه الشديد الأذى للعرب؟.

كانت هذه القصة المختلقة وغير المبررة التي جاء بها أبو الفرج تستهدف المزيد من الانتشار لها في الشرق الأوسط، حيث تؤكد الرواية أن حريق مكتبة الإسكندرية كان متعمدًا وجاء من لدن هؤلاء الأعداء في ذلك العصر وهم العرب والديانة الإسلامية، التي انتصرت في كل مكان بعد أن خرجت من أعماق الصحراء في شبه الجزيرة العربية. نرى إذن أن أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة في الشرق الأوسط قد قبلوا بهذا الاختلاق على أنه حقيقة.

والشيء اللافت للانتباه أنه في الوقت الذي اختفى فيه النص الموروث عن ابن القفطي خلال ذلك العصر، يبدو أن لا أحد يعرف به أو يشير إليه ولم يرد حتى

في الملخص الذي أعده الزوزني، بينما انتشر النص الذي أعده أبو الفرج بسرعة كبيرة. كما كانت الرواية التي أتى بها هي الأطول والأكثر تفصيلاً وهي الوحيدة المعروفة خلال القرون الوسطى الإسلامية، ولها سندها الذي يتمثل في المؤرخ عبد اللطيف البغدادي. من الغريب أيضًا هذا الاختفاء، الذي لا مبرر له، لرواية ابن القفطي بعد كافة المتاعب التي مرّت بها؛ فلما لم ينتشر نص ابن القفطي في الوقت الذي انتشر فيه نص أبي الفرج فإننا نجد أن تأكيدات هذا الأخير وقفت وصمدت أمام النقاد العرب، نظرًا لوجود تلك الكلمات الموجزة التي وردت عند عبد اللطيف. فكيف أمكن لراهب ذكي أن تفلت منه اللعبة التي أعدّها؟.

ياقوت الحموي، شاهد استثنائي:

وعلى أية حال هناك مؤرخان عربيان، خلال القرن الثالث عشر، من معاصري أبي الفرج، ومن سكان حلب، يمكن أن نضمهما إلى القائمة القصيرة للمؤرخين العرب الذين هم على استعداد للحديث عن تلك الرواية المختلقة. كما أن النص الموروث عن أحدهم نص مهمل؛ انتهت هذه الفترة التي ظهر فيها المؤرخان العربيان بموت أبي الفرج عام ١٢٨٦م، فلم يتحدث عن الأمر أي من المؤرخين في حلب، خلال القرن الثالث عشر، أي القرن الذي شهد هذه القصة الكاذبة بما في ذلك ياقوت الحموي المؤرخ والرحّالة[٦٣٥] الذي زار الإسكندرية مرتين، الأولى عام ١٢١٣م والثانية عام ١٢٢٥م وانتهى به المآل في حلب عام ١٢٢٧م حيث استضافه ابن القفطي في منزله، ذلك لأنه كان هاربًا من المغول، كما ساعده كثيرًا في إعداد معجمه الجغرافي (معجم البلدان)؛ وفي هذا المقام أيضًا نذكر أن ياقوت هو الذي تحدث عن الموقع القديم لمدينة الإسكندرية الأمر الذي أثار إعجاب ودهشة العرب بالمكان حيث أشار إلى أنه عندما زار الإسكندرية تجول في أنحائها ولم يجد فيها أجمل وأفضل من عمود قال عنه إنهم يطلقون عليه عمود السواري الكائن إلى جوار باب يُطلق عليه باب الصخرة[٦٣٦].

(635) Yakut (1178-1228), "Diccionarío Geográfico".

(636) Butler, "Tbe Arab Canquest...", pg. 388.

كان ذلك الباب هو المسمى "باب الصحراء" حيث يتم من هناك الهبوط إلى الكثبان الرملية البيضاء التي تتوه في الأفق صوب الغرب مكونةً بذلك شطآنًا ممتدة من المياه ذات اللون التركوازي، كما تتخللها سباطات التمر والتين الشوكي في البراري وسلسلة من أبراج الحراسة. وابتداءً من هذا المكان المرتفع وخروجًا من الإسكندرية نجد أن أول شيء يطالع المرء ويداعب البصر هو برج الحراسة المُسمى أبو صير، وهو عبارة عن نسخة مصغرة لفنار الإسكندرية. إنه البرج العربي، وهو المسمى الذي كان يطلقه عليه البحارة القادمون من مالطة والجزائر، وكان الدليل الذي يعلن قربهم من ميناء مدينة الإسكندرية بعد أيام من الصراع مع الأمواج والمناطق الضحلة.

يعتبر ياقوت شاهدًا حقيقيًا على العصر، كما أنه واحد من مجموعة من الرحّالة العرب الذين قاموا في غضون فترة قصيرة من الزمان - ما يزيد قليلاً على خمسين عامًا - بزيارة الإسكندرية وصعدوا إلى هضبة السرابيوم وعثروا هناك على أطلال المتحف القديم ومدرسة أرسطو، كما وصفوا بالتفصيل المشهد الذي وجدوه من أطلال بقيت من مدارس الإسكندرية. كان بنيامين التطيلي هو الذي زار الإسكندرية عام ١١٦٠م أو ١١٦٥-١١٧١م، ثم جاء عبد اللطيف وقام بالزيارة عام ١٢٠٠م وياقوت عامي ١٢١٣ و ١٢٢٥م، ولم يذكر القصة المختلقة من بين هؤلاء المؤرخين إلا عبد اللطيف. ثم تجمع الصدفة بين كل من عبد اللطيف وياقوت في حلب من جديد وكان ذلك في منزل ابن القفطي. ويا لها من صدفة غريبة! أصبح ياقوت صديقًا وعاش آخر سنة في حياته مع المؤرخين العربيين الوحيدين اللذين تعرضا لهذه الرواية المختلقة.

كان ياقوت معاصرًا لكل من عبد اللطيف وابن القفطي، وعاش مع هذا الأخير في حلب لمدة عام (١٢٢٧-١٢٢٨م) حيث قام بتدوين كتابه، والشيء الغريب أنه لم يشر لتلك الرواية من قريب أو بعيد في معرض حديثه عن تجواله في الإسكندرية ومعبد السرابيوم، إذ أشار إلى أن ذلك كان هو المكان الذي كان يجلس فيه

الدارسون والكيميائيون، وكان المكان الذي يفدون إليه عبارة عن مُدرّج حيث يتوزعون على فصول(٦٣٧). من البدهي أن ياقوت كان يتحدث عن المدارس الوثنية الأفلاطونية الجديدة حيث كان الفلاسفة يرحبون بالرّقيا، وكذلك بالشُّرَّاح لأعمال كل من أفلاطون وأرسطو. الإشارة هنا واضحة لا مجال للشك فيها، كما أن الوصف الذي جاء بقلم ياقوت يتوافق مع الوصف الخاص بالمدارس الوثنية الأخرى. وهنا يمكن أن نقول إن محاولة Mckenzie الخلط بين هذا الوصف وبين وصف أطلال مدارس كوم الدكة غير مفهوم على الإطلاق.

ها هو بنيامين التطيلي الذي يصف لنا موقع معبد السرابيوم القديم في الإسكندرية العربية خلال القرن الثاني عشر مشيرًا إلى أن مدرسة أرسطو حامي الإسكندرية تقع خارج المدينة، وأنها عبارة عن مبنى جميل وضخم مزخرف بأعمدة الرخام التي تفصل بين كل مدرسة، وهناك ما يقرب من عشرين مدرسة من هذه المدارس(٦٣٨). نعرف أيضًا أن بنيامين قد نقل النص بحذافيره عن عالم اللاهوت المسيحي روفينو، الرجل الذي كتب النص عام ٤٠٢م بعد أن عاش زمنًا في الإسكندرية. وإذا ما اتضح أن راقودس كانت منطقة مهجورة في بداية القرن الخامس الميلادي وكانت تقع خارج أسوار المدينة، مثلما رأينا ذلك خلال القرن الثالث عشر عندما انكمشت الإسكندرية العربية خارج الأسوار وكانت صغيرة بالمقارنة بما سبق. ويواصل بنيامين التأكيد على أن المدارس التي يقوم بوصفها تقع "خارج المدينة" وكانت تقوم بتدريس الفلسفة الوثنية والعلوم السرية.

من الواضح إذن عدم وجود أي خلط ممكن؛ أضف إلى ذلك ما تدل عليه طبوغرافيا الإسكندرية، فلما كانت الأطلال التي وصفها كل من بنيامين التطيلي وعبد اللطيف البغدادي وياقوت الحموي تقع خارج المدينة كان على هؤلاء الرحالة أن يتجاوزوا الأسوار ويخرجوا من "باب الصحراء"، مثلما يشير ياقوت، حتى

(637) Mckenzie, J., "The Place whert...", pgs. 79-81.

(638) Benjamín de Tudela, "Itinerário", pgs. 74-75. Mckenzie, "The Place where...", pg. 80.

يبلغوا مرادهم؛ ثم يتحرفون صوب اليسار ويسيرون في طريق ضرب وتحت حرارة الشمس، محاطين بالأطلال المتناثرة والأسوار وصفوف الأعمدة والمباني القديمة التي سيطر عليها نبات العليق، وبصعوبة شديدة كانوا يصعدون على هضاب عبارة عن جبال من الكتل الحجرية المبعثرة وبقايا أرضيات طريق معبد ورخام مشرّخ وبوائك ما زالت قائمة وأخصاص رعاة وقطعان ماشية؛ وبعد هذا الجهد والعناء يصلون إلى راقودس. وبعد هذا العناء نجد أن كلاً من بنيامين التطيلي وعبد اللطيف وياقوت يستغرقون ساعات طوالاً وهم ينزلون محاطين بهذه الأطلال الخاصة بالسرابيوم والمثيرة للشجن والتي ما زالت حتى ذلك الحين توحي بما كانت عليه.

قام هؤلاء المؤرخون بتقديم وصف تفصيلي للمتحف والمدارس والمكتبة الصغرى ومجموعة المباني المسماة "مدرسة أرسطو"، وكل من هذه الأوصاف مكمل للآخر، وأن هذه الأوصاف تؤكد ما رواه روفينو؛ وليس هذا فقط بل إن ياقوت وقف فاغرًا فاه أمام جمال العمود الأكبر. هذا المسار الطويل يشير إلى أنه من المستحيل أن يكون هؤلاء المؤرخين والرحالة، من ذوي الذاكرة البصرية القوية، قد خلطوا بين مدارس السرابيوم ومدارس كوم الدكة مثلما يقول Mckenize. كانت منطقة كوم الدكة داخل الإسكندرية العربية، وفي المركز منها، كما أن أطلال المدارس المسيحية كانت مطمورة بالمخلفات والمساكن والمدافن؛ وللوصول إلى هناك، خلال القرن الثالث عشر، لم يكن من الضروري الخروج من المدينة، أو تسلق الهضاب، ذلك أن الجزء العلوي من الإسكندرية كان مسطحًا حيث يصل المرء إلى هناك ويتنقل بهدوء ودون عناء في الطريق الكانوبي القديم، الذي كان الطريق الرئيسي في المدينة. وأكرر هنا مرة أخرى أن كلاً من بنيامين وعبد اللطيف وياقوت لم يخلطوا قط بين مركز المدينة وربضها، وكانوا يعرفون جيدًا عمّ يتحدثون.

حسن، وضح إذن أن ياقوت سوف يلجأ إلى حلب، بعد رحلته الأخيرة إلى الإسكندرية، عام ١٢٢٥م، وبالتحديد في منزل صديقه المصري ابن القفطي، عام

١٢٢٧م، أي قبل عام على وفاته. كان الرجل يبلغ من العمر ٤٩ عامًا، وكان ابن القفطي يبلغ ٥٥ عامًا أما جاره الآخر وهو عبد اللطيف البغدادي فقد كان عمره ٦٥ عامًا. استغرق هذا العام الذي بقي له من حياته في كتابة "معجم البلدان" بمساعدة لا تلين لها قناة من صديقه ابن القفطي. وفي هذا السياق يصبح من المستحيل ألا يتحدث الرجان الصديقان عن الإسكندرية وينتهي بهما الأمر أن يدون كل في مؤلفه ما استخلصه، ويدخل في هذا السياق أيضًا الصديق المشترك وهو عبد اللطيف البغدادي.

من البدهي أن تكون هناك لقاءات متعددة بين الأصدقاء الثلاثة في حلب، وأقول هنا الطرفين، ذلك أن اثنين منهما كانا يعيشان معًا أما الثالث فقد كان يقوم بزيارتهما، وهنا نتساءل: هل يُعقل ألا يتحدثوا عن الإسكندرية في هذه اللقاءات وهي المدينة التي يعرفها ثلاثتهم؟. الأمر هو أن الثلاثة ربما تبادلوا كافة أنواع البيانات والمعلومات التي يريدونها، سواء في مصر أو في تلك المدرسة، "مدرسة أرسطو"، في الإسكندرية. فهل حدّث عبد اللطيف صديقيه عن شكوكه بشأن العرب أي الرواية التي تلصق التهمة بالعرب؟ وهل تركهما يقرآن ما كتبه قبل نشره؟ وهل قال لهما أين عثر على هذه الأكذوبة؟ وكيف كان من الممكن أن يقوم ياقوت بزيارات عديدة للإسكندرية، وبخاصةٍ بعد زمن قصير على مرور عبد اللطيف بها ولا يحدثه أحد أبدًا بتلك الرواية التي تتهم العرب والتي أخذها عبد اللطيف من شوارع الإسكندرية؟ فهل تناقشوا حول صدق الرواية؟.

وماذا عن ابن القفطي في الأمسيات التي تعقب العشاء وقد جلس في الشرفة متكئًا على المخدات والسجاد وأخذ يتأمل النجوم وأسقف سطوح المنازل في حلب النائمة، ألم يقص على ياقوت تلك الرواية الغامضة التي يؤكدها ما يقول به الطاعن في السن المؤرخ عبد اللطيف وأنه يفكر في أن ترى هذه الرواية النور؟ يبدو أن ذلك لم يحدث، أي لم يحدث بينهما أي حوار حول الإسكندرية، وأن كلاً من عبد اللطيف وابن القفطي قد احتفظ كل واحد منهما بأسراره ومشاريعه لنفسه.

لماذا سكت ياقوت وصمت صمتًا مطبقًا عن تلك الفرية؟ هذا موقف غريب من رجل من رجالات الأدب، لدرجة أن أحدًا من أصدقائه لم يثق به، كما أنه لم يدر شيئًا عن الكتب التي ألفاها. وخلاصة القول هي أنه رغم قربه الشديد من هذين المؤرخين العربيين لم يقل شيئًا، كما لم نر في مؤلفاته أي صدى لما كان يُفترض أن صديقيه يعرفان، كما لم يصدر عنه أي استغراب لمثل هذه التأكيدات. نخلص للقول بأنه لم يكن يعرف بهذه الرواية، فكل من ابن القفطي وعبد اللطيف البغدادي لم يذكرا شيئًا أمامه.

من البدهي أن تكون مؤلفات ياقوت مصدرًا مهما نعتمد عليه، فهو واحد من الشهود في مكان الأحداث وهو حلب وفي الفترة التي كان فيها هذا الاثنان يعدان العدة للرواية المختلقة، كما أنهما كانا يتعايشان مع أحد المشتبه فيهم ويعرف الثاني. حسن، لم يدر بخلده أن يقول شيئًا عن الموضوع، فصمته يفند بالكامل تلك الإمكانية القائلة بأن كلاً من عبد اللطيف وابن القفطي كتبا هذه الرواية؛ فغيبة أي نوع من تبادل الأسرار بين الأصدقاء والزملاء الثلاثة، وكذا غيبة معلومات مهمة ومثيرة إنما تؤكد في حد ذاتها أنه لم يكن أي من الثلاثة يعرف بهذه الرواية حينذاك، أي خلال عامي ١٢٢٧-١٢٢٨م، ونحن في القرن الثالث عشر؛ كما لم يكن في حسبان أي منهم تدبير هذه الرواية واختراعها؛ ومن البدهي، بالتالي، أن يتم فبركتها بعد وفاة ياقوت، أي عام ١٢٢٨م فهذا لم يعرف شيئًا على الإطلاق. وما بقي من زمن أمام عبد اللطيف ليتخذ قرارًا في هذا الشأن هو ثلاثة أعوام، قبل أن يوافيه الأجل، أما بالنسبة للقفطي فقد كان العمر أمامه أي عشرين عامًا.

صمت ورفض في العالم العربي:

لم يشر إلى هذه الرواية أي من المعاصرين خلال القرن الثالث عشر مثل أبي ذاكر بن بطرس الرحيب، المؤرخ الذي عالج في "الحولية المشرقية"[٦٣٩]، ١٢٣٨م،

(639) Petri Rahebi, "Chronicon orientais".

موضوع تاريخ البطاركة السكندريين حتى العصر الذي عاش فيه. وفي نهاية حياة أبي الفرج، كان هناك راهب قبطي آخر، من القاهرة، لكنه أقام في سوريا طوال فترة طويلة من حياته، هو جرجس المكين أو ابن العميد، وهو ابن راهب قبطي كان سكرتيراً لصلاح الدين الأيوبي. كتب الراهب المذكور، بالعربية، خلال الفترة من ١٢٦٢ حتى ١٢٦٨م حوليته الكبرى التي تتناول العالم بعنوان "المجنون المبارك"[٦٤٠] أو "الحولية" حيث يغطي الجزء الثاني منها الفترة الممتدة من زمن ظهور الرسول محمد حتى عام ١٢٦٠م، واستند أساساً على كل من الطبري وإيوتيكيوس، حيث لم يرد أي شيء عن هذه الرواية المختلقة، ومع هذا فقد وردت الإشارة إلى الرسالة الحقيقية التي أرسلها عمر بن الخطاب، وهنا نجده لم يستطع أن يسوق المزيد من الأسماء عن مؤرخي ذلك الزمان (القرن) الذين تحدثوا عن أسرار مناهضة للعرب، رغم أن هناك اثنين من المؤرخين السابقين عليه مباشرة قد فعلوا هذا.

ولم يفعل الشيء نفسه الأمير الأيوبي، مستشار سلطان غرناطة والمؤرخ السوري الذي يدعى أبو الفدا، المعروف في الغرب باسم Abulfeda، الذي ولد في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي؛ ورغم أنه كان صبياً، في الوقت الذي أصبح فيه أبو الفرج طاعناً في السن، لم يستطع هو الآخر أن ينضم إلى تلك القائمة الخاصة بمن يفشون بالأسرار؛ كما لم يتضمن مؤلفه "التاريخ العام" أو "جغرافيا" (التاريخ المختصر في أخبار البشر)[٦٤١] (وهذا الكتاب هو مصدر مهم للغاية بالنسبة للشرق الأدنى، ومع) أية إشارة للحريق المفترض. وهنا يقول جيبون: "إن مآل مكتبة الإسكندرية الذي تحدث عنه أبو الفرج لأول مرة... ليس إلا تقريراً وحيداً... يقابله على الكفة الأخرى الصمت... من قبل كل من أبي الفدا والمرتضي

(640) Al-Makin (1205-1274), "al-Magnun'al-mubarak".

(641) Abulfeda (1273-1331), "Tarikhu'l-muktassar fi Akbar albacher".Publicada en ktín por Gag-nier, en Londres, en 1732.

وعدد من (الكُتّاب) المسلمين... "[٦٤٢]. ولم يذكر ابن حجر العسقلاني شيئًا في هذا الموضوع[٦٤٣] وهو المؤرخ الذي عاش في القاهرة كما كان يقصّ في "المعجم البيليوغرافي" الذي ألفه حياة عمرو بن العاص في أثناء الغزو.

يتسم وضع ابن خلدون في هذا المقام بالأهمية الشديدة[٦٤٤] إذ أشار في "المقدمة"[٦٤٥]، ولأول مرة وآخر مرة أيضًا في التاريخ - وبعد مرور ستمائة عام على عصر الخليفة عمر بن الخطاب - أن عمر أصدر أمرًا لقائده سعد بن أبي وقاص الذي غزا بلاد الفرس بأن يلقي في النهر مكتبة ضخمة كان قد عثر عليها في ذلك البلد، وأمره أن يلقي بها في اليم فإذا كان ما بها جيدًا وهاديًا فإن الله قد أعطانا هاديًا أفضل، وإذا كان ما تضمه غير صحيح فإن الله حفظنا منه[٦٤٦]. وهذا في نظر ابن خلدون دليل على عدم التسامح الديني عبر التاريخ.

ورغم أن ابن خلدون يشير إلى هذه الواقعة الشديدة الشبيهة بالرواية المختلقة بشأن الإسكندرية فإنه لم يشر على الإطلاق إلى الافتراض القائل بتدمير مكتبة الإسكندرية بناءً على أمر صدر عن عمر بن الخطاب، في معرض حديثه عن غزو مصر، وتجاهل تمامًا تلك الرواية المختلفة التي أتى بها أبو الفرج. ومن الممكن أن ابن خلدون أخذ بهذه الرواية عن أُناس من فارس أو من خلال العديد من الرحّالة الفرس الذين كانوا يتنقلون عبر طريق الحرير؛ وقد أسهمت هذه الرواية الأخيرة، التي ظهرت واختفت فجأة في غياهب التاريخ، في إحداث البلبلة عند الباحثين وتركت بذور الشك، فمن أين خرجت هذه الرواية الفارسية؟.

---

(642) Gibbon, V, LI, Parr VII, nota 117.

(643) Askalani (1374-1448).

(644) Citado por Haji Khalfah, en J. B. Biuy, "History ofthe Later Roman Empire", V, pg. 454, 1923. (Butlcr. pg. 403).

(645) Ibn Khaldun (1332-1405), "Muqadâimah".

(646) Ornar, Pseudo, "Carta apócrifa a Ali Waqqs".

ربما كان مصدرها أبو الفرج نفسه، الذي لم يتمكن من كبح جماح نفسه وحاول من جديد وطبق هذه الرواية الثانية، من الرواية المختلقة، على بلاد فارس، في نهاية القرن الثالث عشر، وبالتحديد في ذلك البلد الذي عاش فيه بشكل دائم حتى نهاية حياته في كنف الأباطرة المغول، الذين عرفهم في حلب. هناك بعيداً عن متناول حماته القدامى من العرب الذين خابت ثقتهم فيه، أخذ أبو الفرج يحيك لضربة أخرى للتسميم الإعلامي تعمل على توطيد اتهاماته التي لا أساس لها من الصحة، لعمر بن الخطاب.

نجح، ولكن ليس كثيراً إذ انتقلت مثل هذه الروايات إلى الفلكلور المحلي، ونقلها ابن خلدون بعد ذلك بنصف قرن من الزمان، أي خلال القرن الرابع عشر، وتجاهلها باقي العلماء. ومن جانب آخر لم يعد أحد يذكر هذه الرواية المختلقة التي كانت صورة طبق الأصل عن الرواية المختلقة المتعلقة بالإسكندرية، وبذلك نعرف ما هي جذور هذه الرواية ومن هو مؤلفها رغم أنه يحاول أن يختبئ وراء مؤرخين عرب.

يمكن للرواية التي أشار إليها ابن خلدون والمتعلقة بفارس أن تقودنا إلى نتائج مثيرة؛ أي إلى إمكانية أن أبا الفرج كان قد نشر الملخص العربي للكتابة "الحولية السريانية" الذي يتضمن الرواية السكندرية المختلقة في فارس، لأنه كتبها في نهاية حياته، كما نعرف أيضاً أنه ابتداءً من عام ١٢٦٤م غير من ولاءاته وذهب للعيش في بلاط الغُزاة المغول وبين أصدقائه الجدد من النسطوريين لمدة تزيد على عشرين عاماً. وفي فارس، وبعيداً عن أية توترات محتملة تطرأ مع مواطنيه القدامى من المسلمين في سوريا، تمكن من الانتهاء من مشروعه بحرية كاملة بأن سرد ليس فقط قصة مختلقة بل اثنتين إحداهما سكندرية والأخرى فارسية. وإذا ما تطلعنا إلى السكندرية فإننا نجدها الأكثر أهمية، ذلك أنه دعم خط التزييف بذكر النصوص التي وردت عند كل من عبد اللطيف وابن القفطي عندما كان في حلب.

لقي نشر أبي الفرج لهذا المختصر الذي يضم الرواية الأكذوبة معارضة قوية في العالم العربي منذ البداية، وتسبب ذلك في إثارة جدل عنيف بين المؤرخين العرب طبقًا لما يرويه لنا المؤرخ القاهري المقريزي في كتابه "الخطط والآثار"(٦٤٧) حيث نجد بعض المؤلفين يرفضون صحة النص الذي كتبه أبو الفرج، بخاصة عندما نعرف وجود العديد من النصوص ومنها نص "التاريخ" الذي كتبه أوروسيو الذي ترجم إلى العربية منذ منتصف القرن العاشر الميلادي، وهو نص يشير إلى مكتبتي الإسكندرية وكذا الزوال العنيف للمكتبة الثانية على يد المسيحيين في نهاية القرن الرابع الميلادي.

وبالنسبة للرواية المختلقة نجد أنه من المثير للانتباه أن يذكر المقريزي النص الذي ورد عن عبد اللطيف فقط ودون أن يتناوله ـ أي النص ـ بأي نوع من النقد وكأنه لا يبالي به، كما تجاهل النص الذي تم تحريفه وورد عند ابن القفطي، وربما لم يكن يعرفه، لكنه، في الوقت ذاته، أشار إلى أن كتاب أبي الفرج وما ورد فيه من تأكيدات وجد اعتراضات عنيفة في العالم العربي، أي إن هذا يعني أن النص الخاص بأبي الفرج هو الذي كان ينظر إليه على أنه السبب في التزييف ونقطة البداية في الأمر. وعلى هذا تم اكتشاف مكائد أبي الفرج على الفور في العالم العربي وتم النظر إليها على أنها إقحام على النصوص وتزييف ورواية غير مقبولة.

فعل ابن دقماق الشيء نفسه في عدم تعرضه لرواية أبي الفرج(٦٤٨) ومن المعروف أن ابن دقماق كان من المتخصصين في الطباعة وعالم آثار مصري، حيث نرى في كتابه "وصف مصر" العديد من القصص المتعلقة بالآثار القديمة في كل من الفسطاط والإسكندرية. ويلفت الانتباه أيضًا أن نجد مؤرخًا قاهريا آخر هو

(647) Maqrizi (1364-1442), "Al Khitat iual Atbar", I, p. 159.

(648) Ibn Dukmak (m. 1406), "Descrípción âe Egipto", Texto árabe, Ed. D. K. Vollers, El Cairo, 1893.

أبو المحاسن(٦٤٩)، تلميذ المقريزي والرجل الشديد الصلة بحلب، على أساس أنه كان واليا على هذه المدينة ومن بعدها دمشق؛ لم يذكر هذا المؤرخ الرواية المختلقة ولا حتى مر بها مرّ الكرام. ثم يفعل الشيء نفسه مؤرخ قاهري آخر هو السيوطي في كتابه "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"(٦٥٠) حيث اعتمد اعتماداً كبيراً على المقريزي وكذا الكثير من المصادر العربية ومع هذا لم ترد أصداء هذه الرواية في كتاباته.

ومع هذا فإن الحبكة التي أعدها أبو الفرج كانت ذات تأثير جانبي كارثي، فنحن نعرف أن ذلك الصمت الذي كان عليه أبو الفرج بشأن المصادر العربية قد اتسم بالغرابة كما أنه ذو دلالة؛ فلا بد من أن له غاية. نعم لقد ألقى أبو الفرج بهذه الرواية في خِضّم التيار وهو يدرك تماماً ما سوف تحدثه من ضيق وصدمة، أي رفضها من لدن العرب، لكن عندما تزامن ذلك تقريباً مع النص الذي ورد عند عبد اللطيف انتابت الحيرة العرب؛ وربما يفسر هذا رد فعل المقريزي وبعض المؤرخين العرب الآخرين. ومن هنا فلكي يتم تبرير فعلة واحد منهم - أي من المؤرخين العرب - نفى المؤرخون العرب الرواية وفي الوقت ذاته لزموا الصمت أو قبلوا باحتمالية قيام مؤرخ عربي محترم بكتابة هذا الزيف.

وبهذا المسلك نجد أن أبا الفرج أخرج نفسه بطريقة رصينة من اللعبة بفضل العرب. ألقى أبو الفرج الحجر وانسحب، فإذا لم تكن القصة حقيقية، فمن قال بها هو عربي عاش خلال القرن الثالث عشر وهو المسئول عنها وعن بثها. يبدو إذن أن هذا الخط هو الذي اتخذه بعض العلماء العرب في عصرنا هذا، حيث لم يسهموا بأية أدلة مقنعة تدعم النظرية التي تقول بها، حيث يلاحظ أن الاتجاه هو السير في خط المواءمة السياسية وليس البحث عن الحقيقة التاريخية. وتكررها مرة أخرى، لم يقم العرب بتدمير المكتبة في الإسكندرية ولم يكونوا هم الذين اخترعوا تلك الرواية الكاذبة بشأنها.

---

(649) Al Mahasin (1409-1409).

(650) Suyuti (1445-1505), " Husn al-muhadarahfi akhbar Misr wal Qahim".

وعلى هذا فإن هذه الرواية الزائفة التي ساقها القبطي أبو الفرج قد انتشرت بشكل حصري في الشرق الأوسط، في محاولة لتقويض صورة العرب؛ أما في أوروبا فلم يكن هناك إلا القليلون جدًا من الذين يعرفون بهذه الرواية، وبالتالي لم يتعرض لها العلماء والرحّالة الأوروبيون قبل القرن السابع عشر الميلادي. وإذا ما كان هذا الموضوع الخطير الذي يقول بأن العرب هم الذين أحرقوا المكتبة لم يكن واحدًا من الموضوعات المهمة في السياق الأوروبي الخاص بعصر "مناهضة الإصلاح Contrarreforma"، ولم يتناوله أي من الفنانين الأوروبيين، إنما يبرهن، في حد ذاته، على أن هذا الموضوع لم يكن معلومًا في أوروبا على الإطلاق.

كان هناك البعض ممن يجهلون وجود مكتبة ثانية في الإسكندرية مثل الأسقف الكاثوليكي دور هام ر. دي بوري، أكبر هاوٍ من هواة جمع الكتب في إنجلترا، وهو الرجل الذي ألف كتابا بعنوان "عاشق الكتب"[٦٥١] ونشره عام ١٤٧٣م وأشار فيه، بكلمات موجعة، إلى الحريق الذي كان على عصر يوليوس قيصر والتهم المكتبة الكبرى بالكامل، وسار في هذا على نهج "جيليو Gelio"، ولم يذكر أي شيء يتعلق بالعرب أو بالمكتبة الثانية في الإسكندرية.

لم يفعل ذلك أيضًا الرحّالة الذين عرفوا بوجود المكتبة الثانية، فها هو الإسباني مارمول، أحد جنود الملك كارلوس الخامس الذي تم أسره في الشمال الأفريقي، والذي قام بزيارة الإسكندرية عام ١٥٤٦م يقدم لنا في كتابه "وصف أفريقيا"[٦٥٢]، ١٥٩٩م، شيئًا عن المكتبة الصغرى في الإسكندرية مشيرًا إلى أنها استمرت حتى العصر المسيحي حيث قام هؤلاء، تحت حكم الإمبراطور تيودوثيو بتدمير معبد سرابيس وأحرقوا المكتبة التي لم تكن كتبها تستخدم في شيء إلا في أمور التشاؤم والعرافة.

---

(651) De Bury (1286-1345), "Philobiblon".

(652) Mármol, "Descriptión de Africa", II.

ولما لم تكن قد انتشرت هذه الأكذوبة في أوروبا حتى القرن السابع عشر، يمكن لنا أن ندرك أن مارمول، لم يكن يعرف، ببساطة، أي شيء عن هذه الرواية المختلقة خلال القرن السادس عشر، وكان يكرر ما كان يتردد في زمانه في مصر والإسكندرية بشأن النهاية التي تعرضت لها المكتبة السكندرية، ذلك أن العرب نفوا دائمًا الرواية التي أتى بها أبو الفرج، ورغم هذا فإن الأقباط قبلوا بهذه الرواية على أنها صحيحة وربما قصّوها على مارمول. وعلى أية حال نجد أن رواية هذا الإسباني تتوافق تمامًا مع ما حدث في الإسكندرية.

وصف مارمول بوضوح شديد أبعاد المأساة، عندما التهمت النيران كلاً من السرابيوم والمكتبة الصغرى على زمن تيودوسيو. وبرر إحراق هذه الكتب بوجود تعصب ديني مسيحي، وهو الحافز نفسه الذي بمقتضاه جرى اتهام العرب؛ ومع هذا لا تتضمن روايته أي أثر عن تلك الرواية المختلقة ضد العرب التي كانت قد نسيت في المشرق خلال القرن السادس عشر الميلادي. وفعل ذلك في الوقت المناسب، أي قبل أن تنتقل هذه الرواية الملفقة إلى أوروبا، دون إبداء الرأي فيها، على يد بعض رجال الدين المجتهدين، بعد أربعة قرون على اختراع أبي الفرج للرواية في حلب وسقوطها بعد ذلك في غياهب النسيان.

وبعد أعوام قليلة على نشر كتاب "مارمول"، أخذت تظهر التجهيزات الخاصة بانتشار الرواية المختلقة من النسيان، وهنا نشهد ظهور مرحلة جديدة من مراحل هذه الدسائس حيث يتم المزيد من الضغط على الأمر ويعم التعتيم من جديد لصالح تلك الأكذوبة التي قاومت الموت. ومعنى هذا أن تدليس التاريخ يجب أن يكون هو سيد الموقف، فإذا لم يكن يوليوس قيصر هو المذنب وهو واحد من الأبطال الرومانيين الذين يحظون باحترام في الثقافة الغربية، فليكن العرب بديلاً.

ظهرت المحاولات الجديدة لاتهام العرب بتلك الفعلة مصحوبة ببعض المصالح السياسية والإيديولوجية، إضافةً إلى البُعد الديني. وكان ذلك عشية بدء مرحلة

جديدة من مراحل الاستعمار الأوروبي والانقسام الذي تلا ذلك في العالم، أي دولة مالكة وشعوب مقهورة؛ وبذلك أخذت الرواية تشكل جزءًا من المشهد الذي يتم الإعداد له، وارتبطت بصعود نجم الجنس الأبيض من البروتستانت والأنجلو ساكسون، وهو عالم يتسم بالعنصرية والنزوع إلى عقيدة التفوق في الجنس وهذا كله مصحوب بالتشدد الديني المسيحي.

نرى إذن أن العرب ظلوا - دون أن يظهروا - على خشبة المسرح وكأنهم أبطال هذه الأكذوبة في هذا الفصل الرابع. وفي الوقت ذاته أصبحوا يُرَون على أنهم ضحايا لأكذوبة، تم اختراعها خلال القرن الثالث عشر، وهي أكذوبة انتشرت فقط في المشرق ولم تكن ذات أهمية بالنسبة لأوروبا في ذلك العصر وهي القارة المليئة بالفورة والتعددية. ومع كل هذا قاومت الرواية المختلقة كل ذلك واستطاعت الانتقال إلى أوروبا. ونتساءل في هذا المقام: لماذا يوجد اهتمام كبير بتزييف التاريخ من جديد وبث هذه الرواية الملفقة عن العرب في أوروبا دون إخضاعها لأي تحليل نقدي مع بداية العصر الحديث؟ لننتقل إلى الفصل الخامس في محاولة للعثور على ألغاز وإجابات.

الفصل الخامس

بث القصة المختلقة في أوروبا في القرن السابع عشر

إعادة اكتشاف مكتبة الإسكندرية الكبرى:

نعرف أن المواجهة بين الكاثوليك والبروتستانت في شمال أوروبا القرن السادس عشر حولت الكنائس المسيحية الشرقية إلى مساحة معركة غير منتظرة، في محاولة لاستخدامها، من قِبَل هذا الطرف أو ذاك، لخدمة أغراضه وأهدافه؛ فمن جانب نجد أن "الكنيسة الإنجليكانية anglicana" كانت ترغب في الوحدة مع "كنيسة القسطنطينية"، أي مع الأرثوذكس اليونانيين، أو الاتحاد مع الكنائس الشرقية مثل القبطية، ولكن تحت رئاستها - أي الإنجليكانية - بغية الحصول على أكبر قدر من الدعم والمساندة أمام الكاثوليك، وقد أدى هذا إلى دعم دراسة الثقافة القبطية تبين البروتستانت في الشمال.

من جانب آخر، نجد أن روما سلطت كل جهدها على "كنيسة الإسكندرية"، بأن حاولت، من خلال بعض المبشرين المجتهدين، التوصل إلى وحدة بين روما والإسكندرية، بقيادة روما. وهذه كلها محاولات باءت بالفشل ولم تؤد إلى أية نتائج، إلا أنها، من ناحية أخرى، زادت من اهتمام الكاثوليك في أوروبا عصر البارّوك بالقبط وعاداتهم طقوسهم ومذهبهم القائل بالطبيعة الواحدة. عمت الفكرة القائلة بأن هؤلاء الأقباط والمصريين هم ورثة المعارف الفرعونية القديمة والأسرار الخفية، ودفع هذا الغموض المستغلق إلى المزيد من إثارة الفضول والاهتمام بمصر وبالمسيحيين الأقباط وتاريخ الإسكندرية.

وابتداءً من القرن السادس عشر، وطوال القرنين التاليين، السابع عشر والثامن عشر، أخذنا نشهد اهتمامًا غير مسبوق، في أوروبا، لمعرفة تاريخ الإسكندرية القديمة، وبخاصة تلك الأحداث المأساوية التي صاحبت نهاية المكتبة الكبرى والمتحف، حيث ظلت ذكراها لا يخبو لها أوار على مدى القرون. ظلت هذه المحاولة التي قام بها البطالمة والتي تتمثل في جمع الكتب والمعرفة تتراءى رغم زوال المكتبة والأطلال، كانت تتلألأ في عالم اليوتوبيا، ودائمًا ما يتم استرجاع اسم الإسكندرية وآثارها العظيمة، وكذا الغموض الذي اكتنف مكتبتها، الأمر الذي أثار العديد من التساؤلات حول مصيرها غير المعلوم.

في آن معًا، نشهد اللغة اللاتينية وهي تنحسر وتفسح الطريق أمام اللغات المحلية التي تحولت إلى أداة للاتصال والتحصيل المعرفي وبالتالي فإن الحصرية في استخدام اللاتينية أخذت تتهاوى أركانها، والشيء نفسه بالنسبة للكنيسة والعلوم المختلفة والروايات المختلفة للتاريخ. كانت الإسكندرية آنذاك هي موضة أوروبا وأخذت تزداد أعداد الطبقات التي تسأل عن هذه المدينة الأسطورية.

في عام ١٥٣٩م أصبح "ج. بوستل G. Postel"، الدبلوماسي والعالم الفرنسي، أول مستشرق أوروبي، وألف كتاب "القواعد العربية"[٦٥٣] وذلك لمساعدة هؤلاء الذين يريدون تعلم العربية باعتبارها أداة مهمة لمزيد من فهم العبرية التوراتية. تحدث ر. إستين R. Esteinne عن المكتبة السكندرية في طبعته لكتاب "Codigo Regio"[٦٥٤]، ١٥٤٤م، حيث أدرج فيه لأول مرة في العالم الغربي، "التاريخ اللاهوتي H. eclesiastica" لسقراط القسطنطيني، وفيه يصف سقراط بالتفصيل ما قام به المسيحيون من تدمير لمكتبة السرابيوم. ونذكر في هذا المقام بعض الذين تحدثوا عن مكتبة الإسكندرية ومنهم ث. جيسنر في كتابه "المكتبة العامة"[٦٥٥]، عام ١٥٤٥م، وأ. تيفت، عام ١٥٥٤م، في كتابه "وصف الشرق".

(653) Postei, "Gramatica Arabica".

(654) Estienne, " Codex Regius".

(655) Gessner, "Bibliotheca universalís".

كان ل. لو روي، الذي كان عام ١٥٧٥م أول دارس في العلوم الإنسانية من الأوروبيين في باب الحديث عن النيران التي التهمت المكتبة الكبرى وفتح بذلك الباب أمام الكثير من التكهنات الثقافية التي جعلت من هذه الكارثة مثالاً يُحتذى في مجال التخلص من أوزار الماضي، وهي زيارة لمصر عام ١٥٧٦-١٥٧٧م، قام بها الرّحالة فيليبو بيجافيتو[٦٥٦] نجده يترك لنا وصفًا جيدًا للإسكندرية يقول فيه بأن "أغلب أجزاء المدينة كانت أطلالاً وفي حالة محزنة"، لكن عندما يتحدث عن الأساطير التي حاكها الصليبيون نجده يشير بصراحة إلى أن السكندريين ما زالوا يطلقون على العمود الكبير عمود السواري. كما قام "خ. دل كامبو J. Dalechamps" بترجمة نص أتينيو إلى اللاتينية، عام ١٥٨٣م، وهو بعنوان: "مائدة العلماء"، حيث يضم الإشارات التاريخية المهمة عن مكتبة الإسكندرية. وفي عام ١٥٩٩م نرى مارمول ينشر كتابه "وصف إفريقيا".

في هذه المرحلة التاريخية تشهد أوروبا، في نهاية القرن السادس عشر، ظهور القليل من الرحّالة الأقباط القادمين من المشرق، وهم أُناس كانوا محل استغراب خلال تلك الفترة؛ ومن أشهرهم يوسف بن أبي ذقن، وهو قبطي من مصر وقاهري، ولد عام ١٥٧٠م وكان يتسلح بكل ظرف المصريين، كان مبتسمًا ودودًا ومحافظًا ومحاورًا؛ وطبقًا لروايته هو لم يتلق في حياته إلا التعليم الأولي[٦٥٧]. وربما أرد أن يكون راهبًا، ذلك أنه كان في عام ١٥٩٠م على صلة قوية بيعقوب القمّص أو رئيس دير سان أنطونيو، الكائن بالقرب من البحر الأحمر.

---

(656) Pigafetta, "Viaggio da Creta in Egitto ed ai Sinai, 1576-77", -" Viaje desde Creta a Egipto y el Sinai"-, Vicenza, 1984, cn A. Hamilton, "The Copts and the West, 1439-1822. The European Discovery of the Egyptian Cburch",-"Los Coptosy Ocddente 1439-1822. El Descubrimiento Eu-ropeo de la Iglesia Egípcia"-, Warburg Studies, Oxford U. Press, Oxford, 2006.

(657) Según carta de 1608 de Abudacniis a Scaliger, citada por A. Hamilton en "The Copts and the West 1439-1822. The European Discovery of the Egyptian Church", pg. 37, Oxford U. Press, Oxford, 2006.

أرسل البطريارك جابريل السابع بابا الإسكندرية بأبي ذقن إلى روما عام ١٥٩٩م وحمله رسائل توصية إلى البابا كليمنت الثامن، الذي قام، مثل البابا السابق عليه، بالتحفيز على تعلّم العربية والثقافة الإسلامية سلاحًا يستخدمه المبشرون في مهامهم، وافتتح في روما "مدرسة الموحدين Neofitos" للمسلمين واليهود، وهي المدرسة التي ذهب إليها أبو ذقن. تعلم هناك الكثير من اللغات الكلاسيكية، ويفترض أنه تحول إلى الكاثوليكية الأمر الذي حاز بفضله الاحترام والإعاشة والإقامة. التحق أبو ذقن بجماعة "الكرمل الحفاة" عام ١٦٠٥م، واتخذ اسمًا هو فراماكاريو، وكان هذا التحول مثار ذكر رئيس الدير الكرملي حيث ذكره عند أبي يعقوب. والشيء الغريب أن أبا ذقن لم يشر في رسائله قط إلى أمر تحوله إلى الكاثوليكية، ولم يكن يعرف - ربما - أن رئيس الدير قد وشى به.

وعلى أية حال كان الأمر عند أبي ذقن غاية في الوضوح؛ وفي عام ١٦٠٧م ترك روما وجماعة الكرمل، واستطاع التجوال في كافة أنحاء أوروبا الكاثوليكية والبروتستانتية خلال الفترة من ١٥٩٥م حتى ١٦٣٠م وتغلغل في "جمهورية الأدب"[٦٥٨]. وهي مدن كثيرة منها روما وباريس وليدن ولندن وأكسفورد وأمبريس ولوفانيا وبراغ وميونخ...إلخ. كان أبو ذقن شخصًا مهذبًا ورقيقًا وجذابًا وهذه أسلحة استخدمها في اجتذاب الكاثوليك المتعالين وكذا البروتستانت ذوي الغلظة، ومع هذا تسبب في إثارة بعرض الزوبعات فهو راهب قبطي لم يشأ أن يقلع عن الجنس أو تناول اللحوم، وأخذ يبحث عن رفيقة، الأمر الذي أثار حفيظة الرهبان المسيحيين.

كان ماكرًا وبراجماتيًا إضافةً إلى ظرفه، فقد حاز فضل الملوك والأساقفة والرُعاة من رجال الدين وتقمص دور مدرس اللغة العربية الفصحى، ولم يكن

(658) "Republica Literarum", en A. Hamilton, "A Traveller in the Repuhlic of Letiers: Josephus Bar-batus or Abudacnm the Copt", -"Un Viajero en Ia República de Ias Letras: Josephus Barbatus o el Copto Abudacnus"-, Journal of the Warburg and Courtauld Institutes, Vol. 57, pgs. 123-150, Oxford 1994.

يعرف إلا لغته المحلية، العربية اللهجية في مصر. كان مصريًا جيدًا يعرف بعض اللغات وهي التركية واليونانية واللاتينية وبعض اللغات الأوروبية. كان له منهجه الخامس في تعلم اللغات ويبدو أن المنهج المستخدم له نتائج جيدة، حيث كانت الحوارات المطوّلة وسيلة من الوسائل المتخذة في عملية التعلم هذه. عاش في إنجلترا من ١٦١٠ حتى ١٦١٣م. وكان له أصدقاء يحبونه أكثر من كونهم تلاميذه. وكان كاتبًا غزير الإنتاج في العالم القبطي وترك موروثًا ظهر من بعده الاستشراق في أوروبا.

تصادف في أثناء إقامة أبي ذقن في روما أن نشر خ. لبسيوس، عام ١٦٠٢م، كتابه "حول المكتبات"[٦٥٩] حيث كتب نصًا مهمًا يتعلق بالمكتبات في العالم القديم، بدءًا بمكتبة الإسكندرية الكبرى. وفي عام ١٦١٢م ينشر إي. كاساوبون كتاب "المائدة" لأتينيو، ثم ترجمة باللاتينية لعمل لسقراط القسطنطيني قام بها خ. كريستو فورسون، الأمر الذي أثار المزيد من الحماس لمعرفة أخبار تلك المكتبة. ومن جانبه نشر "بريروود E. Brerwood"، عام ١٦١٤م كتابًا حول الأقباط.

نشر ت. إيرينيوس، عام ١٦٢٥م، "الحولية" للكاتب القبطي الذي يدعى المكين، ق١٣. وفي عام ١٦٤٧م لم يدر بخلد نائب القنصل الفرنسي في الإسكندرية، "أ. دور ريار A. Du Ryer" شيئًا آخر إلا ترجمة القرآن الكريم إلى الفرنسية، وهي أول ترجمة إلى لغة محلية، الأمر الذي أثار عليه العداوات والرفض. ثم يأتي "بوكوك E. Pococke"، عام ١٦٤٩م، وينشر "التاريخ العربي لبرعبراوس"[٦٦٠]، أو "الملخص" لأبي الفرج، ق ١٣، الذي كان يتضمن الرواية الملفقة عن العرب.

نشر "سيلدن J. Selden" - ١٦٥٢م - نصًا موجزًا أخذه من كتاب "الطوق" لأيوتيكيوس، ق ١٠، ثم نشر الكتاب كاملاً عام ١٦٥٨م بمساعدة بوكوك. وفي عام

(659) Lipsius, "De Bibliothecis sintagma".

(660) E. Pococke, "Historia Arabe de Bar-Hebraeus".

١٦٥٢م قام الداعية الماروني "إي. الحاقلاني I. al-Haqilani"، "أبراهام Echellensis" بنشر الكتاب المضاد لنظريات سيلدن وهو بعنوان "الحولية الشرقية" لبتري راحبي، أحد معاصري المكين وأبي الفرج. وخلال عام ١٦٥٣م تمكن المستشرق الهولندي الكبير خ. جوليوس من نشر معجم عربي لاتيني. ونشر بوكوك، عام ١٦٦٣م كتاب "تاريخ الأسرات الملكية"(٦٦١) بما في ذلك "الحولية السريانية" لأبي الفرج. وفي ١٦٦٤م نشر الرحالة الفرنسي وعالم اللغات خ. دي تيفونت كتابه "رحلة إلى الشرق"(٦٦٢) تناول فيه مصر والمشرق.

نشر أيضًا العالم الألماني ف. دبليو. فون رامشوزن - عام ١٦٦٦م - واحدًا من المؤلفات المهمة التي تتناول الكنيسة المصرية. وفي عام ١٦٦٧م، أبدى جرونوفيوس اهتمامه بالمتحف والمكتبة السكندرية مستندًا في هذا على بيترفيو؛ وفي خلال ذلك العام نفسه نجد دابلنكورت يترجم إلى الفرنسية "وصف أفريقيا" لمارمول؛ وفي ١٦٧٣م يقوم ث. بيرلت بترجمة كتاب بتروفيو(٦٦٣) إلى الفرنسية الأمر الذي أحدث ثورة في عالم المثقفين بتذكيرهم بالإسكندرية والنهاية المأساوية التي آلت إليها المكتبة والمتحف. وفي عام ١٦٧٥م ظهر في أكسفورد كتاب "تاريخ القبط"(٦٦٤) بطريقة غامضة وهو من تأليف أبي ذقن.

وفي عام ١٧١٣م نشر "إ. رينادوت E. Renaudot" كتابه الكبير "تاريخ بطاركة الإسكندرية"(٦٦٥)، واستند فيه على سيفيروس، المؤرخ القبطي الذي عاش خلال القرن العاشر الميلادي. وفي عام ١٧٢١م ينشر خ. ب. فيشر فون إيرلاش لوحته

(661) E. Pococke, "Compendio de ia Historia de Ias Dinastias de Gregorio Abulfaragius".

(662) De Thévenot, "Relation d'un voyagefait au Levant"

(663) Vitrubio, "Sobre Arquitectura".

(664) Abudacnus, "Historia Jacobitarum seu Coptorum".

(665) Renaudot, E. "Historia Patríarcharum Alexandrínorum Jacobitarum a. D. Marca usque ad f nem saeculi XIIF.

الشهيرة الخاصة بفنار الإسكندرية والميناء الكبير، وهي لوحة مهمة للغاية توضح الأهمية التي كانت عليها الإسكندرية لدى الأوساط الثقافية الأوروبية. وفي عام ١٧٣٦م ينشر ب. ت. بونامي في كتابه "إطلالة تاريخية على مكتبة الإسكندرية" خريطة للإسكندرية يظهر فيها المتحف والمكتبة داخل الأسوار وبالقرب منها طبقًا لوصف الكتاب القدامى.

وفي عام ١٧٤٠ أكد القنصل الفرنسي في القاهرة، دي مييل، في كتاب "وصف مصر"(٦٦٥/١) أنه متحمس لهذا البلد - مصر - المنسي - الذي استطاع أبناؤه من غير المتعلمين أن يجروا عمود بومبي حتي يمكن أن يذهب إلى باريس دون أن يصاب بأذى. وهو كنز ثمين يبلغ ثمنه ما لا يقل عن عشرين إسكودو تم دفعها رشوة وتكلفة نقله بالمركب.

ومن جانبه، في عام ١٧٤٣-٤٥ يقوم الأسقف الإنجليكي بوكوك، حفيد بوكوك الجد، بالكتابة بإسهاب عن مصر والإسكندرية وله كتاب بعنوان "وصف الشرق وبعض البلدان الأخرى"(٦٦٦)، ونشر خريطة أخرى للإسكندرية تظهر فيها المكتبة السكندرية وقد أصبحت إلى جوار البحر، على أطراف المدينة، وخارج الأسوار. وفي عام ١٧٤٦م ظهر كتاب "تاريخ مصر" لعبد اللطيف البغدادي، ق ١٣، ونشره إي. بوكوك الابن.

وفي عام ١٧٧٥م قام ف. نوردن، الذي بعثه ملك فلورنسا إلى مصر ليرسم له مناظرها بينما يبحر في "دهبية"(٦٦٧) تمخر عباب مياه نهر النيل، بنشر كتاب بعنوان "رحلة إلى مصر والنوبة"، تضمن العديد من المشاهد للإسكندرية وقد عمت بها المآذن. وفي عام ١٧٧٧م قام أحد المجادلين من طائفة الدومينيكان، وهو

(665/1) De maile y Mascrier,Description de L Egypt.1. Colonne de Pompee- la Haya 1740-pgs. 180-186.

(666) R. Pococke, "A Description of the East and some other countries".

(667) Barco de vela, con salones y camarotes, que se utilizaba para viajar por el Nilo.

خ.م. وانسلين، بنشر أفضل كتاب لتاريخ الأقباط بعنوان "تاريخ الكنيسة السكندرية". أما في عام ١٧٩٠م نجد البارون مونشوزن يقصّ على الأطفال "مغامراته في أفريقيا"(٦٦٨) وأنه عندما كان في مصر سقط في دهليز تحت الأرض وجد به "العديد من الكتب والمخطوطات تتضمن المعارف القديمة، وكافة معارف الدنيا قبل الطوفان، واستخلص من هذا أنه عثر على... مكتبة الإسكندرية المفقودة!". في عام ١٨٠٠ نشر وايت في أكسفورد الطبعات الثانية "لملخص" أبي الفرج، على يد إ. بوكوك، وكذا كتاب عبد اللطيف البغدادي على يد بوكوك الابن.

غير أن هناك واحدة من أجمل الطرائف المتعلقة بذكرى مكتبة الإسكندرية، كان بطلها عالم الحيوان الفرنسي إ.ج. سان هيلاري، وعلق عليها إ.ج. سان هيلاري(٦٦٩)، وقعت هذه الطرفة في نهاية "حملته في مصر" خلال الحملة الفرنسية، أي عام ١٨٠١م، عندما طالب الإنجليز في الإسكندرية بالفوز بالكنوز التي عثر عليها العلماء الذين رافقوا الحملة الفرنسية وأن يتركوا كافة المجموعات المتعلقة بالتاريخ الطبيعي ومملكة النبات وكل ما يتعلق بالجيولوجيا وبعض الأحياء التي تمكن علماء الحملة الفرنسية من جمعها بصبر وأناة.

رفض العلماء تسليم ما لديهم للإنجليز وهددوا بإحراق ما جمعوا. وفي هذه اللحظات نجد سان هيلاري يصيح في البريطانيين وكأن به مسّ قائلاً: "نعم، سوف نفعل! أنتم تبحثون عن الشهرة! حسن، خذوا هدية هي ذاكرة التاريخ: أنتم أيضًا ستكونون من أحرقتم مكتبة في الإسكندرية!". وأمام هذا الموقف المهيب والشعور العظيم بالمسئولية والتهديد بأن يكلل جبين الإنجليز بالعار على مدى قرون تخلوا عن مطالبهم؛ فما الذي كان يفكر فيه سان هيلاري عندما تحدث عن

(668) Norden, "Voyage d'Egypte et de Nubie""

(669) Saint-Hilaire, I. G. "Vie, travaux et doctrine de E. Geoffroy Saint-Hilaire", "Vida, trabajos y docirina de E. Geoffroy Saint-Hilaire"-, Paris, 1847-

حريق مكتبة الإسكندرية؟ هل كان يفكر في يوليوس قيصر أو في تيوفيلو أو في القصة المختلقة التي تتهم العرب والتي انتشرت في أوروبا على يد آل بوكوك؟.

بحثًا عن المخطوطات العربية:

شهدنا خلال القرن السابع عشر عملية بحث لا تكل عن المخطوطات وشرائها أو نسخها وهي مخطوطات عربية كانت بالمئات في المكتبات المنتشرة في أنحاء العالم العربي، وقد ظهرت في أنحاء أوروبا سواء في هولندا أو في إنجلترا موجة غير مسبوقة من الاهتمام بجمع كافة المخطوطات العربية التي ترجع إلى العصور الوسطى والتي تقع عليها الأيدي. هناك موجة جديدة من الدراسات اللاهوتية وجيل جديد من الدارسين الذين قاموا بجمع مئات الكتب والمخطوطات العربية، خلال الفترة من ١٦٢٠ و ١٦٤٠م بصفة خاصة. ووصل الأمر بأن شهدنا أن الملك كارلوس الأول، ملك إنجلترا(٦٧٠) كان من عُشّاق جمع المخطوطات العربية والفارسية، غير أنهم لم يكن أمامهم في هذه المرة غير التوجه إلى الشرق الأوسط للحصول على ما يريدون.

كان المحرضون على هذا النهب الثقافي مرتبطين ارتباطًا وثيقًا بكل من جامعة ليدن وأكسفورد. وكانوا جميعهم من أشهر الأساقفة والأساتذة البروتستانيين، وأغلبهم من الإصلاحيين ويرافقهم مبشرون في مختلف أنحاء العالم بخاصةٍ في العالم العربي. استطاعوا (من خلال الرحّالة المجتهدين والوكلاء العرب واليهود والأقباط) الحصول على آلاف المخطوطات العربية. وكان خ. خ. سكاليجر(٦٧١)، أول من شجع على شراء المخطوطات العربية، وهو المستشرق والأستاذ في جامعة ليدن، ونصح بعدم دراسة العربية من أجل فهم أدق للعبرية، وبدلاً من ذلك عمل على إنشاء أستاذية للكرسي لتدريس العربية في جامعة ليدن؛ وسار على دربه ت.

(670) Carlos I de Inglaterra (1625-1649).

(671) Scaliger (1540-1009).

إيرينيوس أحد أبرز تلاميذه والذي يعتبر أول مستشرق في أوروبا، وعمل أستاذًا في ليدن، وجاء من بعده أيضًا تلميذ له هو ج. جوليوس، أحد كبار المستشرقين.

كان هناك جزء من هذا الاتجاه خاضعًا لأسباب سياسية، فبعد الإصلاح الذي أدخله مارتن لوثر انقسمت أوروبا على نفسها فأصبح جزء منها تابعًا للكاثوليكية بينما الجزء الآخر بروتستانتي، ودخلت البلدان في أحلاف مختلفة بحثًا عن التواؤم فيما بينها. وهنا نجد أن البحث المحموم عن المخطوطات العربية في مختلف الأرجاء خلال القرن السابع عشر كان في جزء منه يرجع إلى نوع من التحالفات السياسية قصيرة الأجل بين إنجلترا والمغرب التي كانت تهدف الهجوم على أسبانيا الكاثوليكية. وكانت الخرائط العربية شديدة الأهمية لاستخدامها في الحرب وتم جمعها في أكسفورد.

امتدت جغرافية البحث أمام هؤلاء من قناصي الكتب والمخطوطات لتشمل في الأساس إسطنبول وحلب، وهما مدينتان كانتا تزخران بمكتبات مهمة لم تمتد إليها يد السلب والنهب. ها نحن نجد مدينة حلب تظهر من جديد، المدينة التي شهدت دسيسة أبي الفرج. وبلغ الجشع بهؤلاء القناصين أنهم لم يتوانوا قط عن سرقة المخطوطات من أي مكان بما في ذلك مكتبة "سِرّالو" الإمبراطورية التي كانت توجد في قصر توكابي في إسطنبول؛ وبذلك استطاع جريفس أن يخرج من هناك بنص رائع به الكثير من الصور هو "الماجستو Almagesto" لبطليموس وعاد به إلى منزله.

هناك سببان يكمنان وراء هذا الولع الشديد بجمع المخطوطات: أولهما أن مكتبات الأديرة الأرثوذكسية في اليونان والتي تتضمن المخطوطات كانت مغلقة بالضبة والمفتاح وكان ممنوعًا على العاملين إظهار أي من مخطوطاتهم للاتينيين، وكان ذلك بناءً على أوامر صارمة صادرة عن البطاركة (أو لعنة البطاركة) مما تسبب في توجه مجموعة من رجال الدين والعلماء الإنجليز والهولنديين إلى الشرق الأوسط مباشرة حيث ما زالت هناك الكثير من الكنوز التي لا تُحصى ولا

تُعد من النصوص اليونانية والمترجمة إلى العربية وكلها غير معروفة في الغرب ومن بين هذه المخطوطات ما يتعلق بالعلوم والطب والجبر والفيزياء وعلم الفلك وهي كلها من العلوم التي برز فيها العرب وتفوقوا.

ومن جانب آخر، كانت هناك أسباب دينية واضحة، وهنا يشير ج. خ. طومر[٦٧٢] إلى الذين يطلق عليهم "العبرانيون المسيحيون" من الذين كانوا يدرسون العربية كأداة لمعرفة أفضل بالعبرية والنصوص التوراتية الأصلية ـ حيث بدأ هذا التقليد بوستل ـ، وكانت الغاية الأخرى هي محاربة الكاثوليكية[٦٧٣]. كما كان هناك هؤلاء الذين يتبعون التقاليد الخاصة بالمجادلة الذين يواجهون الديانة الإسلامية، وكانوا في حاجة إلى معرفة الأصول العربية لدراسة الإسلام وعلم التوحيد بشكل مباشر وبذلك يتمكنوا من دحض حجج المسلمين بالمزيد من الحجج.

ظهرت أيضًا حركات مهمة بين البروتستانت مثل "الوحدويين Unionistas الإنجليز الذين هم قريبون ممن يسمون Socianitas من البولنديين والهولنديين من طائفة Arminianistos أي هؤلاء الذين يعتقدون أنهم أتباع المسيحية الحقة الأصيلة، كما أنهم عبروا عن تأييدهم وتعاطفهم مع الديانة الإسلامية، وهي ديانة يرون أنها أقرب كثيرًا إلى الأصول الأساسية الأصيلة للمسيحية مقارنةً بالمذهب الكاثوليكي الروماني. فهؤلاء لا يرفضون فقط أوامر لاهوتية أصدرها البابوات مثل عقيدة التثليث والسلطة الكنسية بل يشجعون على قراءة جديدة عقلانية للإنجيل، ويفضلون الإصلاحات الدينية التي أتى بها محمد. وكان الدكتاتور أو.

(672) Toomer, "Eastern Wisedome and Learning: The Study of Arabic in Seventeentb-Century Englawf", -"Sabiãuría Oriental y Emeñanza: El Estudio dei rabe en Ia Inglaterra dei Siglo XVH" , pgs. 53-93, Oxford U. Oxford 1996.

(673) Tyacke, N., "Seventeenth-century Oxforef", -'Oxforden elsigla XVIf-, pgs. 479-480, Vnl, 4, Oxford U. Press, Oxford, 1997.

كرومويل[٦٧٤] وأنصاره شديدي القرب من هذه الأفكار؛ كانت إذن بدهية تلك المخاطر الناجمة عن هذا الاقتراب الإصلاحي في اتجاه الإسلام على القطاعات المتشددة.

ومن الأمثلة الواضحة على هذا الاقتراب من الإسلام ما نراه عند ب. بايل، الرائد الإنجليزي خلال عصر التنوير، والذي كان - عام ١٦٩٧م - يثني على الأمم الإسلامية لتسامحها الديني، ويؤكد "أن المشارقة تخلوا عن العنف بشكل سريع... بينما دمر المسيحيون كل ما كانوا يرونه أنه لا يتفق مع عقيدتهم وأسالوا الكثير من الدماء... كما نرى أن الكنائس اليونانية سواء الأرثوذكسية أو من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة ما زالت موجودة حتى أيامنا هذه تعيش في ظل الديانة الإسلامية ولهم بطاركتهم وكنائسهم ومقارّ عبادتهم ولهم قوانينهم ورهبانهم. ويمكن التأكيد بأنه لو تمكن الأمراء المسيحيون من آسيا، بدلاً من المسلمين والأتراك، لم يكن ليظل هناك في أيامنا هذه أي أثر للكنيسة اليونانية ولم يكونوا ليتسامحوا مع الديانة الإسلامية، في الوقت الذي نجد فيه عكس ذلك حيث تسامح غير المؤمنين مع المسيحية"[٦٧٥].

في هذا السياق الذي يتسم بفورة في جمع المخطوطات العربية، خلال القرن السابع عشر، لأسباب دينية في المقام الأول، وكذا لأسباب ثقافية وسياسية، ظهرت من جديد تلك الرواية المختلقة ضد العرب. فوسط هذا الفيض من التوترات الدينية وميلاد غير معهود يتمثل في الاهتمام بالدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، ظهرت الإسكندرية من جديد. ولا شك أن بعض القطاعات في المذهب البروتستانتي شعرت بالخوف من الطريقة التي كانت تنتشر فيها الأخبار

---

(674) Cromwell (1599-1658). Plowden, A., "In a "Free Republic" Life in Cromwell's England", Sutton Pub. Phocnix MUI, United Kingdom, 2006.

(675) Bayle (1647-1706), "Historical and Criticai D ictionary", "Diccionario histórico y crítico", 1697.

عن تلك المدينة الأسطورية وعن مكتبتها الشهيرة. عاد كل من تيوفيلو ويوليوس قيصر إلى خط الصدارة في الأخبار مع بداية العصر الحديث.

ويبدو أن بعض الجهات الكنسية، في شمال أوروبا لم تتمكن من قبول بث بعض الحقائق التاريخية التي تشوه الصورة الخاصة بأصول المسيحية التي تم نقلها حتى ذلك الحين من خلال العلماء عن الكنيسة الأولية، وقرروا أن يقطعوا الشك باليقين (البتر).

وعلى هذا قررت مجموعة صغيرة من الإصلاحيين الكنسيين البروتستانت تغيير التاريخ من جديد وعلى مسئوليتها، ألا وهو تدنيس تلك الحقيقة مرة أخرى، وهي التي كانت تظهر كلما اقترينا من المشرق. كان من الملائم نسيان المأساة السكندرية من جديد، لكن الغرب لم يكن قادرًا حتى ذلك الحين على أن يتأمل ذاته في حقبه التاريخية، فقد كانت ثقافته مرهونة وفي يد ورعاية رجال الكنيسة.

قرروا إخفاءها من جديد، وإعلان الاتهام للعرب. وحدث مثلما حدث في الأزمنة الخوالي، فلم تكن فكرة عبقرية، لكنها أدت وظيفتها من جديد، فقد تمكنت هذه المجموعات الصغيرة من السياسيين ورجال الدين، بجراة غير مسبوقة، من إعطاء الحق لأنفسهم بتزييف التاريخ مرة أخرى مستخدمين الأسلحة القديمة التي استخدمها المجادلون خلال العصور الوسطى المشرقية.

جهزت هذه المجموعات من رجال الدين البروتستانت المجادلين نفسها لخلاص العالم على أساس مثالياتهم التي تتمثل في التفوق الغربي والمسيحي، سواء من الناحية الأخلاقية أو الدينية، على العالم كله. كانت المأساة السكندرية واقعة مؤلمة، ولم تتواءم على الإطلاق مع المشهد الذي يعني بتفوق عقيدة على باقي العقائد، ومن هنا كانوا في حاجة إلى إجابة سريعة ومختلفة عن الأسئلة المتعلقة بالإسكندرية القديمة؛ وفي هذا المقام يبدو أن "الدوائر العبرانية أو المشرقية

المسيحية البروتستانتية التي كانت متعطشة لجمع المخطوطات العربية خلال العصور الوسطى، قد وجدت ضالتها المنشودة.

جاءت الإجابة من لدن أبي الفرج، ق ١٣، الرجل الذي أقام في الأراضي السورية والكاتب الشهير. فقاموا بانتشال كتاباته في حلب واشتروها وأخرجوها من غياهب النسيان ونشروها وهم فرحون، وبفضل أبي الفرج من جديد لم تُلصق التهمة بيوليوس قيصر أو المسيحيين بل بالعرب، فهم المذنبون وبالتالي تبخر الإحساس الغربي الجماعي بالذنب وكان العلاج هو نوع من الحلم بخداع الذات.

ومن جديد تم إخفاء البدايات العنيفة للجماعات المسيحية، وأخذنا نرى من جديد فرض رؤية مشوهة لتاريخنا. وابتداءً من هذه اللحظة أخذ الشعب العربي يظهر في الغرب على أنه المسئول أمام التاريخ عن هذه الكارثة الثقافية والإنسانية، وبذلك فتح الباب من جديد أمام عملية إعادة نشر هذه الرواية المستحيلة خلال القرن السابع عشر.

قيام بوكوك بالبث المتعمد للرواية الزائفة في أوروبا:

هذه الرواية المختلقة أخذت تنتشر وتُعرف في أوروبا ابتداءً من القرن السابع عشر، وكان ذلك بمساعدة رجل دين بروتستانتي إنجليزي يُدعى إدوارد بوكوك، وهو من أكبر المستشرقين على زمانه ومتخصص في دراسات التوراة والدراسات العربية. ويبدو كأن تلك الشخصية الغامضة قد كرست جلّ حياتها وطاقاتها من أجل برنامج محدد ألا وهو انتشال هذه الأكذوبة التي أتى بها أبو الفرج وبثها في أنحاء أوروبا.

كان إدوارد بوكوك[٦٧٦] أو يوكوك، المولود في أكسفورد وابن رجل دين، من علماء اللاهوت ومتخصصًا في الدراسات التوراتية والعبرية والشرقية. كان تلميذًا نجيبًا، حيث تم قبوله في أكسفورد وهو في السادسة عشرة من عمره،

(676) E. Pococke (1604-1691).

وتخرج وهو في الثامنة عشرة. هو واحد من أهم المتخصصين في الدراسات العبرانية المسيحية، إذ كان همّه الأكبر دراسة النصوص الأصلية للتوراة المكتوبة بالعبرية، وتحول مع مرور الزمن إلى أكبر وأهم مستشرق في عصره، ومعه الهولنديين إيربنيوس وجوليوس.

درس مع المستشرق الألماني م. باسور[٦٧٧]، خلال الفترة من ١٦٢٤ حتى ١٦٢٧م عندما انتقل هذا الأخير إلى أكسفورد، حيث كان يدافع عن تدريس اللغة العربية والسريانية، بغية التعمق في معرفة النص الأصلي للتوراة، ثم تأتي الخطوة التالية في محاربة الكاثوليك. درس أيضًا مع دبليو. بدويل[٦٧٨] الرجل الذي يعتبر مؤسس الاستشراق (الاستعراب) الإنجليزي، الذي تولى منصب نيابة الدير والذي اشتهر باعتباره عالم رياضيات ومستشرقًا وتاجر عاديات. كان من أشد المناهضين للإسلام، نشر عام ١٦١٥م كتابًا مثيرًا للجدل ضد الرسول محمد والقرآن الكريم؛ غير أنه كان شديد الاهتمام بالمسيحيين الشرقيين؛ والشيء المثير هو أن بوكوك الذي كان يشعر برفض غريزي للإسلام كان ذا اهتمام خاص بالمسيحيين الشرقيين كما كان ذا روح قوية في ميدان التبشير. كان بدويل أول أستاذ للعربية للهولندي ت. إيربنيوس[٦٧٩] الذي يعتبر أول مستعرب كبير في أوروبا، عام ١٦٠٦م. وفي منزل بدويل أيضًا تعرف بوكوك بـ خ. سيلدن، حاميه في المستقبل.

كان بوكوك راهبًا وتولى هذا المنصب عام ١٦٢٩م، وبعد ذلك بقليل، أي في العام التالي ١٦٣٠م، عرف ج. خ. فوسيوس[٦٨٠] الفيلسوف الهولندي الشهير والذي كان أستاذ ليدن، وصديقًا للإصلاحي الأرمني جورتيوس، الذي ارتبط أيضًا بالعبرانيين المسيحيين، وكانت له مكتبة ضخمة؛ قدم إلى أكسفورد تلبية

(677) Pasor (1599-1658).
(678) Bedwell (1563-1632).
(679) Erpenius (1584 -1625).
(680) Vossius (1577-1649).

لدعوة من دبليو لود[٦٨١]. وكان هذا الأخير أسقفًا لِلندن ورئيس جامعة أكسفورد، وكان من المعجبين بطائفة Aminianistas الهولندية. أجرى بوكوك العديد من الحوارات المطولة مع فوسيوس، الرجل الذي كان يكن احترامًا كبيرًا للعلماء العرب، وأنه، ذلك الشغوف بالمخطوطات العربية، كان لا يزال متأثرًا بتلك الحملة التي قام بها مؤخرًا خ. جوليوس[٦٨٢]، أفضل تلاميذ إيرينيوس، حيث أخذ من حلب، التي أقام فيها من عام ١٦٢٧ حتى ١٦٢٩م وكذا في إسطنبول عام ١٦٢٨م، وعاد إلى ليدن محملاً بمخطوطات نادرة.

وبعد تلك المحادثات مع فوسيوس، أي عندما قرر بوكوك[٦٨٣] أن يتقدم ليشغل درجة قسيس كنيسة Capellan التي أصبحت شاغرة في حلب. ومما لا شك فيه أن فوسيوس قد شجعه على هذه الخطوة. هناك تبادل للرسائل بين الرجلين عام ١٦٣٠م حيث كتب بوكوك إلى فوسيوس فرد عليه الثاني على الفور وفي العام نفسه؛ نجد إذن أن الرحلة وإتقان العربية وهذا الكنز من المخطوطات كلها أمور تستحق العناء المبذول؛ وألقى به في أتون البحث عن مخطوطات عربية في المشرق، وكان يفعل هذا رغم أن بوكوك أعلن مرارًا وتكرارًا أنه غير مولع بالرحلات أو الاستكشاف.

لماذا قرر أن يفعل ذلك ويقضي سنوات طويلة من عمره، وكذا ما له في هذا السبيل؟ ما الذي قصّه فوسيوس، على هذا الشاب بوكوك لإقناعه؟ هل كان هو الذي أرسله إلى حلب لشراء المخطوطات؟ وهل كان شراء المخطوطات بشكل عشوائي، أم كانت لديه تعليمات محددة للبحث عن مخطوطات بعينها؟ هل كانت مجموعات العبرانيين المسيحيين الهولنديين على معرفة بنصوص أبي الفرج؟ أم

(681) Laud (i 573-1645).

(682) J. Golius (1596-1667).

(683) Irwin, R., "DangerousKnowledge. Orient/ilism and its Discontents", -"Sabiduría. PeligroM. El Orientalismo y sus Descontentas"-, pgs. 93 y ss., The Overlook Press, New York, 2008.

هل كانوا يبحثون عن مؤلفات الرهبان الأقباط السوريين خلال القرن الثالث عشر دون معرفة العناوين على وجه التحديد؟

الأمر هو أن بوكوك قام بتلك الرحلة إلى حلب والتي استغرقت خمس سنوات، بعد أن نشر كتابيه الأولين في علم التوراة، في جامعة ليدن الإصلاحية بمساعدة صديقه فوسيوس، وتمت الرحلة في نهاية عام ١٦٣٠م. وهناك، أي في حلب، أقام بصفته رئيس كنيسة "لطائفة الشرق" الإنجليزية وظل هناك حتى عام ١٦٣٥م وأصبح أشهر قساوسة هذه الطائفة، وكان يعيش في منزل القنصل الإنجليزي بناءً على توصية حاميه وراعيه خ. سيلدن. كان هذا الأخير فقيهًا وبرلمانيًا ومؤرخًا ومستشرقًا كبيرًا وله في هذا عمل عظيم بعنوان "حول الآلهة السوريين"[٦٨٤] وجامع للعاديات والمخطوطات المكتوبة بالعربية والعبرية، وكان يعتبر أيضًا من "العبرانيين المسيحيين" نظرًا للدراسات التي قام بها لتعاليم الحاخامات. وكان من المحبين لجماعة البورينانيين (المتزمتين) لمعارضتها التدرج الذي عليه الأساقفة.

هل كانت صدفة زيارة بوكوك لحلب، المدينة التي كانت مركزًا للدسائس التي عاشها أبو الفرج، أم إنه رحل إلى هذه المدينة السورية وهو يعرف بالتحديد مقصده وما الذي يبحث عنه؟ وهل أرسله أحد - ربما كان فوسيوس - أم كان بناءً على مبادرة شخصية؟ لقد أكمل المهمة التي جاء من أجلها على أية حال، فقد ركز جهده في جمع المخطوطات العربية والشرقية المهمة التي عثر عليها، وهذه واحدة من المهام الرئيسية لرحلته؛ كما درس العربية والعبرية والسريانية و"السامرية Samaritano" والإثيوبية حتى يتمكن من فك طلاسم هذه المخطوطات. عرف اليهود والسوريين والمسيحيين الشرقيين، وتعاقد على تقديم خدمات الأساتذة والتجار والنُسّاخ في مجال البحث عن المخطوطات العربية وظل ذلك ديدونه طوال حياته.

---

(684) Selden (1584-1654), "De Diis Syriis", 1617.

خلال هذه السنوات المهمة التي عاشتها حلب قام عدد من الناس بمساعدته فيما يبحث عنه ومنهم درويش أحمد، الناسخ وتاجر المخطوطات ـ كما كان يقوم بتزويد خ. جوليوس بما يريد-؛ وكذلك أستاذه في اللغة العربية الفُصحى الذي درّس له وهو الشيخ فتح الله؛ ثم أسرة الأسقف اليوناني الأرثوذكسي Thaljah (طلحة)، إضافةً إلى بعض التجار الإنجليز. كما كانت هناك منافسة قوية على شراء المخطوطات بين بوكوك و ب. جوليوس، الأخ الأصغر لجوليوس، الرجل الذي تحول إلى الكاثوليكية وقدم إلى حلب بصفته مبشر من جماعة الكرمل، إلا إنه كرس كل جهده في جمع المخطوطات العربية بنهم شديد. كثف بوكوك جهوده، ذلك أن الأسقف "لود Laud" جعل منه أيضًا وكيله في شراء المخطوطات وشراء العملات اليونانية القديمة.

نجد إذن أن بوكوك وجد مخطوطات أبي الفرج من بين مئات الكتب التي تمكن من جمعها. لكن هل وجدها بوكوك بمحض الصدفة؟ الأمر ليس صعبًا، ذلك أن أبا الفرج عاش سنوات طويلة في حلب كما أن ذكراه ومؤلفاته ظلت محفوظة في ذاكرة الطائفة التابعة للمذهب القائل بالطبيعة الواحدة، وهي طائفة كانت تجلّه على أنه أحد القديسين على المستوى المحلي، أم إن فوسيوس قد بعث إلى بوكوك في حلب يطلب منه البحث عن مخطوطات أبي الفرج وكذا كل المؤلفين العرب الذين لهم صلة بالرواية المختلفة؟. والشيء الغريب، هو أنه عثر أيضًا على مؤلفات عبد اللطيف البغدادي وبذلك حصل على كل ما يتعلق بالمصادر المهمة لهذه الرواية المختلفة والتي كانت معروفة خلال ذلك الزمان.

كانت الصلة واضحة بين فوسيوس وبوكوك فيما يتعلق بتلك الزيارة لحلب، لدرجة أنه عند عودته، أرسل بوكوك إلى فوسيوس تقريرًا مفصلاً عنها بناءً على حقه الكامل في ذلك طبقًا لبوكوك نفسه[٦٨٥]. وفي هذا المقام، نجد أن بوكوك في رسالته التي ترجع لعام ١٦٣٦م يحدث فوسيوس عن نيته في طبع كتب أبي

(685) Pococke, "Cartas", "Ephtolae, 5-12-1636".

الفرج التي عثر عليها في حلب. فهل كانت فكرة دارت بخلد بوكوك في حلب وهو يقرأ تلك النصوص صدفة؛ أم أن فوسيوس حدد له معالم الطريق؟ هل كان فوسيوس يعرف شيئًا عن تأكيدات أبي الفرج بشأن مكتبة الإسكندرية وعن العرب؟ ما يسترعي الانتباه هو أنه رغم أن الرسالة خاصةً، فإن بوكوك لم يشر صراحةً إلى اسم أبي الفرج فيها رغم أنه ينوه بذلك بطريقة لا لبس فيها، لماذا؟ هل لا يريد أن يعرف أحد ذلك؟ هل كانت خطة سرية يرفها البعض فقط؟ وما الذي أبلغ به بوكوك صديقه بطريقة مستترة؟

عاد بوكوك إلى إنجلترا عام ١٦٣٦م، وبحث عن عون صديقه، دبليو لود(٦٨٦) الذي كان آنذاك أسقف كانتربري، وكان رجلاً متشددًا وفظًا وفزّاعة للبوريتانيين، كما كان من أنصار دراسة اللغة العربية ومن المؤيدين للتوجه "الأرمينياني" الهولندي. وعلى ذلك نرى أنه إذا ما كان بوكوك ينوي نشر أعمال أبي الفرج فإنه سوف يتحدث في الأمر مع لود؛ لم يتوان هذا الأخير في الاستجابة للطلب وأنشأ أول وأهم أستاذية كرسي لتعليم العربية في جامعة أكسفورد(٦٨٧) التي حثه على قبول إدارتها وعينه عليها رئيسًا دائمًا (من ١٦٣٦ حتى ١٦٩١م).

نجد إذن أن بوكوك قضى نصف حياته وهو يصارع أمواج السياسة في عصره وحافظ على موقعه من المنظور التمويلي ضد أية عقبات ومتاعب وبالتالي تمكن من استكمال مشروعه التبشيري. ويلاحظ أنه كان يولي أهمية كبيرة لبث ونشر القصة المختلفة والملفقة للعرب، وساعده في هذا الكثيرون من الإصلاحيين المسيحيين من ذوي الاتجاهات السياسية المختلفة؛ وبدا الأمر وكأنه مؤشر على أنه جزء من سياسات عليا وليس مجرد خصومة دينية. يبدو لنا إذن أن الأمر مقصود.

---

(686) Laud. arzobíspo de Canterbury (1633-1645).

(687) Tyacke, " Sevenleenfh-century OxforíT, pg. 481.

بعد أن اطمأن على مستقبله المادي، قام، في عام ١٦٣٧م، برحلة إلى إسطنبول[٦٨٨]، أي إلى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، حيث أرسله لود، وكانت الغاية الحصول على المزيد من المخطوطات لحساب الأسقف الإنجيلي ولحسابه هو، إضافةً إلى تحسين مستواه في اللغة العربية. ظل هناك من ١٦٣٧م حتى ١٦٤٠م، وهناك رافقه صديقه خ. جريفس[٦٨٩] عالم الرياضيات الشهير وعالم الفلك والمستعرب، كما أنه تلميذ وصديق جوليوس في ليدن، الذي كان يقوم هو الآخر بشراء مخطوطات لصالح لود.

كانا يعيشان في منزل السفير البريطاني في "جالاتا Galata"، تنفيذًا لتوصية لود، وتعرف على الكثير من اليهود الذين تعاقد معهم لشراء الكتب ونسخها، وكان من بين هؤلاء يعقوب الروماني. هناك تكهنات تقول إن اهتمام بوكوك الشديد بالثقافة العبرية كان أمرًا ملحوظًا. كما ساعده بعض من أهالي فينيسيا المقيمين هناك في البحث عن المخطوطات. في الوقت ذاته رحل جريفس عام ١٦٣٨م إلى الإسكندرية والقاهرة بحثًا عن مخطوطات، إضافةً إلى رفع مقاسات للهرم الأكبر. بقي بوكوك في إسطنبول حيث أوتي فسحة من الوقت للتعرف على الراهب المصري أبو ذقن، الذي عاش بدوره في إسطنبول من ١٦٣٣م حتى ١٦٤٣م بصفته موظفًا في السفارة النمساوية.

وفي عام ١٦٤٠م، أي قبل أن يعود إلى وطنه، توقف في باريس[٦٩٠] ليلتقي بصديق لفوسيوس وهو الفقيه والمجادل، إتش. جروتيوس، الرجل العارف بكل دقائق التيار "الأرمنياني" الهولندي، الذي كان ينظر إليه أتباع مذهب كلفينوس على أنه هرطقة، وبالتالي نفى وأصبح سفيرًا للنمسا في فرنسا؛ كما التقى بالماروني ج. سيونيتا الذي استقر به المقام في باريس ابتداءً من عام ١٦١٤م. وكان هذان الرجلان من ذوي الاهتمام بالشئون المشرقية.

---

(688) Hamilton, "Abudacnus", pg. 134.

(689) Greaves (1602-1652).

(690) Toomer, "Eastern Wisedome", pgs. 145-147.

كان جروتيوس صديقًا قديمًا، وفي عام ١٦٧م تحول إلى أول مجادل بروتستانتي من خلال كتاب له بعنوان "حول الديانة المسيحية الحقة"[٦٩١]، وهو كتاب صدر في ستة أجزاء باللاتينية. وكانت الدراسة المذكورة عبارة عن توجه عقلاني أولي لدراسة الأناجيل سواء من حيث المضمون أو المؤلف، وأسس لأصول الديانة المقارنة بدراسة الديانات الوثنية واليهودية والإسلام. حاز الكتاب شهرة وشعبية واسعتين، وتم اتخاذ المبادئ اللاهوتية التي جاء بها سواء من "الأرمنيان" أو "المنهجيين Metodistas".

اهتم بوكوك بترجمة هذا العمل الضخم من اللاتينية إلى الإنجليزية والفارسية والصينية والعربية وكانت الغاية من وراء الترجمة إلى العربية تنصير المسلمين، والعمل على استخدام هذا الكتاب في المهام التبشيرية في الشرق الأوسط. تمكن من ذلك عام ١٦٦٠م بفضل الدعم المادي الذي قدمه الكيميائي الأيرلندي ر. بويل[٦٩٢] الذي يعتبر أحد مؤسسي "Royal Society"، تلك الشركة العلمية الأكثر قدمًا في العالم، كما أنه وهو الشغوف بعلم اللاهوت والمهام التبشيرية، كان أحد المتعاطفين مع المنشقين، وقام بتمويل بوكوك لترجمة الأناجيل إلى اللغتين التركية والملايو.

من الواضح إذن وجود علاقة حميمة بين جروتيوس وبوكوك، وأنهما كانا يعرفان بعضهما بعضًا منذ زمن؛ هنا يمكن القول بأن جروتيوس حدد ملامح خططه لتنصير الشرق الأوسط، وكان يحمل السلاح الحاسم في باب الدعاية المضادة، حيث استطاع انتشاله - أي ذلك السلاح - في إطار قديم هو عبارة عن بعض الأغلفة القديمة التي ترجع إلى العصور الوسطى، من تلك التي عثر عليها في حلب. ومن المؤكد أيضًا أن بوكوك قد تحدث مع جروتيوس عام ١٦٤٠م، حول نيته في نشر مؤلفات أبي الفرج، وذلك لأسباب من بينها ما قصّه عليه صديقه

---

(691) Grotius (1583-1645). "De Veritate Religionis Chrísfianae"

(692) Boyle (1627-1691).

فوسيوس وكذا اكتشاف النص الذي كتبه عبد اللطيف البغدادي المؤرخ الذي ارتبط اسمه بقوة بالرواية الملفقة التي اخترعها أبو الفرج.

يبدو إذن أن عامي ١٦٤٠م و١٦٤١م كانا عامي الحسم في تنفيذ المشروع، فقد كان هناك تبادل محموم للأفكار والأوامر والتنويهات بين مجموعة صغيرة من المستعربين البروتستانت من الإنجليز والهولنديين، لكنها قوية ومؤثرة، هي بوكوك وفوسيون وجروتيوس ولود. نجد إذن أنه بعد ذلك اللقاء الذي جرى مع جروتيوس عام ١٦٤٠م استقر المقام ببوكوك نهائيًا في إنجلترا عام ١٦٤١م، وكان أول شيء يفعله هو القيام بزيارة لود، الذي كان أسيرًا محبوسًا في برج لندن. خلال ذلك العام نفسه ـ ١٦٤١م ـ تلقى بوكوك رسالة من فوسيوس، ردّ عليها عام ١٦٤٢م تناول فيها إشارة إلى كتاب جروتيوس "حول الديانة الحقة" الذي كان يريد ترجمته، وتحدث عن نيته أيضًا التي تدفعها الميول التبشيرية في ترجمة "تعليم الديانة الإنجيليكانية Catecismo A". بغية تعليم أصدقائه السوريين، وهذا هو ما توصل إليه عام ١٦٧١م. لكن ما هي الأفكار الأخرى التي تم تبادلها في هذه الرسالة؟.

نشر مؤلفات أبي الفرج، وعبد اللطيف البغدادي:

بعد هذه المساندة والدعم القويين، أقدم بوكوك على الزواج عام ١٦٤٦م، وكانت ثمرة هذا الزواج تسعة من الأبناء، وبذلك تمكن من البدء في المهمة التي وضعها نصب عينيه أو تم تحديدها له، ألا وهي نشر القصة المختلقة في الغرب، وهذا أمر لم يتمكن منه أبو الفرج أو لم يتخيله كما سبق القول.

فعل ذلك في خضم الحرب الأهلية في الجزر البريطانية، وكثرة المتاعب، وتلقى دعمًا قويًا من أصدقائه من البرلمانيين وبخاصة سيلدن وخ. أوين[٦٩٣] الذي لُقّب "بأمير البوريتانيين"، وهو عالم لاهوت شهير والمصلح التوراتي والزعيم

(693) Owen (1616-1683).

المتمرد. انتقل من اتباع مذهب كالفينيو، الأرثوذكسي، إلى المستقلين أو "المتحدين Congregacionistas" حيث كان عدوًا مبينًا للأمينيانيين الهولنديين وللأفكار القانونية التي قال بها جروتيوس.

حاول بوكوك الحصول على المزيد من الدعم لمسيرته، فاستطاع عام ١٦٤٨م إنشاء أستاذية كرسي للغة العبرية واستطاع الحفاظ عليها بمساعدة سيلدن وأوين، من عام ١٦٤٨ حتى ١٦٩١م. وخلال العام التالي - ١٦٤٩م - نشر لأول مرة كتاب "التاريخ العربي لأبي الفرج"[٦٩٤] - باللاتينية وضمنه إهداء إلى سيلدن، وكان الكتاب من تأليف أبو الفرج، وهو "موجز تاريخ العرب"[٦٩٥]، وضمنه بعض الهوامش التي أشارت إلى مائة مرجع عربي؛ كما نشر الكتاب بالعربية، وبذلك يكون الكتاب الثاني الذي يُنشر بالعربية في جامعة أكسفورد. ويلاحظ أن النص المختصر الذي كان يتضمن الرواية الزائفة عن العرب ومكتبة الإسكندرية، الذي نشره أبو الفرج باعتباره أحد المستلات بالعربية لكتاب "حولية سريانية" إنما هو جزء من كتابه الضخم المُعنوّن "حولية".

لم ينشر بوكوك مؤلفات أبي الفرج إلا بعد ثلاثة عشر عامًا، وقرر بعدها نشر هذا الملخص في صورة مستلة، ولم ينشر العمل كاملاً رغم اهتمامه الشديد به. والشيء الغريب هو اختياره لذلك النص الذي لم يكن ذا أهمية كبيرة سواء من حيث مصداقيته التاريخية أو أهميته، كما يثير الدهشة تأييد ومساندة جامعة أكسفورد لدرجة أنه عند عدم الرضا الكامل عن الترجمة إلى اللاتينية جرى نشر المستلة بالعربية في طبعة فاخرة حتى لا يكون هناك أدنى شك حول حقيقة النص. لكن النص كان به متفجرات في إطار القيمة الضعيفة التي عليها، إذ يقص أن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية!.

---

(694) Pococke, "Historias Arabeum a Bar-fiebraeo".

(695) Abulfaragius, "Specimen Historias mbum". Toomer, "Eastern Wisedome", pgs. 160-162.

أسهم هذا النص في جعل بوكوك أكبر مستعرب على زمانه، واستخدم هذا النص مصدرًا للمستعربين الذين أتوا من بعده لما يزيد على خمسين عامًا. كان أبو الفرج، ومن بعده عبد اللطيف البغدادي محط دراسات قام بها كافة المستعربين اللاحقين، ومع هذا فقد ظهرت الطبعة الثانية من المستلة عام ١٨٠٠م، طبعة أكسفورد، تحت إشراف البروفيسور خ. وايت. وفي هذا المقام يشير خ. شامبيون إلى "أن قيام بوكوك بترجمة كتاب أبي الفرج إلى اللاتينية مصحوبًا بعدد كبير من الهوامش والحواشي، قد أثار فضولاً طبيعيًا وذلك تحريف لتاريخ الإسلام مثير للجدل"(٦٩٦).

غير أن الأمر الذي لم يشر إليه شامبيون يتمثل في أن بوكوك ترجم هذا الكتاب تحديدا إلى اللغة اللاتينية وليس كتابًا آخر، وله نية ومقصد من هذا يبعد كل البعد عن الاهتمامات العلمية. وبسببه إذن نجد أن هذه الرواية المختلقة بما تحويه من جرعة سُم أخذت تنفذ إلى المراكز المعنية في الغرب، وانتشرت بين المثقفين وفي الجامعات، ومن هنا أصبح من السهل أن تنفذ إلى الجمهور، وما كان مطلوبًا هو العمل على تكرارها، وانتهى التكرار بأن جعل الزيف حقيقة.

بعد مرور أربعة عشر عامًا على هذا ١٦٦٣م - لم يكن بوكوك سعيدًا بهذا، وقرر نشر العمل الرئيسي في حياته عن أبي الفرج، حيث ترجم، لأول مرة، من السريانية إلى اللاتينية، النص الكامل لهذا العمل الضخم "حولية" وأطلق عليها "جماع تاريخ الأسرات لجريجوريو أبي الفرج"(٦٩٧). ونشر النص العربي للكتاب وترجمة له؛ ومعنى هذا أن العمل الأكثر شهرة لأبي الفرج قد انتشله بوكوك من النسيان في حلب، وهذا ما قصه على فوسيوس في رسالته التي بعث بها إليه عام

---

(696) Champion, "The Pi/tars ofPriestcmft Shaken: The Church of England and its Enemies, 1660-173 ff", " Los Pilares del Sacerdócio Convulsionados: La Iglesia Anglicana y sus Enemigos, 1660-1730"-, Cambridge Studies, Cambridge U. Press, Cambridge, 1992.

(697) Pococke, "Historia Compendiosa Dynastiarum a Gregorio Abulfharagio".

١٦٣٦م. أي أن هذا العمل ظل في انتظار النشر طوال سبعة وعشرين عامًا، حتى قرر بوكوك نشرها.

لم تحظَ الترجمة اللاتينية لهذا العمل بإقبال شديد[٦٩٨]، وكان على بوكوك أن يفعل شيئًا فخطرت له فكرة إضافة نص آخر إليها بعنوان "تاريخ العرب" من تأليفه هو. هذا قرار غريب يصدر عنه حيث استنسخ نفسه مرة أو مرتين، ويبدا أنه مهووس بتاريخ العرب. كرّس بوكوك كما نرى جزءًا كبيرًا من مجهوداته في نشر مؤلفات أبي الفرج التي تتحدث عن هذه القصة الزائفة، وهذا هدف نستغربه على رجل دين في مثل وزنه، فما الذي كان وراء هذا كله؟.

يعتبر كتاب "حولية" نصا عديم الأهمية في إطار المناقشات الدينية الحامية الوطيس خلال ذلك العصر، ذلك أنه نص مفرداته مضطربة وأفكاره قديمة وذو قيمة تاريخية محدودة عند رجال الدين المسيحيين في تلك الفترة، إذ هم قوم كانوا يبحثون عن نصوص أخرى أقوى يمكن استخدامها دليلاً من مؤلفات ابن ميمون. لم يكن أبو الفرج فيلسوفًا أو مفكرًا ذا قامة رفيعة، وليس من المستغرب ألا يحظى العمل باهتمام، حيث ظهرت الطبعة الثانية له عام ١٨٠٦م برعاية وايت، الذي ترجمه إلى الإنجليزية. غير أن هذا الفشل كان ظاهريًا، إذ استطاع بوكوك أن ينتشل من النسيان العمل الرئيسي لأبي الفرج بترجمته إلى اللاتينية؛ وظل هذا العمل يراوح مكانه بما يحويه من المقولة الزائفة، ثم ترجم إلى الإنجليزية وتحول بذلك، مع مرور الزمن، إلى عمل شديد الشيوع والانتشار، وأصبح أمرًا مصدقًا ولا يجرؤ أحد على نقضه.

إذا ما انتقلنا من هذا إلى كتاب عبد اللطيف البغدادي نجد أن قصة ترجمته اتسمت بالغموض؛ نعرف أن بوكوك عثر على النص المتعلق بمصر Relacion de Egypto في حلب، وهيأ نفسه لترجمته إلى اللاتينية على الفور ذلك أنه كان

(698) Tyacke, "Seventeenth-century Oxford", pg. 498.

كتابًا مهمًا يعطي مصداقية لما تم سرده في "المختصر" لأبي الفرج. وبذلك بدأ العمل. وفي عام ١٦٦٥م، أي عندما انتهى من طبع ست وتسعين صفحة مترجمة إلى اللاتينية في مطبعة جامعة أكسفورد، أصدر الأسقف "فيل Fel" أمرًا بإيقاف العمل فيه وأخذ النصوص اللاتينية الأمر الذي كان مثار إذلال لبوكوك، فتوقف عن الترجمة. كان لبوكوك مشاعره أيضًا!، ومع هذا ففي عام ١٦٨٠م نشر كتاب عبد اللطيف البغدادي بالعربية.

استأنف ابنه الأصغر مهمة الترجمة التي توقفت - إي. بوكوك الشاب - واستمر في العمل مع هؤلاء المستعربين من الأسرة، وتم نشر ترجمة مختصرة لجزء من كتاب عبد اللطيف البغدادي إلى اللاتينية عام ١٧٤٦م، وبذلك أعطى مصداقية للقصة المختلقة. نشر وايت النص الكامل باللاتينية لأول مرة في أكسفورد عام ١٨٠٠م وتوافق مع هذا التاريخ نشر الطبعة الثانية من "مختصر" أبي الفرج حيث جرى تقديم النصين المتعلقين بالقصة المختلقة في العام نفسه، وحتى يتم تنشيط ذاكرة الدارسين تم جمع مكونات هذه الفرية المناهضة للعرب وتقديمها في أوروبا؛ وجاء هذا رغم نفيها من قبل اثنين من كبار المؤرخين وهما رينودوت وجيبون خلال القرن الثامن عشر كما سنرى.

عثر بوكوك على مخطوطة عبد اللطيف في حلب، ولا شك أن هذه المخطوطة كانت من بين تلك المخطوطات التي بحث عنها بشغف والتي كانت تضم ملحقًا يتحدث عن إحراق العرب للمكتبة الصغرى في الإسكندرية، وحاول نشرها بسرعة متناسيًا الإسهامات المهمة للغاية له في الطب والتشريح ونمو العظام ومرض السكري، وهذه كلها موضوعات شديدة الأهمية بالنسبة للعلوم في ذلك العصر. لكن لا، ذلك أن رجل الدين الإنجيلكاني هذا لم يكن يبحث عن مصادر جديدة للمعرفة، بل كان ما يريده هو لعبة سياسية ذات خلفية دينية، وها هو في يده الدليل على أن أبا الفرج لم يكن كاذبًا، ذلك أن العرب قد ألقوا باللائمة على أنفسهم لهذه الكارثة التي حدثت في الإسكندرية قبل زمن بعيد.

هل كان الأمر مجرد اكتشاف بالصدفة على يد بوكوك. وكيف لنا بهذا الباحث الحصيف الذي أراد أن يقدم للغرب الروايتين المذكورتين ويتناسى الكثير من النصوص العربية التي نفت من البداية صحة رواية أبي الفرج، وكذلك هؤلاء الذين لم يشيروا إطلاقًا إلى أي شيء، سواء كانت الحمامات أو حرائق أو كتب تتعلق بالاستيلاء على الإسكندرية على يد العرب وهي نصوص أقدم بكثير من النصوص التي كتبها أبو الفرج؟.

وهنا نجد أن ر. إيروين يؤكد أنه "على الرغم من أن تناول بوكوك للإسلام كان معاديًا عداءً كاملاً؛ فإن هذا العداء كان عداء يحمل ظاهريًا سمات الأكاديمية، فقد كان شديد الاهتمام بدحض الأقاويل الغربية عن العرب والأكاذيب المثيرة للجدل بشأن النبي محمد والعقيدة الإسلامية، وذلك حتى يتمكن من أن يعرض بوضوح الأخطاء الحقيقية للإسلام. فقد كان الأمر عنده القيام بدراسة نقدية... بدلاً من اختلاق الأكاذيب"(٦٩٩)؛ ومع هذا صمم على نشر هذه النصوص دون أن يكلف نفسه عناء تطبيق هذه الأكاديمية النقدية، التي يجري الحديث عنها، على الزيف الذي قال به أبو الفرج. وعلى أية حال، نجد أنه ابتداء من تلك الفترة انتقلت شخصية أبي الفرج ومؤلفه وتوارت بشكل رصين إلى مستوى ثانوي، وظهر عبد اللطيف البغدادي في المقام الأول على أنه أصل هذه الرواية الكاذبة. وعندما تركز النقد الغربي على مدى مصداقية المداخلة الموجزة، وأنها لما كانت سابقة على ما كتبه أبو الفرج، فإن ذلك كان بمثابة البرهان على أن أبا الفرج لم يقم إلا بالاستفاضة في الأخبار التي وردت عند عبد اللطيف؛ ويبدو أيضًا أنه لم يخطر ببال أحد أن تكون الروايتين من مصدر واحد، ولم يضطر على بال أحد أيضًا البحث في مدى الاستحالة التاريخية لهذه الرواية المختلقة والسبب الذي جعلها تظهر من لا شيء خلال القرن الثالث عشر، على يد مؤرخ عربي متأخر. ولنتمعن في أمر وهو أن ابن القفطي ما زال بعيدًا تمامًا عن الحوار الدائر. فلم يقم

(699) Irwin, "Dangerous Knowledge", pg. 94.

بوكوك بالعثور على مؤلفاته، هذا إذا ما كان يعرفها، كما يبدو أن مؤلفاته ـ أي ابن القفطي ـ كانت لا تزال غير معروفة في أوروبا.

كان بوكوك يعيش في فترة من الفترات غير المستقرة، وقد ساعده البعض من هنا وهناك، وهذا بفضل قدراته الكبيرة كمستعرب، ففي عام ١٦٥٥م ترجم "بوابة موسى"(٧٠٠)، وتعليقات على "مسناه ابن ميمون" وساعده سيلدن في ذلك؛ ووضح عندئذ الاهتمام الكبير الذي يكنه "العبرانيون المسيحيون" لهذا العالم اليهودي، الذي كُتب دائمًا بالعربية. كان هذا الكتاب هو أول كتاب يُنشر بالعبرية من خلال جامعة أكسفورد.

رعى سيلدن في عام ١٦٥٨م الترجمة التي قام بها بوكوك لكتاب "العقد" لبطريارك الإسكندرية إيوتيكيوس وجاء تحت عنوان "أصول كنيسة الإسكندرية"(٧٠١) في محاولة لدحض النموذج الأسقفي للكنيسة الإنجليكانية. الشيء المثير للدهشة أن هذا النص يتعرض بإسهاب للغزو العربي للإسكندرية دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى هذه الرواية المختلقة. كما نعرف أن بوكوك تولى هذا المنصب وكان يمانع كثيرًا في توليه. فما هي الأفكار المتناقضة التي دارت برأس بوكوك عندما تولى ذلك التكليف، الذي يوضح ببداهة زيف ما أتى به أبو الفرج؟.

قضى بوكوك أعوامًا طويلة في الشرق واجتذبته كثير من جوانب الحياة في المشرق مثل غيره من البريطانيين، وعلى هذا قام بترجمة كتيب عربي يتعلق بنبات البن، المشروب الذي لم يكن يعرفه أحد في إنجلترا، وكان هو أول من تناولها أمام تحفظات مواطنيه الذين كانوا يعتبرون هذا المشروب نوعًا من المخدرات التي ترتبط بالممارسات الغامضة في العالم الإسلامي؛ كما جلب من سوريا شجرة تين وهي أقدم شجرة توجد اليوم في إنجلترا، وهي الشجرة المعروفة باسم "شجرة

---

(700) Pococke, "Porta Mosis".

(701) Pococke, "Alexandrmae Ecclesiae Origines"

بوكوك" في حديقته، كما استورد شجر الأرز من لبنان وهي من الأشجار الأكثر قدمًا في البلاد.

الحركات البروتستانتية الإصلاحية:

نرى إذن أن هذه القصة المختلقة لم تنتشر في أوروبا حتى القرن السابع عشر، أي حتى جرت ترجمة النصوص إلى اللاتينية التي قام بها إ. بوكوك، عام ١٦٤٩م، ونقصد هنا "المختصر" الذي كتبه أبو الفرج، على افتراض أنه نص قديم يعود لعدة قرون. ولم يكن يعرف هذا النص حينذاك إلا بعض العلماء والمستعربين. وعلى أية حال كانت رواية أبي الفرج هدية لم يكن أحد على استعداد لرفضها، وكأن هناك في اللاشعور الجمعي أثر خلفته تلك المأساة القديمة يتمثل في الإحساس بالذنب.

من كان يخدم بوكوك أو ما هي القضية التي كان يدافع عنها؟ من كان يهمه أن يبث في الصالونات الثقافية والكنائس في لندن أو باريس أو أمستردام هذه الرواية التي لا أساس لها من الصحة ضد العرب طبقًا لما نراه من خلال شهادة مار مول[٧٠٢]؟ من البدهي أن بوكوك كان يُنسب إلى الأكليروس وله طابع المبشرين، أي تناول فكرة نصرنة الشرق الأوسط، وفي هذا فإن كافة الوسائل مناسبة وسليمة من أجل الوصول إلى هذه الغاية. كما نعرف أن هذه الغاية لها خطة موضوعة.

ما يثير الدهشة هو أن المبادرة بنشر جديد لهذه الرواية المختلقة لم تأت من المعسكر الكاثوليكي في جنوب أوروبا، بل من الدوائر الإصلاحية للبروتستانتية والتي امتد نفوذها في شمال أوروبا وبخاصة في هولندا وإنجلترا وألمانيا وفرنسا. أما في الدول الكاثوليكية فقد كان ممنوعًا منعًا باتًا التفكير في دراسة التاريخ لكنسي خارج الأطر التي تم وضعها وتحديدها، بما في ذلك قراءة

---

(702) Mármol, "Descripcián de Africa".

"التوراة": فمحاكم التفتيش الرهيبة والمسيطرة لم تكن على استعداد لغسل الملابس القذرة التي خلفها التاريخ.

لكن لم يكن الأمر على هذا النحو شمال أوروبا، فقد ظهرت حركات قوية في إطار البروتستانتية، في محاولة لتطبيق أعمال العقل ودراسة الثقافة العبرية باعتبارها طريقًا للمعرفة، وكل هذه الخطوات تسير في طريق دراسة التاريخ اللاهوتي والنصوص التوراتية. إلا أنه خلال القرن السابع عشر - في القارة العجوز - لم يكن الأمر مسألة دفاع عن المذهب القائل بالطبيعة الواحدة وتاريخ ذلك - مسألة تأنيب وخلاف بين البروتستانت والكاثوليك - مثلما طرحه أبو الفرج. إذن ما حقيقة الأمر؟

في نظرنا لا يبدو أن كلاً من ديكارت وسبينوزا، اللذين كانا يعيشان في هولندا، التي تعتبر الأصل والمحرك الفاعل في حركة العقلانية الحديثة، لم يكونا على استعداد للبدء في فصل غامض يتعلق بالإسكندرية والإساءة إلى سمعة العرب. كانت هولندا بلدًا حديث الميلاد ومركزًا للمثقفين الأوروبيين خلال القرن السابع عشر، فإليها رحلت الكثير من الطوائف اليهودية الكبرى نازحة من جنوب أوروبا وشرقها، ودافع جروتيوس عن تواجدهم؛ وأسهم وجودهم في دعم التأثير الثقافي العبري في التوجه الذي عليه أتباع كالفينوس في هولندا؛ وزادت العناية "بالدراسات الدينية العبرية" بين المسيحيين العبرانيين، وكان ذلك في إطار الجدل اللاهوتي القائم بين الكاثوليك والبروتستانت.

نرى إذن كيف تأسس في هولندا أهم مركز للاهتمام بالدراسات العبرانية المسيحية[٧٠٣]، إضافةً إلى إنجلترا وتجاوز هذا الاتجاه الحدود الخاصة ببلد واحد بحيث شمل الإصلاحيين البروتستانت الليبراليين المناهضين للكاثوليك والأنصار كالفينيو والأرثوذكس، ثم امتدت الحركة بعد ذلك إلى فرنسا والبرتغال

---

(703) Katchen, A. L., "Christian Hebmistand Dutch Rabbis", -"Hebraistas Cristianosy Kabbis Holandeses"-, pgs. 9-12, Cambridge Mass., 1984.

وإيطاليا، حيث كان القاسم المشترك بين كل هؤلاء هو الاهتمام بالدراسات التوراتية وباللغة العبرية وثقافتها وذلك للفهم الصحيح لأحكام "التوراة" ويقولون بأن مبادئها المثالية الجمهورية قد نقلت عنها عند خلق الكيان السياسي لهولندا.

أحيانًا ما كان يُطلق عليهم "المتهودون" ذلك أنهم كانوا يدخلون بعض التقاليد الحاخامية كجزء من اللاهوت المسيحي. وحديثًا عن جامعة ليدن، بهولندا، التي تأسست عام ١٥٧٥م، حيث نشر إ. بوكوك مؤلفاته وحيث كان الإصلاحيون البروتستانت مثل فوسيوس وجروتيوس وت. إيرينيوس - أول مستشرق بروتستانتي - وتلميذه النجيب خ. جوليوس، نجد أن هذه الجامعة كانت من أكبر المراكز المفتوحة على هذه الحركة.

يجب علينا، في إطار هذه الحركة البروتستانتية الإصلاحية الكبرى، أن نبحث عن السرّ الغامض وعن المجموعة المصغرة من "العبرانيين" أو "المستشرقين المسيحيين" الإصلاحيين الذين قرروا، في كل من هولندا وإنجلترا، الإسهام بالمزيد من إضفاء الغموض والتآمر اللامعقول على طريق الحداثة الأوروبية؛ فقد أدخلت المجموعة منتجًا ثانويًا لم تكن له صلة من قريب أو بعيد بأمر توضيح الأفكار والإعلاء من شأن الفكر الحر والعقلانية والحرية، بل وتمثل الأمر في القيام بخطوة إلى الخلف، بالعودة إلى الممارسات التي كانت سائدة خلال العصور الوسطى، وهي التي كان يُراد لها أن تنتهي وتزول.

هناك مجموعة كبيرة من أفضل المثقفين البروتستانت، بالغت في دفاعها عن المسيحية إلى أبعد مدى، لدرجة التزييف المتعمد للتاريخ. غير أن فورة وشعلة هؤلاء "العبرانيين المسيحيين" استمرت لفترة قصيرة أي بما يزيد قليلاً على نصف قرن من الزمان (١٦٠٠-١٦٦٠م)، ومع هذا ظلت حية في إنجلترا بين البروتانيين الذين أسسوا "القدس الجديدة" في أمريكا. وعلى أية حال كان الوقت كافيًا لإدراج الرواية المختلفة في دائرة البث والنشر والعمل على تمكنها من الروح العامة في الغرب.

وما يثير الانتباه هو أن أفول شمس "العبرانيين المسيحيين" يرجع إلى أمر نعرفه في معرض توجهاتنا البحثية هذه، الا وهو أن بيترو دل فالي P. della Valle اشترى عام ١٦١٦م، في دمشق، مخطوطة بعنوان Pentaleuco Samaritano (الأسفار السامرية)، وأسفرت دراسة المخطوطة عن الكشف عن أكثر من ستة آلاف عملية إضافة أو خطأ أو اختلاف مع النص العبري Masoretico (التوراتي)، الأمر الذي أثار الحيرة في صفوف "العبرانيين المسيحيين" الذين انقسموا على أنفسهم بين "حاخاميين" و"ناقدين". ابتداءً من تلك اللحظة سرعان ما فقدت النصوص التوراتية بهاءها في الغرب على أنها نصوص مقدسة لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها. وبعد ذلك نجد الراهب الكاثوليكي ر. سيمون يشير في كتابه "التاريخ النقدي للعهد القديم"[٧٠٤]، ١٦٧٨م، إلى أن كافة نسخ التوراة اعتراها الفساد بما تم إدراجه عليها وما جرى تزييفه.

أدى هذا إلى تحييد كامل لتيار "العبرانيين المسيحيين" بعيداً عن التيارات الفكرية التي تدخل في إطار البروتستانتية القائمة على إعمال العقل والتي كانت سائدة في نهاية القرن السابع عشر. ومع بداية القرن الثامن عشر كان ذلك الاتجاه الذي نتحدث عنه والذي يتسم بالتشدد اليهودي المسيحي قد اختفى. غير أن إنجلترا، شهدت استمرار الإنتاج الأدبي لهؤلاء العبرانيين المسيحيين طوال القرن السابع عشر نظراً للجهد الذي بذله بوكوك حيث هناك توافق عميق مع الثقافة اليهودية والدراسات اليهودية خلال العصر البوريتاني لكرومويل. وعلى ذلك لم يكن هناك أي عائق أمام بوكوك أو المجموعة التي كانت تدعمه في مواصلة الطريق لتحقيق مشروعه المشئوم وبث أكاذيب أبي الفرج.

نرى إذن كيف توالى وجود الكثير من أهم الإصلاحيين البروتستانت حول بوكوك، وهي مجموعة كانت لها مصالحها المشتركة، فقد كانوا جميعًا من

(704) Sirnón, "Histoire Critique du Vieux Testament".

المجادلين الدينيين وكانوا يدافعون عن المسيحية دفاعًا مستميتًا، الأمر الذي جعلهم يرون أن كل شيء مشروع في سبيل تحقيق هذه الغاية. كانوا جميعًا من المستعربين، ومتخصصين في الثقافة العبرية والنصوص التوراتية وكلهم من الإصلاحيين، فما الذي كان يربط بين بوكوك وبين بدويل ولود وجروتيوس وفوسيوس وجوليوس وجريفس وأوين وسيلدن؟.

من البدهي أن أحدًا ما كان وراء إرسال ذلك الفتى بوكوك المتحمس والمتوقد الذكاء إلى حلب، وربما كان ذلك رجلاً يعرف حقيقة ما يوجد هناك في هذه المدينة مختفيًا وأنه على استعداد لاستخدامه. ربما كان ذلك الشخص هو الإصلاحي فوسيوس أو سيلدن أو الأسقف لود، الرجل الذي حمى بوكوك منذ أن كان شابًا وشجع الاهتمام بالدراسات التوراتية والشرقية، كما كون مكتبة عظيمة. وربما كانت كل هذه العناصر من الأدوات الثقافية المهمة التي اعتمد عليها بوكوك.

نتساءل هنا: ما الأمور التي طرحها كل من جروتيوس وبوكوك في الصالونات الباريسية لسفارة السويد؟ كان الرجلان من ذوي الجرأة وكانا شابين ومتحمسين للدفاع عن الحقائق التوراتية والعمل على نشر المسيحية. فهل كان إبراز وانتشال هذه القصة المختلقة لأبي الفرج ونشرها جزءًا من خطة غريبة وضعها جروتيوس؟ تشير الأمور إلى أن ذلك غير محتمل على أساس أنه فقيه وفيلسوف له وزنه؛ غير أنه، بصفته مجادلاً مسيحيًا، يبدو مقتنعًا تمامًا بتفوق الديانة المسيحية؛ هو مؤلف كتاب "حق اللجوء إلى الحرب في زمن السلم"[٧٠٥] وكان يدافع عن مبدأ "الحرب العادلة" ويبررها بأمور ثلاثة: الدفاع عن النفس أو درء مفسدة أو عقاب؛ فهل تدخل ضمن هذه الأسباب عمليات التبشير في الشرق الأوسط؟. تحتاج "الحرب العادلة" أيضًا الدعاية السياسية لها.

---

(705) Grotius, "De jure belli ac pacis"

هل كانت المناداة بإحياء الثقافة العبرية والنصوص التوراتية تتطلب المطالبة بإحياء موروث أبي الفرج ذلك المسيحي ذو الأصول اليهودية حتى ولو تطلب الأمر التزييف المتعمد للتاريخ؟ أم أن الأمر أبعد من ذلك حيث يشمل المشهد الدولي وعملية توازن القوى؟ هل ما زالت ماثلة للأذهان تلك الخلفية المتعلقة بصدام الثقافات في حوض البحر الأبيض المتوسط؟ هل كانت رؤية أبي الفرج مهمة بكل ما تحمله من معانٍ بالنسبة للذاكرة التاريخية؟ هل كان من المصلحة تزييف التاريخ من جديد باعتباره وسيلة للدعاية السياسية في لحظة من لحظات أفول شمس الإمبراطورية العثمانية؟.

بدا بوكوك وكأنه منقاد بواسطة قدرية كرّس لها كل حياته، فهو مهيأ ومولع بتنفيذ مهمة، نقلها أيضًا إلى ابنه إدوارد. وعلى أية حال فإن الثقافة الغربية تمثلت على الفور تلك الإجابة التي قدمها بوكوك وأبو الفرج سواء كانت دينية أو علمانية، وهي أن العرب أحرقوا المكتبة الكبرى في الإسكندرية التي هي معبد الحكمة! لكنهم هم العدّو، وهم العار. وفي أوروبا زال على الفور الإحساس بالذنب من جرّاء تلك الصفحة السوداء التي سطرها التاريخ.

راهب غامض:

لأول وهلة، يبدو أن حالة بوكوك، ليست إلا حالة رجل شديد الولع بما يعمل لدرجة أنه يستغرق عليه حياته، فكيف حدث؟ وهل الانطباع الأول صحيح؟ عندما نتأمل سيرته نجد أن بها الكثير من الغموض ومن القرارات المثيرة، وكلها لا تتفق مع طابعه. هناك إذن سرّ وراء هذا المسلك الذي يصدر عن مجموعة تكاد تضع أرجلها على بداية الطريق وكل واحد منها له دوره المرسوم في اللعبة وعندما نحاول الكشف عن ذلك سوف تتضح أمامنا تلك النقاط الغامضة في سيرة بوكوك.

رأينا كيف أن أبا ذقن نزل بروما مع نهاية القرن السادس عشر قادمًا من الإسكندرية، وهو رجل الدين القبطي الطويل اللحية وذو الابتسامة العذبة

والنظرة المرحة، والرجل الذي كان له تأثير على أوروبا. ففي عام ١٦١٠م ركب السفينة، وسط ضباب البحر، متجهًا إلى إنجلترا، وهناك حدث اللقاء بين ذلك الراهب وبين بوكوك. يرى هذا الأخير أن كل شيء يجب أن يبدأ في أكسفورد مكانه منذ نعومة أظفاره، ولا شك أن مخيلته قد اختزنت - وهو صغير السن - صورة شخص غريب مثل ذلك الأستاذ القبطي الذي تحول عن ملته وأتى من مصر وهو أبو ذقن الرجل الذي ظل في إنجلترا من ١٦١٠م حتى عام ١٦١٢م[٧٠٦] متنقلاً بين لندن وأكسفورد.

كان هذا الرجل معروفًا للجميع بما في ذلك الأطفال الصغار في هذه المدينة الجامعية الصغيرة، وكان ذلك في زمن يشهد مواجهة مستمرة بين الكاثوليك والبروتستانت، كما أن وجود أبي ذقن، القبطي السابق ذي اللحية الطويلة وغطاء الرأس الأسود الذي كان يقوم بتعليم العربية الفُصحى التي لا يعرفها جيدًا في أكسفورد حيث لم يكن يتقن إلا العامية السائدة في القاهرة مسقط رأسه، تقول كان وجوده مثار حديث الجميع. وانخرط الرجل في الحياة العامة ووصل به الأمر لأن يكتب عام ١٦١٢م قصائد أربعة بالعربية والكلدانية والسريانية والتركية[٧٠٧] ينعي وفاة أمير إنجليزي.

كان واحدًا من المسيحيين المشارقة، من أصحاب المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، والذين انفصلوا عن الكاثوليكية منذ قرون. لماذا كان ذلك الشخص الغريب يقوم بأسفاره هذه في أوروبا؟ من الذي أرسل به؟ من المؤكد أن الطفل بوكوك، ذلك الطالب المجد، تمكن من التعرف علي أبي ذقن إما بشكل مباشر، أو من خلال والده، رجل الدين، في منصب Vicario، منذ ١٦٠٤م. أصبح هذا المصري مثار اهتمام الجميع في عالم يشهد اهتمامًا غير عادي بمصر والإسكندرية، ورغم أن هذا الرجل لم يخلّف وراءه ثلة من المستعربين فإنه استطاع

(706) Hamilton, "Abudacnus", pgs. 128-30.

(707) Tyacke, "Seventeenth-century Oxford", pg. 477.

أن يترك أثرًا في مخيلة الأمير بوكوك. وبالفعل نجد أن الطفل بوكوك يسير على درب أبي ذقن حيث كان يجده في كل ركن في حياته.

كان هذا المدرس المصري الذي يجيد لغات كثيرة، حيث تعلم الإيطالية والفرنسية والإنجليزية سريعًا مثلما نعهده في المصريين الجيدين، يجلس مع زملاء له من رجال الدين في أكسفورد في الأمسيات الممطرة. فما الذي كان يقصه عليهم؟ إنه كان يحدثهم عن الشمس الذهبية في القاهرة ولياليها العطرة والمياه الخالدة للنيل والصحراء ذات القبة السماوية المرصعة بالنجوم ودير سان أنطونيو الذي بدا وكأنه مقدمة مركب توشك أن تمخر عباب الصحراء كما تطل من وراء جدرانه غابة من أشجار السنط والنخيل مثل تلك التي نراها في الأديرة القديمة في مصر العليا والتي أقيمت فوق أطلال معابد قديمة ترجع إلى العصر المسيحي لمملكة Makuria في النوبة البعيدة التي تملأ أراضيها أهرامات سوداء وسط الرمال ابتداءً من إثيوبيا ذلك البلد الغامض والمليء بالأسرار.

ولا بد من أنه أيضًا حدثهم عن العالم الذي كان يعيش فيه وعن الحقب التاريخية الطويلة التي مرّ بها القبط، وعن أن عقائدهم تضرب بجذورها في التاريخ ومعها طقوسهم وقديسهم وأشجانهم وكنائسهم. حدثهم أيضًا خلال فترة إقامته عن الإسكندرية كثيرًا وعن المكتبة الكبرى وزوالها، وما أوردته الروايات القبطية، غير القائمة على دليل، من أن العرب هم الذين أحرقوا المكتبة. كما حدثهم عن راهب قبطي كان يعيش في سوريا، خلال القرن الثالث عشر، أشار إلى أن العرب هم الذين أحرقوا المكتبة. فما الذي بقي في ذهن ذلك الطفل الذي ربما رأى أبا ذقن لآخر مرة وهو في التاسعة من العمر؟ هل بقيت صورة المخطوطات القديمة والشرق والراهب المسيحي والرواية المختلقة؟

لكن ما تركه ذلك المصري من أثر على ذلك الطفل الإنجليزي في أكسفورد لم يقتصر عليه وحده بل امتد إلى مثقفين أوروبيين عرفهم أو درسوا على يديه. ترك أيضًا أثرًا عميقًا في هولندا وبالتحديد في جامعة ليدن ذلك أن أحد أبرز

علمائها، ت. إيرينيوس، كان أحد تلاميذه البارزين، ثم تحول مع مرور الزمن إلى أبرز مستعرب أوروبي، يليه، في الترتيب، خ. جوليوس. قبل ذلك كان إيرينيوس تلميذًا لـ دبليو. بدويل، مؤسس الاستعراب الإنجليزي عام ١٦٠٦م، إضافةً إلى إلقاء الدروس بالتعاون مع الأستاذ سكاليجر، من جامعة ليدن. وبعد وفاة هذا الأخير، عام ١٦٠٩م، كتب إيرينيوس إلى أبي ذقن، عندما كان كلاهما في باريس، يطلب منه أن يعلمه العربية.

في بداية الأمر شعر إيرينيوس بصدمة إزاء هذا الكاهن الغامض، ولغته البسيطة، وكتب في هذا الشأن لبدويل، لكن انتهى بهما الأمر إلى عقد صداقة حميمة، وكثيرًا ما عبر إيرينيوس عن غبطته وامتنانه لهذا الرجل الذي علمه الكثير؛ أضف إلى ذلك أن هذه الصداقة توحي بأنهما تحدثا كثيرًا عن مصر والإسكندرية وعن مخطوطات قديمة وغير معروفة، وكان إيرينيوس هو الذي زود أبا ذقن بخطاب توصية إلى أستاذه بدويل، ثم رحل ومعه هذه الرسالة إلى إنجلترا عام ١٦١٠م وأقام هناك ثلاث سنوات، وترجع أهمية ذلك إلى أنه تصادف وجوده مع وجود بوكوك. من جانب آخر نجد أن إيرينيوس أصبح مستعربًا له شهرته كما كان من عاشقي اصطياد المخطوطات العربية وبدلاً من البحث عنها في الشرق الأوسط أخذ يبحث عنها في أوروبا.

ما يثير الانتباه في هذه العلاقة مع أبي ذقن هو أنه بعد انفصاله عنه وجد - أي إيرينيوس - مخطوطة لراهب قبطي في مكتبة Palatinado في هايدنبرج، عام ١٦١٣م، ورغم أن كاتب المخطوطة مصري فإنه قضى ردحًا طويلاً من الزمن في سوريا، وكان ذلك خلال القرن الثالث عشر، ها هو كل شيء تتضح ملامحه، إنه "جرجس المكين Elmacin"، القاهري الذي كتب خلال الفترة من ١٢٦٢م حتى ١٢٦٨م حوليته التاريخية الكبرى في سوريا وعنوانها "المجنون المبارك"[708].

(708) Al-Makin, "al-Magnun'al-mubamk".

استولى إيرينيوس على المخطوطة[٧٠٩] وسافر إلى ليدن ثم سارع في ترجمة النص ونشره باللغتين (العربية واللاتينية)، وهو النص الذي ألفه ذلك الراهب القبطي ونصف السوري حيث قضى زمنًا في سوريا خلال القرن الثالث عشر، لكنه بدأ بالجزء الثاني، أي بالجزء الذي يتناول عصر الرسول وغزو مصر، فربما كان هذا أهم بالنسبة له. وبالفعل نجد أن هذا العمل هو أهم عمل لإيرينيوس، نشر بعد وفاته، وبالتالي لم تكتمل ترجمة الكتاب ونشر ما ترجم منه عام ١٦٢٥م. ومع هذا كان جيبون يؤكد أن إيرينيوس قام بترجمة مخطوطة بشكل متسرع مما أدى إلى وجود أخطاء، كما أن الترجمة يعتورها سلامة الأسلوب واستقامة المعنى.

اتسم مؤلف المكين بأهمية كبيرة في ميدان تاريخ العرب، فرغم أنه مسيحي كان يكتب لقُرّاء عرب واستند في كتاباته على المصادر العربية فقط دون إهمال الحوليات السابقة. ونتساءل في هذا المقام لماذا اختار إيرينيوس هذه المخطوطة ليدخلها في كتابه الكبير ولم يعتمد على مؤرخين آخرين سابقين من المشهود لهم بالألمعية؟ هل مردّ ذلك وجود راهب قبطي، في سوريا القرن الثالث عشر، وهو مؤرخ يكتب بالعربية، وكل ذلك يتوافق مع ما قصّه الراهب الغامض أبو ذقن بشأن مخطوطة يجب العثور عليها ولها هذه المواصفات؟.

لم تتضمن تلك المخطوطة - على أية حال - ق ١٣، التي كتبها راهب قبطي في سوريا أية إشارة إلى المقولة الزائفة بشأن العرب والإسكندرية. ومن هنا ليس من المستغرب أن يكون أفضل تلاميذ إيرينيوس، وهو خ. جوليوس، الأول في القيام بالبحث عن مخطوطات عربية أخرى في الشرق الأوسط، وبالتحديد في كل من حلب واسطنبول. فهل كان يبحث عن مخطوطات عربية لها تلك المواصفات؟.

وعندما وصل أبو ذقن[٧١٠] إلى إنجلترا عام ١٦١٠م تعرف بشخصيات مهمة وبارزة في سلك التعليم، ولا شك أن أول هؤلاء كان بدويل المستشرق الإنجليزي

---

(709) Toomer, "Eastern Wisedome", pgs. 44-45.

(710) Toomer, " Eastern Wiseáome", pg. 56, 96.

العظيم الذي كان مقامه في لندن والذي ربطته صداقة قوية بأبي ذقن لدرجة أن هذا الأخير كان يقضي وقتًا أطول في لندن، بصحبة بدويل، مما يقضيه في أكسفورد. ولا بد من أنهما تحدثا عن كل شيء، وهنا نجد أن بدويل قام بتقديم صورة مخيفة عن الإسلام وفي الوقت نفسه إثارة الاهتمام بالمسيحيين الشرقيين، إضافةً إلى الاهتمام بتعلم العربية باعتبارها وسيلة لمعرفة "التوراة".

حسن، نلاحظ أن ذلك الفتى الصغير بوكوك استقر به المقام في منزل بدويل، عندما ظهرت ألمعيته ووضح اهتمامه الشديد بتعلم العربية، وكانت أول الدروس في هذا من لدن بدويل. فهل كانا يتحدثان عن أبي ذقن وحكاياته؟ هذا أكيد. كما تحدثا أيضًا مع سيلدن، الذي تعرف عليه في منزل بدويل وتحول إلى راعيه الكبير طوال حياته. وربما كان سيلدن قد عرف أبا ذقن باعتباره مدرسًا، إذ كان هو الآخر مستشرق، وربما عرفه كذلك الأسقف لود الذي كان يكن حبًا للاستعراب، وهذان الأخيران قد ساعدا بوكوك مساعدة مستمرة. نجد إذن أن الفتى بوكوك يقتفي أثر أبي ذقن.

غير أن "اليهود المسيحيين" الهولنديين الذين التقوا في جامعة ليدن هم الذين تلقوا التأثير الأكبر الذي تركه أبو ذقن، الأمر الذي جعل من أحلام بوكوك أمرًا قابلاً للتحقق، وكان ذلك عام ١٦٣٠م، عندما التقى بفوسيوس في أكسفورد، بناءً على دعوة من لود والصديق جروتيوس، كما ارتبط بجامعة ليدن من خلال ثلة المستعربين من ذوي القامات المهمة مثل أبو ذقن وإيربينوس وجوليوس.

كان ذلك اللقاء حاسمًا، فبعد محادثات مطولة بين فوسيوس وبوكوك، قام هذا الأخير الذي لم يكن يجب الأسفار والمغامرات، بالبدء في مرحلة من حياته تتسم بكثرة الأسفار وقرر على الفور الانتقال إلى حلب، عام ١٦٣٠م، بمساعدة صديقه سيلدن، فهل كان يبحث عن بعض المخطوطات من تلك التي لم يعثر عليها إيربنيوس أو جوليوس؟ وهل كان الإصلاحيون الهولنديون الذين كانت لديهم ذكرى طيبة عن أبي ذقن، هم الذين أرسلوا بالفتى المتحمس بوكوك لخوض تلك المغامرة أي تحوله إلى أداة للتآمر الأكاديمي؟

قام بوكوك، على أية حال، بتحقيق أهدافه، وعثر في حلب على المخطوطات المطلوبة، وهي مخطوطات أبي الفرج الراهب القبطي السوري - ق ١٣ - والمؤرخ الذي يكتب بالعربية. ها هي الأمور تتضح ملامحها وأبعادها هذه المرة، فهو قد أبرز في كتاباته تلك الرواية الزائفة المشينة المتعلقة بالعرب والمكتبة الكبرى في الإسكندرية، وكان سعيدًا بما حصل عليه لدرجة أنه أبلغ فوسيوس على الفور بما عثر عليه، وكان ذلك من خلال الرسالة التي بعث بها إليه عام ١٦٣٦م حيث يبلغه بنيته نشر ذلك على الفور.

لماذا أبلغ بوكوك فوسيوس بنصوص أبي الفرج هذه تحديدًا، والتي يبدو أنه كان هناك اهتمام كبير بها وليس بمخطوطات أخرى تصل إلى المئات أتى بها عند عودته؟ هل كان مردّ ذلك أن فوسيوس طلب منه البحث عن تلك المخطوطة بالتحديد؟ ولماذا استخدم بوكوك لغة فيها تورية عندما تحدث عن هذه النصوص، ولم يذكر أبا الفرج باسمه صراحةً وكأن ذلك سر من الأسرار؟.

أقام بوكوك، ومعه كنزه، في إنجلترا عام ١٦٣٦م. وهنا قرر الأسقف الأنجليكاني لود، الذي كان يتعاطف معه والذي كان على علم بمجريات الأمور، أن يؤمن لبوكوك حياته فعَيّنَهُ مديرًا لأستاذية الكرسي في اللغة العربية في أكسفورد وهي وحدة أنشئت حديثًا. نجد بوكوك وقد حصل على منصب رفيع وضمن حياة هادئة ليقوم بترجمة مخطوطة أبي الفرج بأقصى سرعة. غير أن لود لم يترك لبوكوك فرصة لتحقيق حلمه ومشروعاته، ففي عام ١٦٣٧م أرسله لود مباشرة إلى إسطنبول، وترك منصبه فجأة، وكانت الغاية الحصول على المزيد من المخطوطات العربية. فهل كان يبحث عن مخطوطات ابن القفطي التي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بمؤلفات أبي الفرج، لأن بوكوك لم يكن قد حصل عليها في حلب؟ هل كانا يعرفان بوجودها؟ وعلى أية حال فقد ذهب بوكوك إلى إسطنبول يرافقه مساعده خ. جريفس، صديق جوليوس، بمساعدة سيلدن؛ ومرة أخرى نجدهم جميعًا من ثُلة أبي ذقن.

حقق بوكوك أحلامه في إسطنبول خلال الفترة من ١٦٣٧م حتى ١٦٤٠م، حيث عثر في نهاية المطاف على أبي ذقن شخصيًا، وهو الشخص الذي كانت صورته في مخيلته وقت أن كان طفلاً. كان أبو ذقن يعيش في إسطنبول ابتداءً من عام ١٦٣٣م، بصفته موظفًا في السفارة النمساوية، بينما بوكوك كان يقيم في السفارة الإنجليزية، وتعرفا على بعضهما في أول لقاء رسمي، ولا شك في هذا السياق بنشوء علاقة صداقة حميمة، فها هي أمامه تلك الشخصية التي سكنت مخيلته وقت أن كان طفلاً، فشعر بوكوك بالحماس، وتحدث عن مصر والإسكندرية والمخطوطات وعن أبي الفرج وعبد اللطيف البغدادي، وهم مؤلفون كان هو قد حصل على مخطوطاتهم في حلب. تحدثا أيضًا عن الأصدقاء المشتركين مثل بدويل وجوليوس وإيربنيوس ولوج وسيلدن وعن ثُلة أبي ذقن في أوروبا الإصلاح البروتستانتي وعن المشروعات التي على وشك أن تبدأ والتي لا يعرفها إلا القليلون.

توطدت الصداقة بينهما لدرجة احتمال حصول بوكوك على الكتاب[٧١١] الذي ألفه أبو ذقن "تاريخ القبط"[٧١٢]، وهو عمل موثق يتعلق بالطقوس القبطية وبالتالي تجعل منه فريدًا من نوعه في ذلك الزمان، كما أنه يثير الشبهات حول أن ذلك الراهب الغامض، أبا ذقن، كان في حقيقة الأمر عضوًا في الأكليروس القبطي قبل البدء في مغامرته في أوروبا عام ١٥٩٥م. كان العمل موجهًا إلى الغربيين وبالتالي لم يتعرض بالذكر لمجمع كالثدونيا أو ميلاد المذهب القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح.

وربما استطاع الحصول على هذا الكتاب جوليوس أو جريفس اللذان تزامن وجودهما في إسطنبول مع أبي ذقن، غير أن بوكوك كان في داخله مولعًا بشخص هذا الراهب المصري. الأمر إذن هو أن الكتاب ظهر فجأة في أكسفورد ثم نُشِر

(711) Hamilton, "Abudacnus", pgs. 134-136.

(712) Abudacnus, "Historia Jacobitamm seu Coftorum"

عام ١٦٧٥م على يد ت. مارشال، وحقق نجاحًا كبيرًا لدرجة أنه أعيد طبعه خلال القرن الثامن عشر، وهذا نجاح جاء بعد وفاة صاحبه ذلك أنه بعد عام ١٦٤٣م لم يعد هناك أي أثر لهذا الراهب المصري، أبي ذقن، في إسطنبول، واختفى بطريقة غامضة تماثل الطريقة التي أتى بها من المشرق.

اكتمال المؤامرة:

عندما نعود إلى بوكوك في إسطنبول، عام ١٦٤٠م، وبعد لقاءاته بأبي ذقن، نجده وقد توقف بعض الوقت في باريس ليلتقي مع جروتيوس، الإصلاحي الهولندي وصديق فوسيوس. وفي عام ١٦٤١م عاد ليقيم مرة أخرى في إنجلترا، وزار لود الذي كان قد أُودِعَ السجن، واستعاد أستاذية الكرسي للغة العربية ثم تزوج. بدا أن كل شيء وكأنه أمر مُسَلّم به ونهائي، لكن مشروعاته تعرضت للتأجيل للأسباب السياسية الخطرة التي عاشوها خلال ذلك الزمان. وتمكن بمساعدة أصدقاء له مثل سيلدن وأودين من تجاوز تلك الأزمات بعد أن حصل على أستاذية كرسي اللغة العبرية في أكسفورد بفضل سيلدن، وأخذ يعيش مرحلة من أزهى مراحل حياته بصفته مستشرقًا ومستعربًا.

أول شيء فعله، بعد أن تمكن من جمع ما يقرب من مائتين وأربعين مخطوطة عربية، هو القيام بترجمة ونشر "المختصر"(٧١٣) لأبي الفرج عام ١٦٤٩م، أي تلك المستلة التي نشرها وأدرج المقولة الزائفة عن العرب، ووضع لها عنوانًا هو "التاريخ العربي عند بار إبريوس"(٧١٤) وأهداه إلى سيلدن بعد طبعه طبعة فاخرة ثنائية اللغة. أما المخطوطة الثانية المكتوبة بالعربية، ق ١٢، والتي نشرت بعد ذلك خلال القرن السابع عشر فهي تتعلق بما قال به أبو ذقن، فلماذا إذن هذا الانتقاء المشبوه؟ ولماذا كل هذه العجلة؟ ربما كان من المنطقي القيام أولاً بنشر العمل

(713)Abulfaragius, "Espécimen de ia historia de Ios árabes". "Specimen Historiãe Arabum".
(714) Pococke, "Historiaa Arabum a Bar-Hebmeo".

الرئيسي لأبي الفرج وهو "حولية"[٧١٥] هذا إذا ما كان شديد الاهتمام بذلك المؤلف، الذي يبدو أن ليست له أهمية كبيرة كما أن محتوى كتابه مثير للشك.

لوحظ وجود سرعة غير مألوفة في نشر هذا النص الذي يتضمن الرواية المختلفة، ولم تكن هناك أية ملاحظة نقدية رغم أن إيرينيوس قد انتهى للتو من نشر "حولية" المكين، التي لم يكن يذكرها، ولمزيد من الأفعال قام بوكوك بمحاولة نشر كتاب عبد اللطيف البغدادي، الذي يسجل هذه المقولة المختلقة. كان مقصده واضحًا رغم أن الظروف غير المواتية حالت دون إتمام نشر كتاب عبد اللطيف البغدادي ولكن قام بها ابنه ـ ابن بوكوك ـ الذي ورثه في المهنة.

كان نشر كتاب "التاريخ العربي لبار إيبريوس" عام ١٦٤٩م نجاحًا غير مسبوق، وكان المصدر الذي تغذى عليه المستعربون الأوروبيون خلال نصف قرن من الزمان بعد صدوره. تم إتمام المهمة! وجرى تنفيذ المشروع، وأخذت المقولة المختلقة عن العرب ومكتبة الإسكندرية الكبرى تنتشر في كل مكان وتبحر في كل اتجاه، وتحولت المؤامرة الأكاديمية من جديد إلى سلاح فتاك للدعاية السياسية. وابتداءً من ذلك الحين، أي بعد أن تم تحقيق أحلام صباه، أمكن له أن يكرّس كل همه وشغفه باللغة العبرية والنصوص التوراتية. لكن مرة أخرى تأتي الرياح بما لا يشتهي السفن، وهي هذه المرة منه هو.

كان الأسوأ هو المتوقع، ففي عام ١٦٥٢م قام راعيه سيلدن الرجل الثري، لكنه مستعربًا من الدرجة الثالثة، بالعمل على ترجمة كتاب "طوق اللؤلؤ الثمين" لذلك البطريارك المسيحي الملكاني في القسطنطينية والقاهري الذي عاش خلال القرن العاشر ويدعى إيوتيكيوس، في محاولة للوصول إلى أهدافه السياسية والدينية. استطاع نشر فقرات مختصرة وطلب من بوكوك الاستمرار على هذا المنوال. وهنا أبدى هذا الأخير ممانعته، لكن لم يستطع الرفض بشكل حاسم، وعلى ذلك كان هو الذي نشر الترجمة الكاملة للنص الخاص بأيوتيكيوس كاملاً حيث كان يسرد

(715) Abulfaragius, "Crónica, Crónica. Siríaca, Crónica Eclesiástica".

فيه أمر الاستيلاء على الإسكندرية على يد العرب، وذكر أيضًا الرسالة الحقيقية التي وجهها عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب دون أية إشارة للمقولة المختلفة المتعلقة بالعرب والمقولة. وبعد نشر هذا الكتاب قام أحد أعداء سيلدن، وهو الماروني إشلينس، بترجمة "الحولية الشرقية"(٧١٦) أي حولية بتري رحيبي، ق ١٣، لكنها لم تكن تتضمن هي الأخرى أي شيء عن المقولة المختلقة.

تدهورت الأوضاع بالنسبة لبوكوك، وكان يمكن للشكوك أن تقضى على المشروع، وسرعان ما تحرك، ففي عام ١٦٦٣م ترجم ونشر حولية، "الحولية السريانية والحولية الكنسية" لأبي الفرج وكان ذلك تحت مسمى آخر هو "خلاصة تاريخ الأسر لجريجوريو أبي الفرج"(٧١٧). إنه مجهود جبار لدرجة أن هذا العمل أصبح أهم أعماله، وأضاف إليه "التاريخ العربي" من تأليفه هو. وبعد مرور سبعة وعشرين عامًا على ما تضمنته رسالته إلى فوسيوس، عام ١٦٣٦م، وبعد أربعة عشر عامًا على نشر "المختصر"(٧١٨) أكمل بوكوك مشروعه بشكل كامل، وهو نشر مخطوطة أبي الفرج التي كان يحلم بها منذ أن كان طفلاً.

في هذا السياق نجد جيبون(٧١٩) يؤكد، خلال القرن الثامن عشر، أنه "منذ أن تم نشر كتاب "الأسرات" لأبي الفرج على يد بوكوك، أي "مختصر تاريخ الأسرات" ١٦٦٣م بترجمته إلى اللاتينية، فإن هذه القصة تكررت إلى ما لا نهاية وأخذ الكثير من الدارسين ينعون انحطاط المعرفة والفنون والعبقرية في العالم القديم".

الشيء الغريب هو أن كلاً من جيبون وبتلر(٧٢٠) قد استندا على هذه الطبعة اللاتينية التي أصدرها بوكوك عام ١٦٦٣م في أكسفورد - رغم الخلط الظاهري

(716) Echellensis, "Chronicon orientale".

(717) Pococke, "Historia Compendiosa Dy n astiarum a. Gregorio Abulpharagio".

(718) Abulfaragius," Espécimen de Ia historia de Ias árabes"; Pocockc, "Historia rabe de Bar-Hebraeus"

(719) Gibbon, "Decadência Imp. Rom.".

(720) Butler, "The Arábio Conquest...", pg. XXIX.

بينها وبين المختصر الذي نشر عام ١٦٤٩م - يؤكدان أن هذا النص - ١٦٦٣م - يتضمن لأول مرة هذه القصة المختلقة والفرية على العرب. وهذا أمر غريب ذلك أن الطبعة التي صدرت عام ١٦٦٣م للحولية الكبرى لأبي الفرج، والمترجمة عن الأصل السرياني، ليس من المفترض أن تشير إلى المقولة الكاذبة والسبب أن أبا الفرج لا يذكرها في كتابه.

إذا ما ظهرت تلك المقولة أيضًا في الطبعة اللاتينية التي صدرت عام ١٦٦٣م لبوكوك، طبقًا لما يشير إليه كل من جيبون وبتلر، فإن ذلك يعني أن بوكوك قد ضم هذه القصة المختلقة، من عندياته، إلى النص الأصلي للحولية، أي أنه أخرجها من المستلة اللاحقة على أبي الفرج، أي "المختصر"، وبذلك قدم لنا بوكوك خدعة أدبية. هذا أمر يصعب تصديقه بشأن كاتب شهير، لكنه ممكن، نظرًا لاهتمامه الشديد بهذا الموضوع. وعلى أية حال فإن الرواية المختلقة أخذت تبحر في مياه الخداع. وأصبح لكل شيء معنى ومغزى في حياة بوكوك.

إسدال الستار

رفض المقولة المختلقة

التنافر في هذا التزييف التاريخي:

وصل التنافر في هذا التزييف التاريخي لدرجة أن العلماء كانوا يرددون هذه المقولة المختلقة دون كلل أو ملل منذ بداية القرن التاسع عشر، ويمكن أن نقرأها، على سبيل المثال، عند الفيلسوف الألماني هيجل(٧٢١) حيث قال ما يلي مع نقده للعرب: "كان الدين والإرهاب محركين (لانتشار الإسلام)، فنحن نرى في البداية هؤلاء الغُزاة (العرب) وهم يحطمون كل ما يتصل بالفنون والعلوم، ويقال إن (عمر ابن الخطاب) كان وراء تدمير مكتبة الإسكندرية". نرى إذن أن صورة الإسكندرية ظلت ماثلة في أذهان الصفوة ولكن دون أن تنتزع منها هذه الفرية التي ألصقت بها في الغرب؛ وعندئذٍ إما أن نرى صورة للإسكندرية الباهية في عصر كليوباترا، أو نرى الإسكندرية التعيسة التي تحرق كتب المكتبة الكبرى.

وفي هذا الإطار أيضًا نرى رأي ت. ر. جوليف(٧٢٢). عام ١٨١٩م حيث يقول بأن "أول مكتبة كانت في الحي المسمى بحي الصفوة... وفي العصر الذي تعرضت فيه لغزو يوليوس قيصر أحرقت المكتبة التي كانت في ذلك الحي ومعها

(721) Hegel, "Philosophy ofHistory", -"Filosofia de Ia Historia Universaí ", II, pg. 376, E. Garis, Ed., 1837.

(722) Joliffe, "Lettres sur Ia Palestine, Ia Syrie et l'Egypte", -"Canas sobre Palestina, Síria y "Egipto", Seg. Ed., Picarc-Dubois, Paris, 1820; Prim. Ed., London, 1819.

مجموعة الكتب الرائعة وتحول كل شيء إلى رماد؛ ومع هذا أفلتت مكتبة السرابيوم من هذه الكارثة... وأصبحت من أكثر المكتبات ثراءً مقارنة بمحتويات المكتبة القديمة، واستمرت على هذا الحال، خلال العصر الروماني.

ومع نهاية القرن السابع أحرق المشارقة هذه المكتبة عمدًا عندما استولوا على المدينة... وبهذا اختفى الكنز الذي كانت تضمه وهو كنز المعرفة على مدى قرون كثيرة. وهنا انطفأت شعلة العلم وجرى تدمير حامل الشعلة... هل من يصفقون اليوم للتقدم العلمي كانوا على استعداد لأن يخضعوا لديانة قامت بإحراق مكتبة الإسكندرية؟". هذا الوضع لا يستحق المزيد من التكرار والتعليق لا لزيف القول فقط بشكل قميء ولكن لأن الاتهام والسؤال الأخير سوف يُرَدّ إلى نحورهم مرة أخرى.

وصل هذا الأمر البشع إلى أقصى مدى له خلال القرن العشرين، وكان ذلك على يد ب. سيجون[٧٢٣] عام ١٩٨٦م، حيث أظهر جملة المركب بالتاريخ، وليس هذا فقط بل أشار إلى لفظة جديدة جرى اختراعها لمزيد من التلفيق، فها هي عباراته المستفزة: "هذه الممارسة الشنعاء بإضرام النار في المعرفة المكتوبة، بأية حجة، أصبحت تعرف في التاريخ بالعُمَرية، فمتى نشأت العُمَرية؟ ربما كان ذلك مع حريق مكتبة الإسكندرية... فالعُمَرية حققت أهدافها بفضل مجموعة من المشارقة المتعصبين. وفيما يتعلق بتعصب عمر نتساءل: إلى متى سيظل يطارد الأعمال الكبرى المكتوبة والمكتبات على مختلف العصور والأزمنة".

ومن جديد نرى تكرار هذا السؤال المضلل. من المناسب أن نعرف فيما إذا كان سيجون وكل من رددوا هذه اللفظة المثيرة للسخرية في أمريكا اللاتينية قادرين على استبدالها بأخرى وهي "التيوفيلية" (نسبة إلى تيوفيل) دون مشاكل

---

(723) Segón, Prendan fitegaf, 1986, en el "Tribuno de Salta"-, citado por Shamfiuddin, en "Mito del incendio. Aiej.", 2002.

ويوجهونها للمذنبين الحقيقيين بكل ما أوتوا من حماس حتى تعود أحداث التاريخ القديم إلى مجرياتها الأصلية.

في عام ١٩٩٠م، نشر ل. كانفورا كتابًا شهيرًا عن المكتبة[٧٢٤] وقد لعب بالنار في هذا الكتاب ولم يُحسم أمره بالإشارة إلى مذنبين في صفوف المسيحيين والرومان، كما لم يشر إلى أن المكتبة قد احترقت على أيام يوليوس قيصر رغم أنه - أي قيصر - اختطف الكتب وذهب بها إلى روما، ولم يقل بأن المسيحيين هم الذين دمروا المخطوطات، بل فرّقوها تنفيذًا لتوصية أوروسيو. ويلاحظ أن جُلّ جهده البحثي مسلط على ما كتبه أبو الفرج وعلى ما قيل عن مراسلات بين عمرو بن العاص وعمر بن الخطاب وعلى الحمامات السكندرية مشيرًا إلى أن العرب هم الذين أحرقوا المكتبة.

يتوج هذه السلسلة من الخداع وتزييف الحقائق كتاب ظهر في مكان غريب[٧٢٥] هو "مؤسسة يانيك وبن جاكوبر" شمال جزيرة ميورقة الإسبانية، ففي هذا المبنى ذي القبة الرئيسية الذي هو فيلا عربية صممها المعماري المصري الشهير حسن فتحي قام أصحابها بوضع وتعليق كلمات خارج السياق تمامًا وجاءت هذه الكلمات في لوحة اتهام، وهي التي يُفترض أنها التي صدرت عن عمر بن الخطاب في رسالة وجهها إلى عمرو بن العاص يأمره فيها بإحراق كتب الإسكندرية[٧٢٦] إنها الفرية الكبرى موضوعة وكأنها نيشان فني!.

رفض المقولة المختلقة:

من المثير للدهشة أن تدلف هذه المقولة الزائفة إلى اللاوعي الجمعي في الغرب، على أساس التكرار آلاف المرات، ولم يجرؤ إلا القليل على تحدي التيار

---

(724) Cantora, "The Vanished Libmry. A Wonder ofthe Ancient World", -"La. Biblioteca Desaparecida. Una maravilla de la Antigüedad"-, California Press, U. Berkeley, 1990.

(725) J. M. Sarriegui, "De Viaje", en "El País", 2008.

(726) Omar, Pseudo, "Carta apócrifa a'Amru".

العام ورفض هذا الزيف العبثي والقميء؛ فبعد ترجمة المخطوطات العربية التي قام بها بوكوك خلال القرن السابع عشر أخذت تظهر على الفور أصوات معارضة لذلك في أوروبا ابتداءً من القرن الثامن عشر.

ومن بين هذه الأصوات كان صوت أبرز المستشرقين الفرنسيين على زمانه وهو الأب إ. رينادوت الذي أشار في كتابه "تاريخ البطاركة اليعاقبة في الإسكندرية"[(٧٢٧)]، ١٧١٣م، إلى شكه في صحة المقولة المذكورة وقال "هناك شكوك كثيرة حول الموضوع"، ثم هاجم كبار المستشرقين خلال القرن السابع عشر وهم إيرينيوس وجوليوس وبوكوك على ما هم عليه من جهل إزاء تاريخ كنيسة الإسكندرية. اعتمد الرجل في كتابه بشكل أساسي على رواية الأسقف سيفيرو، ابن المقفع[(٧٢٨)] عالم اللاهوت والمؤرخ القبطي الذي عاش في نهاية القرن العاشر؛ كما اطلع المؤرخ على كافة المصادر العربية الممكنة ومن بينها مؤلفات المكين وإيوتيكيوس والمقريزي، ونفى وفند بذلك ما ورد في الطبعات الفاخرة لأبي الفرج والتي تولى أمرها بوكوك.

يؤكد إ. جيبون[(٧٢٩)] في كتابه "تاريخ" - ١٧٧٦-١٧٨٧م - قائلاً: "لن أوجز القول في الكوارث التي حلت بمكتبة الإسكندرية، أي عن النيران التي أشعلها عن غير قصد يوليوس قيصر دفاعًا عن نفسه، أو عن المسلك المشين للمسيحيين الذين درسوا الكيفية التي يقضون بها على تماثيل العقائد الوثنية". ورغم أن الرجل لم يفرق بين المكتبتين - الصغرى والكبرى - نراه يقول بأن أسقف الإسكندرية تيوفيلو هو الذي تركهم يستبيحون مكتبة الإسكندرية الشهيرة عام ٣٨٩م، وأضاف "ما تعرضت له هذه المكتبة العظيمة كان النهب أو التدمير، وبعد

(727) Renaudoc, Historia Patnarcharum Alexandnnorum Jacobitarum .

(728) Severo Muqaffa, "Vida de los Patriarcas".

(729) Gibbon, "The Hisfory ofthe Decline and Fali ofthe Roman Empire", -"Historia de la decadencia y caída dei Império romano", III. 28, "Destrucción dei Paganismo"-, London, 1776-1787.

ما يقرب من عشرين عامًا كان مشهد أرففها الخاوية على عروشها يثير الأسى والسخط لدى كل من يراها من ذوي العقول التي لم تعمها المفاهيم الدينية المغلوطة (أوروسيو ـ الرابع ـ ص ١٥) كما نجد كاتبًا متعصبًا يحمر وجهه خجلاً مما حدث".

وفيما يتعلق بإلصاق هذه التهمة بالعرب نجده ينفي "الأحداث وما ترتب عليها" مستندًا إلى أن هذه الفرية متأخرة زمنيًا، كما إن هذا المسك بعيد كل البعد عن المسلمين، وهنا يقول: "يلاحظ أن ما صدر من معلومات عن إنسان غريب كتبها بعد مرور ستمائة عام في منطقة ما وراء النهرين يرجحه صمت اثنين ينسبان إلى عصر سابق عليه كثيرًا وهما إيوتيكيوس والمكين، المسيحيان المصريان حيث تحدث الأول منهما وهو البطريارك إيوتيكيوس عن غزو الإسكندرية بإسهاب... كما أن العبارات التي نسبت للخليفة فهي تخالف الطابع العربي تمامًا، حيث أمر الخليفة بالحفاظ على كافة النصوص الدينية اليهودية والمسيحية وأعلن أن كافة كتب العلوم والفلسفة يمكن أن تطبق بالنسبة للمؤمنين"(٧٣٠).

ومع هذا يؤكد جيبون أن هناك القليل من بين المؤرخين العرب ممن يؤيدون رواية أبي الفرج وعلى رأسهم عبد اللطيف البغدادي، السابق عليه، ومخطوطة المقريزي وابن خلدون وHadschi chalfa، لكن الشيء الغريب أنه لا يذكر ابن القفطي الذي لم يكن قد عرف بعد في الغرب، كما يلفت جيبون الانتباه إلى صمت المؤلفين المسيحيين مثل إيوتيكيوس والمكين وأبو الفدا والمرتضي وعدد كبير من المؤرخين العرب. هناك أمر غريب أيضًا وهو وجود كثير من الكُتّاب المحدثين الذين ينفون أي مسئولية للمسيحيين ويتهمون في الوقت ذاته جيبون بأنه هو الذي اخترع اتهام المسيحيين مستندًا إلى نص غامض كتبه أوروسيو،

---

(730) Gibbon, "History", V. 51. I, "Conquista de Egipto".

وتجاهل كل الإسهامات والأبحاث التاريخية ابتداءً من القرن الثامن عشر وحتى اليوم.

محّص البارون تيلور، الذي كان يكتب تحت اسم مستعار هو ر. ب. لاورتي - هادجي[٧٣١]، ١٨٥٦م، نقول محّص رفضه بالقول "بأننا إذا ما اعتمدنا على شهادة ثلاثة من المؤرخين العرب وهم عبد اللطيف البغدادي و"أبو الفرج Aboulfaradje" والمقريزي، (يُلاحظ هنا أنه لم يذكر ابن القفطي) فإن عمرو بن العاص أظهر رحمة واسعة بسكان الإسكندرية، ولم يكن رحيمًا بآثارها الأدبية، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب... وكان المؤرخ أبو الفرج هو الوحيد الذي أشار إلى رد عمر، وأشار إلى أنه بناءً على أوامر عمر جرى إحراق كتب الإسكندرية في الحمامات. وهنا نقول إن الرؤية النقدية تشك في وقوع مثل هذه الحادثة البربرية التي تلقى باللوم على الخليفة عمر وبذلك تم تسليط الضوء على أن المسلمين لم يقوموا بتدمير مكتبة البطالمة خلال القرن السابع الميلادي، ذلك أنها هلكت قبل ذلك بقرون جرّاء حريق نشب في أثناء الحرب مع يوليوس قيصر...

لكن الأمر لا يتعلق بالمكتبة الأولى بل بما حدث في السرابيوم... فقد قام المسيحيون تحت حكم الإمبراطور تيودوسيو بتفريق مخطوطات السرابيوم التي كانت أهم الكنوز الأدبية في العالم القديم بعد الحريق الذي تعرضت له المكتبة الكبرى. غير أنهم لم يقضوا على كل شيء في المكان - وهو في هذا يسير على ما قال به أوروسيو - حيث جرى إعادة بعض هذه الكتب وضمها إلى المخطوطات المسيحية... ولا بد من أن عمرو بن العاص وجد في الإسكندرية هذه المجموعة من الكتب، ويشهد المؤرخون العرب أنه ألقى بها في النار". ويرى هذا المؤلف أن ما يمكن أن يكون قد أمر به عمر بن الخطاب لم يكن إحراق مكتبة السرابيوم بل المكتبات الدينية للكنائس المسيحية، إضافةً إلى ما تم انقاذه من المكتبات الملكية الكبرى.

(731) Laorty-Hadji, "L'Egypte"- Egipto"-, pgs. 22-24, Bolle-Lasalle Ed., Paris, 1856.

نفى هذه الرواية المختلقة أيضًا خ. خ. أمبير عام ١٨٦٨م في كتابه "رحلة"[٧٣٢]. وفعل الشيء نفسه، وبلغة صريحة، المستشرق الفرنسي ج. لوبون[٧٣٣] عام ١٨٨٤م مؤكدًا أنه "فيما يتعلق بالحريق المزعوم لمكتبة الإسكندرية فإن هذا التصرف المرذول لا يتفق مع العادات العربية وبالتالي يتساءل المرء كيف أمكن لمثل هذه المقولة الكاذبة أن تجد لنفسها مكانًا طوال فترة طويلة من الزمن، وبخاصة لدى الكُتّاب الجادين... حيث كان من السهل للغاية تفنيد ذلك من خلال الاستشهادات الواضحة، حيث قام المسيحيون بتدمير الكتب الوثنية في الإسكندرية قبل مجيء العرب إليها بوقت طويل وكان دافعهم هو الدافع الذي حركهم لتدمير التماثيل وعلى ذلك لم يقم عمرو بن العاص بأعمال التدمير كما لم يجد كتبًا لإحراقها...".

وفي عام ١٨٩٤م يطالعنا ف. راو بحدسه بشأن حقيقة ما جرى حيث يقول بأن "هذا الحدث لم يتضمنه الأصل السرياني لأبي الفرج، وهناك احتمال كبير بأنه تدليس لاحق[٧٣٤]. والشيء الغريب هو أن بتلر حاول أن يدحض رأي راو وفي الوقت ذاته قدم لنا الإجابة دون أن يدري؛ إذ كان بتلر يرفض أن تكون هذه الرواية المختلقة تدليسًا وإضافة على النص لاحقة معللاً ذلك بأن أبا الفرج كتبها بنفسه! نعم لم يقع في مصيدة الإضافة اللاحقة على النص ولكن كانت إضافة من أبي الفرج نفسه، وأضاف بتلر قائلاً: "... ويلاحظ أن التنويه بالإضافة إنما هو مجرد افتراض، ولو كان ذلك حقًا فليست هناك وسيلة للتثبت من الأمر".

هناك رأي آخر لأحد الكُتّاب وهو عالم الآثار ج. بوتي، العالم الكبير وأول مدير للمتحف اليوناني المصري في الإسكندرية، حيث اكتشف ذلك الرجل، عام

(732) Ampere, "Voyage en Egypte et en Nublc" -"Viaje a Egipto y Nubia"-, Paris, 1868.

(733) Le Bon, "La Civilisation dês rabes", -"La Civilización de los rabes", IV, pg. 193, -Didot, Paris, 1884.

(734) V. Rau, "Nineteentb Century", "Siglo Diednueve" Oct, 1894, citado en Bucler "La conquista de Egipto", pg. 401, nota I, Oxford, 1902.

١٨٩٦م ا.الأدلة على التدمير الكامل للسرابيوم خلال القرن الرابع الميلادي(٧٣٥) وقد تحدثنا قبل ذلك عن عملية النبذ والاستبعاد لذكرى ومؤلفات بوتي، وأن هذا مسلكًا ليس له مثيل في باب التابوهات والصمت الذي خيم على مأساة الإسكندرية. فقد تمكن الرجل بجرأة من الإفصاح والكشف عن الصفحة الأخيرة لتلك المأساة، وزاد على ذلك أنه ارتكب حماقة رهيبة بأن أضاف إلى شهادته التأكيد على أنه لو لم تقع هذه المأساة ربما كنا اليوم نتعبد للإله سرابيس السكندري. لقد ذكر الحيّة! أي الوثنية التي لا تزال قائمة حتى أيامنا هذه! أي الثقافة القديمة بكل فصولها وهي تنير حياتنا بانفتاحها على الأفكار وحرية الفكر وتعايشها مع ثقافات وأديان مختلفة وما لها من منجزات بحثية ومبتكرات! وهذا أمر كثير يحول دونه تابوه الصمت.

كانت مؤلفات بوتي معروفة وتحظى بتقدير خلال العقد الأول من القرن العشرين، وكان أ. خ. بتلر أحد هؤلاء الذين يقدرون جهده ويثنون عليه بشكل متكرر. والشيء المثير هو أن بتلر صمت بالكامل عن ذكر الوصف التفصيلي الذي قدمه بوتي وبذلك أضيفت حلقة أخرى إلى التابوه المسيطر. وابتداءً من تلك اللحظة نرى تجاهل المصريين بالكامل له ولمؤلفاته وكذا الدارسين الغربيين بما في ذلك كافة علماء الآثار الفرنسيين الذين يفترض فيهم الحيادية والعلمانية. ولا شك أن مصداقية كل هؤلاء قد اعتورها الخلل. فمن أين جاءت فكرة عدم إدراج أعمال ذلك الرجل في دائرة النقاش العلمي؟ ومن الذي ألقى بما يسمى damnatia memoriae ضد الآثاري الذي تعتبر شهادته محورية لفهم الفرق بين التاريخ والخداع؟ ممن أو يخافون على ماذا، هؤلاء الذين قرروا إلغاء اسم بوتي من القائمة؟.

لقد بين بتلر، على أية حال، عام ١٩٠٢م، أن المكتبة الكبرى لم يدمرها العرب لأنها لم تكن موجودة على زمن الغزو العربي، كما أكد بفروسية وكرم أن "أبا الفرج هو رجل معروف بكتابه "تاريخ الأسرات" الذي نشره بوكوك، وهو كتاب يتضمن أول

(735) Botti, "Fouilles a Ia colonne theodosfenne, 1896", "Ecavaciones en Ia columna de Teodosio, 1896"-, pgs. 78 y ss., Alexandrie, 1897.

رواية مفصلة للحريق المزعوم لمكتبة الإسكندرية (على يد العرب)... وأن هذه الرواية مردود عليها بصمت كافة المؤلفين (السابقين)... وقد ذكر عبد اللطيف... هذا الأمر بطريقة عارضة...

لقد حاولت الكتابة والبحث دون ميل إلى القبط أو العرب... فيما يتعلق بالمعتقد الشعبي القائل بأن العرب أحرقوا مكتبة الإسكندرية ووجدتني أخرج بخلاصة تقول بأن هذه الحكاية أحدثت ضررًا شديدًا بصورة العرب... وآمل أن يهتم كل من القبط والعرب بالعمل على الفصل بين الأحداث التاريخية الحقيقية والمزيفة وذلك لمزيد من إلقاء الضوء على أحد الفصول الأكثر غموضًا في تاريخ مصر...

كان أبو الفرج هو مؤلف هذا الاتهام للعرب... وخلاصة القول في هذا الموضوع يجب أن تكون منزهة وخالية من الشك في القابل من الزمان... وهنا نقول إنه يجب أن نعلن أن القصة التي أوردها أبو الفرج هي محض اختلاق، وليس لها أي أساس من الصحة. ومقصدي الوحيد من كل هذا هو أن أتمكن من الوصول إلى إيضاح الحقيقة وليس الدفاع عن العرب، فهم ليسوا في حاجة لأن يدافع عنهم أحد في هذا الموضوع، وفي حالة الحاجة أجد أنه من السهل فعل ذلك، وسوف يكون طلب الصفح من العرب" وعلى أية حال نجد أمامنا إقرار عالم هو بتلر بطلبه الصفح من العرب. وذلك حتى يتم طي هذه الصفحة ومع هذا سقط كلامه في بحر النسيان(٧٣٦).

ظهور مفاجئ لنص ابن القفطي:

حدث تحول مفاجئ في الأمر، فقد ظهرت ترجمة مؤلف ابن القفطي وبه الرواية التي يُفترض أنها أصلية بشأن المقولة الزائفة ضد العرب، وكان ظهورها

(736) Burler, "The Amb conquest of Egypt and the last thirtyyears of the roman dominiori" "La. conquista árabe de Egipto y los últimos treinta anos de dominadón romana-", Prefacio, III, XVII, XXU, pgs. 425-426, noca I, Ed. Oxford, 1902, Republ. A&B Pubi. New York, 2005.

بعد عام واحد، أي ١٩٠٣م. وهو نص لمؤلف عربي عاش خلال القرن الثالث عشر وسابق مباشرة على أبي الفرج رغم أنه معاصر له بالتحديد؛ وهو نص اعتمد عليه أبو الفرج في سرد قصته الملفقة ذلك أنها كانت رواية مطولة ومفصلة وشبيهة بروايته هو، كما إن ابن القفطي أشار إلى الرسالة المزعومة التي بعث بها عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يأمره فيها بإحراق الكتب. وهذا يعني أنه لا يمكن أن نتهم أبا الفرج بأنه اخترع الرواية بالكامل. لقد كانت هذه، هي البرهان الحاسم!.

عرفنا برواية[٧٣٧] ابن القفطي عندما نشر "المختصر" للزوزني، وجاء النشر من لدن خ. ليبرت[٧٣٨] في ليبزج عام ١٩٠٣م؛ كان ذلك اكتشافًا متأخرًا بالفعل ولهذا لم تتم الإشارة قبل ذلك قط لكل من ابن القفطي والزوزني عند أي من المؤرخين الأوروبيين السابقين أو عند أي من رجال الدين الرحالة بحثًا عن المخطوطات خلال الثلاثمائة عام الأخيرة. والشيء الغريب أنه رغم البحث الدؤوب الذي قام به رجال دين بروتستانت لم تظهر مؤلفات ابن القفطي، كما لم تكن معروفة لدى الذين نشروا مؤلفات أبي الفرج وما بها من الرواية المختلفة، على يد بوكوك على سبيل المثال، وهو الرجل الذي لم يعثر قط على كتاب ابن القفطي، ولم يعثر عليها هؤلاء الذين كانوا ينتقدون الرواية على أنها زائفة. كان لا بد من مرور ٦٤٤ عامًا حتى يظهر كتاب ابن القفطي ويُنشر في أوروبا.

لم يكن الكتاب معروفًا أيضًا في العالم العربي، فمنذ أن كتب "الزوزني Zawzani" عام ١٢٤٩م "مختصره" لم يتعرض أحد من العرب خلال العصور الوسطى العربية لنص ابن القفطي قط رغم أنه مؤلف مشهور ومعروفة أعماله التاريخية وتلك التي تدخل في باب السِّير. وعلى زمن المقريزي، خلال الفترة من نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر نجد أنه يجهل ابن القفطي

(737) Al-Qifti, "Las Escuelas de los Hombres Sabios".

(738) J. Lippert, "Tarikh al-hokama", Leipzig: Theodor Weicher, 1903.

والزوزني، ولم يشر فقط إلا إلى المؤرخ عبد اللطيف باعتباره مؤلفًا وحيدًا أشار إليه في عُجالة قبل ذكر أبي الفرج.

الشيء المثير للدهشة والتساؤل هو أن النص الخاص بابن القفطي، أو المختصر إن شئنا الدقة، وليس النص الأصلي بالتالي بل نسخة من الدرجة الثانية، إنما ظهر بعد ست سنوات من نشر بوتي اكتشافاته الرهيبة عام ١٨٩٦م مبرهنًا من خلالها أنه من جراء هذه النيران والدمار كان من المستحيل العثور على شيء سليم في السرابيوم. كما إن المختصر ظهر تحديدًا في اللحظة التي كان فيها التواجد الاستعماري الأوروبي على أشده في الشرق الأوسط، حيث تقاسمت كل من فرنسا وإنجلترا أراضي تلك المنطقة. كما كانت الدراسات الاستشراقية في أوجها ومعها الاقتراب الذي جاء من روما نحو المسيحيين الشرقيين وانتهى الأمر ببعض هؤلاء إلى الدخول في فلك الفاتيكان.

أما الأمر الأكثر إثارة للتساؤل فهو الردّ على سؤال يتردد صداه وهو: كيف أمكن لأبي الفرج أن يفعل فعلته؟ لنر، من الناحية الظاهرية، وفي حلب القرن الثالث عشر، أخذ على عاتقه مسئولية إدراج نصوص على المؤلفات الخاصة بمؤرخين عرب معاصرين له. ففعل ذلك مع عبد اللطيف من خلال جملة مختصرة، أما مع ابن القفطي فقد كانت الفقرة مطولة وذلك حتى يبدوان أنهما السابقان عليه من العرب في كتابة نص كان يريد كتابته وذلك حتى ينشر الفرية التي خطط لها ولطخ تاريخ العرب في هذا المقام. عني بكافة التفاصيل وبحث عن الضحايا ووصل إلى غاياته.

فعل كل شيء بسرعة قبل أن يمرّ بحلب عام ١٢٤٩م كاتب ورحالة عربي هو الزوزني، أي بعد وفاة ابن القفطي بزمن قصير وكان يقوم بإعداد مختصر لآخر كتاب له بما في ذلك التدليس الذي أدخله عليه أبو الفرج. وفي الوقت ذاته نجد أن أبا الفرج قام بإدراج الجملة القصيرة في كتاب عبد اللطيف. ومعنى كل هذا أن أبا الفرج قرر توصية الزوزني، سواء كان واعيًا أو لا، بالعمل على بث نص ابن

القفطي سريعًا في الشرق الأوسط، لأنه كان رجلاً كثير الترحال، وبذلك يوفر أبو الفرج على نفسه مغبة نشر النص ويتفادى أن تُلصق به أي تهمة.

فكرة رائعة وذكية للتعامل مع نص غير معروف ثم تدمير أصوله التي كتبها ابن القفطي، كما أن هذا النص يمكن أن ينتشر دون مشاكل تحت عباءة أنه آخر النصوص لهذا العلامة المصري العجوز والمعروف، حيث قام أصدقاؤه بنشر بعض أعماله بعد وفاته[٧٣٩]. ها هي المقولة المختلفة تسير وحدها وتخرج من عباءة الزوزني ذلك الرجل الذي لا يكل من الترحال، والذي كان يريد التعريف الفوري بمختصره عن ابن القفطي. أما بالنسبة للنص الذي كتبه عبد اللطيف، فإنه سوف يأتي زمنه، أي كان عليه أن يبثه بطريقة أخرى، وربما تمثل ذلك في تدمير النسخ التي تقع تحت يديه.

ما كان واضحًا هو أن النص الذي كتبه ابن القفطي عنصرًا حاسمًا في مخطط أبي الفرج، إذ كان الأساس الذي عليه يمكن أن يقول، دون إثارة مشاكل، إن مؤرخًا عربيًا سابقًا عليه قال الشيء نفسه الذي ذكره هو، وعلى هذا فهو لم يأت بشيء من عنده. ها هو يأتي باثنين من المؤرخين العرب اللذين يؤكدان ما قاله ومقولته المختلفة. لكن هناك شيء لم يحسب له أبو الفرج حسابًا، إذ يبدو أن مهمة الزوزني باءت بالفشل الذريع وخاوي الوفاض، فقد اختفى الزوزني ومعه النص الخاص بابن القفطي الذي جرى تزييفه، وكأن الأرض انشقت وابتلعته. يبدو أن أحدًا لم يذكر ذلك النص الكبير وكأن الزوزني قد حفظه وأقفل عليه مغاليق كثيرة دون أن يطلع عليه أحد. فهل فعل ذلك الزوزني بناءً على ما قرأ في النص من اتهام؟ لا، لأنه لو كان الأمر كذلك لما أقدم على نسخه. فهل فقده إذن؟.

يا له من تصرف غريب جعل أبا الفرج مكشوفا، ها هو يترك للزمن أن يفعل فعلته، لكن النص لم يظهر، فلم يكن أحد يعرف به. وبذلك يصبح الأساس الذي اعتمد عليه أبو الفرج - من دون النص الذي زيفه للقفطي - هو مجرد جملة

(739) Al-Qifti, "Manuscrito rabe de Paris, 3335".

قصيرة كتبها عبد اللطيف. والشيء الغريب أنه قرر في نهاية حياته، وهو في فارس، أن يكتب روايته للأحداث وهي رواية مطنبة ومفصلة للقصة المختلفة وجاء ذلك في "المختصر". وانتشر ذلك على الفور مرفقًا به سابقته التي تتمثل في الجملة الوجيزة التي كتبها عبد اللطيف البغدادي. لكن دفاعه أصبح واهنًا؛ فمن دون ابن القفطي لم يتبق إلا القليل الذي جاء من عبد اللطيف ولم يكن ذلك كافيًا لإسكات الأصوات التي تتهمه بالتزييف آنذاك. هذا هو كل ما حدث لأبي الفرج خلال القرن الثالث عشر اللهم إلا إذا...

... اللهم إلا إذا وجدنا أنفسنا أمام "تزييف تاريخي" جديد، وهذا يرجع هذه المرة إلى العصر الحديث. كان هناك مؤلف أو مجموعة من المؤلفين خلال العصور الوسطى الذين قرروا الإسهام بشيء في الموضوع وتقديم برهان أكثر قوة لمساعدة أبي الفرج بدلاً من الاعتماد فقط على الجملة الموجزة لعبد اللطيف. وهي برهان لا يدحض هذه المرة. كيف؟ كان الأمر غاية في السهولة، فالنص كان موجودًا، وما كان عليهم إلا أن ينقلوا عن أبي الفرج، وإدراج شيء من نص أبي الفرج بما في ذلك القصة المختلقة على النص الموروث عن ابن القفطي الذي أعيدت كتابته على يد الزوزني خلال القرن الثالث عشر. ولن تكون هذه هي المرة الأخيرة في هذا الموضوع المثير.

نجد إذن أن أبا الفرج قد أدخل العبارة الموجزة على كتاب عبد اللطيف، وكانت تلك مهمة سهلة، حيث اعتمد على ما كتبه في مسألة اتهام العرب إذ هو موضوع فكر فيه مليًا وفي كتابته، وهنا ربما خطرت على باله فكرة مساعدة ابن القفطي في إعداد قائمة بسير العلماء اليونانيين ونقل له فكرة الحوارات المستحيلة بين شخصيتين تاريخيتين غير معاصرتين. لكن لم يكن هناك متسع من الوقت لدى أبي الفرج في هذا المشهد الجديد حتى يقوم بإدراج شيء في كتاب صديقه ابن القفطي، ذلك أن الزوزني حصل على المخطوطة الأصلية للقفطي حتى يقوم بإعداد المختصر.

بعد ذلك قام أبو الفرج بكتابة الرواية المختلفة وألقى بها لتنتشر، وهذا يبرهن على أن النص الذي كتبه أبو الفرج بما في ذلك القصة المختلفة سوف يكون النص الأول والوحيد الذي كان موجودًا خلال العصور الوسطى، وهو نص اخترعه هو حيث أخذ يسرد كل التفاصيل، وهذا ما تؤكده شهادات المؤرخين العرب خلال العصور الوسطى حيث كالوا له دومًا الاتهام بأنه مخترع هذه الأكذوبة وكذا الرسالة والحمامات، وأن الحالة الوحيدة التي جرت الإشارة فيها للموضوع كانت عند المقريزي إشارةً إلى ما كتبه عبد اللطيف البغدادي باعتباره مصدرًا محتملاً للفكرة متجاهلاً تمامًا الرواية التفصيلية التي جاءت في مخطوطة ابن القفطي. وفعل ذلك أيضًا المؤرخون المحدثون وظل الأمر على هذا النحو حتى وصلنا إلى أعتاب القرن العشرين.

أدى ظهور ما كتبه ونشره عام ١٩٠٢م في معرض المقولة المختلقة ضد العرب إلى إثارة الحيرة والاضطراب في صفوف المثقفين المسلمين مع بداية القرن العشرين. هناك عالم عربي آخر عاش خلال العصور الوسطى، تكفل بكتابة آراء زائفة يبدو أنها تتوافق تمامًا مع ما ورد عند أبي الفرج. ها نحن نرى أن عددهم اثنان، أما من انضم حديثًا فلم يكن إلا واحدًا من أهم الكُتّاب المصريين خلال القرن الثالث عشر. وهذا سابق أيضًا على أبي الفرج، وبالتالي فهو مصدره الحقيقي فيما كتب من فرية، وبعد سبعة قرون اتضح أن لأبي الفرج لعبته الكاملة التي لعبها!.

ولكن إذا ما كانت هذه اللعبة زائفة فماذا؟ يبدو أن الأسطورة تكبر وتحولت إلى قصة من القصص ذات الموضوع الغامض، فهناك أثر وأدلة واختفاء. وحقيقة الأمر تتمثل في ظهور دليل مفاجئ وغير متوقع تطور بسرعة وجرى ارتجال كل شيء يتعلق به، فكيف يمكن أن تظهر فجأة عملية "تزييف تاريخي" حول الموضوع نفسه في بداية القرن العشرين؟ الأمر يبدو مثيرًا للسخرية لمجرد التفكير فيه. ومن الفاعل؟ وبيد من؟ ومن الذي يهمه أن يعرف الحقيقة؟ ومن المستفيد؟

وبمجرد التأكد من أن ذلك تزييف حديث يمكن أن تكون العجب كل العجب. ها هي حلقة أخرى في هذه السلسلة التي تعتبر سلسلة المفاجآت غير المتوقعة، غير أنها لا تنبع هذه المرة من تحليل النصوص بل يبدو أنها خلاصة طبيعية لديناميكية ومنطقية القصة المختلفة. ومنها نخرج بشيء بدهي وهو أن النص الخاص بابن القفطي لم يظهر ضمن مكونات الرواية إلا في القرن العشرين. ورغم غرابة الأمر لا يمكن لنا أن نذهب إلى ما هو أبعد من التتابع الأدبي كما أنه لا مناص من ذكره حتى نفهم نتائجه.

ابتداءً من ظهور مفاجئ لنص أخذ الدارسون الغربيون يذكرون ابن القفطي مع بداية القرن العشرين، ورغم أن هذا النص الذي تم الكشف عنه مؤخرًا سرعان ما تعرض للإدانة والرفض على أنه طرفة أدبية، فإنه سوف يصبح بعد مائة عام أداة لاتهام كل من عبد اللطيف وابن القفطي بأنهما وراء هذه الأكذوبة وبالفعل فخلال القرن الواحد والعشرين سوف يتبدى أمامنا ابن القفطي بصفته المذنب الوحيد! أما أبو الفرج فيتراجع إلى الصف الخلفي ويكسب اللعبة ويختفي في الظلال الكثيفة؛ نحن إذن أمام حلقة أخرى من حلقات الضغط تتعلق بهذه الفرية سواء كانت مصحوبة هذه المرة بتزييف حديث أو لا.

رفض ثابت للفرية:

وخلال العام التالي، في بداية القرن العشرين - ١٩٠٤م - جرت ترجمة كتاب سيفيرو المقفع لأول مرة عنوانه "تاريخ البطاركة"[٧٤٠] وهو الأسقف القبطي الذي عاش خلال القرن العاشر الميلادي، أي أنه أسبق تاريخيًا على ابن القفطي، وهو رجل عندما تحدث عن الغزو العربي للإسكندرية بشكل مفصل، وكان معروفًا خلال العصور الوسطى، لم يتعرض من قريب أو بعيد للحريق الذي أودى بالمكتبة الكبرى على يد العرب. وهذه ضربة مميتة لمصداقية النص الذي جرى اكتشافه

(740) Severo Muqaffa, "History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria", 1904.

وهو الخاص بابن القفطي، الرجل الذي أخذ يؤكد عكس الرواية السابقة ولو أن روايته جاءت بعد قرون ثلاثة، وزاد على هذا بالحديث عن الموضوع بشكل مفصل. لم يحدث أي تغيير ولم تقض رواية سيفيرو على الأكذوبة ذات الألف رأس، وانتهى الأمر في هذا المقام بأن ألصقت التهمة بابن القفطي.

هناك آخرون من المستشرقين الذين نفوا هذه التهمة ومنهم المستشرق البلجيكي ف. شوفين[٧٤١]، في عام ١٩١١م، وخ. م. روبرسون، عام ١٩١٤م. وفي عام ١٩٢٣م نجد أن كلاً من ر. ج. كانيفت وم. فورت[٧٤٢] يذكران ث. بلانك[٧٤٣] الرجل الذي قال: "كما أعربت عن حزني لما لم أعثر عليه في الإسكندرية من أمر يسعد، أي كانت، وهي المكتبة؛ فقالوا لي: العن عمر العابس الوجه، إذ يقال إنه هو الذي أمر بإحراق المكتبة". فقلت لهم: لتحزنوا، فقد احترقت المكتبة جزئيًا بسبب يوليوس قيصر دون إرادته... ثم تم الإجهاز عليها في عصر ماركو أوريليو... وبعد هذا جرى تدميرها في عصر الإمبراطور تيودوسيو، إذ قام عدد من المتعصبين، بناءً على موافقة موفد الملك بالقضاء على الآثار المتعلقة بالوثنيين، وهاجموا السرابيوم بعنف يقودهم البطريارك تيوفيلو. وعندما جاء عصر عمر لم يكن هناك شيء أو أن ما بقي هو أقل القليل من هذه المكتبة الشهيرة التي شيدها البطالمة.

أذهب فيما أقول إلى أبعد من هذا: فأنا لا أشعر بأي غضاضة أن عمر بن الخطاب بريء من هذه الفعلة البربرية، وهنا أعترف أني أشعر بالودّ إزاء هذا الخليفة الفظيع لأنه أشار ذات يوم، وهو يوم توليه الخلافة إلى موقف جدير بالإعجاب: "الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه".

(741) Chauvin, "Le Livre dam le monde arabe", -"ElLibro en elmundo árabe", 1911.

(742) Canivet, "L'Égypte", -"Egipto"-, pg. 193, Rieder Ed., París, 1923.

(743) Blanc, "Voyage de la Haute-Egypte", -"Viaje ai Alto Egipto"-, Laurens Ed., París, 1923.

خلال ذلك العام نفسه ـ ١٩٢٣م ـ يؤكد خ. ب. بوري[٧٤٤] أنه "يجب أن نشير إلى أن الإمبراطور تيودوسيو لم يكن يريد تدمير تلك المعابد، وإنما كان يريد تدنيسها... أما ما يتعلق بالفعلة الوحشية التي تمثلت في تدمير دور العبادة والتي حدثت خلال تلك السنوات هي من عمل الغيرة المتعصبة للرهبان ورجال الدين، وكان تعصبهم المسئول عن هذا التدمير الذي لحق بدور العبادة الوثنية والذي لا طائل من ورائه. وكان الرهبان هم الذين دمروا السرابيوم في الإسكندرية، واستنادًا إلى إيونابيو فإن هذا المعبد كان يضفي على المدينة سمة القداسة". وقد أمر الأسقف تيوفيلو بتدمير المعبد (٣٨٩م) طبقًا لرواية كل من سوزومن وسقراط... غير أن أسوأ ما حدث تمثل في تدمير مكتبة السرابيوم، طبقًا لما ذكر أوروسيو..." [٧٤٥].

ألقى كازانوفا، عام ١٩٢٣م، محاضرة في نهاية حياته أمام الأكاديمية الفرنسية، نشر نصها في العام نفسه[٧٤٦] وهو يتضمن نفي هذه المقولة المختلفة، كما تضمن عدة تأكيدات سوف تُذكر، من خلال ب. لويس، كمقدمات، وتحولت هذه التأكيدات إلى نقطة البداية في الاتهامات، حيث ظهرت من العدم خلال القرن العشرين وتقول بأن كلاً من عبد اللطيف وابن القفطي هما اللذان قاما بتزييف التاريخ العربي باختراع هذه المقولة الزائفة.

في العام المذكور نفسه ـ ١٩٢٣م ـ شارك الكاتب المصري سمير خليل سمير[٧٤٧] وأدلى بدلوه في هذا الاكتشاف غير المستحق، واتضح من مقاله أنه لا

(744)Bury, "History ofthe Laíer Roman Empirc", -"Historia dei Império Romano Tardio"-, 1923.

(745) Eunapío de Antioqufa, 77,78; Sozomen, VII. 15; Socrates, V. 16-17; Orosio, VI. 15.

(746) Casanova (1801-1926, act. 1923-25), "L'incendie de Ia bibliotéque d'Atexandrie par lês rabes", -"El incêndio de ia Biblioteca de Alejandríapor los árabes"-, Revue dês Bibliothèques, t. 33. Paris. 1923.

(747) Samir Khalil Samir, "L'utílisation d'al-Qiftí par Ia Chwnique árabe d'Ibn al'Ibn",-"La uti-lización dei texto de Al-Qifti en Ia Crónica árabe de Ibn Al-Ibrf- 1923.

يشك في صحة ما نسب إلى ابن القفطي، وجعل من هذا المؤرخ العربي الأصل المباشر للنص الذي كتبه أبو الفرج والخاص بالمقولة الزائفة، والكاتب بهذا يقبل بأن يكون ابن القفطي هو المؤرخ الثاني والعربي الأكثر أهمية في باب هذه المقولة الزائفة ضد المسلمين. كما يتوافق مع كل من جيبون وبتلر فيما يتعلق بترجمات بوكوك إذ يحدثنا عن "حولية" وليس عن "مختصر".

وبعد ذلك بزمن قصير للغاية - ١٩٢٥م - نجد البروفيسور ج. فورلاني[٧٤٨] ينفي نفيًا قاطعًا صحة هذه المقولة التي وردت عند ابن القفطي. وهذا ما سوف نراه فيما بعد. لقد تحول فورلاني بهذا إلى أول باحث في الإشارة المسهبة إلى ابن القفطي، وما فعل هذا إلا لتحطيمه ودحض روايته دحضًا تامًا، وهي رواية شديدة الشبه بما جاء به أبو الفرج، ووصفها بأنها "مجرد اختراع من وحي خيال المؤلف... حيث اخترع قصة تدمير المكتبة... واخترع أيضا قصة إحراق الكتب في الحمامات... وهذه القصة لا يمكن النظر إليها على أنها مصدر تاريخي حقيقي..". وعلى هذا فإن ذلك النص الغريب الذي عثر عليه مؤخرًا بعد سبعة قرون أصبح لا قيمة له في نظر الكثيرين. وابتداءً من تلك اللحظة نجد الباحثين المحدثين يتجاهلون النص المفترض للقفطي.

وفي عام ١٩٣٢م نجد ج. ويت[٧٤٩]، يصمت عن النص كاملاً ولا يتحدث إلا عن الإضافة التي وردت عند عبد اللطيف، إذ يقول: "وفيما يتعلق تحديدًا بهذا الموضوع الخاص بغزو مصر لا تتوفر لدينا الكثير من الروايات والمصادر... كما لا يتضمن أي منها إشارة لهذا الحريق، وعلى ذلك يصبح من المجازفة الاعتقاد

(748) Furiani, "Giovanni il Filopono e l'incendio della Biblioteca de Alessandria", -"Juan Filopono y el incendio de la Biblioteca de Alejandría"-, 21, pgs. 59-68, Soe. Archaeol., Alcjandrto, 1925.

(749) Wiet y otr., "L'Egypte Musulmane de Ia Conquéte Arabe á Ia Conquéte Ottomanr", "Egipto Musulmán, dela Conquista rabe a Ia, Conquista Otomana"-, pgs. 109-153, Cairo, 1932.

بتاريخية الحادثة اعتماداً على رواية عبد اللطيف فقط وهي رواية جاءت بعد ستمائة عام على الواقعة". وفي عام ١٩٣٧م يطالعنا ب. ك. هيتي(٧٥٠) بقوله: "لم تكن هناك مكتبة ذات أهمية في الإسكندرية على زمن الغزو العربي، ولم يقم أي من كُتّاب ذلك الزمان باتهام عمرو بن العاص أو عمر بن الخطاب بهدمها".

ثم ننتقل إلى عام ١٩٥٠م لنجد البروفيسور ب. لويس(٧٥١) ينفي هذه المقولة ويؤكد أن "الأبحاث الحديثة انتهت إلى خلاصة مفادها أن هذه المقولة ليس لها أساس من الصحة، فلا توجد أي حولية من الحوليات الأولى بما فيها الحوليات المسيحية تتحدث عن هذه القصة التي ظهرت فقط ولأول مرة خلال القرن الثالث عشر، وعلى أية حال فإن مكتبة السرابيوم كان قد تم تدميرها قبل مجيء العرب...". وهذا الباحث لا يتحدث أيضًا عن ابن القفطي.

وفي عام ١٩٥٤م نجد الفيلسوف برتران دراسل(٧٥٢) يقول: "لقد كرر كل مسيحي تلك المقولة التي تتهم الخليفة بإحراق مكتبة الإسكندرية، وحقيقة الأمر أن هذه المكتبة أحرقت عدة مرات، وكان يوليوس قيصر أول من أحرقوها وآخر مرة كانت قبل ظهور الرسول...".

وفي عام ١٩٦٧م يؤكد الباحث المصري أ. س. عطية(٧٥٣) أن مسألة القول بأن عمرو بن العاص كان وراء إحراق مكتبة الإسكندرية... ليست إلا محض افتراء.. فقد ظهرت هذه المقولة لأول مرة في كتب الرحالة الفارسي عبد اللطيف (الذي توفى عام ١٢٣١م) - ويت ١٨٠٠م - وجاءت كذلك في مؤلف للأسقف اليعقوبي

---

(750) Hitti, "History of the Arabs", -"Historia de los árabes"-, Part II, Prim. Ed,, 1937.

(751) Lewis, "The Arabs in History", 1950, "Los rabes en Ia Historia", pg. 69, 1956.

(752) Russell, "Human Society in Ethics and Politics", -"Ética y Política en Ias Sociedadc Humanas"-, Unwin Hyman Ed., 1954.

(753) Atiya, "A History ofEastern Christianify", -"Una Historia dei Cristianismo Orienlaf , PH", 181-182, U. Notre Dame Press, London, 1967.

Barhebraeus (المتوفى عام ١٢٨٦م) - بوكوك ١٦٦٢م -، أي بعد قرون ستة على الفتح العربي... كما لم يذكر أي من المؤرخين المعاصرين الموضوع... وخلال القرن الرابع الميلادي، عرف عن المسيحيين الذين انتصروا أنهم ارتكبوا الكثير من الأفعال وأشعلوا الكثير من الحرائق وذلك للقضاء على آثار كل ما يتعلق بالثقافة الوثنية... وكانوا ينفرون منها على أنها بدعة مناقضة للتاريخ وليس لها أي أساس... وهنا يمكن القول بأن عطية، مثل متل ويت، لا يذكر إلا مرحلتين أو مقدمتين سابقتين لهذه القصة المختلفة، أي ما يتعلق بعبد اللطيف وأبي الفرج (بوكوك ١٦٦٢م)، لكنه لم يشر على الإطلاق إلى وجود ابن القفطي.

هناك المؤرخ الهندي د. ب. سنغال[٧٥٤]، يرى أن هذه المقولة لا يمكن أن تصمد (١٩٦٩م) سيرًا في هذا على ما يقول به جيبون، ويؤكد أن "أول ظهور لهذه القصة كان عن طريق إنسان غير معروف، هو أبو الفرج، الذي سطّرها بعد خمسمائة عام من التاريخ الذي يُقال أنها حدثت فيه... ونادرًا ما نجد في التاريخ أمثلة من هذا النوع حيث جرت عملية تزييف متعمدة ومقصودة رغم وجود البراهين والأدلة التي تنقضها". وفي الوقت ذاته نجد الباحث السكندري ب. جورجيادس[٧٥٥]، ١٩٨٢م، ينفي هذه المقولة الزائفة ويؤكد أن التأكيد الذي أورده أبو الفرج ما هو إلا Hapax Legomenon حيث ظهرت الرواية مرة واحدة في العصور الوسطى. وها نحن نرى كلا الاثنين يتجاهلان ابن القفطي.

من جانبه أيضًا يقول ج. راشد - ١٩٨٥م - بأن كل معارف العالم القديم كانت توجد في ا لإسكندرية ومكتبتها... وهنا لا ننسى أبدًا أن من بين علمائها كان هناك الفيزيائيون وعلماء الميكانيكا... وكانوا أول من اخترعوا الماكينات وصنعوا

(754) Singhal, "India and World Civilization -"La India y la Civilizacián Mundial-, I, Michigan State U. Press, 1969.

(755) Georgiades, "L'etrange destin de la biblioteque 4'Alexandrie" -"El extrano destino ele la Biblioteca de Alejandría"-, Ste. Archaeologique. Alexandríe, 1982.

التماثيل التي تتحرك بفعل ضغط المياه والبخار. ولا ننسى في هذا المقام الشعراء السكندريين وقاماتهم وأنهم أدركوا ووعوا الإسهام الضخم الذي كان للإسكندرية في مجال النقد الأدبي والعلوم والتقنية والفكر من خلال مدرسة الأفلاطونية الجديدة، التي اشتهرت بوجود العلامة أفلوطين، وكذا الفن بعامة والصناعات اليدوية...

وحتى ندرك مدى الكارثة التي وقعت من جرّاء انتصار المسيحية والحقد الأعمى، نجد أنهم أطاحوا بكل شيء وفرضوا رؤى متخلفة على الإبداع (فالأرض مسطحة وهي مركز الكون وهذا مبدأ يناقض كروية الأرض ودورانها في فلك كوكب آخر هو الشمس) وقاموا بتدمير وإحراق المعابد وبخاصة السرابيوم الذي كان مليئًا بالكتب وربما بقي من المكتبة القديمة، وفي نهاية المطاف ألقى المسيحيون بظلال كثيفة هي التعصب على الشعلة المضيئة التي تمثلت في مصر اليونانية...

وقبل أن نخرج من الإسكندرية القديمة لا يمكن أن ننسى الشخصية النبيلة وهي هيباتيا، تلك المرأة الشهيرة بجمالها وعبقريتها ومعارفها... التي دافعت عن آخر المشاعل الخاصة بالثقافة والفكر القديمين وواجهت تيار المسيحية المنتصر...[٧٥٦].

ظهور "الرواية العربية لهذه المقولة الزائفة":

عبر ب. لويس[٧٥٧] في كتابه الذي ظهر عام ١٩٩٠م عن استغرابه لوجود باحثين حتى الآن مثل ل. كانفورا، ممن هم على استعداد لمساندة الرواية التي تتحدث عن أن العرب هم الذين هدموا مكتبة الإسكندرية بعد غزو هذه المدينة عام ٦٤١م تنفيذًا لأوامر الخليفة عمر بن الخطاب... وأن هذه الرواية قد عرفت

(756) Rachet, "Egyfte", -"Egipto", pgs, 100-101, Paris, 1985.

(757)Lewis, "The Vanished Libmry", -"La Biblioteca Desaparecida", 1990.

لأول مرة لدى العلماء الغربيين عام ١٦٦٣م عندما قام إدوارد بوكوك، مدرس اللغة العربية في أكسفورد بنشر طبعة للنص العربي مصحوبة بترجمة إلى اللاتينية، وكان ذلك جزءًا من كتاب "تاريخ الأسرات" للمؤلف السوري المسيحي أبي الفرج المعروف كذلك بلقب ابن العبري...

ويُلاحظ أن الحجة الأهم ضد هذه الرواية المختلفة هو ضعفها وأنها جاءت متأخرة. فأبو الفرج المصدر الرئيسي الذي رجع إليه المؤرخون الغربيون، هو رجل عاش بين ١٢٢٦م و١٢٨٩م، وكان له اثنين من سابقيه من العرب ولم يسبقاه إلا بعقود قليلة من الزمان...".

نرى أن هذا الباحث يشير إلى نص ابن القفطي، وصدّق عليه، وتجاهل النقد الذي وجهه له فورلاني، وصمت باقي الباحثين حتى عصره هو، مثل ويت وعطية، وكذلك صمته هو عام ١٩٥٠م. وذكر هذه المرة اثنين من المؤرخين العرب السابقين وليس واحدًا. وبالإضافة إلى ذكر عام ١٦٦٣م - كما فعل جيبون وبتلر - على أنه التاريخ الذي قام فيه إدوارد بوكوك بنشر مؤلف أبي الفرج وبث المقولة المختلفة ضد العرب واستخدامها سلاحًا سياسيًا من جانب صلاح الدين في إطار الصراعات العربية العربية. ورغم أن لويس يؤكد رفضه لصحة هذه المقولة ويصفها بأنها أكذوبة، فإنه يشير إلى أن تفسير ظهورها باعتبارها أداةً للدعاية المسيحية ضد الإسلام إنما هو محض افتراء، ذلك أن المصادر الأصلية لهذه المقولة الزائفة هي لمؤلفين عرب، إضافةً إلى مخطوطة أبي الفرج حيث نقل عنهم الرواية.

ويضيف لويس "أن دحض الأكذوبة، وليس خلقها، يرجع إلى جهد الباحثين الأوروبيين، الذين رفضوا، منذ القرن الثامن عشر وحتى أيامنا هذه، هذه القصة واعتبروها مختلفة وغير معقولة وبرأوا منها الخليفة عمر بن الخطاب وكذا العرب الأوائل"، واختتم بقوله: "لقد آن الأوان لتبرئة الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص من هذه التهمة".

لكن رغم هذا التأكيد القاطع الذي يبرئ كلا من عمر وعمرو بن العاص من هذه الفعلة، فهو لا يترك العرب في سلام، فمعه نجد آخر ضربات التزييف الذي قام به أبو الفرج، ألا وهو اختراع "الرواية العربية لهذه المقولة المختلفة" الذي جاءنا مع نهاية القرن العشرين، أي ستمائة عام على الظهور العارض للمؤلفين العرب المفترضين.

وعودة إلى فكرة جيبون والقائلة بأن عبد اللطيف هو الذي كتب هذه المقولة المختلقة لأول مرة، وأخذها عنه أبو الفرج، نجد أن لويس صدّق على الفكرة وتوجّها بأن اخترع من الألف إلى الياء قصة "الرواية العربية لهذه المقولة الزائفة". وأقر أن كلاً من عبد اللطيف وابن القفطي هما اللذان كتبا هذه القصة المختلفة قبل أبي الفرج، وهنا نجد لويس، ينسى حالة الصمت التي استمرت سبعمائة عام وسادت بين كافة المصادر المعروفة ويتجاهل أي تفسير مختلف، ثم يشير إلى أن المصدر الوحيد هو ب. كازانوفا[٧٥٨]، ثم يتساءل - ظاهريًا لأول مرة - عن الأسباب التي حدت بالعرب بث هذه المقولة الزائفة.

ثم يُعَقِّب على ما سبق وكأنه أمر مسلم به وغير قابل للكثير من النقاش: "وإذا ما كانت هذه الأكذوبة قد تم اختلاقها وبثها على يد المسلمين وليس من خلال أعدائهم، فماذا كانت الدوافع؟ الإجابة على هذا نجدها حقيقة في تعليق بول كازانوفا، فلما كانت أولى الإشارات لهذه الرواية ترجع إلى القرن الثالث عشر، فلا بد من أنها كانت معروفة للعامة في نهاية القرن الثاني عشر - أي على زمن البطل المسلم صلاح الدين الشهير ليس فقط بانتصاراته على الصليبيين بل أيضًا - وهنا نتحدث عن السياق الإسلامي - أنه قضى على الخلافة الملحدة للفاطميين في القاهرة، التي هددت على مدى قرون وحدة المسلمين كان عبد اللطيف أحد المعجبين بصلاح الدين، وقد ذهب لزيارته في القدس. وكان والد ابن القفطي من

(758) Casanova, "L'icendie de la bibliotéque d'Alexanârie par les Arabes", 1923.

أتباع صلاح الدين حيث عينه هذا الأخير قاضيًا في هذه الحاضرة التي فتحها مؤخرًا.

كانت أوليات مهام صلاح الدين بعد إعادة العمل بما تقوله فرقة أهل السُنة في القاهرة، التخلص من كنز الفاطميين ووضعها للبيع في المزاد العلني، وكانت هذه الكنوز تضم مكتبة مهمة يُفترض أنها مليئة بكتب الإلحاد التي يسير عليها الإسماعيليون. وربما أدى التخلص من مكتبة حتى ولو كانت تتضمن كتبًا إلحادية إلى إثارة حركة رافضة في مجتمع أدبي متحضر. لكن القصة المختلفة تزودنا بتبرير بدهي، فطبقًا لهذا التأويل نجد أن رسالة هذه القصة لا تكمن في أن الخليفة عمر تصرف تصرفًا بربريًا لأنه أمر بتدمير مكتبة ولكن لأن تدمير مكتبة يمكن أن يكون له تبرير، ذلك أن الخليفة عمر أقرّ بذلك. ومن هنا نجد مرة أخرى العودة إلى ذكر أبطال الإسلام الأول في مخطوطات مؤرخين مسلمين لاحقين، والسبب التصديق على أحداث ووقائع وسياسات لم يسمعوا بها قط، وربما أدانوها لو كانوا قد علموا بها"[٧٥٩].

قام لويس من خلال هذه التأكيدات المثيرة والتي لا تعتمد على أي أساس، بل هي ابتكار وليد اللحظة، ببث هذه الضربة الأخيرة للمقولة الزائفة وهي الضربة التي ربما كان أبو الفرج يخطط لها. يريد لويس أن يبحث عن تبرير لوجود هذين المؤرخين العربيين اللذين ذكرا هذه الرواية، فقدم لنا هذه الإجابة المجازفة "الاختراع العربي للمقولة الزائفة". لم يكن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية، ولكن بعد ستمائة عام على غزو الإسكندرية نجد مؤرخين مشهود لهما، ومن أهل السنّة يقرران اختراع هذه الأكذوبة الفظيعة التي أحدثت فرقعة آذت الشعب العربي وثقافته وذلك لأنهما حاولا الوقوف في وجه النقد الشيعي لما فعله صلاح الدين، الذي تذكره الرعية بكل خير. هذا تفسير مرفوض يسقط وحده بما فيه من توجه معيب.

(759) Lewis, "The Vanished Library", 1990.

نجد إذن أن لويس يبدو أنه يعتقد أن كلاً من عبد اللطيف وابن القفطي هما اللذان اخترعا المقولة الزائفة لتبرير ما فعله صلاح الدين، الذي كان يعاني من قلة السيولة المالية ليدفع رواتب جنده فاضطر إلى بيع ما بقي من مكتبة الفاطميين في القاهرة، أي دار الحكمة، التي كان الخلفاء الفاطميون قد أخذوا في بيعها حتى كان ما بقي منها لا يساوي عُشر ثروتها، التي بلغت مليوني كتاب، عندما وصل صلاح الدين. ولهذا فهو لم يدمر أو يحرق كتابًا ولم يفعل شيئًا آخر إلا السير على خطى من سبقوه. وهنا يبدو أن لم يلمه أحد على ما فعل ومن المؤكد أن هذه التحف الثمينة انتهى بها الأمر إلى المكتبات الخاصة بالأثرياء العرب الذين احتفظوا بها ودرسوها في بغداد أو دمشق أو حلب.

لا شك أن لويس لم يقدم للعرب أي معروف لأنه لم يأت بمصادر موثوق بها، فتلك النظرية ليس لها سند تاريخي، وما تحاول أن تقدمه هو أن العرب أنفسهم هم الذين اخترعوا هذه القصة بمحض إرادتهم وهذه قصة شديدة الآثار الضارة مثلها مثل الإحراق المفترض للمكتبة. ما زال هناك في الذاكرة الجمعية للغرب صورة للعرب على أنهم وراء المأساة، فوجودها ما زال قائمًا وما يستتبعها من لعنة على آثارها المترتبة عليها. وبإلحاحه على أن المؤرخين العربيين هما وراء هذه الرواية خلق مقولة جديدة على العرب ليست مشرفة وبذلك خبأ وراءها أي أثر لأبي الفرج الناسخ العبقري.

ومن جانبه نرى الدكتور م. عبد القادر، المؤرخ المصري الرجل الذي وقف وراء بناء المكتبة الجديدة في الإسكندرية وكان مديرًا لها ينشر عام ١٩٩٢م[٧٦٠] كتابًا شهيرًا ينفي فيه أن تكون المكتبة الكبرى قد احترقت على يد يوليوس قيصر، وتجنب الإشارة إلى ذلك الموضوع الشائك الذي حدث للمكتبة الصغرى كما نفى أيضًا احتمالية قيام العرب بتدميرها. ومع هذا نجد أن مختار العبادي سار على درب جيبون ولويس ولم يشك في أن كلاً من عبد اللطيف وابن القفطي هما

(760) El-Abbadi, "Life andfate of the Andent Library of Alexandria", "La Antigua Biblioteca de Alejandría. Vidá y destino"-, UNESCO, UNPD, Paris, 1992.

اللذان اخترعا هذه المقولة الزائفة بما كتباه، ويُرجع ذلك إلى أسباب تتعلق بالتحزّبات دفاعًا عن صلاح الدين.

زيف مستمر:

وفي عام ١٩٩٦م عاد الكاتب السكندري G. Messadie[٧٦١] ليؤكد على الحقيقة ويقول بأن نهب مكتبة الإسكندرية الشهيرة - مكتبة السرابيوم - كان على يد الرهبان المسيحيين الذين قاموا بتنفيذ أوامر الإمبراطور البيزنطي (ولم يكن العرب الذين جاءوا بعد ذلك بقرون طبقًا للمقولة الزائفة) الأمر الذي كان خطوة حاسمة في انحطاطها وأفولها".

ويحدثنا عن الموضوع نفسه - المكتبة الكبرى - عالم الآثار الفرنسي الشهير خ.إي. إمبرور[٧٦٢]، عام ٢٠٠١م؛ وهنا نجد أنه يخلط بشكل غير معقول بين المكتبتين متجاهلاً المكتبة الثانية متفاديًا بذلك الحديث عن المسيحيين، ومع هذا يحدد الزيف القائم ويقول بأن "تاريخ تدمير مكتبة الإسكندرية كان دائمًا محل نقاش. وكان يوليوس قيصر (١٠٠-٤٠ ق. م.) هو المشتبه به.. هناك آخر هو القائد عمرو بن العاص عندما غزا الإسكندرية عام ٦٤٢م، إلا أن الرواية المتعلقة به جاءت من لدن كاتب مسيحي وغير قابلة للتصديق".

في عام ٢٠٠٢م يطالعنا فريمان[٧٦٣] بقوله بأن "تيوفيلو، البطريارك السكندري الشهير، كان هو المسئول عن ترك المسيحيين القيام بتدمير معبد سرابيس الضخم في الإسكندرية وعن نهب المكتبة الكبرى".

---

(761) Messadíé, "La Fortune d'Alexandrie", -"La fortuna de Alejandría", pg. 424, Lattés Ed., France, 1996.

(762) Empeteur, "Alexandrie, le joyau d'Egypte", -"Alejandría, lajoya de Egipto"-, 2001.

(763)Freeman, "The Closing of the Western Mina. The Rise of Faith and the Fali of Reasori", -" El Cerrojazo ai Pensamiento Occidental. El Ascenso de Ia Fe y Ia Caída de Ia Razórf"-, pg. 149, Random House, 2002; Vintage, USA, 2005

في عام ٢٠٠٢م نجد أحمد شفاط[٧٦٤] يؤكد وجود "مثال آخر على عمى الأرثوذكسية الدينية يتمثل في القول بأن عمر" كان مولعًا بإحراق المكتبات في البلاد التي فتحها مثل بلاد فارس. وأول حديث مكذوب حول هذا ما نطالعه في الرواية السكندرية، لكنه يقول "بوجود بدهيات بأن تدمير مكتبة الإسكندرية تم على يد المسيحيين قبل مجيء الإسلام وأنه على زمن عمر لم تكن هناك أية مكتبة لإحراقها في المدينة المصرية".

نعرف إذن أن هذه المقولة هي من وحي الخيال وهذا أمر واضح لدى أي إنسان تلقى تعليمًا أكاديميًا ملائمًا، وذلك بدراسة المقولة المختلفة من منظور تاريخي، وعندئذ يرفضها مثلما فعل جيبون وبتلر وفيكتور سوفن وبول كازانوفا ويوجين جريفين وكارليل وهكتور وريان وسيديلوت وديفانبورت وجوستاف لوبون وويل دورانت وبرنارد لوس وشبيلي أنعماني والعالم الإيراني مرتضى مطهّري..". ا.

يطالعنا أيضًا المؤرخ الأرجنتيني ر. شمس الدين إيليا[٧٦٥] برفضه لهذه المقولة المختلفة، عام ٢٠٠٢م، حيث يقول بأن "أبا الفرج... هو مؤلف لعمل ضخم يتناول تاريخ سوريا، وهو عمل معروف في الغرب بعنوان "تاريخ الأمم" وقام إدوارد بوكوك بترجمته، (أكسفورد ١٦٦٥م الطبعة الثانية عام ١٨٠٦م) ويُلاحظ أن هذا العمل يتسم بعدم الاتساق، والتناقض وأنه غير موثوق في مضمونه على الإطلاق؛ ويُلاحظ في هذا المقام أن المؤرخين الأوروبيين، خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، من المتخصصين في الموضوعات العربية والإسلامية، مثل جيبون

(764) Shafaar, "Islamic Perspectives. A revieiv of: Pervez Hoodbhoy, Islam and Science: Religioits Ortha-doxy and Baítle for Rationality", Cap. "An Unfounded Accusation against "Umar the Grcat", -"Perspectivai Islâmicas. Crítica de: Pervez Hoodbhoy, Islam y Conodmiento: La Ortodoxia Religiosa y Ia Batalla por Ia Racionalídād", Cap. "Una infundada acusación contra Omar el Grande", 2002.

(765) Shamsuddín Elía, "El mito dei incêndio de Ia biblioteca de Alejandría por los árabes", El Corrcsponsal de Mcdio Oriente y Africa, Buenos Aires, 2002.

وأوكلي وجاجنير وبولانفيرس ونيهور قد وعوا أن ما قدمه من وصف جغرافي وجوانب ثقافية، وتركز مقالاته حول الأحداث السياسية بعامة، إنما يتسم بعدم التوثيق وبالهامشية.

ويشير الباحثون المحدثون إلى أن أبا الفرج الواضح تمثيله للمذهب القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح هو المحرك الرئيسي لأكذوبة إحراق العرب لمكتبة الإسكندرية، وأن هذه الأكذوبة ظلت لزمن تخدم الأغراض المطلوبة منها وكأنها عمود دخان يتوارى خلفه الفاعل الحقيقي وهو زميله في الملّة تيوفيلو..." خ. هنّام[٧٦٦] فهو باحث قد عرفنا قبل ذلك ارتباطه بجورج السكندري؛ يقول فيما يتعلق بالمقولة المختلفة على العرب ما يلي وقد تجاهل بالكامل الشهادة المفترضة للقفطي"... توجد مصادر قليلة جدًا علينا أن نخضعها للبحث، وهي مصادر جاءت متأخرة للغاية، وأول هذين المصدرين يرجع إلى القرن الثاني عشر كتبه عبد اللطيف (المتوفى عام ١٢٣١م) حيث أشار في كتابه "وصف مصر"، في معرض حديثه عن الإسكندرية إلى الأطلال الخاصة بمعبد السرابيوم. غير أن هناك مشاكل كثيرة وضخمة لقبول هذا على أنه بدهية تاريخية، كما أنه من المستحيل علاجها - أي المشاكل، لقبول المقولة. ويقر بأن مصادر هذه المقولة ما هي إلا أقاويل...

وخلال القرن الثالث عشر نجد الأسقف المسيحي اليعقوبي جريجوريو أبا الفرج (المتوفى عام ١٢٨٦م) والذي يدعى أبا الفرج باللغة العربية، يقوم بتجسيد القصة المختلقة في كلمات ويدخل في ذلك هجاءه الشهير للقرآن. ومن جديد، لا نرى أي أثر للمصدر الذي عثر على هذه المقولة المختلفة فيه، رغم أن ذلك يمكن أن يكون من خلال محادثاته مع المسيحيين الذين كانوا يعيشون في كنف الحكم

---

(766) Hannam, "The Mysterious Faie of the Great Library of Alexandria. The Caliph Omar". -"Kl Destino Misterioso de la Gran Biblioteca de Alejandría", 4. "El Califa Omar"-, Medieval Science and Philosophy. 2007.

الإسلامي... وعلينا هنا أن ننظر إلى هذه المقولة المختلفة على أنها لا أساس لها؛ فهي لا توجد في الكتب الكبرى التي تتناول التاريخ ولا توجد في مصدرها العربي الذي قام هو بترجمته ونقلها في نهاية حياته، ومن المحتمل أنه لم يكن يعرف بها عندما بدأ تدوين كتابه في التاريخ...

الحكم على عمر. يُلاحظ وجود أخطاء بدهية تتعلق بالمصادر كما أن المقولة في حد ذاتها لا تُصدّق... ويحوم الشك بقوة بشأن التواريخ المتأخرة لكافة المواد التي يبدو أنها تشكل المصدر الأساسي للمقولة، إذ لا يوجد أي دليل حول هذه المأساة الفظيعة في أي من الأدبيات السابقة، ولا حتى عند المؤرخ المسيحي القبطي خوان دي نيكيو (توفى بعد عام ٦٤٠م) الرجل الذي قام بوصف الغزو العربي. وفي نهاية المطاف يمكن القول بأن مصدر المقولة هي أحد المثقفين المسيحيين الذي كان شديد الشعور بالغبطة للبرهنة على أن ديانة حكامه لها جوانبها المعتمة... وبالتالي يمكننا أن نُسَمِّ هذه القصة على أنها مجرد حكاية غير حقيقية".

خلال عام ٢٠٠٤ تطالعنا الإسهامات غير العادية للبروفيسور ج. Majcherek[٧٦٧] (مدير الحفائر الآثارية في منطقة كوم الدكة بالإسكندرية)، إذ يعلن بمناسبة اكتشاف القاعات البيزنطية، أن "الحمامات العامة قد تعرضت للتدمير في موجة الغزو الفارسي لمصر عام ٦١٩م، ولم تجرِ إعادة بنائها بعد ذلك قط؛ وإذا ما كان الأمر كذلك يمكننا أن نكون واثقين بأن الحمامات التي بين أيدينا لم يتم تسخينها بإحراق كتب المكتبة، وبذلك تكون نهاية استمرار هذه المقولة المختلقة التي ما زالت تتهم عمرو بن العاص بتدميرها". وهذا الرأي هو أكبر دليل على دحض المقولة المختلفة وقد خرج من بين شفاه عالم الآثار الذي يرتبط عمله ارتباطًا حميمًا بتاريخ الإسكندرية.

(767) Majcherek, "Declaraciones sobre Kom El-Dikka", 2004.

ويؤكد خ. م. بلاثكيث مارتنث[٧٦٨] _ ٢٠٠٤- أن "تيوفيلو قد أسهم في وضع نهاية للوثنية في مصر، ففي عام ٣٩١م قام بتدمير السرابيوم والمكتبة الملحقة به، وكان من أهم المحفزين لبناء الكنائس...". وهنا نقول إنه لم يعالج المسألة الشائكة المتعلقة بالكارثة رغم أنه يؤكد على أن المعبد والمكتبة قد زالا في وقت واحد في تلك الآونة.

وفي نهاية عام ٢٠٠٤ نجد أن "المكتبة السكندرية" الجديدة تعقد سيمناراً متعدد الموضوعات بعنوان "ما الذي حدث لمكتبة الإسكندرية القديمة؟" برعاية إسماعيل سراج الدين[٧٦٩] مدير المكتبة، حيث أكد في معرض تقديمه للسيمنار، أن هناك موضوع من أهم الموضوعات السكندرية التى تهم القراء بشكل أكبر بكثير من غيرها، وهذا الموضوع الشائك هو المتعلق بمعرفة الكيفية التي اختفت بها مكتبة الإسكندرية القديمة. ورغم أنه قد لوحظ في الآونة الأخيرة توجهات، آخذة في الازدياد، بين المتخصصين تقول بأن المكتبة القديمة قد زالت قبل الفتح العربي للإسكندرية بزمن طويل، ومع هذا فإن الجدل القديم ظل دائراً وألقى بظلاله على الموضوع...".

وقد علق أ. البنداري، عام ٢٠٠٤، فور ذلك على النقد الذي ورد في مقال لفاروق جويدة مشيراً إلى أن مؤتمر "ما الذي حدث لمكتبة الإسكندرية القديمة" كان يعالج قضية المقولة المختلقة التي عادت للظهور في أيامنا هذه والتي تتهم العرب، خلال القرن السابع، بأنهم هم الذين أحرقوا المكتبة القديمة... وشعر جويدة بالاستغراب لما جاء في هذا المؤتمر... أما الدكتور قاسم عبده قاسم فقد قام بتحليل النصوص التي ترجع إلى العصور الوسطى العربية التي أوردت ذكر حريق المكتبة... وينوه بأن هذه المقولة إنما ترجع إلى مجموعة من المؤرخين

---

(768) Blázquez Martínez, "Sinesio de drene, intelectual. La escuela de Hypatia en Alejandria", pg. 417, Gerión, 22. 1,2004.

(769) Serageldin, Introducción a " Qué le sucedia a Ia Antigua Biblioteca de Alejandria?", 2004.

المناوئين لأهل السنة والمعارضين لصلاح الدين... ويرى بعض المؤرخين أن الأيوبيين هم أنفسهم الذين قاموا بفبركة هذه القصة المختلقة...".

ومن الأمور المثيرة في هذا المؤتمر أن يكون ثالث المتحدثين (في المؤتمر) برنارد لويس... إذ من المعروف لدى أي شخص على علم بدراسات الشرق الأوسط أن اسم برنارد لويس هو اسم أقل ما يُقال فيه إنه مثير للجدل؛ فليس من الواضح معرفة السبب الذي دعا مكتبة الإسكندرية لاختياره من بين كافة الأكاديميين الغربيين للحديث عن موضوع تناوله بالدراسة المسهبة قطاع عريض من المؤرخين.

وهنا يزداد استغرابنا للأمر عندما نعرف أن المنسق العام للمؤتمر، وهو الدكتور مصطفى العبادي،... يحدثنا عن أن لويس قد اعتذر عن عدم الحضور في البداية لكنه عدل عن موقفه بعد طلب من العبادي، وأرسل بمداخلته التي قام العبادي بقراءتها علينا... ويُلاحظ أن المضامين التي احتوتها مداخلة لويس قد اتخذت موقفًا دفاعيًا: فالمقولة التاريخية الزائفة المتعلقة بحريق المكتبة ما هي إلا اختراع عربي، وليست من فعل أي مستشرق، وكان المستشرقون هم أول من حاولوا دحضها..."[٧٧٠].

وفي عام ٢٠٠٥ نجد أمرًا مثيرًا وهو أن Acharay S[٧٧١]. يعود مرة أخرى إلى الخلط بين المكتبتين، ومع هذا يحدد المسئولين عن الحريق قائلاً: "كان حريق مكتبة الإسكندرية عام ٣٩١م واحدًا من أكبر الجرائم في التاريخ، حيث قام به متعصبون مسيحيون تنفيذًا لأمر تيوفيلو... وقد تسبب هذا التدمير في إحداث تخلف حضاري ربما يمتد إلى ما لا يقل عن ألف عام، كما زال من الوجود أيضًا

(770) Elbendary, "Definmg bibliotheca, -"Definiendo Ia biblioteca"-, Al-Ahram Weekly, Cairo, 2004.

(771) Acharya S, "The Christs Conspimncy",- "La Compiración de Cristo"-, pg. 558, Valdemar-Intempestivas, Madrid, 2005

ذلك الجزء من مكتبة الإسكندرية الذي كان يوجد في معبد سرابيس الذي اختفى هو أيضًا ...".

في العام نفسه - ٢٠٠٥ - نجد أن أو. خ. دون(٧٧٢)، يخلط بين المكتبتين لكنه يؤكد "وجود مقولة مختلفة تؤكد أن المكتبة قد تم تدميرها على زمن الغزو العربي... كما يعتقد الكثيرون أن هذه الرواية ما هي إلا هجوم مبكر دعائي مسيحي ضد الغزاة المسلمين... ويعتقد الكثير من الدارسين أنه بالإضافة إلى تدمير الكتب العلمية التي وجدها العرب، فإنهم حافظوا على أغلبها حتى تمكنوا من ترجمتها إلى العربية. وعلى أية حال، فخلال الأزمنة المعتمة التي عاشتها أوروبا نجد أن العالم العربي قد تحول إلى مركز للمعرفة... ومع هذا فمن الحقائق الواضحة هو أن ثُلة متعصبة من المسيحيين كانت مسئولة عن نهاية المكتبة، ومن هنا يصبح من المنطقي أن نتوقع بأن تقلق هذه الفعلة الأجيال اللاحقة، التي قررت العمل على محو أو تغيير الأدلة التاريخية على هذه الفعلة من أجل إخفاء معالمها ...".

وقمت في عام ٢٠٠٥ بإلقاء محاضرة لي في مكتبة الإسكندرية الجديدة حول الموضوع نفسه(٧٧٣) وعرضت اقتراحًا يمكن أن يكون بمثابة حل للغز. وأكدت أن تدمير المكتبة الكبرى كان على يد يوليوس قيصر أما تدمير السرابيوم ومكتبته فكان على يد تيوفيلو؛ وبالتالي رفضت المقولة التي تلصق بالعرب إحراق المكتبة الصغرى ونفيتها، ووصفت ما ورد في المخطوطات العربية بأنه "تزييف تاريخي" ارتكبه أبو الفرج. كما طرحت فكرة التابوه الذي كان يطوف بالمقولة الزائفة والمباعدة التي تعرض لها كتاب بوتي.

(772) Dunn, "The Andent University of Alexandria", -"La Anfigua Universidad de Alejandria", 2005.

(773) Jevenois, de, "The legend of the destruction of the Great Library of Alexandria by the Ambs: An historical forgery ", -"La leyenda. de Ia destrucàón de Ia Gran Biblioteca de Alejandríapor los Una. falsificarión histórica"-, Hemeroteca Bihliotheca Alexandrina, Alejandría, 2005.

وعند الانتهاء من الدردشة حضر مهنئًا بحماس ابن أخ الدكتور العبادي، ودعاني للمساهمة بنص محاضرتي في كتاب سوف يصدر عن الإسكندرية، كان يقوم بإعداده في تلك الآونة. فقبلت العرض لكنني في انتظار رده. وعلى أية حال حظيت محاضرتي بقبول شديد وانتشرت بين جموع الطلاب والأساتذة الجامعيين وفريق المكتبة الجديدة، ووصل الأمر في هذا المقام إلى أن أصبح أمرًا شائعًا وشعبيًا القول بوجود مكتبتين جرى إحراقهما الأولى على يد يوليوس قيصر والثانية على يد تيوفيلو، وأن أبا الفرج هو مخترع هذه الأكذوبة.

وفي نهاية العام التالي - ٢٠٠٦- صدر كتاب لعدة مؤلفين عن الإسكندرية لكل من أ. هرست، وم. سيلك[٧٧٤] وقام العبادي بتعديل تأكيداته السابقة حول حريق المكتبة الكبرى وأكد تأكيدًا قاطعًا أن المكتبة الكبرى احترقت على يد يوليوس قيصر، وأن المكتبة الصغرى احترقت على يد الرهبان التابعين لتيوفيلو حيث قاموا بتدمير السرابيوم بطريقة وحشية. والشيء الغريب أنه يذكر بوتي في هذا السياق، وبخاصة كتاب Fouilles، لكنه يذكره في معرض الحديث عن إشارة مرجعية معروفة جدًا لأنطونيو، وصمت صمتًا بالغًا عن وصف بوتي للسرابيوم، بعد ذلك بصفحات. إلا أن بوتي ورد ذكره في قائمة المراجع.

ويقول العبادي[٧٧٥] "بأن الإمبراطور تيودوسي... نشر مرسومًا عام ٣٩١م... وقام تيوفيلو، أسقف الإسكندرية، بالإشراف على الهجوم على السرابيوم... وكان من البدهي أن الهجوم على السرابيوم عام ٣٩١م قد قضى على كل من المعبد والمكتبة الصغرى التي كانت بداخله... (وابتداءً) من تلك اللحظة أصبحت مدرسة تعليم اللاهوت هي التي تسيطر على المشهد الثقافي، ولم يعد أحد يسمع بالحديث عن المتحف أو المكتبة". تتسم هذه الشهادة بالأهمية لأنها أول مرة يقوم

(774) Hirsr y Silk, "Alexandria, Real and Imagined", -Alejandría, Real e Imaginada", Amerluil U. Cairo, Cairo, 2006.

(775) El-Abbadi, "The Libmry of Alexandria in History", -"La Biblioteca de Alejandría en la Hiato . ria"-, 9, pgs. 172-174, en Hirst y Silk, "Alexandria", AUC, Cairo, 2006.

فيها مؤرخ مصري ذي شهرة عالمية بالحديث بوضوح عن الكارثة التي حاقت بالمكتبتين السكندريتين.

وبالنسبة للمقولة الزائفة ضد العرب، نجد العبادي يؤكد أنها ترجع إلى كل من عبد اللطيف وابن القفطي، وأقر بذلك رغم الشكوك الكثيرة التي تحيط بهذه الشهادات المتأخرة زمنيًا على الأحداث. وأكد في الوقت ذاته أن هناك بعض المؤرخين العرب اللاحقين، ممن كرروا المقولة، ومع ذلك لم يذكر اسم أي واحد منهم. لم يتعرض في مقالته لأبي الفرج. ومن ظهرا باعتبارهما مدلسين هما عبد اللطيف وابن القفطي.

وهنا يؤكد العبادي أنه في عام ٦٤٢م... فتح عمرو بن العاص الإسكندرية... وفجأة، أي في نهاية القرن الثاني عشر، ظهرت القصة التي تقول بأن عمرو هو الذي أحرق كتب المكتبة السكندرية القديمة، ووردت هذه القصة لأول مرة ـ بشكل موجز ـ عند عبد اللطيف البغدادي عام ٥٩٥ هجري (أي عام ١١٩٨م) (ويت ١٨٠٠م) وبعد ذلك كاملة عند ابن القفطي (في بداية القرن الثالث عشر) (ليبرت ١٩٠٢م) وعند مؤرخين عرب لاحقين... وهناك توافق عام بين الدارسين المحدثين على أن مكتبتي الإسكندرية قد زالتا من الوجود قبل الفتح العربي لمصر بزمن طويل، وقد حان الوقت ـ طبقًا لما يقول به لويس (١٩٩٠م) لتبرئة كل من عمر وعمرو بن العاص من هذه التهمة" ويُلاحظ أنه لم يشر إلى بعض الدراسات الحديثة اللهم إلا ب. لويس رجل المقولة الجديدة عن العرب.

يؤكد إس. أو. Shea[٧٧٦] ـ ٢٠٠٦ ـ أنه في سبتمبر ٦٤٢م رحل اليونانيون بسفنهم ودخل عمرو بجيشه، دون أن يجد مقاومة تُذكر، من بوابات أسوارها، واتخذ مواقعه في الإسكندرية. هناك كتابات لاحقة مناهضة للمسلمين تشير إلى أن جنود عمرو نهبوا مكتبة الإسكندرية الشهيرة في اندفاع بدوي ملؤه الجهل، إلا

(776) O'Shea, "Sea of Faith. Idam and Chrístianity in the Medieval Meditenanean World", "Un Mar de Fe. Liam y Cristianismo en el mundo dei Mediterrâneo medieval"-, pg. 52, Walker, New York, 2006.

أن هذه الحكاية رفضها الدارسون المحايدون، ذلك أن محتوى المكتبة كان قد تفرق أو دُمِّر في أثناء الصراعات الداخلية للمسيحيين وكان ذلك قبل وصول العرب بوقت طويل...".

ويطالعنا د. ليفرنج لويس[٧٧٧]، الحاصل على جائزة Pulitzer عام ٢٠٠٨م برؤية ذات وجهين حيث خلط بين السرابيوم وحي الصفوة، أي القصور البطلمية ونوّه بأن المكتبة الكبرى لم يطلها التدمير بكاملها على يد يوليوس قيصر، كما يؤكد أن المسيحيين والوثنيين هم الذين قاموا بتدمير مكتبة السرابيوم خلال القرن الرابع الميلادي. ولا يجانبه الصواب عندما يقول بأن عمرو، في رسالته إلى الخليفة عمر، وصف له عملية غزو الإسكندرية ولم يشر إلى السرابيوم. أي هذا المعبد الأسطوري الذي كان يضم ما بقي من المكتبة الكبرى، أي شيئًا من السبعمائة ألف كتاب. إلا أن الصراعات الدموية بين المسيحيين والوثنيين، في نهاية القرن الرابع، وكذا الشعور بالغضب من أنها كانت مصدرًا لتزويد مكتبات الأغنياء في المدينة، أدى إلى تدميرها.

لم يعرف عمرو بن العاص أو قوّاد جيشه بمكتبة الإسكندرية ولا يبدو أنهم قد سمعوا عنها إطلاقًا عندما دخلوا إلى هناك، وهذا ما يجب أن نبرزه لأنه بعد ذلك أعلن بعض رجال الدين والدارسين أن العرب دمروا المكتبة، التي لم تكن إلا ذكرى من ذكريات الماضي... كما لم يأمر عمر بن الخطاب قط بتدمير المكتبة التي تم نهبها لسبب بسيط يكمن في أن هذه الدراما الرهيبة قد وقعت في العقد الأخير من القرن الرابع الميلادي على يد المتعصبين المسيحيين السكندريين الذين بالغوا في تطبيق المرسوم الذي أصدره الإمبراطور تيودوسيوس ضد الوثنيين"[٧٧٨].

---

(777) Levering Lewis, "God's Crudble. Idam and the Making of Europe, 570-1215",- "Ei crisol de Dios. El Idam y Ia. comtrucción europeu, 570-1215"-, pgs. 82-83, Norton, New York-Lon-don, 2008.

(778) El-Abbadi y Fathalíah, " Qué k sucedia a Ia Antigua Biblioteca de Alejandria Brill", -Boston, 2008.

دعم رسمي "للرواية العربية للقصة المختلقة":

عندما تم نشر أعمال مؤتمر (ما الذي حدث لمكتبة الإسكندرية القديمة؟)، الذي عقد بالإسكندرية عام ٢٠٠٤، في كل من جامعتي ليدن وبوسطن تحت إشراف كل من العبادي وأو. م. فتح الله، نجد أن الدكتور العبادي(٧٧٩) يشير إلى أن من الواضح أن المعركة ضد العبادات الوثنية لم ترحم الكتب الوثنية أيضًا، وعلى ضوء ما رواه أنطونيو لا مجال للشك بأن الهجوم على السرابيوم عام ٣٩١م أدى إلى تدمير المعبد والمكتبة الملحقة به. ثم يعود العبادي ويشير إلى عالم الآثار بوتي(٧٨٠)، إضافةً إلى إشارة معروفة تتعلق بأنطونيو، لكنه رغم عنوان محاضرته يصمت عن كافة الأحداث الدرامية التي كشف بوتي النقاب عنها.

يؤكد إمبرور(٧٨١) من جانب آخر فيما يتعلق بتدمير المسيحيين "أنهم ربما لم يتمكنوا من تدمير المكتبة الكبرى نظرًا لأن الموقع الذي عليه معبد سرابيس - تدميره - كان يتطلب أيضًا نهب المكتبة الصغرى"... وليس المكتبة الكبرى القديمة.

نعثر في فهرست أعمال المؤتمر على مساهمة برنارد لويس(٧٨٢) التي ترجع إلى عام ٢٠٠٨ أي أنها إعادة طبع تكاد تتوافق تمامًا مع ما كتبه عام ١٩٩٠م بعنوان the Vnished Library(٧٨٣) حيث يشرح بإسهاب، لكن لا يسوق أي دليل،

---

(779) El-Abbadi, "Demise of the Daughter Library", -"Desaparición de Ia Bibliotectt Hoja"-, pg. 93. , Brill, 2008,

(780) Botti, "Acrópole d'Alexandrie...", 1895.

(781) Empereur, "The destruction of tbe Library of Alexandria. An arcbaeological viewpoint",- "La destrucción de Ia Biblioteca de Alejandría. Unpunto de vista arqueológico"-, pg. 76, Birll, 2008.

(782) Lewis, "TheArab Destruction ofthe Library of Alexandria: Anatomy of a Myth", - "La Destrucción "rabe de Ia Biblioteca de Alejandría: Anatomia de un Mito"", pgs. 213-218, Brill, 2008.

(783) Lewis, "The Vanished Library", 1990.

"الرواية العربية للمقولة المختلقة" ويوافقه الرأي أحد أنصار نظريته لكنه عربي هذه المرة.

إنه الدكتور قاسم عبده قاسم(٧٨٤) الذي أشار في بحث له، عام ٢٠٠٨، إلى رفضه لهذه المقولة. ومع هذا فقد سار على درب لويس محاولاً من جديد، تبرير الظهور المفاجئ لهذه المقولة الزائفة في مخطوطتين عربيتين ترجعان للعصور الوسطى، وبرر ذلك بأن الأمر عبارة عن اختراع أتى به العرب الشيعة المعارضين لصلاح الدين الأيوبي القائد السُني، لما أمر به من تفكيك كل ما بقي من "دار الحكمة"، أي مكتبة الفاطميين الشيعة في القاهرة.

وبهذا الموقف نجد أن الدكتور قاسم عبده قاسم يخطو خطوة أخرى في نشر "الاختراع العربي للمقولة" ويعطيها حق الوجود والاحتمالية ويُطلق عليها "الرواية العربية لتدمير المكتبة"، وقد استند إلى العبادي(٧٨٥) في نشر هذه المقولة غير المحتملة، وأنها "تزييف تاريخ آخر" يتعلق بالعرب، وهي رواية غير معروفة على مدى سبعمائة عام بين المؤرخين العرب الذين يُنسبون إلى الفرق الإسلامية المختلفة، كما تجاهلها الباحثون الغربيون نظرًا لعدم وجود الأدلة، كما لا يوجد أي نوع من التأييد لها إلا من كل من كازانوفا ولويس إذ هما كانا أول من ألقيا بدلوهما في هذا المقام. ويختتم قاسم عبده قاسم رؤيته بطريق منطقي جيد للغاية مشيرًا إلى أنه القصة العربية المتعلقة بتدمير المكتبة القديمة في الإسكندرية إنما هي مثال حيّ على استغلال التاريخ لأسباب سياسية بغض النظر عن الأسباب الكامنة وراء ذلك، وهذا ما كان يحدث في الماضي وما زال يحدث في وقتنا الراهن(٧٨٦).

---

(784) Qassem, "The Arab Story of the Destruction of tbe Ancient Library of Alexandria",- "La Hhtaflti rabe de Ia Destrucción de Ia Antigua Biblioteca de Alejandría"-, pgs. 207-211, Brlll, 21KIH,

(785) El-Abbadi, "Life and Fate of the Ancient Library of Alexandria"

(786) Qassem, "The Arab Story...", pg. 211.

نرى إذن وجود رواية أخرى لهذه المقولة الجديدة يؤكد من خلالها بعض المؤرخين العرب أن مؤلفيها لم يكونوا الشيعة بل هم أهل السُنة الذين كانوا يؤيدون صلاح الدين الأيوبي، إذ هم الذين قدموا هذه السابقة التاريخية التي خرجت من بين صفوفهم لتبرير مسلك صلاح الدين. هناك رواية ثالثة تقول بأن بغداد كانت تضم مجموعة من المؤرخين الذين يعارضون الخلفاء الأُوّل للمسلمين على أساس أنهم متعصبون. كل هذا لتبرير ما فعله عبد اللطيف البغدادي!.

هناك الكثير من المشاعر الشريرة التي تتوارى وراء هذه الاتهامات الخطيرة التي يتم التراشق بها في بداية القرن الحادي والعشرين على حساب الثقافة العربية بين الباحثين باتهام فرقة أهل السُنة أو فرقة الشيعة بأنها المسئولة عن الأمر، وهذا أمر غير مفهوم حيث إنهم يكيلون الاتهامات لأنفسهم. وبعد أن ألقى لويس بِطُعمه، أصبحت الأمور سهلة، حيث جرى الاشتباك بين الطرفين. لكن أيًا من هذا لن يقود للحقيقة، بل ما يسهم به هو القضاء على أي أثر للفاعل الحقيقي؛ وها هو أبو الفرج سعيد بما يحدث إذ تجنب المؤرخون العرب الإشارة إليه.

العرب هم الخاسرون الوحيدون في هذا السياق المتعلق ببث مقولة "الرواية العربية للقصة المختلقة" وذلك على مذبح عدم ذكر أبي الفرج، كما يتم تبرئة ساحة المذنبين الحقيقيين الذين كانوا وراء هذه الكارثة التي حاقت بالمكتبة. ويجري تأكيد ما ورد عند ابن القفطي في هذا المقام. أي أنه جرى ضرب عصفورين بحجر واحد. الأمر إذن هو أن "هذا التزييف التاريخي" أخذ يمتد بسهولة غير معهودة على شبكة الإنترنت، وجرى تكراره وكأنه حقيقة لا مراء فيها، بينما الأمر في حقيقته عبارة عن محاولة جديدة لإلقاء ظلال كثيفة على الأحداث التاريخية بالأكاذيب والصمت.

نرى ج. فرنانديث[٧٨٧] ـ عام ٢٠٠٨ ـ ينضم إلى وجهة نظر لويس والعبادي وقاسم عبده قاسم برفضه للرواية المختلقة، لكنه يشير إلى أنها ترجع في أصولها

(787) Fernandez, "La cristianización de la Filosofia antigua en Atenas y Alejandria", 2008

إلى ابن القفطي؛ فبعد الحديث عن "اعتداء المسيحيين على معبد السرابيوم عام ٣٩١م بقيادة تيوفيلو"، يقول المؤلف: "إن هذه المكتبات - أي مكتبة القصر الملكي والمتحف والسرابيوم في الإسكندرية - أضرمت فيها النيران على التوالي، في عام ٤٤ ق.م. وعام ٢٧٢م وعام ٣٩١م. ويعتبر غزو العرب للإسكندرية عام ٦٤١م، حدثًا مهمًا للغاية... (لكن) ليس لوجود الخبر الكاذب المتعلق بإحراق المكتبة على أيدي المنتصرين، فهذا أمر لم يحدث على الإطلاق...

أضف إلى ما سبق فإن القول بأن خوان، عالم القواعد، كان يعيش في زمن الغزو العربي لمصر إنما هو خطأ صراح... أي أن مقولة لقاء هذا العالم مع عمرو ابن العاص ربما ترجع إلى عالم البيليوغرافيا المسلم ابن النديم، في الفهرست الذي يرجع إلى عام ٩٨٧م... وبالتالي فإن الربط بين خوان عالم القواعد وحريق مكتبة الإسكندرية... تم نقله من خلال ابن القفطي، المؤرخ الذي توفى عام ١٢٤٨م وهو الرجل الذي سماه المسيحيون "فورلاني Furlani"...

من الواضح إذن أن هذه المقولة الزائفة تحولت إلى نبت له ألف فرع حتى لا تموت، وبالفعل نرى أن القليل من الكُتّاب يحاولون ضرب هذه الأكذوبة في مقتل لكنها تواصل إصرارها على البقاء بين ظهرانينا رغم بعض محاولات تجاوزها.

هنا نجد المؤرخ إتش. كندي[(٧٨٨)] - ٢٠٠٧، لا يخالجه الشك عندما يقول: "عندما نتحدث عن الإسكندرية الهلنستية نجد أن السرابيوم الشهير تعرض للنهب بناءً على أوامر أصدرها البطريارك تيوفيلو (٣٨٥-٤١٢م) وحوله إلى كنيسة... كما هرب آخر المثقفين الوثنيين خوفًا على حياتهم، في الوقت الذي ظل فيه الرهبان ينهبون كل ملامح الازدهار التي عاشها المعبد. وهناك مقولة زائفة تقول بأن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية وقضوا على الموروث الأدبي

(788) Kennedy, "The Great Arab Conquests. How the spread ofíslam changed lheworld we live in-"Las Grandes Conquistas rabes. Como Ia expamión del Islam cambió el mundo en vivimos pgs. 141-142, Ed. Phoenix, London, 2007.

الكلاسيكي، وهي مقولة ترجع إلى زمن طويل وما زالت تجري على ألسنة وأقلام من يريدون إلحاق الأذى بالإسلام في عهوده الأولى...". وهنا يجب علينا أن نتوجه بالشكر إلى كندي الذي اتخذ موقفًا شجاعًا وأدان الأسباب الحقيقية التي لا تزال تغذي هذه المقولة، وكان هو الباحث الذي اتخذ موقفًا جديدًا إزاء هذه المقولة وتجاهلها لدرجة عدم ذكرها على الإطلاق اللهم إلا هذه الإشارة القصيرة في معرض حديثه عن غزو العرب للإسكندرية.

نقد النصوص:

هناك شيء مثير للانتباه، وهو أن أبرز الذين يرفضون المقولة يصفونها بالزائفة يعتمدون في رأيهم على معطيات تاريخية وآثارية. غير أن هناك مناهج علمية أخرى لفك طلاسم الموضوع وإنقاذ الباحث من الخداع، وهي مناهج دقيقة تحاول أن تدخل إلى شغاف الروح التي كان عليها أبطال الأحداث، وهنا نقول إننا نتلمس الدرب الذي سار عليه ب. د. إيرمان[٧٨٩] الذي تحدث عن "نقد النصوص" في علم الفيلولوجيا، وهذه أداة يمكن أن تساعدنا في الحصول على المفاتيح الضرورية لفهم مشاكل هذه المقولة وهي مشاكل ظلت دون أي تفسير، أي المفاتيح النفسية التي سوف تساعدنا على فهم السبب في أن هذه المقولة عبارة عن "دس نص على النص الأصلي". والكشف عن المستفيدين من هذه المقولة ومن يلحق المزيد من الأذى.

يوجد في المخطوطات القديمة نوعان من التعديل يتم إدخالهما على المتون، أحدهما هو ما يمكن أن نطلق عليه "التبديل غير المقصود" أي الأخطاء التي يقع فيها النسّاخ لحظة تدوينهم النسخ. وعندما نطلع على "البدهيات الخارجية أو النصية"[٧٩٠]، أي على دراسة مخطوطة أو اثنتين يمكن لنا التوصل إلى التصحيح

(789) Ehrman, "Misguoting Jesus", -"Citando incorrectamente a Jesus"-, pgs. 151 y ss., HarperSan Francisco, 2005; Paperback Ed., 2007.

(790) Ehrman, "Misquoting...", pgs. 90,128.

والكشف عن النص الأصلي. وهنا نقول إنه من المهم للغاية أن نعرف بالمفردات والأسلوب القاعدي الذي يستخدمه كاتب ما، إذا ما أردنا تأويل وتفسير ما تركه لنا، وهذا حقل علمي ضخم يجب أن يصول فيه علماء الفيلولوجيا والمستعربين، وفي الحالة التي بين أيدينا نجد أننا أمام ما لا يقل عن أربعة نصوص، أحدهم النص الخاص بأبي الفرج، الأول الذي عُرفت المقولة عن طريقه، ثم نص عبد اللطيف، ونص ابن القفطي، الذي يفترض أن الزوزني قام بتقديم مختصر له وهذا الأخير هو النص الرابع.

غير أن هناك أيضًا صنفا آخر من التعديلات وهو المسمى "التعديل المقصود" وهذا صنف من الصعب كشفه وإلغائه، فكما يقول ب. د. هرمان[٧٩١] هذه التعديلات "لها مغزى" في النص حيث يتم إدخالها بعمق وكأنها فيروس من أجل تغيير معناه ومقصده وتجعله يبدو من هذه اللحظة على أنه النص الأصلي ويحل بالفعل محله. وبالتالي يجب أن ندرس ما يُطلق عليه "البدهيات الداخلية" للنصوص وإلقاء الضوء على الكُتّاب الذين تم تزييف أعمالهم ـ ابن القفطي وعبد اللطيف في حالتنا هذه ـ وكذا على الناسخ المزوّر، أبو الفرج، أو أي ناسخ آخر.

وفي إطار "البدهيات الداخلية" نجد اتجاهات تحاول دراسة توجهات المؤلف الأصلي، والسمات النفسية للمؤلفين ونمط حياتهم وتفكيرهم. أي إننا أمام ما يُطلق عليه "احتمالات جوهرية" للنص، والتي تتمثل في دراسة الاحتمالات التي يمكن أن يُنظر إليها على أنها هي التي يميل إليها المؤلف بالفعل؛ وبذلك يجب أن تتم أيضًا دراسة إيديولوجية المؤلف ومعتقداته الدينية. ويرى هرمان أنه "عندما يستخدم المؤلف المحتمل أو المفترض، كلمات أو أسلوبًا لا توجد في مؤلفات أخرى له، أو أن هذا التدليس أو الإضافة التي أدخلها إنما يمثل وجهة نظر مختلفة بشدة عن التوجه الذي عليه المؤلف في حالات أخرى، عندئذ القول بأن هذا النص لا يُنسب إلى قائله... مثل تأكيد أمر غريب أو صارم..." [٧٩٢].

---

(791) Ehrman, "Misquoting...", pgs. 94,151.

(792) Ehrman, "Misquoting...", pgs. 130-131.

كان ابن القفطي أو عبد اللطيف من المؤرخين المسلمين الثُقاة في العالم العربي، ولم يكن لهما أي دافع لقذف وسب الشعب الذي إليه يُنسَبان والتقليل من شأن ديانته وتاريخه. وبالتالي فإن ما جاء عندهما من الأقوال المفترضة التي تحدثنا عنها ما هي إلا أمور غريبة لا تصدر من مثل هؤلاء. كما أنها نصوص تظهر فجأة دون أي سياق سابق ينبئ عن حقد دفين على الشعب يدفعهما إلى خيانته على زمن الحروب الصليبية. ولو كانوا قد فعلوا ذلك لتعرضوا للكثير من المتاعب على الصعيد الاجتماعي، بسبب أمر لا يتوافق مع نمط حياتهم أو منهج تفكيرهم. كانوا من العلماء الشهيرين في الثقافة العربية آنذاك، ولم يكونا من المزيفين أو المرتشين.

هناك على الساحة أيضًا ظهور لمقولة "الرواية العربية للقصة المختلقة" للدفاع عن صلاح الدين، نشرها ب. لويس[٧٩٣] وسار على دربه (وهذا ما نستغربه) عدد مهم من الباحثين العرب المعاصرين وهذا ليس الحل الأمثل على الإطلاق بل هو عبارة عن مادة جديدة تلقي بظلالٍ كثيفة على الموضوع، وهو حل ظهر من العدم. إنه "الرواية العربية للقصة المختلقة" الذي يبدو أنه تأويل مُبالغ فيه لما يُسمى "بالبدهيات الداخلية" للنصوص قام به لويس، ذلك أنه يتجاهل بما فعل الحدث نفسه وهو أن النص المفترض للقفطي يظهر فقط في العصر الحديث، كما لا يضع في الحسبان رد الفعل برفض المقولة المختلقة على يد العرب خلال العصور الوسطى، باتهام أبي الفرج أو تجاهل الأمر تمامًا.

لم يخطر ببال أي من المعاصرين له، ولا حتى ببال المقريزي، بعد ذلك بقرن من الزمان، أن يتهم كاتبًا له وزنه، وهو عبد اللطيف، بأنه الوحيد الذي كان معروفًا ومرتبطًا بهذه القصة حتى القرن العشرين، وأنه الذي باع نفسه لحساب قضية سياسية وجرؤ على اختراع قصة مناهضة للعرب على هذه الشاكلة، في

(793) Lewis, "The Vanisheã Library", 1990; "The Amb Destruction of the Library of Alexandria Anatomy of a Myth", 2008.

خِضَمّ الحرب الأهلية. ويمكن أن ينسحب الشيء نفسه على النص المفترض للقفطي. إنه طبقات من اللامعقول تتراكم فوق بعضها، وأمام هذا يختفي المنطق في إطار هذا التفسير الغريب. وطبقًا لهذا التأكيد لم يكن العرب، لكنهم هم الذين ابتدعوا القصة وبالتالي تمكن الطرح الذي قدمه لويس من إنقاذ أبي الفرج من جديد، أي ذلك الذي ينجو دائمًا من هذه الفعلة الخائنة، ونجاه منها الكُتّاب العرب من ذوي القامات المهمة. غير أن هذا الطرح الذي جاء به لويس يتصادم بشكل واضح مع "البدهيات الداخلية" للنصوص و"الإمكانيات الجوهرية لها".

هناك طريقة أخرى للكشف عن "البدهيات الداخلية"، وهي تأتي من خلال ما يُطلق عليه "احتمالات النسخ" أي بتوجيه الاهتمام بالشخص الآخر وهو الناسخ. وفي هذه الحالة - طبقًا لهيرمان - "لا يُسأل عن ذلك الذي يمكن أن يكون المؤلف قد كتبه في الأصل بل عن ذلك الذي يمكن أن يكون قد أبدعه الناسخ وذلك حتى يجعل معنى النص المصحح أقرب إلى إيديولوجيته. وهناك نصوص تتضمن ظاهريًا "خطأ" أو عدم اتساق مع توجه ديني خاص الأمر الذي يجعلنا نميل إلى أنها نصوص تم إدراج نصوص عليها من خلال الناسخ...

هناك مسألة أخرى مهمة تتعلق بالسبب الذي دفع إلى تغيير هذه الكلمات أو إضافة أخرى، وكيف أن هذه التغييرات تؤثر على مضمون ما هو مكتوب... وعلى هذا يمكننا أن نعرف الأفكار المستكنة وراء إيديولوجية الناسخين، كما سنعرف بشكل أفضل التاريخ الحقيقي للنصوص التي أعيد نسخها على مدار القرون... كان الناسخون يقومون بعملية التبديل ليقولوا ما كانوا يريدون هم قوله، دفاعًا عن قناعاتهم الدينية أمام مناوئيهم..."[٧٩٤].

يختتم هيرمان قائلاً: "يعتبر السياق التاريخي الذي يعيش فيه الناسخ أكثر العناصر تأثيرًا على ما يقوم به من تعديل، ومن العناصر المهمة في هذا المقام

---

(794) Ehrman, "Miscjuoting..", pgs. 131-132.

الأزمات السياسية أو الاجتماعية... كما نعرف أن الناسخين هم بشر مثلنا وكثيرًا ما يدخلون في المناقشات والمجادلات السائدة في عصرهم، وأحيانًا ما تؤثر عليهم هذه المناقشات السائدة في عملية إعادة إنتاج النصوص التي ينسخونها؛ المحصلة أنه بعد تعديل النصوص نجد أن الكلمات تعني حرفيًا شيئًا مختلفًا وهي كلمات تؤثر بشكل واضح على فهم النص عند القراء اللاحقين..."(٧٩٥).

وطبقًا لـ Acharya نجد أن إحدى الحيل الشهيرة لتحريف النصوص... تتمثل في أن يُضاف إليها فصل سواء في البداية أو النهاية... وبهذا فإذا ما تم اكتشافه من خلال المقارنة بالنُسَخ الأقدم (التي عادةً ما يتم التخلص منها بعد نسخها) أو بالمقارنة بكتب فيها إشارة إلى الكتاب محل الذكر، وكان من الممكن تبرير ذلك على أنه "ملاحظات الناسخ" لمزيد من إيضاح النص. من المعتاد أيضًا أن يصدر من الكتاب عدد قليل من النسخ... وبالتالي ليس من الصعب تغيير النص دون اكتشاف ما تم..."(٧٩٦).

نجد كل هذه العناصر السابقة كاملة في شخص أبي الفرج ومعتقداته والسياق السياسي والاجتماعي الذي كان يعيش فيه فهو راهب تحول إلى المسيحية وهو مسيحي من أتباع المذهب القائل بالطبيعة الواحدة، من سكان حلب ومن النشطاء خلال الحروب الصليبية بصفته كاتبًا للعديد من النصوص. نود أن نشير أيضًا إلى أننا كشفنا النقاب سابقًا عن الدوافع الإيديولوجية وهي محاولة العمل على محاباة أنصاره وأتباعه في الديانة، كما يمكن لنا أن ندرك معالم المنهج البسيط والجريء الذي لجأ إليه، وكذا التاريخ الذي كان يجب أن تتم فيه هذه الخطوات المتعلقة بالتحريف. وتشير كافة المعطيات التي درسناها إلى أنه قام بدور الناسخ الذي تعمد تزييف النص الأصلي؛ غير أن الأمر الذي لا نفهمه هو قيام آخر بارتكاب عملية تحريف أخرى، أي تحريف نص ابن القفطي، ولم

(795) Ehrman, "Misquoting...", pg. 175.

(796) Acharya, "La Conspimción de...", pg. 579.

يكن من قام بذلك يعيش خلال العصور الوسطى بل كان في العصر الحديث تأييدًا للعجوز أبي الفرج.

نرى إذن، من خلال "نقد النصوص" المتعلق بالمقولة المختلقة عن العرب أنها لا تدخل فقط في باب "البدهيات الخارجية" ولها عدة نصوص مختلفة، بل تدخل أيضًا في باب "البدهيات الداخلية" سواء كانت "الاحتمالات الجوهرية" التي قام بها المؤلفون الحقيقيون، أو كانت "الاحتمالات النسخية" التي يقوم بها الناسخ. نجد إذن أن كافة هذه العناصر البدهية الفيلولوجية إنما تبرهن لنا من جديد - اعتمادًا على سبر الأغوار التاريخية للحالة - أننا أمام عملية "تعديل مقصود" للنص الأصلي أو النصوص الأصلية قام بها ناسخ محترف، وهي عملية تحريف وتزييف للنص.

وها هو البروفيسور ج. فورلاني، من فلورنسا، ينشر مقالة نقدية أدبية(٧٩٧) عام ١٩٢٥م وصل فيها إلى خلاصة تتعلق بالنص الذي ورد عن ابن القفطي... وينسحب ذلك على أبي الفرج - قائلاً: "يمكن أن أبرهن... على أن كل ما يتعلق بالحريق - أي قيام عمرو بن العاص بإحراق الكتب - ليس إلا مجرد اختراع أدبي محض ومن وحي خيال المؤلف في أغلب مكوناته... يلاحظ أيضًا أن العلاقات بين Philoponus وعمرو بن العاص كانت مجرد اختراع أدبي... كما يمكن القول أيضًا بأن الكاتب كانت له مؤلفات لبعض القصص المتعلقة بالطب... وأنه ربما استقى قصة رسالة عمر إلى عمرو من هذا الحقل... ولا يخالجني شك في أن قصة رسالة عمر إلى عمرو بن العاص والرّد عليها ليس إلا محض اختراع من وحي خيال المؤلف".

---

(797) Furlani, "Giovanni il Filopono e l'incendio delia Biblioteca de Alessandria",- Juan Filopono y el incendio de Ia Biblioteca de Alejanaría", n. 21 dei Bulletin de Ia Sodété d'Alexandrie", pgs. 59-68, Alexandrie, 1925.

يؤصل فورلاني حديثه: "قام المؤلف بالتوليف بين الأحداث بشكل عبقري وابتكر قصة تدمير المكتبة... وهذا سرد لا يخلو من شيء من الدرامية... وربما يكون المؤلف على زماننا روائيًا ماهرًا، لكن ذلك لا يعني بالضرورة أن هذه أفضل طريقة لكتابة التاريخ... فلقد اخترع قصة إحراق الكتب في حمامات المدينة... كما أن كل روايته في هذا المقام، حول تدمير المكتبة إنما هي محض اختراع... لا يمكن النظر إلى رواية المؤلف على أنها مصدر تاريخي أصيل... واعتبارًا من الآن لن يكون من المنطقي أن نتساءل حول ما إذا كانت كتب المكتبة قد أحرقت في الحمامات أم لا... لأننا لو فعلنا ذلك فإننا نعطي قيمة للنص على أنه مصدر تاريخي، وهذا عكس ما برهنت عليه سلفًا أي أنه محض إبداع أدبي وخيالي.

رهائن التابوهات والأكاذيب والصمت:

أخذنا نسير في دروب ودهاليز قصة من القصص الغامضة، مليئة بالدسائس والمخاوف والكثير من الصمت، ووصلنا إلى نهاية المطاف بعد التجوال عبر القرون وتمكنا من تجاوز تابوهات مستحيلة واتهامات مزيفة تحولت إلى حقائق تافهة قبلها الجميع، ولم يكن هناك أي مضمون، الأمر كله محض اختراع وأفكار خاطئة وتشدد ديني ومعضلات مفتعلة. السرّ الأعظم ما هو إلا اختراعات وأكاذيب، غير أننا كسرنا حاجز الصمت الجاثم وأخذت تتضح معالم كل شيء.

علينا أن نعترف "أن التزييف التاريخي" الذي قام به أبو الفرج كان لعبة عبقرية نجحت نجاحًا باهرًا إذ استطاعت أن تظل صامدة وسط الظلمة والنور اللذين عليهما هذه التابوهات وذلك الصمت الذي خيم بظلاله على هذا الغموض المزيف المتعلق بتدمير المكتبتين السكندريتين. فكرة عبقرية، فقد تم ارتجالها خلال القرن الثالث عشر، وأصبح هذا الابتكار الصادر عن شخص واحد أداة تتهم العرب على أنهم المسئولون عن النهاية المأساوية لكل هذه الثقافة المزدهرة في العالم القديم، التي تجمعت أركانها على أرفف مكتبة الإسكندرية الكبرى.

هي فكرة عبقرية ذلك أن هذه الرواية المقصودة للقصة المختلقة، وهذا "التزييف التاريخي"، وهذه الأكذوبة التي لم تقدم أي معلومة تاريخية تعطي مصداقية لهذا الاتهام الفظيع، بغض النظر عن كتابات عربية مشكوك في صحتها، نقول استطاعت هذه الفكرة أن تنتشر في الغرب، وانتشلها إصلاحيون بروتستانت خلال القرن السابع عشر وعلى رأسهم بوكوك، وظلت صامدة وتكررت بشكل فيه إلحاح وعدم وعي في زماننا في كافة وسائل الإعلام. هل ذلك هو عمى جماعي أو صدام ثقافات؟

وعندما نأخذ في الحسبان كافة الوقائع التي قمنا بتحليلها في هذا الكتاب يصبح من الواضح أن هذه المقولة المختلقة حول تدمير مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما هي من وحي خيال مؤلف واحد، ولهذا لا يوجد أي معنى لأن نسلط جهودنا على الجوانب المختلفة لهذه المعضلة المزيفة ونحاول أن نكتشف فيما إذا كان عمر بن الخطاب قال ما يفترض أنه قاله أو أنه أمر بإحراق الكتب. وإذا ما انسقنا وراء ذلك فإننا نعطي مصداقية "لتزييف تاريخي" ونباعد أنفسنا عن النقطة الجوهرية في القضية الحقيقية، وهي أن نعرف فيما إذا كانت في الإسكندرية مكتبة عامة كبيرة وقت مجيء العرب إليها أم لا. وعندما نفعل ذلك فإننا ننحي جانبًا كافة الأبحاث التاريخية التي تقودنا إلى خلاصة تقول بأنه لم يتبق شيء من المكتبات الملكية في الإسكندرية بعد القرن الرابع الميلادي، وأن العرب بالتالي وصلوا متأخرين جدًا إلى مسرح الأحداث.

وفيما يتعلق بعمر أو بالنحوي فيلو برنس وعلاقته بالمكتبة الكبرى في الإسكندرية التي ما زال هناك بعض الباحثين يعملون على سبر أغوار تاريخها حتى اليوم، فإن ذلك يخرج عن القضية. وبالتالي فإن هذه الاعتبارات لا معنى لها إذ لا تقوم على وقائع تاريخية بل تقوم على خيالات، وإشارة إلى كاتب واحد خلال القرن الثالث عشر، بغض النظر عن كونه مسلمًا أو مسيحيًا، غير أن هذا لا يهم في نهاية المطاف. فما أمكن لهذا المزيِّف أن يخترعه ليس له علاقة بالواقع أو

التاريخ، وعلينا أن ننحيه جانبًا بعد أن عرفنا كل ما عرفنا فيما يتعلق بالتاريخ في الوقت الحاضر وبعد أن عرضنا لإسهامات أبرز الكُتّاب خلال العصر القديم المتأخر والكُتّاب خلال العصور الوسطى والحفائر الآثارية والمنظور التاريخي الذي نحظى به اليوم.

ما زلنا رهائن لألاعيب أبي الفرج التي ابتكرها خلال القرن الثالث عشر، ولما فعله بعض البروتستانت خلال القرن السابع عشر، وربما ما قام به بعض المتشددين المسيحيين خلال القرن العشرين حيث قام كل هؤلاء بتدليس تاريخنا. ما زلنا أيضًا رهائن سلسلة لا تنتهي من التابوهات والأكاذيب والصمت. كيف أمكن لبعض الأفراد أن يدلسوا ويغيروا صفحة أساسية من ثقافتنا الغربية؟ وكيف يمكن أن نظل نقدم لهم المصداقية ولا نرفض ما يقولون وهذا هو ما يستحقون؟ لقد فقدنا صفحة من صفحات تاريخنا؛ مقابل ماذا؟ لقد اتجه الغرب الأوروبي نحو العلمانية وحرية العقل باعتبارهما وسيلة للمعرفة، وفي هذا المقام، ومع هذا، نجد أننا نتمسك بالسراب ولا نرفض هذه المقولة المختلقة. لماذا؟.

ما الذي سنفعله؟ وكيف سنتمكن من أن نتعرف على أنفسنا؟ نرى في نفق الزمن مجموعة من الأكاذيب تتدحرج فيه وتسير مع التيار وكأنها قطار دون فرامل. فهل سنظل مبقين على وضع المرآة مقلوبة حتى لا نرى أنفسنا؟ وهل سنظل نقبل هذه الصورة الزائفة التي تقولبت فيها صورنا المنعكسة في المرآة؟ هل سنتمكن من النظر إلى الماضي دون أن نحدث به خللاً؟ أو أن المكتبة الكبرى في الإسكندرية ستظل العقبة الكئود بشكل يجعل البحث عن الحقيقة يتحول إلى أكذوبة، كما أننا غير قادرين مباعدة التشدد الديني من المرآة التي نُطِّل فيها على ماضينا؟.

إن العبارة الشهيرة والخبيثة التي ألصقت بعمر: "إذا ما كانت الكتب... وإلا... فأحرقوها"، لم تكن إلا اختراعًا ضارًا جدًا خرج من بين يدي أبي الفرج، وأعاد إدوارد بوكوك طباعة هذا "الزيف التاريخي" الذي ما زال يتردد في أرجاء العالم

الغربي وأصبح مماثلاً للسلوك البربري ضد الحضارة، والصراع بين الشر والخير... غير أننا سوف نكتشف من خلال لعبة المرايا هذه أن من لم يكونوا كانوا، ومن هم، لم يكونوا.

في لحظة ما سوف ينفجر كل شيء ويتحول إلى شظيات، ولن نستطيع تحمل الموقف. عمر بن الخطاب لم يقل هذه العبارة والعرب لم يصلوا وقت تدمير المكتبة، وكنا نحن أيضًا متعصبين!.. وسوف يتحول حريق المكتبة الكبرى إلى نموذج يكشف لنا إلى أي حد يمكن للتعصب والجنون أن يسهما في تخلف البشر، وسوف تعود المرايا من جديد وفيها سوف نرى أنفسنا فقط. ولن نفر من لعبة الأخيلة هذه... نعم... كنا نحن.

لوحة التدرج الزمني للأحداث

القرن	الحُكّام	البطارقة	الأحداث	الكُتّاب والفلاسفة	الكتاب
الثالث ق. م	- بطليموس الأول (٣٥٠-٢٨٢) - بطليموس الثاني (٢٨٥-٢٤٦) - بطليموس الثالث (٢٤٦-٢٢٢)		- تأسيس المتحف والمكتبة الكبرى (٢٩٥) في الحي الراقي. - تأسيس ملحق المكتبة (٢٥٢). - تأسيس المكتبة الصغرى والسرابيوم		
الأول ق. م	- كليوباترا السابعة (٥١-٣٠ ق. م) - يوليوس قيصر (١٠٠-٤٤) - مارك أنطونيو (٨٣-٣٠) - أسرة يوليوس كلاوديو (٢٧ق.م - ٦٨م) - أوكتابيو أوجستو (٢٧ق.م-١٤٠م)		- هدم وإحراق المكتبة الكبرى (٤٨). - نهب مكتبة برجامو. - تأسيس القيصرون والمكتبة. - ما بقي من المتحف.	- يوليوس قيصر	- تعليقات حول الحرب الأهلية
الأول الميلادي	- كلاوديو الأول (٤١-٥٤) - دوميثيانو (٨١-٩٦) - أسرة أنطونينا (٩٦-١٩٢)		- تأسيس المتحف الروماني إلى جوار المكتبة الصغرى (٥٤). - إعادة بناء المكتبات.	- تيتوليفيو	- تاريخ روما

القرن	الحُكّام	البطارقة	الأحداث	الكُتّاب والفلاسفة	الكتاب
القرن الثاني الميلادي	- أدريانو (١١٧-١٣٨) - أنطونينويو (١٣٨-١٦٦) - كومودو (١٨٠-١٩٢) - سبتمو سيفيرو (١٩٣-٢١١)		- أول ذكرى لحريق المكتبة الكبرى. - توسعة السرابيوم. - أول ذكرى لمكتبة الإسكندرية. - تأسيس مدرسة العماد (١٨٠-١٩٠). - تأسيس مدرسة الأفلاطونية الجديدة (١٩٣م). - كتابات مصرية إلى التروما.	- بلوتاركو خليو توليانو باثنينو أمونيو ساكاس	- حيوات، قيصر، ليالي أتيكا تقريظ
القرن الثالث الميلادي	- سبتمو سيفيرو - كاراكالا (٢١٢-٢١٧) - جورديانو الثالث (٢٣٨-٢٤٤) - أورليانو (٢٧٠-٢٧٥) - دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥)		- إغلاق مؤقت لمدرسة العماد (٢٠٣). - الأفلاطونية المسيحية - مقاطعة المتحف (٢١٥). - الإغلاق المؤقت للمدرسة (٢١٥). - ظهور أورجنيس. - هدم caserion. - عصر الشهداء (٢٨٤).	- كليمنت السكندري - أورجنيس - أفلوطين	
ق ٤م	- قسطنطين١ (٣٢٣-٣٢٧) - قسطنطين٢ (٣٢٧-٣٦١) - جوليانو (٣٦١-٣٦٤)	أثاناسيو (٣٢٦-٣٧٣) جورج السكندري (٣٥٦-٣٦١)	- انتشار الأريانية (٣١٨). - ظهور مذهب الرهبانية (٣١٨) - مجمع نيس (٣٢٥).	- أرمو باكوميو - إبيفانيو دي سلامينا - إيونابيو دي أنطاكية	- "حول المكاييل والمقاييس" - "حياة إيدسيو" - "التاريخ الروماني".

القرن	الحُكّام	البطارقة	الأحداث	الكُتّاب والفلاسفة	الكتاب
	- بالنتي (٣٦٤-٣٧٨) - تيودوسيو الأول (٣٧٩-٣٩٥)	تيوفيلو (٣٨٥-٤١٢)	- حرق الكتب (٣٢٣) - تدمير الموروث الوثني. - تدمير الكتب. - الإغلاق المؤقت للمكتبة. - التسونامي (٣٦٥). - إحراق كتب الهرطقة - زوال المكتبة الكبرى ومتحف حي الأغنياء. - التمسيح: الديانة الوحيدة للدولة. - مرسوم عام ٣٩١ ضد المعابد الوثنية وهدم السرابيوم والمكتبة الصغرى (٣٩١). - بقاء المدارس الوثنية - دروس هيباتيا (٣٩٣). - إقامة عمود تيودوسيو. - إغلاق المكتبة (المكتبة الدينية) (٣٩٨).	- أميانو	
ق ٥م	- تيودوسيو الثاني (٤٠٨-٤٥٠)	تيوفيلو سيريلو (٤١٢-٤٤٤) ديسقور (٤٤٤-٤٥٤)	- تأسيس الكنائس. - إعادة بناء المتحف. - إحياء مدرسة الأفلاطونية الجديدة. - اغتيال هيباتيا (٤١٥).	- سنسيو دي سيرني - أوليمبيا دورو العجوز - هيباتيا - أوسوريا	- "ضد الوثنيين" - "قاعات كوم الدكة"

القرن	الحكّام	البطارقة	الأحداث	الكُتّاب والفلاسفة	الكتاب
			ـ أول ذكر: مسيحيون يقومون بتدمير المكتبة الصغرى (٤١٦). ـ استمرار المكتبة الأفلاطونية الجديدة. ـ تأسيس المدرسة الإمبراطورية في القسطنطينية (٤٢٥). ـ افتتاح مدرسة العماد (٤٤٤). ـ مجمع كالثيدونيا (٤٥١). ـ تدمير النصوص الوثنية. ـ ميلاد الكنيسة القبطية. ـ إغلاق مكتبة العماد في القسطنطينية (٤٥٠). ـ الوثنيون والمسيحيون في مدرسة الأفلاطونية الجديدة. ـ إغلاق مكتبة إيديسا (٤٨٩). ـ هروب النسطوريين إلى فارس.	ـ أمونيو دي إيرميا ـ مايشريد	

القرن	الحُكّام	البطارقة	الأحداث	الكُتّاب والفلاسفة	الكتاب
			ـ افتتاح مكتبة المترجمين نيسيبي. ـ ظهور المدرسة المسيحية في الإسكندرية وفيليو بوني (F.S.V).		
ق ٦م	جوستيان		ـ بقاء المدرسة الأفلاطونية ومدرسة الطب في الإسكندرية. ـ الإشارة إلى Te-menos de las musas (٥١٨). ـ إغلاق مكتبة الأفلاطونية الجديدة في أثينا (٥٢٩). ـ بقاء مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية. ـ هروب العلماء إلى فارس (٥٣١). ـ التيار الأفلاطوني الجديد ـ مذهب الطبيعة الواحدة (٥٣٣). ـ آخر الفلاسفة الوثنيين.	زكريا الأسكولستي هليو دورو فيلو بونوس أولمبيادورو الشاب إلياس داوود خوان دي أبـاميـا	ـ حياة سيفيرو. ـ ضد بروكلو.

القرن	الحُكّام	البطارقة	الأحداث	الكُتّاب والفلاسفة	الكتاب
			- تحول المدرسة الأفلاطونية الجديدة على يد مدراء مسيحيين. - دائرة أتباع مذهب الطبيعة الواحدة من المترجمين. - تدمير الأدب الكلاسيكي. - انتقال المعارف إلى سوريا والشرق.		
ق ٧م	هيراكليو (٦١٠-٦١٤)	أندريكو (٦١٦-٦٢٣) ثيرو (٦٣١-٦٤١) بنيامين الأول (٦٢٣-٦٦٢)	- استمرار مدرسة الأفلاطونية الجديدة في الإسكندرية (٦١٧) - غزو فارس (٦١٩). - استمرار المدرسة المسيحية. - إعادة غزو بيزنطة (٦٢٩-٦٣٩). - الغزو العربي لمصر (٦٣٩-٦٤١). - غزو الإسكندرية (٦٤١-٦٤٢). - إعادة غزو الإسكندرية (٦٤٦). - إغلاق المكتبة المسيحية (٦٤٦).	استبان السكندري عمرو خايمي دي إيديسا	- خطاب إلى الخليفة عمر.

القرن	الحُكّام	البطارقة	الأحداث	الكُتّاب والفلاسفة	الكتاب
			- استمرار مكتبة الأفلاطونية الجديدة (٦٨٠). - استمرار دائرة الأفلاطونية الجديدة ذات مذهب الطبيعة الواحدة للمترجمين (٦٩٣).		
ق ٨م	عمر بن عبد العزيز (٧١٨) الخلفاء العباسيون (٧٥٠-٨٥٠)		- نقل أكاديمية الإسكندرية ومكتبة أنطاكية (٧١٨). - انتقال جديد إلى Harran, Marw.		- "Menalogium Basiliarum"
ق ٩م	المأمون (٨١٣-٨٣٣)		- تأسس "مجلس العلم" ومدرسة المترجمين في بغداد (٨١٣). - ابتداء شخصية القديسة كاترين السكندرية.	باسيليو	
ق ١٠م	المقتدر (٩٠٨-٩٣٢)	يوحنا بن حيلان	- نقل مدرسة الأفلاطونية الجديدة والمكتبة إلى بغداد (٩٠٨). - ازدهار مدرسة الأفلاطونية الجديدة النسطورية في بغداد (٩٣٠-٩٥٠).		

القرن	الحكّام	البطارقة	الأحداث	الكُتّاب والفلاسفة	الكتاب
ق ١٢م	العزيز بالله (١١٦٣-١١٦٩)		- توجد الفرنجة في الإسكندرية (١١٦٧). - عمود بومبي، الخاص بالصليبين.		
ق١٣م			- أول ظهور للرواية المختلفة ضد العرب صمت ورفض عربي.	عبد اللطيف (١٢٠٠) ياقوت (١٣٢٧/١٣٨١) القفطي (١١٧٢-١٢٤٨) الزوزني (١٢٤٩) أبو الفرج بارايبرايوس (١٢٢٦-١٢٨٦)	"مصر" القاموس الجغرافي مدرسة العلماء مختصر تاريخ العرب (حولية)
ق١٤م			- ظهور رواية أخرى مختلفة وموازية في فارس.	ابن خلدون	- مدخل إلى التاريخ
ق١٦م			- دحض المقولة المختلقة.	مارمول	- وصف أفريقيا
ق١٧م			- الاستعراب في أوروبا. - البحث عن مخطوطات عربية. - نشر المقولة المختلقة ضد العرب في أوروبا.	أبو ذقن (١٥٩٥-١٦٤٣) إ. بوكوك	- "حولية" التاريخ العربي لبار العبراني (١٦٤٩)

القرن	الحُكَّام	البطارقة	الأحداث	الكُتَّاب والفلاسفة	الكتاب
ق١٨م			- رفض المقولة المختلقة.	رينادوت جيبون	- "التاريخ البطرياركي اليعقوبي السكندري" - "تاريخ"
ق١٩م			- حفائر في السرابيوم واكتشاف مئات الهياكل العظمية.	بوتي	- حفائر حول عمود تيودوسيو ١٨٩٦
ق٢٠م			- أول ظهور لنص القفطي المصحوب بالمقولة الزائفة. - رفض ونفي هذه المقولة الزائفة. - أول ظهور للرواية العربية لهذه المقولة الزائفة باتهام كل من عبد اللطيف والقفطي - استمرار المقولة الزائفة	ليبرت فورلاني لويس	- مدرسة العلماء للزوزني (١٩٠٣) - حريق مكتبة الإسكندرية (١٩٢٥) - المكتبة التي زالت من الوجود (١٩٩٠) - "تصريحات ٢٠٠٤"
ق٢١م			- استمرار الرواية العربية للمقولة الزائفة. - دفعة "الرواية العربية" للمقولة الزائفة.	Majcherek العبادي قاسم عبده قاسم	- "مكتبة الإسكندرية في التاريخ ٢٠٠٦" - التاريخ العربي لتدمير مكتبة الإسكندرية القديمة ٢٠٠٨

المؤلف فى سطور:

ولد بابلو دي جيفنوا بمدريد. هو عضو فى السلك الدبلوماسى الإسبانى، وباحث ومصور/ مؤلف. تنقل فى مختلف أرجاء الشرق الأوسط والسودان. شغل منصب المستشار الثقافى لإسبانيا فى مصر خلال فترتين: ١٩٨٧ ـ ١٩٩٢ و ١٩٩٢ ـ ١٩٩٥، وعمل أيضًا قنصلاً عامًا لإسبانيا فى الإسكندرية خلال الفترة من ٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦؛ وفي أثناء ذلك قام بأنشطة عديدة لمعرفة مصر معرفة عميقة. أقام معارض للتصوير فى القاهرة والإسكندرية. وفى عام ٢٠٠٢ قام برحلة استكشافية إلى السودان والنوبة العليا. وفيما يتعلق بكتاباته نجد أنه ركز كل جهده فى كتابة المقالات التاريخية عن مصر، كما ألقى عدة محاضرات ونشر بعض الكتب حول وادى النيل محاولاً من خلال كتاباته أن يعطى دور البطولة لأصحابها الحقيقيين، وهم المصريون.

ومن الكتب التى نشرها: رحلة إلى السودان (القاهرة ٢٠٠٩)، كما نشر قبل ذلك فى مدريد (٢٠٠٨)، ومكتبة الإسكندرية الذى نشر بالإسبانية (مدريد ٢٠٠٩)، والبرتغالية (٢٠٠٩)، كتاب/فيديو بعنوان الاتجاهات الأربعة: التصوير الإسبانى المعاصر (١٩٧٠ ـ ١٩٩٠) نشره المتحف الوطنى للملكة صوفيا بمدريد (١٩٩١).

قدم عدة معارض للتصوير فى القاهرة (١٩٨٩)، وآخر بالتعاون مع فنانى الغورى (١٩٩٠)، والمركز الثقافى الإسبانى بالقاهرة (١٩٩١)، ومعرض آخر فى الهناجر (١٩٩٣)، ومعهد ثربانتس (١٩٩٥)، والمركز اليونانى بالإسكندرية (١٩٩٥).

المترجم فى سطور:

على إبراهيم منوفى

أستاذ الأدب الإسبانى المعاصر بكلية اللغات والترجمة ـ جامعة الأزهر، درس فى جامعة سلمنقة (إسبانيا)، له العديد من الأبحاث بالعربية والإسبانية فى النقد الأدبى والترجمة. غير أن جل جهده الثقافى تركز فى ترجمة العديد من الأعمال الإبداعية والدراسات التاريخية، سواء المتعلقة بالأندلس أو المتعلقة بمصر القديمة من خلال ترجمة بعض الدراسات التى أعدها المتخصصون الإسبان.

التصحيح اللغوى: سماح حيدة

الإشراف الفنى: محسن مصطفى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب